الخروج من جهنّم

انتفاضة وعي بيئي كوني جديد أو الانقراض

إنه قراءة مُتميِّزة لاشتماله جُل جوانب الكارثة البيئية الراهنة في العالم: من طبيعة العلاقات الدولية وحروب الطاقة، والتقديس الأعمى للتكنولوجيا (على حساب البيئة)، إلى تأبيد (ما يُسميه المؤلف) «الوعي المكيافيلي» المدمِّر. إضافة بالطبع إلى وقائع ومعطيات تغيُّر المناخ، وانفلات معظم توازنات بيئة الأرض من عقالها.

يوضح الكاتب أن وعينا الأناني الراهن، الذي لا يزال ملتصقاً بصراع بقاء العصور الحجرية، لم يعد يهدد بتدمير جنسنا وحده، بل بدأ يجر الحياة برمتها إلى الهاوية.

بيد أن أُمّنا الأرض لم تعد تتحمّل هذه العربدة البشرية المريعة. فحلم الإنسان بات كابوس الحياة. وخليفة الله على الأرض أصبح الجنس الذي استحق تكرار طوفان نوح الإبادي، لأنه بدلاً من أن يكون الإنسان على صورة الله، قام هو بخلق الله على صورته الغريزية المدمّرة.

هل لا تزال ثمة بعد فرصة لمغادرة هذا الجحيم المُقيم قبل فوات الأوان؟ هذا ما سيحاول الكتاب التطرق إليه، على الصعد كافة، الاستراتيجية والاقتصادية والدولية كما على المستويات البيئية والثقافية.

سعد محيو

كاتب وصحافي لبناني. من مؤلفاته: **مأزق الحداثة العربية: من احتلال مصر إلى احتلال العراق** (مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠)؛ **العرب والعولمة** (دار الخليج، ١٩٩٩)؛ **السياسة الأميركية بين الثابت والمتحوّل** (معهد الإنماء العربي، ١٩٨٥)؛ **والأزمة الرأسمالية العالمية الراهنة** (دار ابن خلدون، ١٩٨١). هذا إضافة إلى العديد من الدراسات الاستراتيجية والدولية.

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

محيو، سعد

الخروج من جهنم: انتفاضة وعي بيئي كوني جديد أو الانقراض/سعد محيو

٢٥٦ ص.

ببليوغرافية: ص ٢٣٧ ـ ٢٤٧.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-726-I

١. البيئة. ٢. العولمة. ٣. الحضارة. ٤. الحداثة.

٥. العلم والتكنولوجيا. أ. العنوان.

333.7

العنوان بالإنكليزية

Out of Hell
Uprising of a New Global Ecological Consciousness, or Extinction

By Saad Mehio

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣

الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)

email: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

الطبعة الأولى

بيروت، كانون الثاني/يناير ٢٠١٦







الخروج من جهنّم

انتفاضة وعي بيئي كوني جديد أو الانقراض

سعد محيو

المحتويات

مكتبة
t.me/soramnqraa

خلاصة الكتاب

الخروج من جهنم: هل هذا مُمكن بعد؟

هل يمكن أن تحدث التغيّرات والتحوّلات الكبرى، أو تكون قيد العمل هنا والآن، من دون أن نشعر بها؟ الجواب هو نعم سريعة. فغالب الأحداث الكبرى الجسام في التاريخ، سواء منها الطبيعي ـ الكوني أو البشري ـ الاجتماعي، تبدو أنها تندلع فجأة وتفاجئ الجميع، فتغيّر الأنموذج (Paradigm) الذي اعتاده البشر طيلة مئات أو حتى آلاف السنين.

هذا لا يعني أن التحوّلات تولد من لا شيء وتكون كصاعقة في سماء صافية، بل هي تأتي، كما هو معروف، بعد سلسلة تراكمات كمية تُسفر في خاتمة المطاف عن تغيّر نوعي. كل ما هنالك أن البشر، وبسبب طول الأمد الزمني (بالنسبة إليهم) للتحولات التي تحدث، لا ينتبهون إلى صيروراتها ومآلاتها المحتملة، فيعتقدون أن الواقع المؤقت الراهن هو الواقع الدائم.

المرحلة الراهنة من التاريخ البشري، على سبيل المثال، تشهد مثل هذه التراكمات، في خضم بوتقة شاملة من المجالات التي قد لا تغّير النظام العالمي الراهن وحسب، بل ربما أيضاً الطريقة التي عاش بها البشر طيلة السنوات العشرة آلاف الماضية. فهي (التراكمات) في آن؛ ثورة في التكنولوجيا كما في الأيديولوجيا؛ في الاقتصاد كما في الفكر؛ في الزراعة التي ستنتقل قريباً مع البيوتكنولوجيا من الأرض إلى المختبرات، كما في الصناعة التي بدأت تنتقل هي الأخرى من عالم المادة إلى عالم المعلومات والأفكار والروبطة؛ في الطب العضوي كما في الطب النفسي؛ في مفاهيم القوة كما في نظريات السيادة والدولة ـ الأمة والحدود.

كان حازم الببلاوي مصيباً حين أطلق على هذه الثورة اسم «عصر الانقطاع». فإذا ما كان ظهور الزراعة قبل سبعة آلاف سنة ثورة وانقطاعاً بين نمط حياة القنص والبداوة وبين نمط الحياة الإنتاجي المستقر، وإذا ما كانت الصناعة انقطاعاً ضخماً آخر قلَب الحياة البشرية رأساً على عقب، فإن الثورة التكنولوجية الثالثة الراهنة المستندة إلى المعلومات والاتصالات والبيوتكنولوجيا والروبطة، ستكون فاتح عصر جديد يمثِّل انقطاعاً كبيراً آخر في نمط الحياة والإنتاج.

نحن الآن نرى مباشرة هذه التراكمات، ونتلمس بعض ملامح تمخضاتها وانعكاساتها على النظام العالمي الراهن، مثل بدء انتقال (أو بالأحرى عودة) الجاذبية الدولية من أوروبا إلى آسيا، ومن الغرب «المسيحي» إلى الشرق «الكونفوشيوسي ـ الفيدي»، ومن الدولة ـ الأمة إلى إمبراطورية العولمة. لكن، وعلى الرغم من هذه المؤشرات الواضحة، ليس في وسع أحد بعد «رؤية» الحصيلة النوعية التي ستتمخض عنها هذه التراكمات الكمية. تبقى مسألة «المفاجأة» هي سيف ديموقليس المصْلت فوق كل الرؤوس.

الأمر نفسه ينطبق، لكن بشكل أخطر كثيراً، على التاريخ الطبيعي.

فالأحاديث عن «تغيّر المناخ» واحترار الكوكب، والتلوّث الشامل للبحار والمحيطات والأنهار والأجواء والتربة، على كل شفة ولسان منذ نيِّف وثلاثة عقود. وهي تطورات باتت تُهدد ليس بقاء الجنس البشري وحسب، بل أيضاً مصير الحياة برمَّتها على هذا الكوكب.

معطيات هذه الوقائع لا تكاد تحصى:

ـ ازدياد تركيز غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان والأوزون والحمض النيتروجيني، بسبب حرق الوقود الأحفوري والمواد العضوية. إذ ازداد ثاني أكسيد الكربون بنسبة ٣٥ بالمئة عما كان عليه قبل الثورة الصناعية. وتشير الدراسات إلى أن هذا لم يحدث على مدى ٦٥٠ ألف سنة.

• ازدياد معدل حرارة الأرض بحدود ١,٢ درجة خلال القرن الماضي، ومعظم هذه الزيادة حدثت بين ١٩٢٠ و١٩٥٠، ثم جاءت زيادة أخرى العام ١٩٧٥ تقريباً. وكان العام ٢٠٠٥ الأشد حرارة في التاريخ الحديث المعروف.

• ارتفاع منسوب مياه البحار حوالى ٢,٧ إنشاً خلال السنوات الأربعين الماضية.

• تناقص الجليد القطبي بنسب كبيرة منذ العام ١٩٧٨.

• درجة حرارة الأرض الآن أعلى من أي وقت مضى منذ ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ سنة مضت.

• مستوى البحار سيرتفع ما بين ٢,٥ و٩ إنشات أو أكثر خلال القرن المقبل، وسيصبح المطر أكثر تركيزاً وغزارة في مناطق معينة ولكن على فترات متباعدة.

ماذا تعني هذه المعطيات؟

إنها تعني أنه حتى لو كان صحيحاً أن المناخ شهد عبر التاريخ تقلبات دورية كبرى، إلا أن هذا يجب ألّا يجعلنا نقفز فوق التلوث الذي نتسبب به نحن البشر، والذي يسهم في قلب التوازنات المناخية الدقيقة الراهنة. الأمر هنا أشبه بالمُدخن الذي يقول إن المدخنين وغير المدخنين على حد سواء سيموتون، لذا لا ضرر من التدخين. من يزور القاهرة أو بيروت أو حتى باريس هذه الأيام، ناهيك بالطبع ببيجينغ ونيودلهي، لن يستطيع التنفس بسهولة بسبب التلوُّث. وإذا ما كان القول بضرورة الفصل بين التلوث وبين تغيّر المناخ صحيحاً، فكيف نفسِّر الانقراض السريع الراهن لآلاف المخلوقات في البحر والبر في العصر الصناعي بسبب غازات الحبيسة؟ أليس هذا شكلاً

من أشكال تغيّر البيئة والمناخ؟ ثم: إذا ما كان آلاف العلماء من كل الدول يُجمعون الآن على أن القطب الشمالي يذوب بسرعة بسبب الملوثات البشرية، وأن ذلك سيتسبب عما قريب باختلال تيارات المحيطات وبالتالي بفيضانات وتسوناميات ثم بعصر جليدي آخر، فهل نرد عليهم بأن هذا أمر طبيعي يتكرر بشكل دوري؟

انقلابات المناخ، كما تحوّلات النظام الدولي، تحدث مباشرة تحت أعيننا الآن. لكن، ولأن العلماء يقدّرون أن الكارثة النهائية، التي قد تتضمن انقراض الجنس البشري، قد لا تحدث قبل ٥٠ إلى ١٠٠ سنة (على الرغم من أن هذه الفرضية لم تعد مؤكدة الآن)، فلا أحد يبدو مستعداً لترجمة تراكم المؤشرات الكمية لتغيّر المناخ إلى نظرية نوعية تقود إلى أنموذج جديد في علاقة الإنسان بالبيئة والاقتصاد والحياة. وهذا ينطبق على العلاقات الدولية كما على «الأيديولوجيا والتكنولوجيا»، وعلى النفط التقليدي كما الصخري، وعلى مسألة الوعي الفردي والجماعي.

أولاً: نظام مكيافيلي

نبدأ مع العلاقات الدولية لنقول إنه على الرغم من مؤتمرات قمم الأرض والمناخ التي عُقدت على مدار العقدين الماضيين، إلا أن العلاقات الدولية بقيت في وادٍ ومستقبل أمّنا الأرض في وادٍ آخر. فالنظام العالمي واصل الاعتماد على مفاهيم القوة وموازينها، والحروب الباهظة البشرية والإيكولوجية، والتنافس الضاري على ما تبقى من موارد الكوكب المحدودة. وهذا ما جعل كل المؤتمرات و«صحوات الضمير» التي انتابت الرئيس الأمريكي أوباما والبابا فرنسيس وبعض القادة الأوروبيين والآسيويين في العام ٢٠١٥، مجرد «خرابيش» رُسِمت على عجل فوق رمال متحركة.

غالبية المحللين يجمعون الآن على أن مرحلة القطبية الأحادية انتهت، وأن ما سيحل مكانها هو حالة لاقطبية دولية، بإشراف قوى العولمة. لكن هذه اللاقطبية ستعني في الواقع في لحظة ما، تفاقم المنافسات والصراعات بين الدول الكبرى قديمها والجديد، من أمريكا وأوروبا واليابان والصين والهند إلى روسيا والبرازيل وبقية النمور الآسيوية، بعد أن أصبحت كل هذه الدول رأسمالية. أي أن الصراع سيكون بين مختلف أصناف الرأسماليات الأساسية في العالم، في شكل تنافس على الأسواق والرساميل والموارد الطبيعية وخطوط التجارة البرية والبحرية. وهذا ما دفع العديد من المحللين الأوروبيين إلى تشبيه الوضع الدولي في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين بذلك الذي كان قائماً عشية الحرب العالمية الأولى.

وهذا أمر متوقع. فعلى الرغم من أن الجنس البشري حقق قفزات مدهشة في مجالات المعرفة والعلم والفنون والموسيقى، إلا أن طبيعة العلاقات الدولية لا تزال تستند إلى الوعي المكيافيلي والإمبراطوري القديم القائم على حروب الجميع ضد الجميع الهوبسية، وعلى مفاهيم القوة وموازينها تحت الشعارات الفضفاضة للمصلحة القومية أو الأمن القومي أو «ضرورات» وجود العدو.

وحتى لو تمكَّنت القوى الكبرى القديمة والناشئة من تعديل وتحسين النظام الدولي الراهن بالطرق السلمية أو بسلاسة (وهذه مسألة تبدو صعبة بسبب التوحُّش الدائم للرأسمالية)، إلا أن هذا لن يُنقذ الجنس البشري من الأخطار الداهمة التي يتعرَّض لها.

لقد نجح الوعي المكيافيلي، طيلة السنوات الخمسة آلاف الماضية، الذي أجمع على رفع لوائه كل الحكام في التاريخ بلا استثناء، من ملوك وأباطرة ودكتاتوريين إلى رؤساء «ديمقراطيين»، في تبرير حروبهم وصراعاتهم المدمِّرة على أنها بديهية وضرورية. وهم فعلوا ذلك من خلال نشر ثقافة الخوف والتخويف وخلق نزعة كراهية «الآخر». وهذا هو نفسه ما تكرره الآن في القرن الحادي والعشرين كل استراتيجيات الأمن القومي للدول الكبرى، التي يغيب عنها بشكل مطلق أي برنامج أو حتى مجرد توجّه، ولو اسمي وشكلي، نحو تحقيق السلام العالمي والتعاون والتضامن الدوليين. أما وعد السلام الذي طرحته العولمة النيوليبرالية، فقد تكشف عن كونه حروباً بوسائل أخرى ضد ثلاثة أرباع البشرية وبيئة الأرض، وأيضاً ضد أي أمل بتحقيق قفزة ثانية وسامية في الحضارة البشرية، من شأنها إطلاق طاقات الفرد والجماعات الروحية والفكرية والعلمية والوجودية.

بيد أن كوكب الأرض لم يعد يحتمل مثل هذه العربدة الفكرية والاستراتيجية من كلٍ من الدول الكبرى والعولمة النيوليبرالية على حد سواء. فتغيّر المناخ، الذي يسير الآن بخطى مذهلةٍ في تسارعه نحو دفع الحياة إلى الهاوية، وما يرافقه من تلوّث مخيف أدى خلال ٢٠٠ سنة فقط إلى انقراض أكثر من ٧٠ ألف نوع وجنس من النباتات والحيوانات، باتا يهددان الآن بـ «كارثة نهائية». وكما قال نعوم تشومسكي عن حق: «في هذه المرحلة من التاريخ، أحد شيئين سيكون ممكناً: إما أن جمهور العالم سيُمسك مصيره بيده مدفوعاً بقيم التضامن والتعاطف والاهتمام بالآخرين، أو لن يكون هناك مصير على الإطلاق».

ثانياً: النفط، النفط

كما أن حرفاً واحداً لم يتغيّر في العلاقات الدولية في مجال وقف الصراعات والتنافسات المكيافيلية القاتلة على موارد «غايا» (أمّنا الأرض)، ناهيك بمعالجة صحتها البيئية العليلة، كذلك لم يتغيّر شيء في العوامل التي تؤدي دوراً رئيساً في اعتلال هذه الصحة: النفط والغاز. لا بل ازدادت المخاطر مع بدء إنتاج النفط والغاز الصخريين.

فقد اقترب العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين من نهايته، فيما الجهود لمواجهة أزمة البيئة الطاحنة لا تزال تراوح مكانها، خاصة بالنسبة إلى الملوِّث الأول في العالم: الولايات المتحدة. لا بل ازدادت الأمور البيئية سوءاً بما لا يقاس، بعد أن أطلقت الولايات المتحدة ما اسمته «ثورة الشيل» (Shale Revolution) أي «ثورة نفط وغاز الصخر الحجريين»، والتي لم تكن في الواقع ثورة بل مجرد انقلاب آخر، وربما يكون أيضاً خطيراً للغاية، على البيئة لأنه سيؤدي إلى حصيلتين اثنتين في آن:

الأولى، إضافة مزيد من المخاطر على التوازنات الإيكولوجية وحتى الجيولوجية لكوكب الأرض، وعرقلة، أو نسف، الجهود للعثور على بدائل طاقة نظيفة ومتجددة. و**الثانية**، دفع «حروب الطاقة» في العالم إلى مستويات جديدة، بعد أن تتم إضافة السباق للسيطرة على الغاز والنفط الصخريين إلى السباق المدمّر الآخر على النفط التقليدي الذي تسبَّب، ولا يزال، بسلسلة حروب عالمية وإقليمية، وبخاصة أن هذا النفط الأخير وصل إلى ذروة إنتاجه في العالم، وبدأ منذ سنوات رحلته إلى مرحلة الندرة.

بدءاً من العام ٢٠١٠، كانت الأطراف الرأسمالية الأمريكية، التي لا تعير هموم البيئة أدنى اهتمام، منتشية بنصر اقتصادي كاسح: ثورة غاز ونفط الصخر الحجري التي تكاد تحوّل الولايات المتحدة من مستورد للطاقة إلى مصدِّر لها قبل حلول العام ٢٠٢٠. فإنتاج الغاز الطبيعي الأمريكي زاد منذ ٢٠١٠ بنسبة ٢٥ بالمئة، وانتاج النفط قفز بنسبة ٦٠ بالمئة منذ العام ٢٠٠٨ بزيادة ثلاثة ملايين برميل ليصبح ثمانية ملايين برميل في اليوم. وفي غضون سنوات قليلة، ستتفوق الولايات المتحدة على السعودية وروسيا لتصبح المنتج الأول للنفط في العالم. وهذا قد يضيف ٢,٨ نقطة إلى الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، ويوفِّر نحو ٣ ملايين فرصة عمل جديدة، ويجعل الولايات المتحدة تحتل مكان روسيا قبل نهاية العام ٢٠١٦ في مجال تصدير وقود الديزل ووقود الطائرات والمشتقات النفطية الأخرى، ومكان السعودية كأكبر مُصدّر للبتروكيميائيات. ثم إن الغاز الصخري أسهم في بعث التصنيع في أمريكا، حيث أنفق المستثمرون مئات مليارات الدولارات على منشآت جديدة مثل الصناعات الكيميائية والفولاذ والألومينيوم. ويعتقد الأمريكيون الآن أنه حتى لو سقط النظام السعودي وتوقف ضخ بتروله، سيكون في وسع الولايات المتحدة الإفادة من مزاياها التفاضلية الجديدة في مجال أمن الطاقة حتى منتصف القرن الحادي والعشرين.

لقد هاجرت كميات هائلة من الطاقة الهايدروكربونية من معاقلها الصخرية الأساسية وعلقت في الصخور الحجرية وصخور أخرى، مولِّدة موارد تفوق بكثير ما تبقى من احتياطي النفط التقليدي الذي يتراوح الآن بين تريليون وتريليون ونصف التريليون برميل. هذه الموارد موجودة في كل أنحاء العالم، ولا تحوز فيها الولايات المتحدة إلا على ١٥ بالمئة من الإجمالي العالمي، فيما يُرجح أن تحاول دول أخرى غنية بموارد الغاز والنفط الصخري مثل الصين والمكسيك وروسيا والسعودية وبريطانيا وبولندا الانضمام إلى ركب إنتاج هذا النوع من الطاقة قبل نهاية هذا العقد. هذا على الرغم من أن الأمريكيين يعتقدون أن هذا سيكون صعباً، لأن الولايات المتحدة وحدها تمتلك العناصر الفريدة الضرورية لاستغلال موارد الغاز الصخري، وهي: نظام قانوني يسمح بالملكية الخاصة للأرض بكل ما تحتها؛ وأسواق رساميل مفتوحة؛ وأنظمة قواعد بيئية غير مقيّدة نسبياً. كل هذا أدى إلى بروز آلاف شركات النفط والغاز الأمريكية المستقلة المتنافسة بشدة بعضها مع بعض. ونتيجة لذلك، تم حفر (حتى العام ٢٠١٤) ٤ ملايين بئر غاز ونفط في الولايات المتحدة في مقابل ١,٥ مليون برميل في كل أنحاء العالم.

ثالثاً: مخاطر بيئية

الآن، وبعد إيراد كل هذه الفوائد الاقتصادية الجمة التي يوردها الرأسماليون الأمريكيون لثورة، أو انقلاب، الطاقة الصخرية، نأتي إلى الحقائق البيئية الخطيرة اللصيقة بها، والتي يعترف بها حتى أكثر المصفقين المتحمسين لهذه الطفرة التكنولوجية ـ الصناعية الجديدة.

التكسير المائي

تتضمن عملية « التكسير المائي» (Hydraulic Fracturing) عمليات حفر ثم حقن السوائل إلى باطن الأرض تحت ضغط مرتفع للغاية، بهدف تحطيم الصخور التي تحتوي الغاز والنفط. كل بئر يتم حفره يتطلب ما بين ١ إلى ٨ مليون غالون من الماء لاتمامه، و٤٠٠ ناقلة مياه ومواد أخرى في مكان الموقع. يتم مزج الماء بنحو ٤٠ ألف غالون من ٦٠٠ نوع من الكيميائيات والمواد المسرطنة (Carinogens) (ترفض الشركات الكشف عن طبيعتها وتعتبرها «أسراراً» صناعية) وتشمل مواد التوكسن السامة، والقصدير، واليورانيوم، والزئبق، والغليكول إيثيلين، والأسيد الهايدرولوجي، ثم يحقن السائل عبر أنبوب إلى باطن الأرض مع ٨ ملايين غالون من المياه. وتحتاج أمريكا الآن إلى ٧٢ تريليون غالون من الماء و٣٦٠ مليار غالون من الكيميائيات لتشغيل آبارها الحالية.

لكن، خلال هذه العملية، يتسرّب غاز الميثان والكيميائيات السامة من النظام وتلوِّث الجو والمياه الجوفية القريبة. وقد تبيَّن أن تركزات غاز الميثان تكون أعلى ١٧ مرة في آبار مياه الشرب القريبة من مواقع التكسير منها في الآبار العادية. وقد سُجِّلت ألف حالة تلوث من هذا النوع قرب مواقع آبار الغاز الصخري، ومعها حالات أمراض نفسية وحسّية وعصبية، أساساً بسبب تلوّث المياه.

ويقول الخبراء أنه لا يتم استعادة سوى ٣٠ إلى ٥٠ بالمئة من السائل المائي ـ الكيميائي، فيما تبقى باقي السموم في باطن الأرض وهي غير قابلة للتحلل البيولوجي الذي تقوم به البكتيريا. كما أن فضلات السائل المستخرجة تُترك في أوعية مكشوفة في الهواء الطلق فتتبخر وتطلق مكونات عضوية سامة وملتهبة في الهواء فتلوّث الجو وتفرز المطر الحمضي.

بالإجمال، يُجمع الخبراء على أن استخراج الغاز والنفط الصخريين يتضمن الأضرار والمخاطر الآتية:

ـ صرف كميات هائلة من المياه، في وقت بدأت فيه الماء تصبح عملة شحيحة في كل العالم، بما في ذلك حتى الولايات المتحدة، إلى درجة بات فيها الحديث عن «حروب المياه» الوشيكة على كل شفة ولسان.

ـ الزلازل الأرضية. كل عملية حفر وتكسير تتضمن إثارة ملايين الهزات الأرضية الصغيرة للغاية والتي لا تلتقطها سوى المجسّات. لكن بدءاً من العام ٢٠١٢، بدأ السكان في بعض الولايات المتحدة يشعرون مباشرة بالهزات التي وصلت في بعض الأحيان إلى ٣ درجات وفق ميزان ريختر، أي ستة أضعاف الهزات التي كانت تحدث في القرن العشرين. على سبيل المثال، سُجِّل وقوع

زلازل صغيرة في منطقة يونغتاون في أوهايو في الفترة بين كانون الثاني/يناير ٢٠١١ وشباط/فبراير ٢٠١٢، وهي منطقة لم تكن تعرف الزلازل من قبل. ويخشى العلماء أن يؤدي تدمير الصخور تحت الأرض إلى إحداث خلل في خطوط الصدع تؤدي لاحقاً إلى زلازل كبيرة. وهذا يبدو شبه مؤكد بعد أن تنضم بقية دول العالم قبل العام ٢٠٢٠، كما هو متوقع، إلى عملية نبش بطن الأرض وضرب توازناتها الجيولوجية.

ـ ملايين الشاحنات المحملة بالمياه والمواد الكيميائية تجتاح المناطق الطبيعية في الأرياف، فتلوِّث الجو والتربة وتتسبب بتلوث صوتي.

ـ روّجت شركات النفط القديمة والجديدة فرضية تقول إن الغاز الصخري سيساعد على التخفيف من ظاهرة تغيّر المناخ لأنه سيقلّص الاعتماد على الفحم. لكن دراسة بثتها الـ «بي. بي. سي» نقلاً عن خبراء جامعة كونيل، كشفت النقاب عن أن الغاز الصخري أسوأ من الفحم، لأنه خلال عملية التكسير يتسرَّب ما بين ٣,٦ بالمئة و٧,٩ بالمئة من غاز الميثان إلى الجو بمختلف الطرق خلال حياة كل بئر، وهو رقم يشكِّل ضعفي كمية تسرُّب الميثان من بئر النفط التقليدي. وهذا ما يجعل الغاز الصخري أسوأ من الغاز الطبيعي وحتى من الفحم، لأن غاز الميثان له تأثيرات ملوّثة على المناخ بنسبة ٢٠ بالمئة أكثر من غيره من الملوثات.

ـ والأهم من كل هذه العوامل أن التركيز الشديد على استخراج الطاقة الصخرية سيوقف كل مشاريع إنتاج الطاقة النظيفة، كالريح والطاقة الشمسية، كما سيشجّع على التوسُّع في إنتاج الطاقة النووية على الرغم من مخاطرها الجمة التي كشفت عنها كوارث تشيرنوبيل وفوكوشيما، تحديداً لأن التركيز سيعرقل البحث عن الطاقة الخضراء البديلة.

لقد تحرّكت دول عديدة للتصدي لظاهرة الغاز والنفط الصخريين، فمنعته فرنسا العام ٢٠١٣، وفرضت عليه ألمانيا حظراً مؤقتاً لمدة سبع سنوات، وفرضت عليه ولايتا كاليفورنيا ونيويورك قيوداً بيئية، هذا في حين لا تزال بريطانيا ودول أوروبية أخرى مترددة بين الحظر وبين السماح به.

بيد أن كل هذه الأطراف ستجد نفسها في وضع اقتصادي صعب، بسبب الاندفاعة الأمريكية الجموحة راهناً لقطف كل ثمار هذا «الانقلاب» حتى الثمالة، بغض النظر عن مضاعفاته البيئية الكبيرة. وهذا ما عبّر عنه بوضوح روبرت هيفنر الثالث، مؤسس ومدير شركات GHK ومؤلف كتاب **مرحلة الانتقال الضخمة للطاقة** حين قال: «فيما تعاود الولايات المتحدة التصنيع (بفضل ثورة الغاز الصخري)، قد تواجه أوروبا، إذا لم تحظَ بقادة سياسيين يفهمون بشكل أفضل اقتصاديات الطاقة، عقوداً من نزع التصنيع والجمود الاقتصادي. أما بالنسبة إلى أمريكا، فإنها تحوز الآن فرصة لا سابق لها لتحقيق نمو اقتصادي بعيد المدى يمكنه أن يولّد طبقة وسطى جديدة، ويساعدها على وضع الكساد الكبير على الرف إلى الأبد، ويمنحها ميزات جيوسياسية على كل منافسيها لعقود عدة آتية. ومن العار ألّا نغتنم هذه الفرصة (عبر قبول تحذيرات علماء البيئة)».

رابعاً: حلم التكنولوجيا وكابوسها

كما هو واضح، ذهبت كل الوعود الوردية لأقطاب النيوليبرالية لإنقاذ البيئة والمناخ والطبيعة، في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، أدراج الرياح. العكس كان صحيحاً، حين استُخدمت التكنولوجيا لإنتاج المزيد من الطاقة الملوّثة. بيد أن مثل هذه الوعود استمرت، لكن هذه المرة ليس في ما يتعلق بتحسين طبيعة كوكب الأرض وحسب، بل أيضاً في مجال تغيير طبيعة الإنسان نفسه لجعله «أكثر سعادة وذكاء وصحة بما لا يقاس»، كما يُقال. كيف؟ عبر عقد زفاف البيولوجيا على التكنولوجيا، وشرائح السيليكون على الخلايا الحيّة، والمادة على الروح لتصبح هذه الأخيرة «روحاً تكنولوجية».

ومن أجل هذا الهدف، تعيّن رفع التكنولوجيا إلى مرتبة القداسة بصفتها قوة تغيير محايدة وهائلة ستقوم باختصار ملايين السنين من التطور الدارويني لدى الإنسان، في الوقت نفسه الذي تُلغي فيه الجوع في العالم من خلال ثورة علمية وجينية لصنع الغذاء في المختبرات، وتحل مشاكل الطاقة عبر الطاقة النووية «النظيفة والآمنة والرخيصة» أو من خلال تقليص أضرار الطاقة الأحفورية. وهي تنشر عبر وسائط الإعلام الاجتماعي وعياً عالمياً جديداً سيأتي بالتفاهم والسلام بين البشر.

كل هذا غيضٌ من فيض القصف الإعلامي الذي يدوي يومياً في كل أرجاء المعمورة حول الدور السحري و«القُدُسي» للتكنولوجيا. وهو قصف متواصل إلى درجة أنه نادراً ما يخطر في بالنا أن نتساءل عن الأبعاد السياسية والأيديولوجية والاقتصادية الخفية للتكنولوجيا كما تطبق الآن، وعن الأثر الذي تؤديه في عملية تسارع العولمة النيوليبرالية وسيطرة الشركات الكبرى على كل مفاصل القرارات المتعلقة ببيئة كوكب الأرض.

بيد أن الناقد البارز للتكنولوجيا البروفسور لانغدون وينر (Langdon Winner) يوضح أن لكل الأشياء في الواقع محتوىً سياسياً. وهذا يعني أن أي نوع من التكنولوجيا له عواقب اجتماعية وسياسية وبيئية ملموسة. وهذا ما يجب أن يدفعنا إلى طرح أسئلة من نوع: كيف تغيّر التكنولوجيا حياتنا، ونظرتنا إلى أنفسنا، ومفهومنا عن المجتمع والسياسة والطبيعة؟ ما هي آثارها الحقيقية على صحة البشر وعلى البيئة؟ كيف تعيد تنظيم السلطة في المجتمع والعالم، ولمصلحة من؟

التكنولوجيا ببساطة ليست محايدة، وهي تتضمن في الواقع تحوّلات سياسية كبرى محددة سلفاً، تتعلّق بالقرارات الكبرى حول أنماط عيشنا.

على سبيل المثال، الشركات الكبرى هي التي قررت أن نعتمد على الطاقة النووية بدل الشمسية، (والآن طاقة النفط الصخري) على الرغم من الكوارث الكبرى التي تتسبّب فيها **الأولى**، والتوازن البيئي الكامل الذي توفّره **الثانية**. وهي اتخذت هذا القرار لأن الطاقة الشمسية يمكن توفيرها من دون الشركات العملاقة، في حين أن الطاقة النووية تعتمد بالكامل على هذه الأخيرة. ثم إن إنتاج الطاقة النووية يحتاج أيضاً إلى حماية عسكرية ضد الإرهاب وضد سرقة المواد الخطرة، وهو يولّد

في النهاية نفايات مرعبة يحتاج بعضها إلى التخزين في أماكن محصنة لفترة قد تصل إلى مئتين وخمسين ألف عام. وهي مهمة تطرح العديد من المشاكل التقنية غير المحلولة، تتطلب طوال هذه المدة حضوراً وحماية من الشركات الكبرى على كل الصعد التقنية والعلمية والعسكرية. الطاقة النووية تتوافق مع مجتمع صناعي منتظم حول ماكينات عسكرية ومالية مركزية، أما الطاقة الشمسية فتناسب غالباً مجتمعات مؤلفة من تجمعات صغيرة تتزود بما تحتاج إليه من الأسواق المحلية، ولديها أثر طفيف جداً على البيئة.

خامساً: «ما بعد الإنسان»

نأتي الأن إلى مسألة تأثيرات التكنولوجيا في المسألة الوجودية البشرية. السؤال هنا لا يقل إثارة للقلق عن الصعيدين الاقتصادي ـ الاجتماعي والسياسي. إذ ما هو الميزان؟ ليس شيئاً آخر سوى احتمال تغيير الطبيعة البشرية نفسها عن طريقي الهندسة الجينية وتقنيات الكومبيوتر. إنه كابوس فرانكنشتاين وقد بدأ يقترب من التحقق على أرض الواقع.

قد يعتقد البعض هنا أن هذا الخطر افتراضي أو هو في أسوأ الأحوال، في رحم مستقبل بعيد. لكن الأمر ليس كذلك. فثمة العديد من الأصوات التي بدأت تلعلع في الولايات المتحدة وغيرها، مطالبة بالتدخل المباشر لـ «تسريع» تطور الإنسان إلى «ما بعد الإنسان»، أو حتى إلى مخلوق جديد لا علاقة له البتة بالبشر.

هذه الأصوات تنتظم الآن في حركة. وهذه الحركة اسمها «ترانس هيومان» (Transhuman) أي «العابر للإنسان» أو «ما بعد الإنسان». وهي تستقطب مروحة من العلماء في شتى المجالات وشخصيات بارزة سياسية واقتصادية وقطاعات من الشباب المتحمسين لـ «تغيير الوعي البشري». وقد وضعت الحركة برامج مرحلية تنفيذية لتحقيق أهدافها، مركزة تركيزاً شديداً على العقل، والتخطيط العلمي، والخطوات البراغماتية المدروسة.

هذا الكائن الجديد سينقسم إلى فروع: بعض «ما بعد البشر» سيطوّرون أنفسهم ليكونوا مثل آلهة الإغريق الأسطوريين، فيعيشون طويلاً ويكونون كاملين جسدياً وعقلياً. أما البعض الآخر فسيطوّر نفسه بشكل أكثر راديكالية بكثير، وربما يتحّول إلى أشكال حياة رقمية ويسبح عبر شبكات المعلومات، أو يكون عقلاً متفوقاً يتجوّل بين كواكب المجموعة الشمسية.

لكنْ هناك العديدون أيضاً الذين يدركون المخاطر الكبرى لدمج البشر بالتكنولوجيا. ويسند هؤلاء منطقهم إلى التالي:

ـ «الترانس هيومانيون» يؤمنون إيماناً أعمى بقدرة التكنولوجيا على إبداع جنس جديد، سواء عبر تعديل جينات الجنس الحالي، أو من خلال إدماج المادة الميتة (الكومبيوترات) بالمادة الحية (أجسامنا). لكن من يضمن بأن يكون هذا الجنس الجديد أكثر حكمة من الجنس القديم؟ على الاقل، الجنس الحالي، على عنفه الشديد وأنانيته المفرطة، يمر بمراحل استفاقة ضمير تجعله

يتعاطف مع الضعيف، ويحن على الفقير، فيما الجنس المقبل سيكون «علمياً جافاً» بالكامل لا شفقة لديه ولا رحمة.

ـ سيؤدي المشروع الجديد إلى انقسامات هائلة بين البشر، ستبدو معها حروب كارل ماركس الطبقية في التاريخ، نزهة بريئة في حديقة جميلة. فالبشر المتفوقون الجدد في المجتمعات الغنية، سيشعرون بأن البشر العاديين تحتهم متخلفون ولا يستأهلون الحياة ولا بالطبع الحرية. وهذا ما قد يدفعهم إلى إحياء نظريات الإبادة الجماعية الهتلرية.

وبالطبع، ليس ثمة ضرورة للتساؤل عن الموقف المحتمل لهؤلاء من شعوب العالم الثالث التي تشكّل ثلثي البشرية، والتي لا تمتلك أصلاً المداخل إلى التكنولوجيا المطورة للجنس البشري.

ـ ما الذي يضمن أن يكون البشر الجدد سعداء حقاً؟ صحيح أن وافر الصحة، وطول العمر، والذكاء المضاعف، ستخفف من الآلام، لكن هذا لا يكفي لتحقيق السعادة. وكما أثبتت تجارب البلدان الغربية، فإن المال والثروة و«حرية الاستهلاك» لم تكفِ؛ لا لتحقيق القناعة ولا لمعالجة سيل الأمراض النفسية الهائلة التي تفتك بمواطني هذه البلدان.

هذه المعطيات المتناقضة حول وعد التكنولوجيا ووعيدها تجعلها، إذاً، سيفاً ذا حدين. فهي يمكن أن تكون نعمة كبرى؛ كما يمكن أن تنقلب إلى طامة كبرى. إنها الحلم والكابوس وقد تعايشا تحت سقف واحد. لمن ستكون اليد العليا في هذه الثنائية الملحمية؟ لندع صاحب **نهاية التاريخ** فرانسيس فوكوياما يجيب: «لا أحد يعرف أي احتمالات تكنولوجية ستنبثق من التعديل الذاتي للجنس البشري. لكن الحركة البيئية على حق حين تعلمنا ضرورة التواضع واحترام وحدة الطبيعة. نحن في حاجة الآن إلى تواضع مماثل في ما يتعلق بالطبيعة البشرية وطبيعة الحياة. وما لم نفعل، سنكون قد فسحنا في المجال واسعاً أمام ما بعد الإنسانيين لتشويه البشرية ومسخها بجرافاتهم الجينية».

سادساً: ثورة الوعي

هل هذه الكارثة البيئية ـ التكنولوجية الزاحفة قضاء وقدر لا رد لهما؟

كلا. ثمة عوامل ثلاثة متصلة تفرض بزوغ ثورة شاملة في الوعي الإنساني، تنقل الجنس البشري من جهنم الأرضية الخطرة الراهنة إلى مرحلة مشرقة جديدة من المشروع البشري؛ ومن التراقص على شفير الانقراض إلى الرقص على أنغام التناغم (الكوني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي) في حضن أمّنا الطبيعة:

العامل **الأول**، الأزمة البيئية الطاحنة التي أشرنا إليها بسبب المرحلة الجديدة التي دخلتها الرأسمالية النيوليبرالية المتعولمة، والتي تشوِّه فيها بشكل منهجي البيئة والفرد والمجتمعات

ومنظومات المثل والقيم الساعية إلى ترقية الإنسان، ومعها المخاطر الجمة للتحالف الراهن بين الرأسمالية والتكنولوجيا.

العامل **الثاني**، هو التطورات المذهلة التي طرأت على النظريات العلمية الحديثة، والتي لم تنهِ التقسيم الديكارتي بين العقل والجسد وحسب، بل أيضاً (وأولاً وأساساً) أنهت خرافة انفصال الجزء عن الكل، والفرد عن الطبيعة والكون، وكشفت النقاب في آن عن كلٍ من «الوعي المزيف» والوعي الحقيقي الذي يجب أن تتحوَّل إليه البشرية في مغامرتها الانتقالية الجديدة.

والعامل **الثالث**، هو وصول معركة الوعي الجديد المفترض، الذي تخوض غماره كل المدارس الفكرية على أنواعها إلى مفترق طرق، فيما الصراع على أشده ووصل إلى مرحلة مفصلية بين الحكمة وبين الجنون في المجتمعات البشرية.

نبدأ مع العامل الأول:

١ ـ رسملة البيئة

كثيرة هل الأبحاث التي تطرقت إلى علاقة الأزمة البيئية الراهنة بتطورات النظام الرأسمالي. إحدى هذه الدراسات تعيد هذه الأزمة إلى بدايات نشوء الرأسمالية على رفات النظام الإقطاعي. فبما أن نظاماً زراعياً كان يسيطر على الاقطاعية، كان لا بدّ من تحوّل في العلاقات الزراعية، أي في علاقة العمّال بالأرض كوسيلة إنتاج. بناء على ذلك، تطلّبت الرأسمالية علاقة جديدة بالطبيعة، وهي علاقة قامت على قطع صلة الإنسان العامل المباشرة بوسائل الإنتاج، أي الأرض. وهكذا تمحورت الثورة الصناعية في بريطانيا حول إبعاد العمّال عن الأراضي بعد مصادرتها، وذلك بدءاً من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر. أما في ظلّ الكولونيالية والإمبريالية، فقد أخذ التحوّل شكلاً أكثر قساوة في ضواحي الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وقُطّعت العلاقات الموجودة سابقاً بين الإنسان والطبيعة إرباً في إطار ما سمّاه كارل ماركس «اقتلاع واستعباد ودفن الناس في المناجم، في أعنف مصادرة في تاريخ البشرية».

٢ ـ انقلابات العلم

المنطلق الثاني الأساسي الدافع إلى ولادة الوعي الجديد، ينبع من التغييرات التي طرأت على المفاهيم العلمية، والتي صفّت الحساب تقريباً مع المقاربة المادية الميكانيكية التي كانت في أساس الوعي الإنساني «الزائف» طيلة العصور قديمها والحديث.

يمكن اعتبار مقاربات برتراند رسل، أبرز فيلسوف للعلم في القرن العشرين، نقطة الانطلاق في ثورة المفاهيم العلمية الجديدة. أفكاره الرئيسة في هذا الصدد:

يظن الرجل العادي أن المادة متماسكة، فيما عالم الطبيعة يعتقد أنها موجة من الاحتمال تتذبذب في اللاشيئية، وهو لم يعد يؤمن بالمادة. إيماننا بالعالم الخارجي إيمان حيواني، وهو فكر تسيطر

عليه نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية. فنحن لا نعرف سوى العلاقات في عالم الطبيعة ولا نعرف الأشياء في ذاتها بل مجرد صور عنها.

٣ ـ مفترق الطرق

لقد حتمت اكتشافات الفيزياء الحديثة تغيير مفاهيمنا حول الزمان ـ المكان والمادة والسبب والنتيجة. فالمفاهيم الميكانيكية لم تعد كافية لفهم العالم او الوجود. وهذا بدوره قد يحتم الثورة الجديدة التي أشرنا إليها في طبيعة الوعي البشري.

وقد دشّن الفيزيائي البارز دافيد بوم ما يمكن أن يكون إحدى القواعد العلمية الصلدة لهذا الوعي، حين أشار إلى أن الحقيقة الموضوعية لا وجود لها، وعلى الرغم مما نراه من كون يبدو صلداً، إلا أنه في الحقيقة وهم كبير وهو ليس إلا «هولوغراما» واحداً يتضمن كل شيء وكل الاحتمالات. يطلق بوم على الكون اسم «الكون الهولوغرامي»، حيث كل جزء يتضمن الكل (وهذا أيضاً ما اكتشفه الصوفيون قبل ألف عام)، وحيث الماضي والحاضر والمستقبل، كما المكان، موجودون كلهم في «إناء واحد» ويتصلون بعضهم ببعض اتصالاً لا فكاك فيه. أما ما نراه من «أنا» و«أنت» من أشياء حسية منفصلة فهو وهم. كل الأجزاء في الكون ما هي إلا أوهام تخلقها تفسيرات خلايا الدماغ البشري المولعة بتجزئة الأشياء. فالكل موجود في الجزء والجزء موجود في الكل (الهولوغرام).

أ ـ الإيكو ـ اشتراكية

بيد أن هذا الوعي الجديد أو الجميل، الذي أشرنا إليه في المبحث السابق، لن يستطيع الولادة والترعرع والازدهار، ما لم يتم قبل ذلك تصفية الحساب مع الوعي القديم الذي ساد جل تاريخ الحضارة البشرية، والذي يتبيّن الآن ليس أنه لم يعد مناسباً للبقاء وحسب، بل بات يتهدد بقاء الجنس البشري والحياة نفسها على كوكب الأرض.

كتب إيكهارت تول (Eckhart Tolle): «العقل البشري ذكي للغاية، لكن ذكاءه هذا ملطّخ بالجنون. وقد عمل العلم والتكنولوجيا على تضخيم التأثيرات المدمّرة التي مارسها خلل العقل البشري على الكوكب وأشكال الحياة الأخرى وعلى البشر أنفسهم. والحال أنه لو كان تاريخ البشرية يتلخّص بتاريخ الحالة السريرية لإنسان واحد بعينه لجاء التشخيص كالتالي: تهويمات ارتيابية حادة، ونزعة اضطراب عقلي (سايكوباثي) لارتكاب الجرائم وأعمال العنف الفظيعة، وقسوة ضد من يعتبرهم «أعداء» بينما هم في الواقع انعكاس خارجي لوعيه الباطن. ثمة جنون إجرامي، مع برهات مشرقة وجيزة».

لا أحد من المفكرين قديمهم والجديد، على ما نعلم، أطل على التاريخ البشري إطلالة إيجابية. وحتى حين تكون مثل هذه الإطلالات موجودة، مثل تطور الروح المطلقة في التاريخ عبر الديالكتيك المثالي لدى هيغل، أو مسيرة المجتمعات الحتمية نحو الاشتراكية لدى الماركسية

الكلاسيكية عبر الدياليكتيك المادي، فإنها لا تنفي في الواقع أن هذا التاريخ لا يعدو كونه سجلاً للجرائم وضروب الحمق والمصائب.

تساءل أمين معلوف، في كتابه **اختلال العالم**: هل بلغ جنسنا البشري، بمعنى ما، عتبة قصوره الخلقي، وهل باشر تواً حركة تقهقرية، مع صعود التعصب والعنف والنبذ واليأس؟ إن الإنسانية تواجه في مرحلة تطورها الراهنة أخطاراً جديدة لا مثيل لها في التاريخ.

بيد أن كل هذا بدأ يتغيَّر الآن، وإن ببطء. فكما أن العلماء يجهدون لتوحيد قوى الطبيعة في إطار نظرية واحدة «تفسّر كل شيء»، ينشط أنصار الوعي الجديد في العالم لتوحيد القوى والعوامل التي يجب أن تصب في خاتمة المطاف في بلورة هذا الوعي.

في طليعة هذه التيارات تبرز الآن الحركة الإيكو ـ اشتراكية، أو الاشتراكية الخضراء، أو الإيكولوجيا الاشتراكية، التي تدمج بين الماركسية والاشتراكية والسياسات البيئية الخضراء، والإيكولوجيا ومناهضة العولمة.

يعتقد الإيكو ـ اشتراكيون عموماً أن توسُّع النظام الرأسمالي هو المسؤول عن الإقصاء الاجتماعي، والفقر، والحروب، والتدهور البيئي، وتعاسة البشر، من خلال العولمة والإمبريالية اللتين تديرهما شركات متعددة الجنسيات ودول إمبريالية قمعية.

ينتقد الإيكو ـ اشتراكيون، الذين يطلق عليهم أحياناً اسم «البطيخ» (لأنهم خضر من الخارج واشتراكيون من الداخل)، ما يسمونه النظريات النخبوية والبيروقراطية، مثل الستالينية والماوية، ويركزون على دمج الاشتراكية بالإيكولوجيا. وهم يدعون إلى ملكية «منتجين مترابطين بحرية» لوسائل الإنتاج، وتقويض كل أشكال السيطرة، خاصة العنصرية وعدم المساواة بين الرجل والمرأة.

إلى جانب الإيكو ـ اشتراكيين، هناك التوجُّه لربط علم النفس، الذي أسسه فرويد على أساس الفردية (منضماً بذلك إلى علماء الجينة الأنانية الرأسمالية)، بالمجتمع وصراعاته وتناقضاته كأحد أسس الأمراض النفسية. وقد أفرز هذا علم النفس النقدي هذا وعلم نفس الأمراض النفسية النقدي (Critical Psychopathology)، الذي وقف على طرفَي نقيض مع الثنوية التي طرحها علم النفس في الفكر الرأسمالي الغربي بين الرجل والمرأة، والعالم الداخلي والخارجي، والفرد والمجتمع، وحاول أن يفهم الاضطرابات النفسية خارج إطار هذه الثنوية.

إلى جانب الإيكو ـ اشتراكية وعلم النفس النقدي، ثمة حركة جديدة صاعدة على المستوى العالمي تدعى تيار «التطور الواعي» (Conscious Evolution). ماذا في جعبة هذا التيار؟

إنه، **أولاً**، يعرِّف الوعي بأنه «إدراك الإدراك، الأفكار حول التفكير، الرغبات حول الرغبات، المعتقدات حول المعتقدات». وهو، **ثانياً**، يعتبر أن التطور الواعي، الذي يستند إلى تحمل مسؤولية التوجيه الأخلاقي للتطور، بدأ يبرز بالفعل في أيامنا هذه، وبالتحديد في النصف الثاني من القرن العشرين، لأن البشرية امتلكت القدرة على تدمير عالمنا، أو بالعكس على ضخ الحياة والنضارة

في مستقبل رائع بلاحدود، ولأن القدرات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية الجديدة منحتنا القوة للتأثير على تطور الحياة على الأرض.

ب ـ سبينوزا وكانط

كما لكل أنموذج أو طفرة فكرية ـ اجتماعية جديدة في التاريخ مفكروها ومنظروها، فإن لتيار الوعي الجديد الذي نشهد التمخضات الأولى لولادته الآن، فلاسفته ومنظريه المميزين. وهؤلاء لم يولدوا من رحم العصر الراهن، بل برزوا من بطون تاريخ تعود بداياته إلى القرن السابع عشر. على رأس هؤلاء باروخ سبينوزا، الذي باتت مساهماته الفلسفية والأخلاقية والسياسية، بمثابة الروح المحرّكة لتيارات التغيير في القرن الحادي والعشرين، تماماً كما كانت الشرارة التي أطلقت العنان لفلسفات وعلوم إنسانية جديدة.

ثمة عدة عوامل في فكر سبينوزا تدفع تيارات التغيير إلى اعتباره أحد النجوم الفكرية الهادية للقرن الحادي والعشرين أبرزها: مساهماته المثلثة في مجالات الفلسفة والأخلاق والسياسة. انطلقت كل هذه المساهمات من فكرة رئيسة، وحيوية، قوامها رفض سبينوزا اعتبار الإنسانية كياناً مستقلاً داخل كيان آخر أو، بعبارة أخرى، رفض إضفاء أي قوانين مختلفة عن قوانين الطبيعة ككل على الطبيعة الإنسانية. فإذا ما كنا نريد تصوّر الإنسان منفصلاً عن الطبيعة، فهذا الإنسان غير موجود.

كان سبينوزا مقتنعاً تمام الاقتناع بأن النبي، أي نبي، ينتج شعبه الخاص. وأن هذا الشعب الخاص هو الذي يمتلك الرغبة الكامنة في خلق مدينة جديدة أو أرض جديدة. ويقول إنه إذا ما بادرنا ببساطة إلى قطع الرأس الاستبدادي للجسد الاجتماعي، فإننا سنبقى مع الجثة المشوهة للمجتمع. ما نحن بحاجة إليه هو جسد اجتماعي جديد، وهو مشروع يتجاوز مجرد الرفض. يجب أن تكون أشكال خروجنا قادرة على إيجاد بديل معين. علينا أن نبني مجتمعاً جديداً قبل كل شيء. لا يفضي هذا المشروع إلى حيث الحياة العادية للإنسان (Homo Tantum)، بل يقود إلى الإنسان الإنسان (Homo Homo)، وهي الإنسانية المضاعفة وقد اغتنت بالذكاء والحب الكليين للجماعة.

تكمن ثورية الفكر السبينوزي وراهنيته أيضاً في بث الروح مجدداً في الثقة بقدرة الجمهور، أو المجتمع المدني، على إعادة صنع التاريخ، بعد أن ضرب الاكتئاب الحاد واللامبالاة العديد من اليساريين والديمقراطيين، بفعل الانتصار الكاسح للرأسمالية النيوليبرالية، وبعد أن وصل «الخوف من الجمهور» إلى ذروة نظرية قصوى. وقد تجلى ذلك في إعادة تشكيل المخيلة السياسية المعاصرة، فجرى تبني مفهوم ما بعد الإنسان بدلاً من مركزيته، والنزعة الاحتمالية بدلاً من الإدعاءات الغائية في الماركسية العلمية، ومفهوم القوة كالقدرة الكامنة (Potantia) لدى المجتمع، في مواجهة الرأسمالية الطفيلية والأشكال الأخرى من تغريب القوة.

مع إيمانويل كانط، ستكون حركات «الأرض الجديدة» أو الوعي الجديد على موعد مع خطة عمل فلسفية ووجودية وسياسية عميقة لتحقيق السلام على كوكب الأرض، بعد عشرة آلاف سنة من التاريخ البشري الذي لم تُسجّل فيه سوى حقبة سلام ضئيلة للغاية لم تتجاوز عشر سنوات متصلة.

بالطبع، العديد من أفكار كانط تعرّضت للنقد أو الرفض في العصر الحديث. فمنذ القرن التاسع عشر، جرى إثبات خطل حديث كانط عن وجود أخلاق فطرية بديئية ومطلقة، وحلت مكانها فكرة «الضمير المتطور» والمُكتَسَب من حركة السلوك الاجتماعي، بهدف المحافظة على البقاء. الأخلاق هنا باتت نسبية، مثلها مثل كل الأشياء في الكون والطبيعة.

ثم إن الأبحاث الحديثة حول الحقيقة العلمية التي قامت بها جمهرة من العلماء، مثل الفرنسي بوانكريه والألماني ماخ وغيرهما وصولاً إلى أينشتاين، تتفق مع هيوم أكثر من اتفاقها مع كانط: فالعلوم وحتى الرياضيات «الأبدية والمقدسة» تبيِّن أنها نسبية في حقيقتها. الاحتمال هنا حل مكان المطلق واليقين الكانطيين.

ومع ذلك، وكما مع فيلسوف القرن السابع عشر سبينوزا، برز كانط مؤخراً كمرجع فكري آخر من مراجع القرن الحادي والعشرين في مجال «السلام الأبدي» الذي طرحه بشكل إبداعي قبل ثلاثة قرون كحل للمعضلة البشرية، وأيضاً حتى في مجال الأخلاق على الرغم من تهاوي فكرته حول المطلق المستندة إليه. والحال أن كلاً من فكرتَي السلام الدولي والاخلاق الوضعية تتغذيان بعضهما من بعض، لأن منطلقاتهما الوجودية واحدة.

هذا علاوة على أن الشرط الكبير الذي وضعه هذا الفيلسوف على الدين، مرة أخرى جنباً إلى جنب مع سبينوزا، وهو أن يستند أولاً وفقط إلى الأخلاق، شكّل في هذه الأيام منصة رائعة للمطالبة بإعادة النظر في مسيرة الأديان انطلاقاً من هذا الشرط. لقد اختزل كانط الدين إلى إيمان أخلاقي وأمل، ومن دون ذلك ستتلاشى برأيه الأديان. هذه كنيسة المسيح التي أساء رجال الدين فهمها فأقاموا ملكوت الكاهن بدل ملكوت الله. المذهب والطقس حلّا مكان الحياة الصالحة، وبدلاً من أن يكون الناس مرتبطين برباط الدين، نراهم منقسمين إلى ألف ملة ونحلة. الصلاة لا طائل تحتها إذا ما استهدفت تعليق قوانين الطبيعة، والدين يبلغ الانحراف حين يصبح في أيدي حكومة رجعية، وحين يبرز رجال دين يصبحون أداة للظلامية اللاهوتية والطغيان السياسي، بدل أن تكون مهمتهم إرشاد الإنسانية المتعبة وتعزيتها بالإيمان الديني والأمل والإحسان.

ج ـ إرث الحداثة الأولى

الذخيرة الفكرية ـ الفلسفية الثالثة في حوزة تيار «الأرض الجديدة» هي إرث الحداثة الأولى. ففي الحقبة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر، حدث ما يسميه نيغري وهارت «شيء خارق للعادة في أوروبا: إذ أقدم البشر على إعلان أنفسهم أسياداً لحياتهم، منتجين للمدن، وصانعين للتاريخ، ومتطلعين إلى السماوات والفراديس. صحيح أنهم ورثوا وعياً ثنائياً ورؤية هرمية للمجتمع

وفكرة ميتافيزيقية عن العلوم، إلا أنهم ما لبثوا أن أورثوا الأجيال التالية فكرة تجريبية عن العلم، وتصوراً تأسيسياً للتاريخ والمدنية، كما قدموا الوجود بوصفه حقلاً كامناً للمعرفة والفعل.

مع هذه الحداثة الأولى اكتشفت البشرية قدرتها الكامنة (الكمون) في العالم، وطوّرت وعياً جديداً للعقل وقدرة الجمهور والإنسان على الفعل والتغيير كي يصبح «إنساناً إنساناً» عبر جملة مفتاحية واحدة: «أجل، نستطيع بناء عالم جديد». تم في هذه الحقبة إنزال قدرات السماء إلى الأرض في العلم والفلسفة كما في السياسة أيضاً، وجرى تقويض كل بنيان القرون الوسطى بكل مؤسساتها الظلامية الكنسية، وإقطاعياتها التفتيتية والإقصائية، وفلسفاتها ذات البعد السلطوي الواحد.

بيد أن مثل هذه الثورة العميقة ما لبثت أن شهدت ثورة مضادة عنيفة هدفت في الدرجة الأولى إلى سحب المبادرة من يد الجمهور، وإعادتها إلى كنف «سيادة» النخب الحاكمة البرجوازية الجديدة التي ورثت النخب الإقطاعية. وهكذا غرقت أوروبا بأسرها في لجج بحر من الحروب الأهلية الدينية والاجتماعية التي قضت على نصف سكانها تقريباً.

سابعاً: نهوض العنقاء

لا يجادلن أحد بأن العقبات أمام ولادة، أو استيلاد، الوعي الجديد، تبدو أسطورية بشكل قد يدفع إلى اليأس والقنوط. وهذا على كل الجبهات. فالأرض الجديدة تحتاج إلى بشرية جديدة. وهذه الأخيرة تحتاج إلى إنسان جديد وجماعات جديدة قادرة على منع كوابيس الماضي من التسلُّط على الحاضر والمستقبل. تحتاج إلى وعي ناضج يغادر مملكة الانقسامات الدينية والقومية والقَبَلية الدموية التي أسبغت على التاريخ البشري كل هذا اللون الأحمر القاني، ليُعانق الوجود والكون وكل المخلوقات بروح اندماجية منطلقة وفرح وجودي.

فالرأسمالية، في طبعتها المتعولمة الحديثة، تبدو قَدَراً لا فكاك من براثنه، حيث إن ذوبان المجتمع العالمي في بوتقة استهلاكية واحدة يجعل البشر مُطوّقين بشباك عالمية غاية في التعقيد، وخاضعين لقوى عاتية لا قِبَلَ لهم بمجابهتها، ومُعرَّضين للهزات الاقتصادية المفاجئة والتدهور البيئي والأوبئة الجائحة الخارجة كلها عن إرداتهم.

ثمة خطوات عديدة يجب أن نخطوها للاندماج في مسيرة الوعي الجديد والبشرية الجديدة، بينها: الإدراك بأننا نعيش بالفعل، هنا والآن، في عدة جهنمات؛ والعمل على التحرُر من وهم انفصالنا عن باقي الكائنات والكون؛ والسعي إلى «انتفاضة» روحية ـ فكرية مشتركة في الأديان.

ولكن، ومرة أخرى، هل فات أوان الإنقاذ وانقضى الأمر؟

العلماء والخبراء المتشائمون كثر، وهم يعتقدون أن الجنس البشري دمّر بالفعل، وإلى غير ما رجعة، فُرص بقائه نفسها، بسبب عجزه عن تجاوز الوعي المكيافيلي الذي خدمه السابق في

حقبة صراع البقاء في الكهوف والعصور الجليدية والحجرية، لكنه يقوده مباشرة الآن إلى مقصلة المخلوقات العاجزة عن التأقلم والسائرة بدأب نحو الانقراض.

يعترف المتفائلون بهذه المخاطر. لكنهم يشيرون إلى أن حلولهم الانقاذية تبدو طوباوية فقط لأنها تتناقض حرفاً بحرف مع ظروف الحياة الكارثية الراهنة في المجتمعات البشرية، والتي تُسيطر عليها ثقافة إمبراطورية العولمة. هذا في حين أنها في الحقيقة واقعية للغاية وتستند إلى ضرورات قصوى للبقاء، تتمثل ببروز اقتصادات محلية مكتفية ولكن مترابطة ومتعاونة مع بقية المجتمعات في العالم، وفي التوازن الإيكولوجي، وتوزيع الثروة على نحو عادل، والديمقراطية الحية.

بيد أن تحقيق هذه الآمال، يتطلب انتفاضات متناسقة ومتسقة في المجالات الرئيسة الثلاثة معاً وفي إطار برنامج يشكل رزمة واحدة: تطوير الوعي الفردي والجماعي؛ وتبنّي برامج إيكولوجية وبيئية شاملة، وبدائل اقتصادية واجتماعية وتعليمية وثقافية واضحة المعالم.

طائر الفينيق الأسطوري قد يكون هنا الرمز الأكثر تجسيداً لمثل هذا البرنامج الموحّد، لما تتضمنه هذه الأسطورة من معانٍ وأبعاد تصب في صلب هذه التطلعات. فكما أشرنا، الوعي القديم المستند إلى الأنا المكيافيلي، والمآسي والحروب، والانفصال الكارثي عن الكلي والكون والطبيعة، يجب أن يحترق قبل أن يولد الوعي الجديد. الديالكتيك هنا واضح للغاية، لأن الوعي الجديد يشكِّل بالفعل نقيض ـ أو نفي ـ الوعي القديم. وهذا أيضاً ما يحدث في سيرة حياة العنقاء، حين تحترق لتولد من جديد.

مرة أخرى، يبدو هدف الأرض الجديدة والحضارة البشرية الجديدة، مجرد تفكير رغائبي حالم في داخل كابوس واقعي داهم. وهذا صحيح. لكن الصحيح أيضاً أننا وصلنا إلى مرحلة لن يعني فيها الاستسلام إلى هذا الكابوس (أو حتى «تناسي» وجوده كما يفعل الآن قباطنة النيوليبرالية) سوى موافقتنا على انقراض جنسنا ومعه كل نبضات الحياة على هذا الكوكب الأزرق.

قد يعتقد البعض أن اندلاع كوارث بيئية ضخمة، قد يدفع الجميع أخيراً إلى الاستفاقة على ضرورات التغيير والتطور. ربما. لكن، ماذا لو كانت هذه الكارثة شاملة ولا تُبقي ولا تذر؟ هل سيبقى أحد منا للشهادة على الوجود أو على الحياة؟ والحال أن مثل هذه الكوارث لم تعد تقاس بقرون بل بعقود وحتى بسنوات قليلة.

علاوة على ذلك، وحتى لو لم تكن المخاطر البيئية والإيكولوجية ضاغطة على هذا النحو، لكان من الضرورة أصلاً العمل على بناء إنسان جديد ووعي جديد قمين بإخراجنا من الجهنم الحقيقية التي نقطنها جميعاً الآن من دون أن نعي، وتتجسد في سلسلة الأمراض النفسية والعضوية الكاسحة. لكن الآن، ومع الزحف السريع لهذه المخاطر، ستكون حتى هذه الجهنم مجرد ألعاب أطفال.

نحن ببساطة أصبحنا أمام خيار من أمرين لا ثالث لهما: إما نهوض عنقاء الوعي الجديد، والبيئة السليمة، والاقتصاد التعاوني، من رماد الدمار المتعولم الراهن، أو تحوّلنا جميعاً (ومعنا الحياة برمتها على الأرض) إلى رماد لا قيامة بعده.

وعلى الرغم من التاريخ السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي الدموي، والمُخجل، للجنس البشري، إلا أن المغامرة البشرية العلمية (التي نقلتنا من القفز فوق الأشجار والاختباء في الكهوف إلى التنقل بين النجوم وسبر أغوار وأسرار الذرة) والثقافية ـ الروحانية (عبر حفنة من الفلاسفة والمصلحين الذين حاولوا استيلاد الإنسان الأخلاقي ـ الروحاني المتفوّق والمتجاوز لقيود الأنا)، هذه المغامرة تستأهل النضال والقتال من أجل إنقاذها.

قد لا ننجح. لكننا على الأقل، وفي خضم نضالنا هذا، سنكون على الأقل قد أديّنا بعض صلوات طلب السماح والغفران من أُمنا الأرض، بسبب الجرائم والموبقات التي ارتكبناها، نحن أبناءها البشر العاقين، بحقها وبحق معجزة الحياة.

مقدمة

هل نحنُ في جهنم من دون أن نَدري؟

الجحيم فارغ، وكل الشياطين هنا

وليام شكسبير

لم يعد الأمر خافياً: ما اكتشفه الأمير غوتاما سيدهارتا (Gautama Siddhartha) (لاحقاً بوذا) قبل ٢٥٠٠ عام نعيشه، أو بالأحرى بدأنا نعي أننا نعيشه، اليوم بحذافيره: الشقاء والمعاناة وجهنم على الأرض. بدأنا نعي أننا كجنس نسير على طريق التدمير الذاتي: فوضى المناخ؛ الأنهار الميتة؛ طبقات الماء العذبة النافدة؛ انقراض عشرات آلاف الأجناس؛ موت ٢٠٠ ألف طفل يومياً بسبب الفقر في العالم النامي، وفي العالم الأول ٨٠ بالمئة من المجتمع يُقذف بهم إلى براثن التهميش لتحسين هامش المنافسة؛ مليار إنسان يعيشون بأقل من دولار في اليوم فيما مدير استثمارات واحد في الشركات الكبرى يتقاضى عشرات ملايين الدولارات سنوياً. وفوق هذا وذاك، انتشار كاسح لم يسبق له مثيل في التاريخ للأمراض النفسية المُستعصية.

كما هو واضح، هذه الجهنم ليست موضوعية أو خارجية كما كان يؤمن الأقدمون، بل ذاتية. إنها من اختراعنا نحن البشر من ألفها إلى الياء. الشاعر الإنكليزي جون ميلتون اكتشف منذ القرن السابع عشر أن «العقل في ذاته يستطيع أن يخلق جنّة من جهنم وجهنم من الجنّة»[1]. حسناً. نحن حوَّلنا، وبامتياز، معجزة جنّة الحياة على كوكب الأرض، تلك المعجزة النادرة للغاية في هذا الكون الشاسع[2]، إلى جهنم مُقيمة، ونكاد عمّا قريب أن ندمّر حتى هذه الجهنم نفسها بفعل تقويضنا

---

(١) وَرَدَ نص جون ميلتون في ملحمته الشعرية «الفردوس المفقود» التي كتبها العام ١٦٦٧. وهو أورده على لسان إبليس أو الشيطان (الذي طُرِدَ من السماء)، كمحاولة منه للتأقلم مع حياته الجديدة على الأرض. وسيستغرق الأمر حقبات من الزمن قبل أن يُدرك الإنسان أن هذا الشيطان القادر على تحويل الجنة إلى جهنم موجود في داخله بوصفه «الوسواس الخنّاس» الذي يوسوس في الصدور، كما جاء في القرآن الكريم.

(٢) إذا ما افترضنا أن مجرّتنا «درب التبانة» تضمّ نحو ٤ مليارات نجم، فإن حفنة منها ستكون له كواكب على غرار الشمس. وإذا ما وُجدت هذه الكواكب (وقد بدأت اكتشافاتها تتوالى بالفعل في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين) =

المنهجي للبيئة ولمناخ أمّنا الأرض، وأيضاً لمعنى أن نكون مخلوقات قادرة على إدراك بعض أسرار الوجود وبعض مفاتيح الحقيقة المطلقة، وأن نكون أوفياء لأصولنا الكونية الواحدة وجذورنا المشتركة مع كل عصب ينبض في كل خلية، ومع كل وردة تتفتح، ومع كل ذرة لم تتوقف عن السفر منذ ١٥ مليار سنة.

أولاً: كيف اخترعنا جهنم؟

اختراعنا الذهني لجهنم هذه، سبق كثيراً قرارنا الأعمى بالعيش داخل سجنها الكبير. فكل الثقافات والحضارات البشرية في التاريخ، حوّلت قلقها الوجودي ومخاوفها في معركة البقاء إلى خيالات مخيفة هدفها الرئيس الضبط الاجتماعي (المعاقبة في السماء المتخيَّلة لمن يخرج على أعراف السلطة الحاكمة على الأرض). وشريعة حمورابي عام ١٧٥٠ قبل الميلاد اعتبرت أن من يخالف القانون الاجتماعي الذي يضعه الملوك ينتهك النظام الإلهي الكوني، وبالتالي يحق عليه العذاب الأليم في جهنم. كذلك، جاءت جهنم المصرية القديمة لتهدد من يخالف سلطة الملوك وسلطانهم بـ «موت ثانٍ» مرعب. ومع بروز عبادة أوزيريس، الإله الذي جسَّد موته وانبعاثه كل عام تجدُّد الحياة والخصوبة في الطبيعة، تمت «دمقرطة الدين» وأُعطي المزارعون الصالحون الذين يرضخون لقواعد العمل الزراعي وواجبات العبودية فرصة الانضمام إلى مملكة أوزيريس، بعد أن يُحاكموا بعد الموت بحضور ٤٢ قاضياً. أما الأشرار فيتعرضون لعذابات لا توصف ويجبَرون على تناول برازهم وشرب بولهم والسير على رؤوسهم. كما أنهم يتعرّضون، في إطار حالة اللاوجود، لتنكيل فظيع على يد أفاعٍ تنفث النار ووحوش لها جسم أسد ورأس تمساح تهاجمهم بضراوة. لكن التعاليم المصرية القديمةً لا تشي بأن هذا العذاب في العالم الآخر أبدي.

وفي حضارات ما بين النهرين، السومرية والأكادية والأشورية والبابلية والكنعانية، ظهرت طلائع مفهوم جهنم بوصفها العالم السفلي تحت الأرض. وهو ما عبّرت عنه بجلاء ملحمة جلجامش.

وكانت الجهنمات في التاريخ أيضاً تعبيراً عن ضيق وغم وجوديين. وبالتالي فهي كانت دوماً مرتبطة بالحالة الإنسانية بكل عذاباتها وأحقادها وتناقضاتها وعجزها، تماماً كما أن نقيضها الجنّة كانت انعكاساً لرغبة الإنسان في تجاوز واقع أرضي مرفوض. وهنا، كانت جهنم الهندوسية هي

= فإن قلّة من هذه القلّة ستكون مناسبة لظهور الحياة البيولوجية فيها. وإذا ما وُجِدت الحياة، فالأرجح أن تكون الفرصة نادرة للغاية أن تكون أكثر من حياة مايكروسكوبية وأن يتطوّر فيها ذكاء. وفي النهاية، حتى لو وُجِدت الحياة الذكية في مثل هذه الكواكب قبل ثلاثة مليارات سنة، فهي ربما تكون قد انقرضت الآن إما بفعل الحروب أو نتيجة اصطدام نيزك عملاق بكوكبها كما حدث على الأرجح مع الديناصورات على الأرض قبل ٦٠ مليون سنة. ويشير أستاذا بيولوجيا الفضاء (Astrobiology) والجيولوجيا «بيتر وورد» (Peter Ward) ودونالد براونلي (Donald Brownlee) في كتابهما **الأرض النادرة** إلى أن الحياة على كوكب الأرض نادرة للغاية في الكون. وعلى رغم أن الحيوات الميكروسكوبية قد تكون منتشرة فيه، إلا أن احتمالات وجود حيوانات ونباتات متطورة ومخلوقات ذكية في الأماكن التي يطلقان عليها «المنطقة الصالحة للحياة في المجرة» (Galatic Habitable Zone) ضئيلة للغاية وقد تقترب في بعض المجرات من درجة الصفر. انظر: Peter D. Ward and Donald Brownlee, *Rare Earth: Why Complex Life is Uncommon in the Universe* (New York: Copernecus Press, 2000).

المُجلية على هذا الصعيد. فجهنم والتقمّص في الهندوسية معناهما واحد، والشرير هو الذي تطغى عليه رغبة العيش المنعزل وكنز الثروات، والذي تطويه الأنا الأنانية (Ego)[٣] داخل ذاته فيعيش في وهم داخل وهم، ومصيره جهنم مريعة يتربع على عرشها الإله يماراجا إله الموت.

العديد من المفكرين الإغريق والرومان القدماء رفضوا فكرة وجود الجحيم، وقالوا إنه إذا ما كانت جهنم موجودة يكون البشر هم الذين اخترعوها على الأرض. فهم الذين يدينون أنفسهم بأنفسهم بسبب عماء قلوبهم ومواصلة ملاحقة أوهامهم، ذات القيم الفاسدة، بضراوة. وهذا رأي تبنته أيضاً مدرسة «المبدأ السماوي» التي أسسها الفيلسوف والعالم السويدي إيمانويل سودينبيرغ (Emanuel Swedenborg) الذي قال إن جهنم موجودة لأن الناس الأشرار أرادوها. فهؤلاء، وليس الله، هم من أدخل الشر إلى الجنس البشري.

ثانياً: السقطة المروِّعة

لكن الواقع أن خيالات الجهنمات في التاريخ وُلدت من حدث خطير طرأ على مسيرة التطور البشري: فبدلاً من أن يؤدي تحرّر الإنسان من القيود الموضوعية المباشرة لمعركة صراع البقاء (الأمر الذي مكّن البشر من وراثة حكم الديناصورات للأرض) إلى الحكمة والدراية في التعاطي مع الطبيعة والاجتماع البشري، قاد على العكس إلى بروز جنون السيطرة بالقوة والاستحواذ بالعنف على الحيّز المكاني والموارد والثروات الخاصة. وهكذا طغى باعث السيطرة (كما جسّدته لاحقاً المدارس البراغماتية والإنسانوية على أنواعها) على حب البيئة والتناغم مع إيقاعاتها الكونية، الأمر الذي حوّل التاريخ البشري برمته إلى مسلسل حروب وفظاعات لا تنتهي[٤].

---

(٣) سنستخدم في هذا الكتاب تعبير «الأنا الأنانية» (Ego) للإشارة إلى الذاتية المغلقة على نفسها وعلى مصالحها الخاصة الضيقة المتناقضة مع الخير العام وتوازنات الطبيعة، في مقابل «الأنا المتسامية» التي تحقّق وجودها بالتكامل مع الآخرين والطبيعة والكون.

(٤) المؤرّخ والفيلسوف الإنكليزي إدوارد جيبون (Edward Gibbon) (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) يصرّح، في **تاريخ صعود وسقوط إمبراطورية روما**، «أن التاريخ (البشري) لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم وضروب الحمق والمصائب التي نزلت بالبشرية». أما عالم الجراثيم (Bacteriologist) هانس زينسر (Hans Zinsser) فيعقد في كتابه **الجرذان والقمل والتاريخ** (*Rats-Lice and History*) الذي صَدَرَ عام ١٩٣٥ وأُعيد طبعه مراراً، المقارنة بين الإنسان والفأر. يقول: «يوجد لدى الأحياء المخلوقات الدنيا تضامن ورحمة غير متوافرين لدى الإنسان والفئران وبعض الأسماك. لم يصل الإنسان والفأر بعد إلى حالة من الاستقرار، وهما كانا معاً من أعظم الحيوانات نجاحاً في افتراس أعدائهما. فهما يهلكان الأنواع الأخرى من الكائنات، وليس لأي منهما أقل فائدة لأي نوع آخر من الكائنات. إنهما محتربان ويخصان نفسيهما بكل ما تنتجه الطبيعة من نبات وحيوان». انظر: Hans Zinsser, *Rats-Lice and History* (Boston, MA: Brown and Co., 1935).

وفي ملاحظة ساخرة يفضّل زينسر الفأر على الإنسان، فيقول: «الفئران تشن الحروب الطاحنة على أبناء جنسها، لكنها لم تتفرق بعد إلى «أمم». ومع ذلك فهي قد تصل بعد قرون إلى قوميات فئرانية فرنسية أو ألمانية أو نازية». لكن أحكام كل من جيبون وزينسر تتعلّق بماضي وتاريخ الوعي البشري القائم على/ والمنطلق من صراع البقاء. أما المستقبل فهو يتطلب وعياً جديداً مغايراً إذا ما أراد الإنسان أن يكون له مستقبل، كما سنرى في الفصول التالية.

لقد أدى التحرر هنا إلى قطيعة انفصالية مع الطبيعة، التي اعتبُرت منذ ذلك الحين عدواً يجب إخضاعه لا أمّاً رؤوماً يتعيّن العيش في كنفها(٥). وما لبثت هذه القطيعة عن الطبيعة أن امتدت إلى علاقات البشر بعضهم ببعض، فبرز «الآخر» المُهدد لوجود كل فرد وجماعة، وفتُح الستار عن دراما دموية مدمرّة لا تزال فصولها تتوالى منذ عشرة آلاف سنة.

روايات الجهنمات في التاريخ كانت تعبيراً رائعاً، وفظاً في آن، عن هذه السقطة المروّعة للجنس البشري. لقد كانت في الواقع تعبيراً عن فشل كل الحضارات البشرية في التنظيم العقلاني الحكيم لكل من العلاقات الاجتماعية وللعلاقة مع الطبيعة والكون. وتطلب الأمر ردحاً طويلاً من الزمن قبل أن يدرك حفنة من البشر طبيعة الوعي المشوّه الذي جعلهم يعيشون هذه المعاناة والآلام القاسية، ولا يعرفون مخرجاً منها طالما واصل مثل هذا الوعي سيطرته على فكرهم وعقلهم ونوازعهم(٦).

هل كانت مصادفة أن تحضر قصص جهنم في كل الحضارات والثقافات البشرية بلا استثناء؟ وهل مصادفة أيضاً أن تكون كل هذه الجهنمات كثيرة الشبه بعضها ببعض إلى حد مذهل، على رغم انعدام التواصل بين الثقافات البشرية القديمة التي كانت معزولة بعضها عن بعض؟ الأرجح أن المشترك الجهنمي بين هذه الحضارات دليل آخر على فشل الإنسان في حل مشاكله الاجتماعية والوجودية، عبر تطوير وعي يتجاوز به وعي صراع البقاء الدموي في المغاور والكهوف والغابات.

ثالثاً: ٣ جهنمات

منذ القرن الخامس ق. م وجدت ٣ مذاهب عن جهنم: جهنم الوجودية (اللوكريسية) وجهنم الفلاسفة وجهنم الشعبية(٧). جهنم لوكريس لا يزال نفوذها مستمراً منذ العام ٥٥ ق. م وحتى الآن. فهذا الفيلسوف امتلك خواطر ذات بعد تشاؤمي عميق يشي بمشاعر العزلة العظمى التي يعيشها الكائن المفكر. لا تنتظر هذه الخواطر شيئاً من العالم الآخر الذي تعتبره مجرد ثمرة مخيلات الشعراء، أو من اختراع الأديان بهدف تغذية الخوف في النفوس، وتعتبر أن الموت هو المخرج الوحيد من هذه العزلة أو الوحدة. لكن هناك في المقابل جهنم حقيقية وواقعية جداً: إنها القلق

---

(٥) في الميثولوجيا القديمة اعتبُرت الطبيعة «الأم الكبرى» (غايا ـ Gaia) المصدر الأصلي للكون وقوانينه. وهي التي تتحكّم بالقدر والزمن والحكمة والحب والعطاء والحياة والموت، كما أنها كانت روح العالم في علم الكون الأفلاطوني. لكنها أُسقِطَت من هذا الموقع مع صعود نزعة السيطرة لدى الذكور ومعها النظرة إلى الطبيعة ليس ككائن حي ومتطور بل كنظام ميكانيكي بدائي يتعيّن إخضاعه.

(٦) ظهرت بدايات هذا الوعي الجديد قبل ٢٥٠٠ سنة مع بوذا في الهند ولاوتسو في الصين وموسى والمسيح ومحمد في الشرق الأوسط، الذين عزفوا معاً على لحن واحد للناس: «انتبهوا. انظروا كيف تعيشون وماذا تفعلون، وأي مآس وفظائع ترتكبون». لكن مثل هذا الوعي الداعي إلى الحكمة والاستنارة واليقظة ووحدة الوجود والحياة والكائنات، ما لبث أن انطفأ، بعد أن تمّ تحويل تعاليمه إلى ترانيم للحروب والجنون الجماعي.

(٧) جورج مينوا، **تاريخ جهنم**، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، زدني علماً (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٦)، ص ٢١ وما بعدها. وتحت العنوان نفسه، انظر أيضاً: Alice K. Turner and Donadio and Olson, *The History of Hell* (New York: Mariners Books, 1995).

المقترن بالوجود نفسه. أن تحيا يعني أن تخاف من الموت، من الألم، من المرض، من العقاب، من الآلهة ومن عذاب الضمير. هذا القلق الوجودي هو الجحيم. يقول لوكريس: «يحاول كل إنسان أن يهرب من ذاته، لكن من دون أن يستطيع الإفلات، فيظل مرتبطاً بنفسه على الرغم منه وناقماً عليها. الحل هو الموت»، ولذا انتحر لوكريس وهو في الخامسة والأربعين. وفي كلمات رائعة يعلن لوكريس أن «جميع العذابات التي تتحدث عنها التقاليد، إنما نجدها كلها في حياتنا الواقعية. في عالمنا هذا تصبح حياة الحمقى جهنم حقيقية».

جهنم الفلسفية الأفلاطونية طُورت لخدمة الدولة ـ المدينة، وليس للاهتمام بعالم الأخلاق أو اللاهوت، وللتصدي للخلل الاجتماعي. أعظم الخطايا استناداً إلى جمهورية أفلاطون هي خطايا أولئك الذين سببوا موت أكبر عدد من الناس أو الذين خانوا وطنهم وجيشهم واستعبدوا مواطنيهم. وقصاص هؤلاء هو مئة عام من العذاب على يد الشياطين. لكن ليس في جهنم الأفلاطونية عذابات دائمة، ففي نهاية كل ألف سنة تعود النفوس إلى التقمُّص. هل كان أفلاطون يؤمن حقاً بوجود جهنمه هذه؟ الأرجح أن الأمر ليس كذلك لأنه يقول على لسان سقراط مُخاطباً كليكليس: «أنا مقتنع أنك تعتبر هذه (أي جهنم) خرافة، لكنها بحسب رأيي تاريخ». أما أفلوطين فهو تقدَّم بمفهوم أكثر روحانية لجهنم، وجعلها ترتبط بالنفس المُقيّدة بالمادة: «عندما تكون النفس غاطسة في الجسد وغارقة في المادة ثم تفارق الجسد، تسقط مجدداً في الوحول ذاتها. وهذا هو الموت الحقيقي»[٨].

نأتي إلى جهنم فرجيل الشعبية والشعرية الواردة في **الإنياذة**، التي هي أول مؤلَّف «سياحي» ضخم عن الجحيم، وستبقى كذلك لقرون عدة إلى حد أن دانتي اتخذ لاحقاً فرجيل دليلاً له في سفره الطويل. في هذه الجهنم الشَّبَه مذهل بين الآثام والمعاقبة عليها في جهنم وتلك التي يعاقب عليها القانون الروماني.

في الأديان التوحيدية، ثمة تمايز وتشابه حيال جهنم. فديانة العبرانيين أكثر مادية وكل شيء فيها ينتهي عند الموت، وبهذا تتقاطع مع التيار الأبيقوري الذي يقول «لم أكُن موجوداً ثم وُلدت، ثم عشت، ثم لم أعد موجوداً. هذا كل شيء، ومن يدّعي عكس ذلك فهو كاذب». في بدايات الديانة اليهودية لم يكن هناك مفهوم لجهنم، على رغم أن فكرة الحياة بعد الموت طُرحت على بساط البحث خلال الحقبة الهيلينية، ربما بتأثير من الديانات الهيلينية المجاورة، لكنها لم تتضمن وصفاً أو تحديداً لمعنى تعبير «جهينا» العبري. بيد أنه يبدو أنه لم يُقصد في الأصل بهذا التعبير جهنم بل القبر، وفي وقت لاحق المطهر الذي وصفته لاحقاً الصوفية الكابالية بأنه «غرفة انتظار الأرواح».

وفي تاريخ المسيحية، برز تيار في الاسكندرية نفى وجود جهنم التعذيب، لأنها لا تتلاءم مع الرأفة الإلهية. فجهنم هي استعارة تعني تأنيب الضمير، وهي نار روحية تتغلغل في النفس لكل من

(٨) مينوا، المصدر نفسه، ص ٣٣.

يضع نفسه خارج التناغم الكوني الذي خلقه الله. وفي نهاية الوجود، تعود الخليقة كلها إلى حضن الله في خلاص شامل للجميع بما في ذلك الشيطان.

بيد أن جهنم في العصور المسيحية اللاحقة، والتي تعتبر الأكثر هولاً ورعباً من كل الجهنمات الأخرى، حيث إنها تُعتبر أكمل نظام شمولي للعذاب تخيَّله عقل بشري، ستظل حتى القرن العشرين الأداة الرئيسة في يد الكنيسة لسَوق الناس إلى تعاليمها بقوة الخوف والرعب. الإسلام استوحى جهنم من كل التقاليد الشرقية، فجاءت جهنمه متشابهة مع ميثولوجيا الشرق الأوسط واليهودية والمسيحية.

ولنا هنا أن نتوقف أمام التيار الغنوصي الشهير في التاريخ بسبب الأفكار المبتكرة التي أتى بها على صعيد فلسفة الوجود ومسألة الجحيم، والتي جعلته أقرب إلى الفكر الإغريقي والفارسي القديم، وليس إلى الفكر المسيحي وإلى العبادات السرية في القرون المسيحية الأولى. تقول الغنوصية بازدواجية الروح والجسد، والخير والشر، اللذين يحكمهما إلٰهان متعادلا القوة. فإلٰه الخير خلق العالم الروحي وإلٰه الشر خلق العالم المادي الذي تقع النفس أسيرته. وبالتالي، الجحيم هو هذه الحياة الحاضرة التي هي مكان عَبَثي خاضع لشرائع طبيعية جائرة، إذ إن كل لحظة من الزمن تدمِّر سابقتها، في إطار مسيرة حتمية نحو الاندثار[٩]. وتعتبر المانوية كذلك أن خلاص الإنسان من آلامه يكمن في تحرير الروح من سجن الجسد الذي أدى تعايشها الطويل معه إلى نسيان أصلها السامي. أي أن سبب الشقاء هو الجهل، والخلاص يكون بالمعرفة.

المانويون الذين انبثقوا من الغنوصية في القرن الثالث، لهم دعاء مثير يقولون فيه: «يا إلٰه الروح انقذني من هذا العدم، من هذا القلق الجهنمي». لكن مثل هذا الإنقاذ لا سبيل إليه إلا عبر المعرفة الحقيقية التي توضح لكل إنسان طبيعته الأصلية السامية، كما أسلفنا. الجحيم هنا هو سجن النفس في الجسد، لكن في نهاية العالم، سيكون الخلاص شاملاً بعد أن يندلع حريق هائل يسببه انصهار العناصر الأربعة الذي يؤدي إلى تلاشي الشر.

في القرن التاسع عشر الأوروبي، بذلت الكنيسة جهوداً مضنية أخيرة لإعادة الناس إلى حظيرة الإيمان بجهنم؛ بيد أن تقدم العلوم على أنواعها، من الفيزياء إلى علم الاجتماع، ومن علم الحياة ونظريات التطور إلى علم النفس، مروراً بحلول الدولة مكان العناية الإلهية في توفير الضمانات الاجتماعية للمواطنين، كان بالمرصاد لهذه الجهود. وقد اضطرت الكنيسة بعد لأْيٍ إلى التخلي عن فكرة الرعب الجهنمي كمدخل للإيمان، واعتبرت أن الجحيم مسألة روحية تتعلق فقط بحرمان الخاطئ من رؤية الله.

بيد أن تراجع جهنم الدينية، وبدل أن يفسح في المجال أمام مقاربات أكثر تفاؤلاً للحياة البشرية ومستقبلها، أسفر عن ولادة جهنمات فكرية وفلسفية لا تقل هولاً في أوروبا المعاصرة. وقد سبق

---

(٩) هنا ثمة تشابه طريف مع القانون الثاني للديناميكا الحرارية، التي تنصّ على أن الأنتروبيا (Entropy)، أي درجة الفوضى، تزداد مع الزمن. وإذا ما كان الكون مغلقاً، فإن الأنتروبيا فيه ستزداد أيضاً مع الزمن، وفي خاتمة المطاف سيموت الكون حرارياً، ومعه الحياة.

لوليام شكسبير أن دشَّن هذه الموجة حين اعتبر (على لسان مكبث) أن الحياة حركة عقيمة وسط آلام لا هدف لها ولا أي معنى، إذ هي «قصة يرويها مجنون، تعج بالضوضاء والغضب ولا تعني شيئاً».

الفلاسفة الوجوديون كانوا الأفصح في التعبير عن هذه النقلة. فكيركيغارد وجد، على سبيل المثال، أن الجحيم هو أساس الوجود البشري، حيث الآلام تتولد من الانفتاح على الآخرين من أجل الذات، أو الانغلاق على الذات في أنانية مشوَّهة. وجان بول سارتر وصل إلى الاستنتاج نفسه: «جهنم هي الآخرون». أما ألبير كامو فقد صاح في روايته **الغريب**: «أعيش غريباً من أجل الآخرين ومن أجل الكون، مرمياً في عالم لا هدف له ولا نهاية. أليس هذا هو الجحيم؟»[١٠].

المضمون والبعد الحقيقيان لهذا التطور هو في العمق أزمة الحضارة الغربية، والانفصال عن الطبيعة وعن التوحُّد الكوني والاجتماعي، في ظل سيادة الفردية الرأسمالية **المشلّة**. فجهنم الفكرية الحديثة ولدت في الواقع من كوارث العالم الحديث: نقرأ لجورج بنوا[١١]:

«استحق القرن العشرون، في نظر الكثيرين، لقباً لا يُحسد عليه كثيراً، ألا وهو لقب «قرن الجهنمات»، وذلك بسبب حربيه العالميتين، والإبادات الجماعية، والقنابل الذرية، والأسلحة الكيميائية، وجماهير العالم الثالث الجائعة المحرومة من المعاملة الإنسانية، والبطالة، والتلوث، والأنظمة التوتاليتارية، والديمقراطيات الفاسدة، والانفجار السكاني، ومعسكرات الغولاغ، والمخدرات، ووباء الإيدز. فأي قرن بعد ذلك يستطيع أن ينازعه هذا الوسام الشيطاني؟».

بيد أن بنوا نسي أن يضيف شيئاً آخر إلى جنهم القرن العشرين هذه. فعلى رغم تفوقها الكاسح بالفعل على كل الجهنمات في التاريخ، الخيالية منها والحقيقية، لا يزال في جعبة العصور الحديثة الكثير لتضيفه إلى هذا السجل الحافل للجحيم في كل البلدان غنيّها والفقير: الشقاء والتعاسة الداخليان للإنسان الفرد. وهذا ما تعبِّر عنه بجلاء المقاربات والاستطلاعات الخاصة بالسعادة.

رابعاً: لغز السعادة

منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين، كانت مسألة سعادة الإنسان تقاس بالدخل والثروة والملابس والمنازل الفاخرة، ثم لاحقاً بالسيارات واليخوت والطائرات. وهذا كان أمراً بديهياً بسبب الوحشية التي طُبِّق بها في البداية نمط الإنتاج الرأسمالي، بما أنتجه من فوارق هائلة بين طبقات مترفة وأخرى عاملة تسعى لمجرد سد الرمق؛ ثم للمقارنة التي باتت تعقد لاحقاً بين مستوى المعيشة في الدول الصناعية المتقدمة وبين أوضاع العالم الثالث الذي يفتك به على نحو مريع الفقر والجهل والأمراض.

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٨ وما بعدها.
(١١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

الصراع على الموارد والثروات، وبالتالي السلطة، كرّس وعي صراع البقاء لدى البشر المورروث منذ آلاف السنين، والذي وضعهم في حالة حرب دائمة مع الطبيعة ومع أنفسهم، وخلق الوهم الكبير حول الرابط الكبير بين السعادة وبين الثروة المادية.

بيد أن القرن العشرين أثبت خطل هذه الفرضية. فالمجتمعات الغربية نجحت في تلبية الحاجات المادية الأساسية الضرورية للبقاء، لكن أي إضافات مادية أخرى على هذه الحاجات لم تجعل الناس أكثر سعادة. العكس كان صحيحاً. أو هذا على الأقل ما يراه جوناثان بوريت (Jonathan Porrit)، الذي لا يُعتبر بأي حال معادياً للرأسمالية، بل هو من الداعين إلى أن تكون «الرأسمالية المسؤولة» هي قبطان إنقاذ البشرية والحياة على كوكب الأرض. كتب:

«الأساس الاجتماعي للسخط والاستياء في المجتمع الحديث (أي الغربي) لا يكمن في نقص الدخل بل في وحشة الوحْدة، والضجر والسأم، والاكتئاب، والغربة، والشك بالذات، والأوضاع الصحية والسيكولوجية العليلة التي ترافق كل ذلك. والحال أن الإقصاء الاجتماعي ليس في الواقع إقصاءً عن بنى الإنتاج والاستهلاك بقدر ما هو إقصاء من العلاقات الاجتماعية وأنماط فهم الذات التي تُنعم علينا بالمعرفة وتقدير الذات والمعنى. معظم مشاكل المجتمع الحديث ليست إذاً حصيلة الرواتب غير المناسبة بل هي نتيجة البنى الاجتماعية، والأيديولوجيات والمعطيات الثقافية التي تمنع الناس من تحقيق قدراتهم ومن ممارسة حياة راضية مرضية في مجتمعاتهم»[١٢].

ثمة توضيح أكثر لمسألة العلاقة بين المال والسعادة تقدّم به كلٌ من روبرت لين (Robert Lane) وإد دينر (Ed Diener) ورؤوت فينهوفن (Ruut Veenhoven). يقول هؤلاء[١٣] إنه «بعد نقطة معينة، تضعف العلاقة بين المال والسعادة ثم تتبدد. وهذا ينسف الفكرة الاقتصادية المغلوطة التي يتغنى بها بعض السياسيين والأكاديميين بأنه بعد تجاوز الفقر أو مستويات الحاجات الأساسية، ستوفّر الدخول المرتفعة السعادة والسلام الداخلي». وهذا أيضاً ما تنفيه بقوة الدراسات والأرقام. إذ ثمة إجماع متزايد بين العديد من علماء النفس والاجتماع على أن الاكتئاب في الغرب، على سبيل المثال، يتزايد بدل أن يتناقص منذ خمسينيات القرن العشرين، وبخاصة بين الشباب، بنحو الضعفين مع كل جيل. هذا رغم بزوغ دولة الرفاه في كل البلدان الغربية. وفي العام ٢٠٠٢ استطلعت مؤسسة بريطانية آراء ٢٢ ألف مواطن بريطاني يعيشون في المدن، معظمهم تحت سن الثلاثين. وجاءت النتيجة كالتالي:

- ٧٦ بالمئة منهم يشعرون بتعب بشكل منتظم.

(١٢) Jonathon Porritt, *Capitalism as if the World Matters* (New York: Earthscan Publications, 2007).

(١٣) Robert E. Lane, «Diminishing Returns to Income Companionship – and Happiness,» *Journal of Happiness Studies*, vol. 1, no. 2 (2000), pp. 103-119; Ed Diener [et al.], «Positivity and the Construction of Life Satisfaction Judgments: Global Happiness is not the Sum of Its Parts,» *Journal of Happiness Studies*, vol. 1, no. 2 (2000), pp. 159-176, and J. J. Ehrhardt, W. E. Saris and Ruut Veenhoven, «Stability of Life – Statisfaction Over Time: Analysis of Change in Ranks in a National Population,» *Journal of Happiness Studies*, vol. 1, no. 2 (2000), pp. 177-205.

ـ ٥٨ بالمئة يعانون تقلبات المزاج.

ـ ٥٢ بالمئة يشعرون بالافتقار إلى العاطفة والحوافز.

ـ ٥٠ بالمئة يعانون القلق.

ـ ٤٧ بالمئة يجدون صعوبة بالنوم.

ـ ٤٣ بالمئة يعانون ضعف الذاكرة أو يجدون صعوبة في التركيز.

ـ ٤٢ بالمئة تعرضوا للاكتئاب(١٤).

هذا الاستطلاع تكرر بحذافيره تقريباً في العديد من دول العالم، سواء الغني منه أو الفقير، الأمر الذي رسم علامات استفهام كبرى عن مضامين كل من «الحلم الأمريكي» الذي تسيّد على عقول البشر منذ قرن، ومعه حتى أيضاً ما يسمى الآن « الحلم الصيني».

فالحلم الأمريكي «بات مجرد قبلة موت تتكوَّن من الأعمال الرتيبة، والنزعة الاستهلاكية، والاستسلام للقدر؛ ومن مقايضة الروح البشرية بالطاعة والتفاهات الاستهلاكية المادية». وبدل أن يكون هذا الحلم منصة انطلاقٍ لإنسان جديد متحرر من القيود والعبودية، بات الأمريكيون «أمة خاضعة، صموتة، تابعة. والأمر الجنوني هنا هو أن الأمريكيين لا يدركون هذه الحقيقة وما زالوا يعتبرون أنفسهم أحراراً»(١٥).

«الحلم الصيني»، الذي برز بكثافة في الثقافة والإعلام الصينيين بعد النهوض الاقتصادي للصين الذي حوّلها مع مطالع القرن الحادي والعشرين إلى ثاني أكبر اقتصاد في العالم، يسير على ما يبدو على الطريق نفسه الذي سار عليه الحلم الأمريكي. فبرغم أن هذا الحلم الشرقي الجديد يشير إلى قدرة الإنسان على تغيير وضعه الموروث ليرتقي السلّم الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي، إلا أنه يترافق مع جملة سلبيات ضخمة ستطرح عاجلاً أو آجلاً هذا الحلم على محك التشريح: مستويات التلوث وتدمير البيئة المنفلت من عقاله؛ سيادة روح التنافس القاتل بدل التضامن والتعاون؛ الفروق الهائلة بين الريف والمدينة وبين الطبقات الغنية الجديدة والفقيرة والمعدمة؛ وفقدان الحريات السياسية والثقافية. وفوق هذا وذاك، الابتعاد عن «الطاو»، أي طريق الارتقاء الروحي الذي بشّرت به الفلسفة الصينية، وإن كانت الأجهزة الرسمية الصينية تنشط لنشر تعاليم كونفوشيوس ولاوتسي

---

(١٤) في عددها الصادر في ١٢ تموز/يوليو ٢٠١٤، أجرت مجلة **الإيكونوميست** تحقيقاً واسعاً عن الشبان في أوروبا لحظت فيه تراجعاً ملحوظاً في مستويات العنف والجريمة والإفراط في تناول الكحول والمخدرات لديهم، بعد أن كانت مجلة **التايم** الأمريكية أجرت قبل ذلك استطلاعاً قال فيه ٥٤ بالمئة من الآباء والأمهات الأوروبيين إن أولادهم «بدؤوا يتصرفون كحيوانات». **الإيكونوميست** ردّت هذا التراجع إلى أسباب عدّة متقاطعة منها المبادرات الحكومية، وانتشار تكنولوجيا المعلومات والتواصل الاجتماعي، وردود الفعل على «جنون» المراحل السابقة. لكنها مع ذلك اكتشفت في الوقت نفسه أن قطاعاً واسعاً من الشبان الأوروبيين شخّصوا على أنهم يعانون القلق والاكتئاب، وهم مهجوسون بالخوف على وظائفهم ونادراً ما يشعرون بالرضى والاكتفاء.

(١٥) انظر: «Zoltan Istvan,» Good Reads, <http://www.goodreads.com/search?q=zoltan+istvan&search%5bsource%5d=goodreads&search_type=books&tab=books>.

الأخلاقية والروحية في أنحاء العالم على أنها سياساتها وفلسفتها التناغمية الخاصة في الداخل والخارج.

خامساً: أين الحلم الحقيقي؟

الحلم الإنساني الحقيقي هو الذي غاب عن كل الأحلام التي تحطمت في خضم التكسرات الضخمة الراهنة في المجتمعات البشرية. هذا الحلم الذي يفترض أن يحقق للبشر السلام الداخلي والسعادة ولو النسبية، والتضامن والتعاون في المجتمع وبين المجتمعات، بدل التنافسات الضارية والحروب. هذا الحلم الغائب عن لوحة التطورات العالمية يستند إلى معادلة بسيطة للغاية: إعادة اكتشاف الوحدة في الكثرة، وبالتالي التوحّد مع الطبيعة والكون وكل المخلوقات بدل العزلة القاتلة. هذا في حين أن هذه الأحلام السابقة لم تُسفِر في الواقع إلّا عن خلق ما يسمى «الزومبي الفلسفي»، وهو مفهوم يشير إلى مخلوق (أو في التقليد الشعبي «الميت الذي يسير على قدمين») لا يمكن تمييزه بالشكل عن الإنسان الطبيعي، لكنه في الواقع يفتقد الوعي ورقة الأحاسيس والمشاعر. والمشكلة مع هذا الزومبي أنه لا يشعر بالألم ولا التعاطف ولا المشاعر المرهفة، لكنه يتصرف تماماً وكأنه يحس بالألم.

أجمل تعبير عن هذا «الزومبي الفلسفي» كانت بريشة رسّام الكاريكاتور غاري لارسون. في إحدى رسومه، نجد بقرة ترفع رأسها فجأة بين زميلاتها لتقول: «انتظروا لحظة. هذا عشب. نحن نأكل عشباً». وفي كاريكاتور آخر، يقف خروف بين جمهرة خراف ليصرخ قائلاً: «مهلاً مهلاً. اسمعوني. لسنا مضطرين إلى أن نكون خرافاً». لكننا بتنا بالفعل، مع الطفرة الهائلة في النزعات الاستهلاكية والفردية الأنانية والانفصالية عن الطبيعة والاجتماع البشري التعاوني، أشبه بأبقار لارسون التي لا تعي أنها تأكل العشب أو بخرافه التي لا تدرك أنها خراف.

قد يقال هنا إن هذه في الواقع هي حال البشرية منذ ولادة الحضارة وحتى الآن. صحيح أن الظروف الحياتية والمعيشية انقلبت رأساً على عقب مع التكنولوجيات الزراعية والصناعية والآن الإلكترونية، لكن عقولنا لا تزال أسيرة معطيات العصور الحجرية، بكل ما تضمنته من مخاوف وقلق ورعب وصراع من أجل البقاء، وأيضاً مع هذا القلق الوجودي الذي تحدث عنه لوكريس. فما الجديد إذاً؟

حسناً. الجديد هو أن وعْيَنا الأناني الراهن الذي لا يزال مُلتصقاً بمرحلة الصراع على البقاء (أي توفير مقومات الحياة والاستمرار)، لم يعد ضرورياً. لا بل هو بات يُهدد بتدمير الجنس البشري ومعه الحياة برمَّتها على كوكب الأرض، من خلال تغيير المناخ والاحتباس الحراري، وتلويث البحار والمحيطات والتربة والغلاف الجوي، والتلاعب بشكل غير حكيم بقوى الطبيعة (الذرّة والطاقة) والحياة (الجينات والبيوتكنولوجيا)، واستنزاف موارد الماء والتربة الحيّة والحياة البحرية، وانفجار معدلات الاستهلاك غير الضروري، وانفلات الغرائز الدينية والقومية المدمّرة (مجدداً).

لم يعد كوكب الأرض يتحمَّل هذه العربدة البشرية المريعة. فحلم الإنسان بات كابوس الحياة. وخليفة الله على الأرض أصبح الجنس الذي استحق طوفان نوح الإبادي، لأنه بدل أن يكون الإنسان على صورة الله، قام هو بخلق الله على صورته المدمّرة والغرائزية المنفلتة من كل عقال.

هل لا يزال ثمة فرصة بعد لمغادرة هذا الجحيم المقيم قبل فوات الأوان، عبر وعي جديد، صافٍ ومتجاوز وكلي، يحل مكان الوعي القديم الحالي الأناني والمدمِّر؟

هذا ما سيحاول هذا الكتاب التطرق إليه، على الصعد كافة؛ الاستراتيجية والاقتصادية والعلاقات الدولية، كما على المستويات البيئية والفكرية والثقافية والحضارية. في الفصل **الأول**، سنتطرق إلى الوضع الدولي والعولمة واستراتيجيات الدول الكبرى ودورها في تعميق جهنم الأرضية (تماماً كما كانت تفعل الإمبراطوريات الغابرة في كل التاريخ البشري المستندة إلى ما أسميناه «الوعي المكيافيلي»)، وإلى صراعات القوى الأنانية العمياء التي لا تزال تترى، برغم المخاطر الجمة والهائلة التي تتعرّض لها بيئة الحياة على كوكب الأرض، والتي ستكون موضوع الفصل **الثاني**.

أما الفصل **الثالث** فسيتطرق إلى حروب الطاقة المدمّرة، والتي أضيفت إليها في السنوات الأخيرة طاقة النفط والغاز الصخريين التي تُهدد الآن بكوارث جيولوجية وإيكولوجية جديدة قد تكون أخطر. وسنستكمل هذه الإطلالة في الفصل **الرابع** على الطريقة التي يوضع فيه العلم في خدمة الجنون، من خلال التطويرات التكنولوجية التي تستخدمها الرأسمالية النيوليبرالية الآن للعمل على السيطرة على عقول البشر، وربما أيضاً لخلق كائنات ما بعد بشرية في إطار ما يسمى «الحركة العابرة للإنسان».

الفصول من **ستة** إلى **تسعة** ستتابع الجهود الكثيفة والحثيثة التي تُبذل حالياً في أصقاع عديدة من العالم، لبلورة وعي بشري جديد، وحضارة بشرية جديدة، وعولمة جديدة. الهدف: إنقاذ مستقبل الحياة على الأرض، وبناء مجتمع عالمي مسالم ومتعاون ومتضامن، مع زيارة خاصة لـ «الانبياء» الذين يقفون وراء هذه الجهود لتغليب الحكمة على الجنون في المغامرة البشرية.

أما **الخاتمة** فستتطرق إلى النظريات المتشائمة والمتفائلة حول إمكان خروجنا نحن البشر من جهنم الراهنة التي نعيش، عبر ما أسميناه «انتفاضة العنقاء البيضاء».

وعلى الرغم من أن هذه المقاربة قد تبدو متوسِّعة وتسير على عكس تيار الدراسات الحديثة الأكثر تحديداً وتخصصاً، إلا أنها ضرورية في الواقع لمحاولة التعرُّف إلى مجمل عناصر بنية الأزمة الكبرى الراهنة في الحضارة البشرية؛ وأيضاً لتصفية الحساب مع المقاربات التجزيئية التي فصلت الإنسان عن الطبيعة والكون وباقي البشر والكائنات، وحتى عن نفسه، في إطار عملية اغتراب شاملة ومدمِّرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

لنبدأ رحلتنا معاً مع «جهنم» العلاقات الدولية.

الفصل الأول

العولمة والنظام الدولي: السلام حروب بوسائل أخرى

الغرب ربح العالم ليس بسبب تفوُّق أفكاره أو قِيمه أو دينه، بل بسبب تفوقّه في ممارسة العنف المنظّم.

صموئيل هنتينغتون

الحقيقة المروِّعة هي أننا نستعد للحرب كعمالقة غاية في التطور، ونستعد للسلام كأقزام متخلِّفين عقلياً.

ليستر بيرسون

أقفل القرن العشرون على فكرة اكتسحت العديد من مراكز الأبحاث والإعلام والبرامج الحكومية وغير الحكومية في الغرب، قوامها أن الجنس البشري دخل مرحلة ضخمة غير مسبوقة في تاريخه الحديث: مرحلة ستنقل فيها العولمة، المُستندة إلى الثورات المذهلة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والمواصلات والبيوتكنولوجيا، هذا الجنس إلى نظام عالمي جديد يحكم قرية عالمية واحدة، تسودها قوانين التجارة الحرة، والتنافس السلمي، والاعتماد المتبادل، والتعاون لمكافحة آفات العصر الجديدة، من الفقر والإرهاب والجريمة المنظَّمة والأمراض والأوبئة إلى انتشار أسلحة الدمار الشامل.

لقد حققت الرأسمالية الليبرالية ونمط الحياة الغربي الاستهلاكي (وبالتالي العولمة في طبعتها الأمريكية) نصرهما النهائي، وبدأ العالم، أخيراً، يحث الخطى نحو نهاية التاريخ[1]. هذه المقولة لم

(١) لم يكن فرانسيس فوكوياما بالطبع هو من اخترع مفهوم «نهاية التاريخ» في كتابه **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** *The End of History and the Last Man* عام ١٩٩٢. إذ سبقه إلى هذا المفهوم الفلسفي والسياسي الذي يفترض بروز نظام يشكِّل ختام تطور البشرية الاجتماعي ـ الثقافي عبر شكل نهائي من الحكم، كلٌ من توماس مور في (Utopia) وفريديريك هيغل (على الرغم من أن مفهومه لنهاية التاريخ جاء غامضاً) وكارل ماركس وفلاديمير سولوفيوف (Vladimir Solovyov). وعلى أي حال، عدّل فوكوياما موقفه في كتابه واعترف بأنه لا يمكن فصل الثقافة تماماً عن الاقتصاد. انظر: Francis
= Fukuyama, *Trust: The Social Virtues and Creation of Prosperity* (New York: Free Press, 1995).

تقتصر فقط على أنصار الرأسمالية والفكر الرأسمالي، الذين انطلقوا من نهضة الصين والهند وبقية السرب الآسيوي للإعلان أن العولمة بدأت في تحقيق وعد انتشال مئات ملايين الناس من براثن الفقر والعوز، بل شمل أيضاً العديد من اليساريين الذين اتفقوا مع اليمينيين على نقطة جوهرية كبرى واحدة هي أن الدولة ـ الأمة أو الدولة القومية (التي استندت إليها الرأسمالية في نهضتها الأولى في أوروبا) قد انقضى عهدها الذهبي وانتهت مهمتها التاريخية، وبات مطلوباً الآن تجاوزها إلى رحاب العولمة والقرية العالمية.

اليمين دعا إلى أن يتم ذلك باندماج كل الشعوب والخلائق بالعولمة بكل أشكالها وشروطها ومؤسساتها وشبكاتها بلا قيد أو شرط، وهو اعتبر هذا الاندماج أمراً بديهياً بل ومحتماً. فقد وصلت البشرية إلى نهاية تاريخها، وانتهت الصراعات بين الرأسمالية الليبرالية وأعدائها لمصلحتها، ولن تكون المسألة سوى مسألة وقت قبل أن تتحوّل السوق الاقتصادية العالمية الجديدة، التي برزت بحلتها الكاملة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، إلى دولة عالمية موحّدة.

هذه الحتمية عبّر عنها بجلاء توماس بارنيت، أحد المحللين الاستراتيجيين في وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) في دراسته المعنونة **خريطة البنتاغون الجديدة: الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين**[٢]، والتي أوضح فيها أن الولايات المتحدة تبحث الآن عن استراتيجية جديدة، تحل مكان تلك التي كانت موجودة إبان الحرب الباردة. قال:

«أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كشفت عن وجود ثغرة بين القوة العسكرية التي كان هدفها هزيمة الشيوعية، وبين قوة عسكرية مغايرة يجب أن تعمل لضمان هدف العولمة النهائي وهو إنهاء الحرب كما نعرفها. ثورة المعلومات والاتصالات غيّرت معالم الصورة الدولية، لكن الولايات المتحدة كأمّة لما تفهم بعد مضاعفات هذا التطور الكبير. فقواتها العسكرية لا تزال تعمل على أساس ردود الفعل على الأزمات. صحيح أنها تدخلت عسكرياً في حقبة التسعينيات بأكثر مما فعلت طيلة الحرب الباردة، إلا أن البنتاغون صنّف هذه التحركات تحت خانة «العمليات العسكرية» لا تحت خانة «الحرب»، وكأنه يريد أن يقول إنه لا معنى استراتيجياً لها».

وهذا ليس صحيحاً، برأي الكاتب. فالعمليات العسكرية وحالات الانتشار الحربي، تركّزت في تلك الأجزاء من العالم المُستبعَدة عمّا يسميه «مركز العولمة الفاعل». وهو يعرِّف هذا المركز كالآتي:

= وفي **التمزق الكبير** (٢٠٠٠) شدّد فوكوياما على أن الخروج من اللانظام الذي أثاره عصر المعلومات (والعولمة)، لا يكون بالاستناد إلى النزعة الفردية بل إلى القيم الاجتماعية و«الرأسمال الاجتماعي». وهذه كانت طلقة أخرى ضد فرضية السيطرة النيوليبرالية المُنهية للتاريخ. انظر: Francis Fukuyama, *The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order* (New York: Free Press, 2000).

(٢) نشر بارنيت دراسته أولاً في مجلة *Esquire* ثم حوّلها في العام ٢٠٠٤ إلى كتاب بالعنوان نفسه. انظر: Thomas Barnett, *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty-First Century* (New York: G.P Putnam's Sons, 2004).

١ ـ أي دولة أو منطقة تكون فاعلة، إذا ما كانت تتفاعل مع مضمون التدفقات التي تتأتى من خلال إدماجها ما هو قومي بما هو اقتصاد عالمي (الأفكار، المال، الإعلام).

٢ ـ أي دولة أو منطقة تكون فاعلة حين تسعى إلى تنسيق «قواعد حكمها الداخلي» مع الحكم العالمي الصاعد للديمقراطية، وحكم القانون، والأسواق الحرّة (مثلاً عبر الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية). ومن هي الدول أو المناطق التي تقطن الآن مركز العولمة؟ إنها برأيه أمريكا الشمالية، أوروبا، روسيا، اليابان، الصين (عدا ريفها)، الهند، أستراليا، نيوزيلندا، جنوب أفريقيا، الأرجنتين، البرازيل وتشيلي. مجموع سكان هؤلاء يبلغ ٤ مليارات نسمة.

ومن خلال مسحه لـ ١٤٠ عملية عسكرية أمريكية في فترة التسعينيات، يكتشف بارنيت أن القوات الأمريكية ذهبت بالتحديد إلى الدول الواقعة خارج مركز العولمة التي يسميها «الفجوة غير المندمجة» وهي: حوض الكاريبي، أفريقيا، البلقان، القوقاز، آسيا الوسطى، الشرق الأوسط، وجنوب غرب آسيا وأقسام واسعة من جنوب شرق آسيا. في كل هذه المناطق، كان الاندماج المتعولم ضعيفاً أو غائباً. إن دولاً ما تكون «غير متصلة» حين تفشل في كسب ثقة الشركات متعددة الجنسيات بها، الأمر الذي يحد من الاستثمارات الخارجية. وهذا يمكن أن يحدث لأن الدولة إما أن تكون ثيوقراطية، أو معزولة جغرافياً، أو مرتبطة بالعالم عبر أنظمة فاسدة.

ويرى المؤلف أن أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر كانت «هبة من السماء، على الرغم من قسوتها». فهي كانت دعوة من التاريخ إلى الولايات المتحدة كي تفيق من حلم التسعينيات، وتبدأ في فرض قواعد جديدة للعالم. العدو في العالم الجديد ليس الإسلام ولا المكان، بل عدم الارتباط بإمبراطورية العولمة، الأمر الذي يعني العزلة، والحرمان، والقمع، وعدم التعليم. وهذه كلها علامات خطر. وبالتالي، إذا ما فشلت دولة ما في الانضمام إلى العولمة، أو رفضت الكثير من تدفقاتها الثقافية، فإنها ستجد في نهاية المطاف القوات الأمريكية فوق أراضيها.

وفي هذا الإطار، يرى بارنيت أن تدخلات التسعينيات، لم تعكس الفوضى ولا العشوائية بل تحديدات جديدة لطبيعة الصراع في عصرنا. وهو «صراع تاريخي يصرخ مطالباً برؤية إمبراطورية أمريكية جديدة لعالم يستأهل خلقه». ويُشدِّد على أن لدى الولايات المتحدة مسؤولية استخدام قوتها الهائلة لجعل العولمة عالمية حقاً. وإلا فإن أجزاء من البشرية ستُدان بصفتها خارج النظام وستعرّف على أنها عدو. وحالما تحدد الولايات المتحدة أعداءها، فإنها ستشن الحرب عليهم، مُطلقة الدمار والقتل. وهي حين تتذكَّر أن عدم الارتباط بالعولمة هو العدو النهائي، فإنها، بتوسيعها العولمة لا تهزم فقط الأعداء الذين تواجه اليوم، بل تزيل أيضاً جيلاً كاملاً من التهديدات التي قد يواجهها الأحفاد. كل هذا برأي بارنيت، ليس إدماجاً بالقوة، ولا تمدداً إمبراطورياً، بل «توسيعاً للحرية».

أولاً: اليسار والعولمة

اليسار (الجديد)، من جهته، يوافق على هذا التحليل اليميني. لكنه يرى فيه على العكس تحققاً لنظريات كارل ماركس وروزا لوكسمبورغ التي شددّت على أن ميل الرأسمالية إلى التوسّع الدائم، سيدفعها في نهاية المطاف إلى تحطيم كل الحدود القومية وتوحيد العالم. وهكذا، وكما اعتبر ماركس رأسمالية القرن التاسع عشر ظاهرة تقدمية، أطلّ بعض اليساريين الجدد على العولمة الليبرالية بالمثل مُصفقين لها وداعين إلى الاندماج بها، ولكن ليس بهدف تأبيدها بل على العكس لتحويلها إلى عولمة إنسانية، أو مابعد ـ حديثة، أو مابعد ـ إمبريالية. بكلمة: دعا بعض اليسار إلى توحُّد شعوب كل العوالم الأولى والثانية والثالثة في إطار هوية عالمية جديدة، ومواطنة عالمية جديدة، و(في خاتمة المطاف) عولمة اشتراكية ـ ديمقراطية جديدة، بقيادة «البروليتاريا الأثيرية» (أي عمال عصر ثورة المعلومات والاتصالات).

بيد أن عقدين من الزمن، في إثر سقوط الحواجز الاشتراكية أمام السوق العالمية، أثبتا خطل كلٍ من النظريات الرأسمالية حول نهاية التاريخ[٣] وبداية تاريخ «إمبراطورية جديدة» وفق اليسار. ما حدث لم يكن في الواقع بروز نظام جديد مضبوط بسلطة إمبراطورية جديدة، بل لانظام أو فوضى عالمية موصوفة. لا بل أكثر: بدل الحديث عن تقدم لا رجعة فيه للعولمة، بدأ الكلام، وإنْ خافتاً، عن احتمال تراجع العولمة الراهنة أو ربما انحسارها إلى مناطق محددة في العالم الأول. المبررات التي قُدِّمت لتبرير هذا المنطق كانت عديدة[٤]:

---

(٣) كان العديد من الباحثين الأمريكيين أوّل من تصدّى لفكرة نهاية التاريخ. على سبيل المثال، قال وولتر رسل ميد (Walter Russell Mead) في دراسته إن تحدي روسيا والصين وإيران للزعامة الأمريكية العالمية أنهى حلم الأمريكيين بنهاية التاريخ، «وسيحتم عودة الاستراتيجية والمفاهيم الجيو ـ سياسية إلى السياسة الخارجية الأمريكية». انظر: Walter Russell Mead, «Grand Startegy: The End of History Ends,» *The American Interest* (2 December 2013), <http://www.the-american-interest.com/2013/12/02/2013-the-end-of-history-ends-2/>.

وقال هنري كيسنجر في العدد السنوي ٢٠٠٩ لمجلة **إيكونوميست** (*Economist*): «عاشت أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي الوهم بأن الاقتصاد الأمريكي يستطيع تعزيز نفسه من خلال الديون إلى ما لانهاية، وبأنها قادرة على تحقيق أهداف سياسية عالمية من خلال الشعارات لا عبر الجدوى الاستراتيجية. لكن هذه المرحلة (أي نهاية التاريخ) انتهت الآن».

(٤) الدراسات التي تتحدث عن احتمال تراجع العولمة تزايدت بعد الأزمة المالية الأمريكية العام ٢٠٠٨، منها: David Francis, «Is This the End of Globalization?,» *The Fiscal Times* (28 February 2013).

أشار فوكوياما إلى تراجع كبير في حجم الاستثمارات والتدفقات المالية بين الدول (من ١١,٨ تريليون دولار عام ٢٠٠٧ إلى ٥ تريليونات عام ٢٠١٢)، ولم يستبعد عودة الرساميل إلى التركيز على الأسواق المحلية لا الدولية.

وهذه النقطة الأخيرة أكّدها أيضاً الباحث جوشوا كوبر رامو (Joshua Cooper Ramo)، نائب رئيس «كيسنجر أسوسياتس» في مقال له انظر: Joshua Cooper Ramo, «Globalism Goes Backward,» *Fortune* (20 November 2012), <http://fortune.com/2012/11/20/globalism-goes-backward/>, and Jason Miks, «Have We Reached the End of Globalization,» *Global Public Square* (4 January 2014), <http://globalpublicsquare.blogs.cnn.com/2014/01/04/have-we-reached-the-end-of-globalization/>.

يشير هذا المقال إلى مرور العالم في مرحلة من الصعود الحاد للنزعة الحمائية التي ذكّرت البعض بما حدث من نزعات مماثلة في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. =

أولاً، على الرغم من أنه كان هناك بالفعل فترة طويلة من الترابط الدولي المتبادل، إلا أنه ليس ثمة سبب للافتراض أن مثل هذه العمليات ستستمر إلى ما لانهاية، أو أنها تمتلك ديناميات داخلية كامنة قادرة على اكتساح كل القوى المناكفة لها أو المعترضة عليها. والحال أن السنوات الخمسين الأخيرة من العولمة في الفترة بين ١٩٥٠ و٢٠٠٠، لم تكن أكثر تميُّزاً من عولمة الحقبة بين ١٨٥٠ و١٩١٤ بقيادة بريطانيا، حين كانت تدفقات التجارة والاستثمارات الرأسمالية والهجرة العمالية حتى أضخم من تلك التي تحدث الآن. لا بل أدى التغيّر التكنولوجي آنذاك، المتمثّل ببرقيات التلغراف الدولية، دوراً أكبر من التكنولوجيا الحالية في توحيد الأسواق، والاندماج المالي، وتطابق نسب الفوائد، ورفع مستويات تصدير الرساميل إلى مستويات غير مسبوقة. وهذا ما لا يحدث الآن، حيث هناك قيود على تدفقات الهجرة في الدول المتقدمة، ومناكفات حول التجارة الحرة، وسياسات حمائية في وجه دول الجنوب.

ومع ذلك، انهارت عولمة القرن التاسع عشر في العام ١٩١٤، وانهار معها نظامها، أساساً بفعل السياسات القومية المتنافسة، وردود الفعل العنيفة داخل الدول على هذه العولمة القديمة.

ثانياً، العولمة التي استعادتها الولايات المتحدة بعد العام ١٩٤٥، تمّت عبر القوة العسكرية والسياسات القومية الأمريكية، ولم تكن بأي حال من طبائع الأمور. آنذاك، قَبِلَت الولايات المتحدة (ولأسباب تتعلق بكلٍ من هدف إنجاح نظامها العالمي الجديد والحرب الباردة) بدفع أكلاف هذا النظام من خلال التسامح مع الاستراتيجيات الحمائية القومية التي طبّقتها دول تابعة لها كاليابان وكوريا الجنوبية، ولاحقاً إلى حد ما الصين. وهذا كان شبيهاً بما فعلته بريطانيا خلال حقبة الباكس بريتانيكا.

بيد أن الوضع مختلف الآن. فالولايات المتحدة لم تعد مستعدة للعمل كما فعلت في مرحلة ما بعد ١٩٤٥. فهي أصبحت مستورداً رئيساً للرساميل، وبالتالي فهي تتعاطى مع قيمة الدولار بوصفه قضية تابعة للإدارة الاقتصادية القومية. وهي تعزز اللبرلة التجارية، فقط في المجالات التي تتمتع فيها بتفوق تنافسي كاسح، فيما ترفض فتح أسواقها في قطاعات رئيسة، كما ترفض السماح بتطبيق استراتيجيات حمائية قومية في الدول النامية. وهذا أيضاً ما تفعله القوى الاقتصادية الكبرى الأخرى:

= انظر أيضاً: Pankaj Mishra, «The Dead End of Globalisation Looms before Our Youth,» *The Guardian* (25 August 2011), <http://www.theguardian.com/commentisfree/2011/aug/25/dead-end-globalisation-youth-rage>.

يورد ميشرا لائحة طويلة من حملات الاعتراض التي بدأت تظهر في كل أنحاء العالم، من إسرائيل إلى الهند مروراً بأوروبا، ضد نظرية العولمة لأنها تستند إلى نمو اقتصادي على حساب الطبقات الوسطى والعمالية.

انظر أيضاً: Heather Stewart, «Is This the End of Globalization?,» *The Observer* (5 March 2006), <http://www.theguardian.com/business/2006/mar/05/money.theobserver>.

يتضمّن المقال تأريخاً سريعاً للسياسات الحمائية منذ عهد جورج واشنطن. وينقل عن الباحث الاقتصادي الأمريكي بول كروغمان (Paul Krugman) قوله: «لا أعتقد أن السياسيين سيكونون أغبياء إلى درجة تكرار أخطاء ١٩٣٠، لكن من يدري؟ لعلي أنا شخصياً ساذج».

ألمانيا واليابان. وهذا يعني أن وعد العولمة بإزالة الفجوة بين العالمين المتقدم والنامي ليست سوى أضغاث أحلام.

ثالثاً، إذا ما كانت العولمة تعني (كما الأمر الآن) هيمنة مجموعة السبعة الكبار على الحوكمة الاقتصادية العالمية والسيطرة الأمريكية المطلقة في الجانب العسكري، فهذا يكشف سريعاً عن الحدود الكامنة للعولمة التي ينظر إليها على أنها عملية تقود إلى انحدار الاقتصادات القومية وسلطة الدولة. إذ هي تخلق في الواقع عالماً مختلاً وغير متساوٍ يقوم على الصراعات والنزاعات العنيفة، ويستند إلى سيطرة إمبريالية جماعية تتمثّل بالتكتلات الاقتصادية الكبرى.

مثل هذه «الإمبريالية الجماعية» المُفترضة لا تبدو الآن في وارد التخلي عن النظام العالمي الراهن، ولا هي مستعدة للقيام بخطوات محددة لمواجهة الأزمات الدولية العديدة الزاحفة (من كارثة تغيُّر المناخ إلى انتشار العنف والإرهاب، والأوبئة والفقر لدى ثلثي البشرية) والصعوبات التي تواجهها الشعوب خارج إطار مجموعة السبعة. وبالتالي، كل الدلائل تشير إلى أن العلاقات الدولية الكلاسيكية القائمة على القوة وموازين القوى باقية كما هي. وهذا يتجسّد الآن في السيطرة العسكرية للولايات المتحدة وحلفائها على البحار والأجواء الدولية وطرق التجارة الرئيسة والمداخل إلى نظام التجارة العالمي.

بيد أن لقوة الإمبريالية الجماعية حدوداً. وهي حدود تزداد ضيقاً مع صعود قوى جديدة إلى قمرة القيادة العالمية، من روسيا والصين والهند والنمور الآسيوية إلى البرازيل وجنوب أفريقيا وتركيا وإندونيسيا. وكلها تطالب بمكان تحت شمس النظام العالمي. وهذا ما يرجِّح تحوّل العالم إلى ساحة يتجدد فيها الصراع بين الرأسماليات الكبرى القديمة (أمريكا، أوروبا، اليابان) والجديدة (الصين والهند وروسيا). ساحة ستشهد تصاعداً في المخاطر الأمنية، وتصعيداً للحرب ضد ما يسمى الإرهاب، وحروباً منخفضة الوتيرة، وغزوات أمريكية وأوروبية للدول الفاشلة والملاذات الآمنة للإرهاب، وحروب موارد بين الدول الأقل تطوراً تشمل تدخّل الدول الكبرى مع وكلائها الإقليميين والمحليين، وتفاقم الخلافات والصراعات بين الدول الكبرى حول الموارد الطبيعية والأسواق والتجارة.

الآن، ولأن الفوضى الدولية لها قوانينها هي الأخرى، يصبح التساؤل ضرورياً ليس فقط حول طبيعة ومستقبل العلاقات بين الدول الكبرى والصاعدة، أو بالأحرى بين الرأسماليات قديمها والجديد، في إطار سيناريوهات محددة، بل أيضاً حول التأثيرات الضخمة لمثل هذا التطور على مستقبل بيئة الأرض ومعها مصير الحياة على كوكب الأرض.

لكن، قبل التطرق إلى هذه النقطة، ولكي تكتمل صورة هذه السيناريوهات المفترضة، فلنتوقف معاً أولاً أمام مقاربات كل اللاعبين الكبار في هذه الرقصة الدولية الجديدة، أي الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبي والصين والهند واليابان.

ثانياً: الاستراتيجية الأمريكية

كان الجدل الساخن لا يزال ساخناً في الولايات المتحدة منذ أوائل القرن الحادي والعشرين، حول الوسيلة الأنجع للحفاظ على الزعامة العالمية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين. وهو جدل يدور بين معسكرين رئيسيين اثنين: **الأول**، يدعو إلى تقليص الالتزامات الأمنية ـ العسكرية الأمريكية في العالم إلى حد كبير، والتركيز بدلاً من ذلك على «بناء الأمة» في الداخل الأمريكي وعلى تطوير الاقتصاد والبنى التحتية والتعليم؛ **والثاني**، يطالب بإبقاء الاستراتيجية الكبرى الراهنة القائمة على الحفاظ على النظام الدولي الراهن بقوة السلاح الأمريكي، ويحذَر من أن التخلي عن هذه الاستراتيجية والتقوقع في الداخل، سيعنيان نهاية الدولار كعملة احتياطي عالمية مُهيمنة ومعه البحبوحة الاقتصادية الأمريكية.

أحد ممثلي التيار الأول، باري بوسن (Barry R. Posen) مدير برنامج دراسات الأمن في مؤسسة ماساشوستس للتكنولوجيا، نشر في العام ٢٠١٣ دراسة بعنوان: «انسحبوا ـ الدفاع عن قضية سياسة خارجية أمريكية أقل نشاطاً»(٥). ومن أهم محاور الدراسة ما يأتي:

ـ استراتيجية الهيمنة الليبرالية الشاملة على العالم غير منضبطة، ومكلفة، ودموية، وهي تخلق أعداء بالقدر نفسه الذي تقتلهم فيه. كما أنها تثبط عزيمة ورغبة الحلفاء في تحمُّل أكلاف الدفاع عن أنفسهم، كما تحفز الدول القومية الأخرى على التجمع في جبهة واحدة ضد أمريكا.

ـ على الرغم من أن القوة الاقتصادية النسبية للولايات المتحدة انخفضت إلى حد كبير خلال العقد الماضي، إلا أن البنتاغون لا يزال يحصد الأموال الطائلة والاعتمادات الهائلة. وهذا أمر لم يعد قابلاً الآن للاستمرار، لأنه يضع الولايات المتحدة تحت رحمة خطر التمدد الاستراتيجي الزائد الذي كان العامل الرئيس في تقويض كل الإمبراطوريات السابقة في التاريخ.

ـ آن الأوان للتخلي عن استراتيجية الهيمنة الأمريكية واستبدالها باستراتيجية ضبط النفس. وهذا يعني التخلي عن السعي وراء الإصلاح العالمي، والاكتفاء بالعمل على حماية المصالح القومية الأمريكية الضيقة، وكذلك تقليص عديد وعداد الجيش الأمريكي، والتخلّي عن بعض القواعد العسكرية في أنحاء العالم، وتحميل الحلفاء أكلاف الدفاع عن أنفسهم.

هذه الاستراتيجية البديلة المنضبطة، التي لا تعني بالضرورة عودة الولايات المتحدة إلى عزلتها التاريخية، يجب أن تستند إلى ثلاثة ركائز فقط لا غير:

١ ـ منع بروز منافس قوي يقلب موازين القوى العالمية الراهنة

وهذا، على أي حال، ما كانت تفعله الولايات المتحدة منذ قرن من الزمن وحتى الآن. فالاستراتيجيون الأمريكيون جهدوا كي يضمنوا بألّا تسيطر دولة واحدة على الكتلة البرية لقارة

(٥) Barry R. Posen, «Pull Back: The Case for a Less Activist Foreign Policy,» *Foreign Affairs* (January-February 2013), <https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2013-01-01/pull-back>.

أوراسيا، لأن هذه الدولة ستمتلك حينئذ الموارد الكافية لتشكِّل خطراً على أمريكا. وهكذا فقد خاضت الولايات المتحدة حروباً عالمية ساخنة مع ألمانيا واليابان وأخرى باردة مع الاتحاد السوفياتي لمنع هذه القوى من أن تكون هي هذا الخطر. وعلى الرغم من أن الصين قد تحاول تأدية دور المهمين في أوراسيا إلا أن هذا، برأي بوسن، ليس وشيكاً ولا هو حتى حتمي.

٢ ـ مواصلة القتال ضد الإرهابيين

يتعيّن على الولايات المتحدة أن تحمي نفسها من تنظيم القاعدة وأشباهه. لكن هؤلاء ضعفاء للغاية ولا يشكلون أي تهديد لسيادة أمريكا ووحدة أراضيها أو مواقع قوتها. وبالتالي، تستطيع أمريكا أن تقاتلهم بقوة متكافئة لقوتهم، وليس بشن الحروب أو بالعمل على بناء الأمم كما يحدث الآن في أفغانستان. وهذا يمكن أن يتم من خلال تكثيف العمل الاستخباري، ومطاردة الإرهابيين في الخارج، ومواصلة التعاون مع الحكومات الضعيفة الأخرى ودعمها بالتدريب والتسليح، إضافة إلى شن العمليات الخاصة وغارات الدرونز (الطائرات من دون طيار).

٣ ـ الاهتمام بمنع انتشار الأسلحة النووية

على الاستراتيجية المُنضبطة أن تهتم عن كثب بمنع انتشار الأسلحة النووية لكن مع الاعتماد بشكل أقل على التهديد باستخدام القوة العسكرية لمنع هذا الانتشار، وبشكل أكبر على الردع، إلا إذا ما تطلب الأمر هجوماً عسكرياً وقائياً.

٤ ـ دعوة إلى التواضع

هكذا يرى أنصار الاستراتيجية المُنضبطة إلى الدور الأمريكي في العالم. وكما هو واضح، ليست هذه الرؤية إعادة إنتاج للنزعة الانعزالية الأمريكية التاريخية، بل هي دعوة تنطلق من القلق من أن إمكانات أمريكا الاقتصادية لم تعد متطابقة مع طموحاتها الاستراتيجية التي باتت تنافسها عليها قوى أخرى دولية صاعدة.

وهذا رأي اعترف به تقرير «الاتجاهات العالمية ٢٠٣٠»[٦] الذي وضعته ١٦ وكالة استخبارات أمريكية وجاء فيه أنه «مع الصعود السريع لبلدان أخرى، فإن «لحظة القطبية الوحيدة» الأمريكية قد ولّت، كما أن الباكس أمريكانا، وهي الحقبة التي شهدت الصعود الأمريكي إلى قمرة القيادة العالمية غداة الحرب العالمية الثانية، يتبدد سريعاً».

كما يؤيد هذا الرأي أيضاً الحقيقة بأن السلطة العالمية باتت تتوزع الآن، كما ألمحنا، بين قوى صاعدة جديدة، جنباً إلى جنب مع القوة الأمريكية. وهذه القوى لا توجد فقط في مجموعة

(٦) *Global Trends 2030: Alternative Worlds: A Publication of the National Intelligence Council* (New York: Office of the Director of National Intelligence, 2012), <https://globaltrends2030.files.wordpress.com/2012/11/global-trends-2030-november2012.pdf>.

«البريكس» (البرازيل، روسيا، الهند، الصين، وجنوب أفريقيا) بل أيضاً في مجموعة «المينت» (Mint) (المكسيك، إندونيسيا، نيجيريا، وتركيا).

وبالتالي، سيكون على الولايات المتحدة، برأي أنصار الاستراتيجية المنضبطة، أن تتراجع الآن إلى مواقع جديدة أكثر تواضعاً وواقعية، وإلا ستُجبَر بعد حين على التأقلم فجأة مع التطورات الجديدة وبشكل مؤلم وكارثي، وخطير.

٥ ـ معسكر استمرار الهيمنة

ماذا الآن عن منطق المعسكر الآخر المتمسك بمواصلة استراتيجية «الهيمنة الليبرالية» الأمريكية على العالم؟

وجهة نظر هذا التيار تقوم على التالي[٧]:

ـ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، انتهجت الولايات المتحدة استراتيجية كبرى واحدة: الانخراط العميق في شؤون العالم. فمن أجل حماية أمنها وبحبوحتها، بنت أمريكا نظاماً اقتصادياً عالمياً ليبرالياً، وأقامت روابط دفاع وثيقة مع شركاء في أوروبا وشرق آسيا والشرق الأوسط. وهذا توجُّه التزم به كل الرؤساء الأمريكيون بلا استثناء.

ـ لكن الآن، قد تشعر واشنطن بإغراء للتخلي عن هذه الاستراتيجية الكبرى والانسحاب من العالم، بفعل صعود الصين، والعجوزات الضخمة في الموازنة، والتعب من الحربين المكلفتين في العراق وأفغانستان. لكن هذا سيكون خطأً فادحاً: فخفض النفقات الدفاعية على مدى عشر سنوات لن يوفّر على الخزينة سوى ٩٠٠ مليار دولار. ثم إن ضخامة القوة العسكرية الأمريكية منعت بروز أي دولة كبرى تطمح إلى موازنتها، وهي قوة لا تكلف أمريكا سوى ٤,٥ بالمئة من الإنتاج المحلي الإجمالي، هذا في حين أن الاتحاد السوفياتي كان يصرف ٢٥ في المئة من الإنتاج المحلي الإجمالي على الدفاع، الأمر الذي أدى إلى إفلاسه ومن ثم انهياره.

ـ من دون استمرار الزعامة العالمية الأمريكية، ستتحوَّل العديد من الدول، منها كوريا الجنوبية وتايوان واليابان في آسيا ومصر والسعودية وتركيا في الشرق الأوسط إلى قوى نووية، وسيصبح الاتحاد الأوروبي عاجزاً عن الدفاع عن نفسه في مواجهة روسيا والشرق الإسلامي.

ـ لكن الأهم من كل هذه العوامل، برأي أنصار استمرار الهيمنة الليبرالية الأمريكية، هو الرابط الوثيق بين السيطرة العسكرية لأمريكا وبين هيمنتها الاقتصادية.

فالاستراتيجية الأمريكية الراهنة تحافظ على النظام الاقتصادي العالمي الذي أقامته واشنطن بعد الحرب العالمية الثانية، والذي يخدم إلى حد كبير مصالحها الاقتصادية القومية. وهكذا، فإن

---

(٧) انظر: Stephen G. Brooks, G. John Ikenberry and William C. Wohlforth, «Lean Forward in Defense of American Engagement,» *Foreign Affairs* (January-February 2013), <https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2012-11-30/lean-forward>.

السيطرة العسكرية هي في أساس الزعامة الاقتصادية الأمريكية للعالم. وفي حال سحبت أمريكا وجودها العسكري من معظم المناطق، فسيكون من الصعب عليها للغاية إقناع القوى الدولية الأخرى برعاية المصالح الاقتصادية الأمريكية. والحال أن الدور العالمي يسمح لأمريكا أن تشكّل الاقتصاد العالمي كما ترغب وتشتهي، ويساعدها على الدفاع عن الدولار كعملة الاحتياطي الرئيسة في العالم، الأمر الذي يوفِّر للبلاد مزايا ضخمة على رأسها قدرتها على استدانة المال بسهولة.

ـ كل هذا لا يعني أنه لا يمكن، أو يجب، تعديل الاستراتيجية الكبرى كلما تطلبت الظروف ذلك. وهذا، على أي حال، ما فعله الرئيس نيكسون مثلاً حين سحب أمريكا من فييتنام وعوّض ذلك بضم الصين إليه في معركته ضد الاتحاد السوفياتي. وهذا يوضح أن التعديل ممكن، لكن من دون المسّ بجوهر الاستراتيجية الكبرى الخاصة بالزعامة الأمريكية للعالم.

٦ ـ «استدارة» أوباما

هذه باختصار الخلاصات العامة للتيار الأمريكي الداعي إلى عدم تقليص الالتزامات الأمريكية في العالم، وإلى مواصلة استراتيجية ما يسمونه «الهيمنة الليبرالية».

وكما يتضح من هذه المعطيات، فإن منطق هذا التيار يبدأ وينتهي بفكرة رئيسة واحدة: استمرار الازدهار الاقتصادي الأمريكي لم يعد ممكناً من دون استمرار الهيمنة العسكرية الأمريكية على العالم: بسحب القوات والالتزامات الأمنية لحلفاء أمريكا، تتداعى دعائم الاقتصاد.

أين وقفت إدارة أوباما في هذا التجاذب العنيف في الداخل بين تيارَي «التراجع» و«التقدم» الأمريكيين في العالم؟ يبدو أنها اختارت «منزلة بين منزلتين»، مع ميل أكثر قليلاً إلى تيار التراجع. وهذا واضح وجليٌّ في ما أُطلق عليه في واشنطن تعبير «الاستدارة» (Pivot) أو إعادة التوازن (Rebalancing) نحو منطقة آسيا ـ الباسيفيك، بدلاً من التركيز على أوروبا ـ الأطلسي كما كان الأمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد كرّس الرئيس أوباما جل خطابه أوائل العام ٢٠١٣ عن حال الاتحاد على الشأن الاقتصادي الداخلي، بوصفه المدخل لتعزيز الزعامة الأمريكية العالمية. وهو أطلق على هذه المهمة وصف «إعادة إشعال» الآلة الاقتصادية الأمريكية. وهذا يشمل خفض العجوزات وجبل الديون الضخم، وإعادة تصنيع أمريكا، والتركيز على تكنولوجيات الطباعة ثلاثية الأبعاد (3D-printing) التي تحدث الآن ثورة كبرى في كل مجالات الإنتاج الصناعي[٨]، وبيوتكنولوجيا الجينوم، والنفط والغاز الصخريين (Shale Oil and Gas) الذي سيمنح الولايات المتحدة اكتفاء ذاتياً من الطاقة.

---

(٨) الطباعة ثلاثية الأبعاد (3D-printing) هي أي من العمليات التي تهدف إلى صناعة سلعة ثلاثية الأبعاد من كل الأشكال وفق نموذج يوضع بإشراف كومبيوتر. وبالتالي فهي نوع من الروبطة الصناعية (Indusrtial Robot). انظر: «3D Printing,» Wikipedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/3D_printing>.

وحين تطرق أوباما إلى السياسة الخارجية، كان لافتاً أنه ركّز على رفض شن حروب ضد الإرهاب والاكتفاء بمساعدة الدول الأخرى على محاربته، والعمل على منع انتشار الأسلحة الخطرة (لدى إيران وكوريا الشمالية) عبر الدبلوماسية، وحماية الوطن الأمريكي من الهجمات الإلكترونية. كما أنه شدَّد على ضرورة تسريع المفاوضات حول الشراكة التجارية عبر كلٍ من المحيطين الهادئ في آسيا والأطلسي في أوروبا.

كل هذا أوحى بأن إدارة أوباما طرحت بالفعل توجهات جديدة في التوجهات الأمريكية، قوامها الضبط الاقتصادي «القومي» في الداخل، وخفض الالتزامات (والحروب) الأمريكية في الخارج، وإعادة تركيب نظام العولمة الأمريكي بما يخدم هدفين في آنٍ: **الأول**، احتواء صعود الصين، و**الثاني**، ومواصلة ترسيخ الزعامة الأمريكية على العالم. وهذا يعني بدوره أمرين آخرين: الأمر **الأول**، أن الولايات المتحدة لا يجب أن تنسحب من العالم، بل أن تجري عملية إعادة تموضع وإعادة بناء وتنظيم داخليين، تمهيداً لاندفاعة عالمية جديدة لمحاولة تكريس القرن الحادي والعشرين قرناً أمريكياً؛ والأمر **الثاني**، وهو مشتق من الأول، أن هذا التوجّه سيؤدي في نهاية المطاف إلى تفجُّر صراعات دولية وإقليمية جديدة، وإن بشكل جديد وألوان جديدة.

لكن، هل تمتلك مثل هذه الاستراتيجية المحافظة والمتحفظة حظوظ بقاء؟ يعتقد العديد من المحللين الأمريكيين أن هذا سيعتمد إلى حد كبير على طبيعة العلاقات التي ستكون في ذلك الحين بين الولايات المتحدة وبين كل من الصين وروسيا وإيران في إطار الصراع على قارة أوراسيا. ويرى وولتر رسل ميد أنه «منذ نهاية الحرب الباردة، تعيَّن على الولايات المتحدة أن تتبنى استراتيجية أوراسية منسّقة، تدمج فيها السياسات الأوروبية والشرق أوسطية وجنوب آسيا وشرقها في إطار خطة شاملة واحدة، تعطي الأولوية لإصلاح التحالفات والدفاع عنها بطريقة لم يفعلها أي رئيس أمريكي في حقبة مابعد الحرب الباردة»[٩].

ثالثاً: الاستراتيجية الروسية

قبل تفجّر ثورات الربيع العربي عام ٢٠١١ وما تلاها من أزمات كبرى الشرق الأوسط، كانت الدول الرئيسة في النظام العالمي تنعم بتقسيم أدوار وتقاسم مصالح شبه مستقر، في إطار مؤسسات التعاون والتشاور بينها، من مجموعة الثماني إلى مجموعة العشرين مروراً بمنظمة التجارة العالمية درّة تاج العولمة. بيد أن التحولات الشرق الأوسطية دفعت إلى السطح فريقين: روسيا والصين (وبقية دول البريكس، وإن عن بعد)، في جانب، والولايات المتحدة وأوروبا واليابان في الجانب الآخر. وانعكس هذا «التباين» بوضوح في مجلس الأمن الدولي الذي أُصيب بالشلل للمرة الأولى منذ نهاية الحرب الباردة، بعد انفجار الأزمة السورية عام ٢٠١١.

(٩) Mead, «Grand Startegy: The End of History Ends».

هذا التطور دفع الكثيرين إلى الاستنتاج بأن النظام العالمي الجديد المتعدد الأقطاب برز إلى الوجود بالفعل، مدفوعاً بصعود القوى الجديدة إلى الساح العالمية، مُجسَّدة بدول البريكس، وممهورة بختم معاهدة شنغهاي التي يفترض أن تواجه حلف الأطلسي أو توازنه في صراع النفوذ العالمي الجديد. لا بل ذهب البعض إلى حد الحديث عن تجدد الحرب الباردة بين الشرق والغرب.

بيد أن مثل هذا التحليل كان متسرِّعاً. فليس ثمة دولة كبرى في العالم (حتى العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين) يمكن أن تُصنّف بأنها دولة «مُراجعة» (Revisionist) وتريد نسف النظام الدولي الراهن من أساسه وإقامة نظام جديد مكانه بقيادتها هي، أو بالاشتراك مع دول كبرى أخرى. صحيح أن روسيا والصين تدعوان منذ سنوات إلى إقامة نظام دولي متعدد الأقطاب يستند إلى الشرعية الدولية في إطار الأمم المتحدة وإلى سيادة الدول ـ الأمم، إلا أنهما معاً كانتا، ولا تزالان، تعملان على مجرد تحسين مواقعهما في النظام الحالي، وتعتبران ذلك مقدمة «سلمية» لولوج النظام التعددي العتيد.

وهذا أفرز على الساحة الدولية سياسات خارجية بين الدول الكبرى تقوم على ثنائية التعاون ـ المنافسة، تبعاً لظروف كل مرحلة ولمصالح كل طرف فيها، بانتظار أن تنضج ظروف ولادة نظام دولي جديد في غضون العقدين أو الثلاثة المقبلين، حين يمكن أن «يغرق» الاتحاد الأوروبي في مياه المحيط الأطلسي لينتقل مركز العالم نهائياً إلى منطقة آسيا ـ المحيط الباسيفيكي.

توجهات روسيا الخارجية في عهد الرئيس بوتين، كانت أحد المؤشرات الفاقعة على هذا النمط من التفكير في السياسات الخارجية، كما يتضح من «استراتيجية الأمن القومي الروسية حتى العام ٢٠٢٠»، التي صدرت العام ٢٠٠٩ وحلّت مكان «مفهوم الأمن القومي الروسي» للعام ١٩٩٧ الذي عُدِّل في العام ٢٠٠٠[١٠]؛ إذ تدعو هذه الاستراتيجية إلى تحويل «روسيا المُنبعثة» إلى دولة كبرى مجدداً، وإلى أن تكون إحدى القوى الخمس الأكبر اقتصاداً في العالم. وهي حددت الأهداف، والتهديدات، والمهام، والإجراءات لتحقيق هذا الهدف على المدى القصير (٢٠١٢) والمتوسط (٢٠١٥) والطويل (٢٠٢٠)، لكنها ربطت هذا الهدف ومعه مبدأ الأمن القومي ربطاً مُحكماً بالنمو الاقتصادي الثابت، مُشدِّدة على رفع مستويات معيشة المواطنين الروس، وعلى أولوية الإبداع والابتكار التكنولوجيين، و«العلم» و«الثقافة» و«الصحة العامة»، وحتى على «الروحانية» في إطار «الذاكرة التاريخية الروسية» المتمثلة بالمسيحية الأرثوذكسية.

ورأت هذه الاستراتيجية أن التهديدات للمصالح القومية الروسية تشمل: عودة الاستخدام من جانب واحد للقوة في العلاقات الدولية؛ الخلافات بين المشاركين الرئيسيين في السياسات العالمية؛ مخاطر انتشار أسلحة الدمار الشامل واستخدامها من قبل إرهابيين؛ العواطف القومية؛ كره الأجانب؛ النزعة الانفصالية والتطرف العنيف الذي يرفع لواء الراديكالية الدينية. وعلى المدى الطويل، سيتركَّز

(١٠) «Russia's National Security Strategy to 2020,» Rustrans, no. 537 (12 May 2009), <http://rustrans.wikidot.com/russia-s-national-security-strategy-to-2020>.

اهتمام السياسات الدولية على السيطرة على موارد الطاقة، في كلٍ من الشرق الأدنى، وطبقات بحر بارينتز، وأجزاء أخرى من المحيط المتجمد، وحوض بحر قزوين وآسيا الوسطى.

١ ـ ثلاثة تيارات

هذه هي القسمات الرئيسة لاستراتيجية الأمن القومي الروسي التي نَحَتْ، كما هو واضح، إلى الاندماج في اقتصاد العولمة والنظام العالمي، وإن بشروط روسية تشدد على احترام روسيا ومصالحها كدولة كبرى.

وقد حسمت هذه الاستراتيجية، على ما يبدو، الجدل بين ثلاثة تيارات رئيسة تنازعت الرؤى حول مستقبل روسيا وموقعها في النظام العالمي، باتجاه التوفيق بينها، بدفع من فلاديمير بوتين الذي برز في آن كقومي روسي وبراغماتي لا يمانع في إقامة علاقات متساوية مع الولايات المتحدة ولا بالتأكيد مع أوروبا ومع الصين.

التيار الأول يضم «الأطلسيين» الداعين إلى إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة، وهم يريدون أن تكون روسيا جزءاً من الحضارة الغربية، ويحبذون الخصخصة والإصلاحات الليبرالية السريعة. **والتيار الثاني** يشمل أنصار النزعة «الأوراسية» الذين يحبذون انتهاج سياسة خارجية متوازنة، مع تشديد متساوٍ على أوروبا، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى، ويدعون إلى توكيد هيمنة روسيا في «الخارج القريب» (دول الاتحاد السوفياتي السابق). أما **التيار الثالث** فهو يشمل توليفة من الشيوعيين والقوميين المتطرفين الروس، وهو معادٍ بشدة للولايات المتحدة ويدعو إلى إعادة فرض هيمنة روسيا على مناطق الاتحاد السوفياتي السابق.

٢ ـ أوكرانيا، أوكرانيا

بغض النظر عن التيار الذي ستكون له اليد العليا في خاتمة المطاف في موسكو، إلا أنه من الواضح أن تمنُّع الولايات المتحدة عن منح روسيا الدور الذي تطمح إليه في النظام الدولي، يجعل معادلة التعاون/ التنافس الروسية مع أمريكا تختل بشكل متزايد لمصلحة التنافس والصراع. وهذا كان واضحاً في العام ٢٠١٤ في أوكرانيا حيث اتهمت الدوائر الروسية الولايات المتحدة بأنها قررت «الانتقام» من موسكو في أوكرانيا (التي تعتبرها الأمة الروسية جزءاً عضوياً منها) بسبب سياساتها الاستقلالية في أوروبا والشرق الأوسط وآسيا الوسطى وتقاربها مع الصين. وهي استندت في ذلك إلى بعض القرائن التاريخية القريبة.

ففي عام ٢٠٠٨، حط نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني الرحال في أوكرانيا، ليعلن من هناك تعهده بضم هذه الدولة الشقيقة تاريخياً لروسيا إلى حلف الأطلسي العدو تاريخياً لها. آنذاك، طُرح فوراً سؤال في المحافل الدولية: هل قررت إدارة بوش الرد على هزيمتها في جورجيا بإشعال النيران في أوكرانيا؟ بدا السؤال مهماً للغاية بسبب الوضعية التاريخية والاجتماعية الخاصة لأوكرانيا، والتي تجعل من قطع علاقاتها مع روسيا قطيعة خطيرة مع نفسها. فأوكرانيا كانت عبر تاريخها عملاقاً

مهيض الجناح، مكسور الخاطر. وهي، على الرغم من مساحتها التي تقارب حجم فرنسا وعدد سكانها الذي يناهز الخمسين مليوناً، لم تستطع يوماً أن تكون لاعباً مستقلاً لا في الشؤون الأوروبية ولا بالطبع في العالم. إنها كانت دوماً ساحة لا وطناً. مَعْبراً للقوى الكبرى الأجنبية لا مستقراً لقوة كبرى قومية أوكرانية ما.

على مدى القرون الماضية، كانت أوكرانيا الساح التي تتقاتل فوق أرضها إمبراطوريات الشعوب الأخرى، من الروس إلى البولنديين، ومن الألمان إلى الليثوانيين. وحتى حين بدا مع انفجار الاتحاد السوفياتي قبل نحو ١٣ عاماً أن الأوكرانيين امتلكوا زمام أمورهم للمرة الأولى في التاريخ، سرعان ما تبيّن أن هذا لم يكن سوى سحابة صيف عابرة. فروسيا، التي تعتبر شقيقتها أوكرانيا السلافية بمنزلة امتداد لها كرجليها ويديها الطبيعيين، لم تكن في وارد قبول استقلال أوكرانيا عنها. وهذا شعور معنوي يتعزز بوقائع مادية على الأرض، إذ إن معظم شرق أوكرانيا يدين بالولاء لـ «الروسيا الأم»، و٥٤ بالمئة من الأوكرانيين يتحدثون اللغة الروسية، و٦٠ بالمئة يرفعون أعلام الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. ومع مثل هذه المعطيات التي تشطر هوية أوكرانيا إلى هويتين، كان من المستغرب حقاً أن تتمكن البلاد من تحقيق أي إجماع من أي نوع كان حول الطريق الذي يجب أن تسير عليه: نحو أوروبا والغرب وحلف الأطلسي، أو نحو روسيا والشرق ومعاهدة الأمن الجماعي والاتحاد الأوراسي الذي تريده موسكو أن يكون خليفة الاتحاد السوفياتي السابق.

قواعد لعنة الجغرافيا والديمغرافيا هذه، تقاطعت الآن مع القوانين الحديدية للمصالح الاستراتيجية والجيوسياسية؛ فالغرب الأوروبي، الذي يعلن أن اتحاده برمته يستند إلى القيم الديمقراطية والإنسانية، لم يُرد إغضاب روسيا في أوكرانيا وقبلها في جورجيا لأسباب نفطية واقتصادية وتجارية، ولا في الواقع ضم هذه الدولة الكبيرة والفقيرة (أوكرانيا)، إليه لما سيرتبه ذلك من أكلاف مالية باهظة. فيما الغرب الأمريكي يسعى إلى دفع أوكرانيا إلى التمرد على موسكو، أملاً في جعل الدب الروسي يختنق بما التهمه تلك الأيام من فرائس في أراضي إمبراطوريته السوفياتية. وهذا ما جعل الرئيس الروسي بوتين على حق حين قال إن: ثمة روائح «مؤامرة» ضد الدب الروسي في حديقته الخلفية الأوكرانية، أو بالأحرى في عقر داره القومي نفسه، لأن كييف وأوكرانيا تعتبران مهد الأمة الثقافية الروسية.

لكن بوتين كان يعلم أيضاً أن هذه «المؤامرة» كانت متوقعة. إذ لا الولايات المتحدة ولا الغرب في وارد قبول صيغته الخاصة للاندماج في النظام الرأسمالي العالمي وفق الشروط التي حددتها «استراتيجية الأمن القومي الروسية». أي: بعث الاتحاد السوفياتي القديم تحت رداء «الاتحاد الأوراسي» الجديد، ومن ثَمّ جعل روسيا قوة عظمى على قدم المساواة مع بقية سرب العظماء الدوليين. أمريكا والاتحاد الأوروبي لديهما مخططات أخرى معاكسة لروسيا. إنهما ربما لا تريدان تدميرها أو تفكيكها كما يعتقد المفكر الماركسي سمير أمين، بل دمجها في الغرب وفق شروطهما. وهذا يأتي في سياق مشروع استراتيجية عليا أمريكية لقارة أوراسيا (التي يحكم من يسيطر عليها

العالم، كما يرى ماكيندر) تحدث عنها زبغنيو بريجنسكي في كتابه **رؤية استراتيجية**[١١] تقوم على التالي: إقامة «غرب أكبر» من خلال ضم روسيا وتركيا إلى الاتحاد الأوروبي ومن ثَمَ إلى التحالف الأطلسي العام، على أن تمارس أمريكا بعدها لعبة توازن دقيقة في الشرق الآسيوي، من خلال التحوُّل إلى «حَكَم» بين القوى الآسيوية الكبرى الثلاث الصين والهند واليابان، بما يجعل هذه القوى، أو معظمها، معتمدة إما على القوة الأمريكية أو على الدبلوماسية الأمريكية.

على أي حال، كل الدلائل تشير إلى أن روسيا المضطربة ستبقى كذلك، طالما أن النظام الدولي لا يزال في العمق يرتكز على مفاهيم القوة وموازينها، والتنافس على الموارد الطبيعية، والصراع على مناطق النفوذ. وهذا، كما أشرنا أعلاه، لا يزال هو القانون الأول المتحكّم بكل بنى وهندسة العلاقات الدولية الراهنة والسابقة في التاريخ.

رابعاً: الاستراتيجية الصينية

وكما أن ثمة تيارين في الولايات المتحدة حول حدود الانخراط الأمريكي في الشأن الدولي، فهناك أيضاً تياران مماثلان في الصين:

التيار الأول، عبّر عنه بوضوح تقرير أكاديمية العلوم الاجتماعية الصينية عام ٢٠٠٨ بعنوان «استراتيجية حمامة السلام»[١٢]. وقد استخدم التقرير جسم الحمامة لتوضيح أولويات السياسة الخارجية الصينية: فالأمم المتحدة تقف على رأس الأولويات، أو رأس الطير، وآسيا هي صدره، في

---

(١١) Zbigniew Brezeninski, *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power* (New York: Basic Books, 2012), p. 71.

وقد كان مثيراً أن يتحدّث بريجنسكي عام ٢٠١٢ عن مصير أوكرانيا على النحو الآتي: «إن أوكرانيا غير المعادية لروسيا ولكن المتقدمة عنها في عملية دخولها إلى الغرب، تساعد في الواقع على تشجيع تحرُّك روسيا غرباً نحو مستقبل أوروبي ثمين. ومن جهة أخرى، فإن أوكرانيا المعزولة عن الغرب والخاضعة بشكل متزايد سياسياً لروسيا، قد تشجع هذه الأخيرة على اتخاذ الخيار غير الحكيم المتعلق بتحبيذها ماضيها الإمبريالي».

(١٢) حول استراتيجية الصين، انظر: Wang Jisi, «China's Search for a Grand Strategy: A Rising Great Power Finds its Way,» *Foreign Affairs* (March-April 2011), <https://www.foreignaffairs.com/articles/china/2011-02-20/chinas-search-grand-strategy>.

انظر أيضاً: Necolai Petro, «Global Acupuncture vs. Global Surgery: How Russia and China Differ from the U.S.,» Oped News (17 January 2014), <http://www.opednews.com/articles/Global-Acupuncture-vs-Glo-by-Nicolai-Petro-American-Foreign-Policy_China_China-Russia-Alliance_Russia-140116-537.html>.

يشير الكاتب هنا إلى أنه في حين أن الولايات المتحدة تعمل على تعافي النظام العالمي من خلال الجراحة، تفضّل الصين العلاج بالإبر. والاختلاف بين الطرفين هنا يعود إلى الإرث الثقافي. ففي حين أن أمريكا، والغرب عموماً، يؤمنان بأن أجزاء الجسد المصابة بالمرض يجب بترها لحماية باقي الأعضاء من العدوى، تشدّد المقاربة الصينية على أهمية استعادة كلّ الجسد لعافيته. وبما أن التدخّل الجراحي يعرقل قدرة الجسد ككلّ على التعافي، فإن العلاجات التدريجية وطويلة الأمد هي المفضلة. وهكذا، فإن العمليات الجراحية العسكرية الأمريكية في العالم لا تفيد، بل يجب استخدام أدنى درجات التدخل الخارجي لتنشيط القدرات الداخلية.

أما المقاربة الأمريكية لمسألة صعود الصين فتبدو متضاربة. وعلى سبيل المثال، في حين يدعو فريد بيرغستن، مدير معهد بيترسون للدراسات الاقتصادية الدولية، إلى إقامة «عالم من رأسين»، أو «الإثنين الكبار G ـ ٢» يتكوَّن من الصين والولايات المتحدة. انظر: Fred Bergsten, «A Partnership of Equals: How Washington Should Respond to China's =

شكل «الرابطة الآسيوية» (Asian Association) وهي كتلة إقليمية مستقلة ستكون بقيادة الصين. أوروبا هي أحد جناحي الطير والولايات المتحدة (التي تنتمي إلى منظمة التعاون الاقتصادي في آسيا ـ الباسيفيك ـ «أبيك») هي جناحه الثاني. أما أمريكا اللاتينية وأفريقيا وقارة أوسيانا (التي تضم أستراليا وجزر المحيط الهادىء التي تفصل آسيا عن أمريكا) فهي ذَنَبَه.

جسَّد استراتيجية حمامة السلام هذه في الثمانينيات دنغ هسياو بينغ، الذي جعل الاندماج السلمي للصين في النظام الرأسمالي العالمي على رأس أولويات الصين، استناداً إلى التركيز على التنمية والنمو الاقتصاديين الداخليين، وبالتالي التخلي (بعد الصفقة التاريخية عام ١٩٧٢ بين ماو تسي تونغ وريتشارد نيكسون) عن «الثورة الأممية البروليتارية» في السياسة الخارجية. وهكذا، باتت الحرب، التي كانت تعتبر حتمية بين الصين وبين الولايات المتحدة، غير مطروحة، وعمدت الصين إلى انتهاج سياسة خارجية تتجنَّب المجابهة، بهدف استقطاب الرساميل الأجنبية وتعزيز التجارة.

في أوائل القرن الحادي والعشرين، رسم هذا التيار الذي يقوده مفكرون استراتيجيون صينيون لوحة إيجابية للوضع الدولي. ففي تقرير العام ٢٠٠٢ الذي رُفِع إلى المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي الصيني، تحدث الأمين العام جيانغ زمين عن «حقبة ٢٠ سنة من الفرصة الاستراتيجية، يجب أن تواصل خلالها الصين التركيز على المهام الداخلية». وفي عهد الرئيس هيو جينتاو، بلورت الصين سياسة تنمية اجتماعية جديدة موجهة نحو مواصلة تعزيز النمو الاقتصادي السريع، مع التشديد على الحوكمة الجيدة، وتحسين شبكات الأمان الاجتماعي، وحماية البيئة، وتشجيع الإبداع المستقل، وتخفيف التوترات الاجتماعية، وحماية النظام المالي، وحفز الاستهلاك المحلي.

وبهذا، كانت القيادة الصينية تعيد تعريف السياسة الخارجية الصينية. فأعلن الرئيس هيو العام ٢٠٠٩ أن دبلوماسية الصين يجب أن «تحمي مصالح السيادة، والأمن، والتنمية». وهذا عنى: **أولاً** استقرار الصين السياسي، واستقرار النظام الحالي الذي لا تزال بيجينغ تصفه بالاشتراكي، **وثانياً** الأمن السيادي، ووحدة أراضي الصين، والتوحُّد القومي، **وثالثاً** ديمومة التطور الاقتصادي والاجتماعي.

هنا تجدر الإشارة إلى أن السمة الأساسية لفهم قادة الصين لتاريخ بلادهم هي حساسيتهم الحادة لأي احتمال لبروز الفوضى الداخلية التي قد تسببها التهديدات الخارجية. فمنذ قديم الزمان، كانت تسقط الأنظمة الصينية على يد توليفة من الانتفاضات الداخلية والغزوات الخارجية. فسلالة مينغ انهارت العام ١٦٤٤ بعد أن سيطرت ثورة الفلاحين على بيجينغ، التي تزامنت مع قيام المانشو، بالتواطؤ مع جنرالات مينغ، بتنفيذ غزو من الشمال. وبعدها بثلاثة قرون، انهارت سلالة المانشو

= Economic Challenge,» *Foreign Affairs* (July-August 2008), <https://www.foreignaffairs.com/articles/asia/2008-06-01/partnership-equals>.

يتوقّع مارك ليونارد «فراقاً بين البلدين تحديداً بسبب تزايد الشبه بينهما في المجالات الاقتصادية والسياسات الخارجية، الأمر الذي سيؤدي إلى خلافات وتنافسات بينهما على المصالح المتقاطعة». انظر: Mark Leonards, «Why Convergence Breeds Conflict: Growing More Similar Will Push China and the United States Apart,» *Foreign Affairs* (September-October 2013), <https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2013-08-12/why-convergence-breeds-conflict>.

نفسها عقب سلسلة من التمردات الداخلية التي ترافقت مع غزوات للقوات الغربية واليابانية. كما أن نهاية حكم الكومينتانغ وتأسيس جمهورية الصين الشعبية العام ١٩٤٩، تحقق من خلال ثورة محلية استلهمت نموذج الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية العالمية.

هذه الذاكرة الجماعية الصينية، تفسّر أسباب تركيز هذا التيار الأول الشديد على مسائل السيادة، وأمن الدولة الصينية، وعلى الأولوية التي تعطيها الصين لدور الأمم المتحدة، وهي في خضم تركيزها على البناء الداخلي.

أما التيار الثاني فينطلق من هذه الذاكرة الجماعية نفسها، لكن ليصل إلى محصلات مغايرة: التركيز على أن الولايات المتحدة هي التهديد الأكبر لاستقرار الصين وتطورها. أنصار هذا التيار يستلهمون هنا مقولة الفيلسوف الصيني مينكيوس بأن «أي دولة ليس لها عدو أو خطر خارجي، محكوم عليها بالمطلق بالاندثار»، كما يستعيرون مقولة صموئيل هنتنغتون بأن «العدو المثالي لأمريكا قد يكون معادياً أيديولوجياً، ومختلفاً عنها إثنياً وثقافياً، وقوياً عسكرياً بما فيه الكفاية لفرض تهديد يعتد به للأمن الأمريكي، لكن للقول بأن الولايات المتحدة هي العدو المثالي للصين.

هذا الرأي يستند إلى اقتناع قديم بأن الولايات المتحدة، جنباً إلى جنب مع الدول الغربية واليابان، معادية للقيم السياسية للصين وتريد احتواءها عبر دعم انفصال تايوان عن البر الصيني، ومساندة الدلاي لاما في التيبت، والانفصاليين المسلمين في ييغور، وعبر التحالفات العسكرية التي تقيمها الولايات المتحدة لتطويق الصين وكبح جماح تطورها.

ويعتبر هذا التيار أن النهج الصيني الحالي في السياسة الخارجية ضعيف للغاية، ويدعو إلى العودة إلى نهج المجابهة الماوي، من خلال العثور على حلفاء استراتيجيين بين الدول التي تبدو متحدية للغرب كروسيا وإيران وكوريا الشمالية. لا بل يطالب البعض باستخدام الأرصدة الصينية الضخمة في سندات الخزينة الأمريكية كوسيلة ضغط سياسي، عبر التهديد ببيعها إذا ما عملت الولايات المتحدة على تقويض المصالح القومية الصينية.

بيد أن النخبة الصينية الحالية، وعلى الرغم من أنها تطل على الولايات المتحدة بالفعل بصفتها قوة تفرض تحديات استراتيجية وأمنية على الصين، إلا أنه ليس من المجدي، أو حتى من التهور، بناء استراتيجية عليا صينية تستند إلى الفكرة بأن أمريكا هي الخصم الرئيس للصين. إذ إن قلة من الدول قد تنضم إليها في تحالف معادٍ للولايات المتحدة، كما أن المجابهة ستعيق النمو الاقتصادي في الصين لأن أمريكا هي الشريك التجاري الأكبر لها، ناهيك بأنها لا تزال القوة الاقتصادية والعسكرية الأولى في العالم. وهنا كان رئيس الوزراء الصيني ون جياباو واضحاً حين قال في أواخر العام ٢٠١٣ عن الولايات المتحدة والصين: «مصالحنا المشتركة تفوق خلافاتنا».

لكن، وطالما الأمر على هذا النحو التهادني، لماذا تنشط الصين في مجموعة البريكس، ومعاهدة شنغهاي، وتقف مع روسيا في الأمم المتحدة ضد السياسات الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط، وتطالب معها بنظام عالمي تعددي جديد؟

الحال أن السلوكيات المشتركة للصين وروسيا في السياسة الخارجية، تدل على أنهما تنتهجان بالفعل مقاربة الوخز بالأبر لتمهيد الطريق أمام بروز نظام عالمي تعددي جديد. لا بل إن إصرار الولايات المتحدة على التعاطي مع مختلف مناطق العالم «جراحياً»، هو أحد دوافع التقارب الصيني ـ الروسي.

لكن يجب الانتباه هنا إلى نقطة مهمة: على الرغم من أن روسيا والصين تتعاونان في مجموعة معاهدة شنغهاي وفي البريكس ومجلس الأمن لموازنة القوة الأمريكية واحتوائها، إلا أن تحالفهما ليس من النوع الاستراتيجي لأنه يستند إلى قواعد سلبية (رفض الهيمنة الأمريكية المنفردة) وليس إيجابية (مصالح متطابقة وأدوار متكاملة خاصة في آسيا الوسطى والباسيفيك).

خامساً: الهند

الهند يرجَّح أن تكون قريباً قوة رئيسة في النظام العالمي الجديد، حيث إن دورها سيشمل: مسؤوليات إقليمية أوسع (أي أوسع من شبه القارة الهندية) في المنطقة الآسيوية، وتعاوناً وثيقاً مع القوى المسيطرة، خاصة الولايات المتحدة، حول القضايا الحيوية لجدول أعمال النظام العالمي الجديد.

وهذا الدور سيتضح حين يأخذ النظام العالمي شكلاً محدداً على المستويين الدولي والإقليمي. بيد أن المؤشرات على هذا الدور المحتمل لم تكن تتراكم طيلة السنوات الأخيرة من جانب مؤسسات الدراسات الاستراتيجية، وكلها تشير إلى أن الهند سيكون لها أساساً دور استراتيجي ـ عسكري. فهي ستكون لاعباً في كل الخطط المتعلقة بالاستراتيجيات والعلاقات والتحالفات المتعلقة بالاهتمامات الأمنية للنظام العالمي الجديد والتي تعتبر الصين تهديداً محتملاً.

على صعيد الدور العالمي الجديد للهند، تبرز العلاقة الدفاعية بينها وبين الولايات المتحدة. وهذا ليس تطوراً جديداً. فهي بدأت منذ عهد جون كينيدي، وتبلورت في الدعم الأمريكي غير المباشر للبناء الصاروخي والنووي الهندي. لكن الجديد في العلاقات الهندية ـ الأمريكية هو بدء «الحوار الاستراتيجي» بين الطرفين حول الأمن في النظام العالمي الجديد وليس فقط في شبه القارة الهندية[١٣].

على الصعيد الإقليمي، ستبرز النشاطية الهندية من خلال: (١) اشتراكها في نظام ميزان القوة الآسيوي؛ (٢) اشتراكها في منظمات عالمية مثل آسيان والمنتدى الآسيوي؛ (٣) في تمدد نفوذها السياسي ـ الثقافي نحو آسيا الوسطى.

---

(١٣) تقرير السفارة الأمريكية في نيودلهي: «الرئيس أوباما يعلن أن الشراكة الأمريكية ـ الهندية» هي شراكة تأسيسية في القرن الحادي والعشرين. انظر: «U.S.-India Strategic Dialogue,» New Delhi.India (July 2014), <http://newdelhi.usembassy.gov/strategic_dialogue.html>.

١ ـ **الاشتراك في نظام ميزان القوة**: الهدف الأساسي هنا سيكون موازنة الصين. والغرب واثق من أن الهند ستكون تابعة له حتى لو نشبت حرب الحضارات التي يتحدث عنها هنتنغتون بين الغرب وبين تحالف الصين واليابان.

٢ ـ **الاشتراك في آسيان**: الهدف هنا هو منح الهند مداخل إلى عملية صنع القرار السياسي ـ الأمني في منطقة آسيا ـ المحيط الهادئ، والحصول على المنافع الاقتصادية، وخدمة المصالح الأمريكية هناك.

٣ ـ **التمدُّد نحو آسيا الوسطى**: الهدف سيكون خدمة جدول أعمال النظام العالمي الجديد، خاصة ما يتعلق منه بمواجهة «الأصولية» الإسلامية في المنطقة.

إن نظام ميزان القوة متعدد الأقطاب في آسيا يمكن أن يتكوَّن من أمريكا واليابان والصين وروسيا والهند، وهو مصمَّم أمريكياً ليكون له هدفان: النمو الاقتصادي بلا حدود وتأمين الأمن الإقليمي. وهذا يبدو الإطار الأفضل لحماية المصالح الأمريكية في القرن الحادي والعشرين. ومن بين هذه المصالح، على سبيل المثال، حرية الملاحة في أعالي البحار، بما في ذلك الطرق البحرية عير جنوب شرق آسيا.

لكن المصلحة الأهم هي الحفاظ على دور مهيمن وقوي في المنطقة. ونظام ميزان القوة ذو القوى الخمس هو أفضل رهان، لأن الولايات المتحدة المهووسة بالصين تستطيع أن تمنع من خلاله هذه الأخيرة من أن تصبح القوة المهيمنة في المنطقة.

وهذا ما يدفع العديد من الأطراف في الولايات المتحدة الآن إلى المطالبة بالبدء من الآن لعب «ورقة الهند» بهدف تسهيل ولادة النظام الإقليمي الآسيوي الجديد[١٤].

سادساً: الاتحاد الأوروبي

من بين كل القوى الكبرى في الرقصة الجديدة للنظام العالمي، يبدو الاتحاد الأوروبي الأكثر قلقاً وتأزماً وضياعاً، على الرغم من أنه يعتبر الكتلة الاقتصادية الأولى والأهم في العالم، إلى درجة دفعت الكاتب البريطاني جدعون راشمنان إلى التخوُّف في العام ٢٠١٤ من انفجارات اجتماعية وعودة اليمين المتطرف إلى القارة الأوروبية[١٥].

لكن، ما مضاعفات هذه الأزمة؟ وإلى أين يمكن أن تقود أوروبا؟

أوروبا الجديدة التي تضم ٢٧ دولة و٤٥٠ مليون نسمة دشَنت، كما هو معروف، قيام كيان إقليمي عملاق يبلغ حجمه ضعفي حكم سكان الولايات المتحدة وأربعة أضعاف سكان اليابان.

(١٤) Indira A. R. Lakshmanan, «U.S. Needs to Play Cards Right in India,» *New York Times*, 14/7/2009, <http://www.nytimes.com/2009/07/15/world/asia/15iht-letter.html?_r=0>.

(١٥) Gideon Rachman, «Reading the Far-Right Showing in Ukraine and France,» *Financial Times*, 25/5/2014.

وهو تفوَق مؤخراً على حجم الاقتصاد الأمريكي (نحو ١٤ تريليون دولار). كما أنه سيكون قريباً أغنى من أمريكا واليابان في مجالات الرساميل، والبنى التحتية، والقوة البشرية الماهرة والعلمية، ومستويات المعيشة.

ستمتلك أوروبا الجديدة هذه العديد من أكبر المصارف، وشركات التأمين، والبيوتات المالية في العالم. ومن بين أكبر عشر دول متاجرة في العالم، سبع منها أوروبية. وفي صناعات مثل السيارات، والمواد الطبية، والأدوات الصناعية، والسلع الهندسية، ستنتج الأسرة الأوروبية الجديدة مجتمعة أكثر من أي دولة أخرى في العالم.

هذا إضافة إلى أنها ستكون أكبر سوق على وجه الأرض، والأولى في مجال الإنفاق على البحث والتطوير العلمي والتكنولوجي في حقول الفضاء والسوبر كومبيوتر والقطارات وغيرها. وفي حال اتّحدت جيوش فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا، فإنها ستكون القوة العسكرية الأقوى والأحدث في العالم.

الآن، طالما أن المعطيات على هذا النحو الإيجابي، قد يكون مستغرباً أن يشعر الأوروبيون بأزمة الهوية السلبية العميقة وبالقلق والتوتر. لكن الغرابة تتبدد حين نضع في الاعتبار العولمة الليبرالية، وما تسببه من «تسوناميات الخوف» على المكتسبات الاجتماعية التاريخية للشعوب الأوروبية. وقد تعززت هذه الأزمة في السنوات الأخيرة بسبب الجمود الاقتصادي والبطالة الواسعة اللذين فاقم منهما شعور المواطنِين الأوروبيين بالغربة عن القرارات التي تتخذها من فوق الطبقات الحاكمة (اللجنة الأوروبية).

لم يقدِّم دستور ديستان الأوروبي في الواقع حماية اجتماعية من تسوناميات الليبرالية الجديدة، لأن بنوده المتعلقة بهذا الشأن تخضع إلى تفسيرات قانونية متباينة من جانب محكمة العدل الأوروبية، التي يعيّن قضاتها استناداً إلى اعتبارات سياسية ـ طبقية يمينية حادة.

إضافة، كما تقول دانييل باوس مديرة حملة «لا» ضد دستور ديستان، لم تُظهِر الطبقات الحاكمة الأوروبية أدنى اهتمام بمواجهة تمدد النموذج الاقتصادي الأنغلوساكسوني، ولا ببناء مؤسسات ديمقراطية تمثّل إرادة الشعوب الأوروبية حقاً.

بيد أن تسوناميات الخوف من العولمة، على أهميتها القصوى، ليست كل شيء. هناك أيضاً عامل قد يكون أكثر أهمية: أيديولوجيا الدولة ـ الأمة أو الدولة القومية التي خلقتها الرأسمالية، والتي وفّرَت للشعوب الأوروبية على مدى ٥٠٠ عام (منذ معاهدة وستفاليا ١٤٥٨) مشاعر تضامن اجتماعي وقومي قوية مكنتَها من تحقيق السوق الوطني الموَحد، والاستقرار الداخلي، والتماسك القومي.

الرأسمالية الأوروبية في حلّتها المتعولمة الجديدة (الاتحاد الأوروبي الإقليمي) لا تُوفّر شيئاً من هذا القبيل. فأنت أوروبي لأنك تنتمي ليس إلى أمة بل إلى سوق. ليس إلى مجتمع بشري بل

إلى بورصة مضاربة (وهذا ما أسماه الرئيس الفرنسي السابق ساركوزي «رأسمالية المضاربة»)[١٦]. صحيح أن ثمة جهوداً كبرى تبذل الآن لرسم ابتسامة إنسانية على وجه العولمة الأوروبية، إلا أن ارتطام محاولات الاستقلال الأوروبية السياسية ـ الفكرية بصخرة الرفض الأمريكي لها، جعل هذه الجهود أشبه بسباحة في بحيرة لا ماء فيها.

أجل. أوروبا في حاجة إلى هوية جديدة تتخطى قوانين العرض والطلب التجارية. لكن مثل هذه الهوية في حاجة إلى «ضد» أو «آخر» كي تتمكن من الولادة[١٧]. تاريخياً، الإسلام والحضارة الإسلامية كانا هذا «الضد». وهما قد يخدمان قليلاً الآن، خاصة بسبب مطالبة ١٠٠ مليون تركي بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي «المسيحي». نقول قليلاً لأن «الآخر «الحقيقي» في القرن الحادي والعشرين قد يكون أمريكا، وليس الإسلام، التي لا تزال ترفض أن يستقل «وليدها» الأوروبي عنها. لكن الأوروبيين لا يبدون قادرين على شق عصا الطاعة على الإمبراطورية الأنغلوساكسونية.

والحصيلة؟

إنها واضحة: أزمة الهوية الأوروبية كبيرة لأن أوروبا برمَّتها في أزمة كبرى، بسبب صعود آسيا من جهة، وتوجُّه أمريكا إلى شرق آسيا، من جهة أخرى. وهي أزمة هبوط تاريخي ـ حضاري كبير على وجه التحديد، على الرغم من صعود أوروبا الاقتصادي الكبير. وهذه مفارقة هائلة يجب أن يُسأل عن أسبابها جمهرة واسعة من علماء التاريخ وفلاسفة الحضارات، وربما أيضاً كارل ماركس.

على أي حال، يجب انتظار أمرين لمعرفة المسار الذي ستسلكه أوروبا حيال مسألة النظام العالمي الجديد: **الأول**، مدى قدرة الاتحاد الأوروبي على استيعاب الانفجارات الاجتماعية المتوقعة، التي قد تتخذ في الكثير من الأحيان الطابع القومي الحاد الخاص بكل دولة، في ضوء ضغوط العولمة والمنافسة الشديدة التي تتعرَّض لها أوروبا من شرق آسيا. **والثاني**، المدى الذي

---

(١٦) Nicolas Sarkozy, «Opening Speech by Nicolas Sarkozy at 40th World Economic Forum,» Voltaire Network (27 January 2010), <http://www.voltairenet.org/article163780.html>.

(١٧) ثمّة مسألة تاريخية مثيرة هنا في ما يتعلّق بمسألة الهوية الأوروبية. فقد تزامن بدء النهضة الأوروبية الحديثة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مع بداية التراجع الخطير للحضارة العربية. ولولا سقوط الأندلس في إسبانيا وتدهور موازين القوى بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي لمصلحة الأوّل، وأيضاً لولا انتقال العلوم العربية إلى أوروبا، لكانت لأوروبا منافساً خارجياً وعالمياً خطيراً في وسعه إحباط نهضتها وانطلاقتها. انظر: سعد محيو، **مأزق الحداثة العربية: من احتلال مصر إلى احتلال العراق** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠)، ص ١١.

وفي السياق نفسه، تقول كارين أرمسترونغ في كتابها **الحرب المقدسة** أن المسيحيين الأوروبيين سعوا قبل الحروب الصليبية وبعدها إلى بلورة هوية أو روح مسيحية جديدة، من خلال العداء لـ «آخر» المسلم والمسيحي الأورثوذكسي في الإمبراطورية البيزنطية. انظر: Karen Armstrong, *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World*, 2nd ed. (New York: Anchor Books, 2001), p. 32 sqq.

ستذهب إليه الولايات المتحدة في سياسة الاستدارة شرقاً نحو آسيا ـ الباسيفيك، ومدى تأثيره في التحالف الأطلسي.

سابعاً: اليابان

سهّلت ترتيبات النظام الدولي، التي وضعتها الولايات المتحدة غداة الحرب العالمية الثانية، إضافة إلى السمات الثقافية والتاريخية الخاصة لكل من المجتمع والرأسمالية اليابانيين، صعود اليابان إلى المرتبة الاقتصادية الثانية (والآن الثالثة بعد الصين) في العالم بعد أمريكا. فهل تسفر التحولات الراهنة في هذا النظام إلى عودة القوة العسكرية الإمبريالية اليابانية؟[١٨]

لا يُستبعد ذلك. وسنتطرق إلى الأسباب بعد قليل. لكن وقفة أولاً أمام التحولات التي طرأت على موقع اليابان في النظام العالمي الأمريكي. فقد ترافق صعود اليابان الاقتصادي إلى المرتبة العالمية الثانية مع بدء تآكل هيمنة الولايات المتحدة في العالم. إذ بات واضحاً في ثمانينيات القرن العشرين أن الولايات المتحدة نفسها لم يعد بمقدورها قيادة العالم من دون مشاركة بقية القوى الصناعية الرئيسة في هذه المهمة، بعد أن باتت تعاني عجزاً تجارياً وعجزاً في الموازنة بسبب زيادة الإنفاق العسكري، والتقلص التدريجي لوتائر التوفير والاستثمار، وخُفوض الضرائب التي أدخلها الرئيس ريغان. أصبحت الولايات المتحدة في حاجة إلى الاقتراض، وهكذا تحوّلت في غضون سنوات قليلة من كونها أكبر مُقرض إلى أكبر دائن في العالم. وكانت اليابان (ثم الآن الصين) أول مموِّل للديون الأمريكية. ولذلك، وبمعنى ما، بدأت تتغير بالتدريج علاقة السيد والتابع بين اليابان والولايات المتحدة، وسرى الحديث بعد زوال الخطر الشيوعي عن بدء التنافس بين الطبعة الأنغلو ـ ساكسونية من الرأسمالية القائمة على شعار «دعه يعمل، دعه يمر» الليبرالية وبين الطبعة اليابانية المستندة إلى مفهوم رأسمالية الدولة التطورية.

هذه التطورات دفعت اليابان إلى التفكير بالتخلي عن «مبدأ يوشيدا»، الذي ينص على أن اليابان يجب أن تتجنب النزاعات الدولية[١٩]. لقد نجحت في السابق كتابع للولايات المتحدة، وبات عليها الآن أن تشارك في تحمّل عبء النظام العالمي كي تحافظ على أرصدتها واستثماراتها الضخمة في آسيا وبقية العالم.

---

(١٨) في أيار/مايو ٢٠١٤، ذكرت صحيفة **نيويورك تايمز** أن رئيس الوزراء الياباني بدأ يخطو خطوات كبرى للتحلّل من القيود التي فُرضت على المؤسسة العسكرية اليابانية غداة نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد أن أوصت لجنة حكومية بالسماح للجيش الياباني بمساعدة أمم حليفة تتعرّض للتهديد. انظر: «Japan Moves to Scale Back Postwar Restrictions on the Use of Military Power,» *New York Times*, 15/5/2014.

(١٩) مبدأ يوشيدا (Yoshida) الذي أسمي كذلك تيمُّناً برئيس الوزراء الياباني شيغيرو يوشيدا، نصّ على منح الأولوية القومية القصوى في اليابان للتنمية الاقتصادية والحفاظ على وضعية دبلوماسية خفيضة، مع ترك مسألة الدفاع عن البلاد للولايات المتحدة. وينبذ البند التاسع من الدستور الياباني الحرب ويرفض كونها حقاً سيادياً للأمة، كما يرفض التهديد بالقوة كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية.

حتى الآن، لا تزال اليابان تعيش تحت مظلة الحماية الأمنية الأمريكية. لكنها إذا ما قررت في يوم ما، كما تفكر الآن، في التحوُّل إلى قوة عظمى عسكرية، فهي قادرة على تحقيق ذلك في برهة وجيزة بفعل قدراتها المالية وتكنولوجيتها المتطورة وإنتاجيتها الاقتصادية. وحتى في هذه المرحلة، وعلى الرغم من أن البند التاسع من الدستور يحظر على اليابان العودة إلى العسكرة أو إعلان الحرب أو استخدام القوة العسكرية في الشؤون الدولية، فإنها تنفق ٤٠ مليار دولار على الشؤون الدفاعية، وهذا أعلى رقم في العالم بعد الولايات المتحدة.

ثمة عاملان آخران، إضافة إلى تراجع القوة الأمريكية، يدفعان اليابان إلى العمل على أداء دور أكبر في النظام العالمي، وهما عاملان يتغذيان بعضهما من بعض: **الأول** بروز جيل جديد من القادة السياسيين اليابانيين الذين يريدون طي صفحة التنصُّل من الماضي الإمبريالي الياباني الذي دام قرناً من الزمن، على رأسهم رئيس الوزراء شينزو أبي الذي داعب بقوة مشاعر القومية اليابانية ودعا إلى تغيير السياسة الخارجية اليابانية. **والثاني**، تصاعد وتائر المجابهة بين اليابان والصين الصاعدة.

في مؤتمر منتدى دافوس العالمي الذي عقد في أوائل عام ٢٠١٤، فاجأ شينزو أبي العالم حين شن حملة عنيفة على الصين متهماً إياها بأنها ذات نزعة عسكرية وعدوانية، وأشار إلى أن الصين واليابان تشبهان ألمانيا وبريطانيا عشية الحرب العالمية الأولى: فهما متزوجتان اقتصادياً لكنهما مطلقتان استراتيجياً. وقد ردت الصين بالمثل، واتهمت اليابان بأنها تريد العودة إلى «ماضيها العسكري الإمبريالي البشع» في آسيا.

بيد أن الأمور لم تقتصر على الأقوال بل بدأت تنتقل إلى الأفعال. ففي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣ أعلنت اليابان عن إنشاء منطقة محظورة على الطيران في شرق آسيا قبل الحصول أولاً على إذن السلطات الصينية. وقد شمل ذلك المناطق المتنازع عليها بين طوكيو وبيجينغ. وفي الشهر الذي تلا ذلك، قام أبي بزيارة ضريح ياسوكوني الذي تقول الصين وبقية الدول الآسيوية بأنه يضم رفات مجرمي الحرب اليابانيين، وأثار ذلك موجة من الغضب في الصين والكوريتين.

صحيح أن المحللين لا يتوقعون أن تصل الأمور بين هذين العملاقين إلى درجة الانفجار العسكري بسبب الاعتماد الاقتصادي المتبادل بينهما (اليابان لديها ٢٣ ألف شركة ضخمة نشطة في الصين يعمل فيها نحو ١٠ ملايين صيني)، إلا أنهم يشددون على أن النزاع الياباني ـ الصيني قد يكون أخطر نزاع جيو ـ سياسي في العالم. وهذا لأسباب عدة، أولها أنه سيكون هناك دوماً احتمال، ولو كان بعيداً، لبروز سوء الحسابات بين الطرفين يؤدي إلى مضاعفات ساخنة. وعلى سبيل المثال، حين تنطلق الطائرات اليابانية المقاتلة للتعاطي مع «الاختراقات» الصينية للمجال الجوي الياباني، تزداد احتمالات ارتكاب الأخطاء. ثم إن اليابان بدأت منذ العام ٢٠١٣ تحوّل استثماراتها من الصين إلى دول أخرى في جنوب شرق آسيا، في حين تعمد الصين إلى استبدال اليابان بكوريا الجنوبية كشريك تجاري أول. وبالتالي، إذا ما بدأ الصينيون واليابانيون بالتفكير بأن علاقاتهم الاقتصادية تتدهور، فإن احتمالات المجابهة تكبر.

علاوة على ذلك، فإن حجم وديمومة النزاع بين الطرفين قد يجعله خطراً أمنياً عالمياً كبيراً، لأن التوترات تجد جذورها في عداوة تاريخية لا يبدو أن لها حلاً، في وقت لا يبدو أن ثمة أقنية دبلوماسية تعمل على تهدئة الأمور بينهما. فلا الولايات المتحدة ولا أي دولة أخرى تظهر على شاشة الوساطة بينهما. ووفقاً لبحث في العام ٢٠١٤ لمؤسسة بيو، فإن ٦ بالمئة فقط من الصينيين ينظرون بإيجابية إلى اليابان، و٥ بالمئة فقط من اليابانيين ينظرون بإيجابية إلى الصين[٢٠].

وثمة نقطة قد تكون أخطر من كل ذلك؛ فكِلا الطرفين يستخدمان النزاع لخدمة أغراض داخلية: الصين لتفريغ الشحنة القومية الفائضة لدى سكانها وتعزيز الشرعية الشعبية لنظامها، ولتبرير مواقفها اللينة مع الولايات المتحدة؛ واليابان تستخدم الصعود الصيني كفزاعة لاستنهاض العصبية القومية اليابانية، بهدف استعادة دورها العالمي. وإذا ما تطابق هذا التسابق على استثارة الحمّى القومية مع تراجع الاعتماد الاقتصادي المتبادل بين الطرفين، فإن هذه ستكون وصفة ممتازة كي تعلق قرون العملاقين في اشتباك لا فكاك منه. وفي حال حدوث ذلك، سيعني ذلك أن ثمة ضوءاً أخضر أمريكياً لليابان كي تتسلح مجدداً لموازنة الصعود الصيني، في إطار تجديد «الإمبريالية الجماعية» الأمريكية ـ الأوروبية ـ اليابانية.

خاتمة

نعود الآن إلى سؤالنا الأولي: بعد أن بات واضحاً أن رحلة القطبية الأحادية الأمريكية وصلت إلى خواتيمها، فما شكل النظام العالمي البديل الذي سيحل مكانها؟

تميل كفة المنطق بقوة إلى مصلحة نظرية ريتشارد هاس، رئيس مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية، في «اللاقطبية»[٢١]. يقول: «القرن الماضي بدأ متعدد الأقطاب، ولكن بعد حربين عالميتين وعدد من النزاعات، أصبح ثنائي القطبية. ومع انتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفياتي، دخل النظام العالمي مرحلة الأحادية القطبية (الأمريكية). أما الآن، فالنفوذ العالمي موزّع ومشّتت، الأمر الذي يشكِّل بداية المرحلة اللاقطبية».

وما سمات هذه اللاقطبية؟ إنها ثلاث:

الأولى، فقدان الدولة ـ الأمة لاحتكارها السلطة وتفوّقها كحجر الزاوية في النظام العالمي، بفعل التحديات التي تواجهها على الصعد كافة، من فوق عن طريق المنظمات المحلية والدولية، ومن تحت بواسطة الميليشيات والمنظمات غير الحكومية والشركات الكبرى. **الثانية**، بروز عدد متزايد من اللاعبين المؤثرين إقليمياً ودولياً، مثل الصين والهند واليابان وروسيا والاتحاد الأوروبي

---

(٢٠) John J. Xenakis, «World-View: China, Japan Really Do Hate Each Other,» Breitbart (30 August 2013), <http://www.breitbart.com/national-security/2013/08/30/30-aug-13-world-view-china-and-japan-really-do-hate-each-other/>.

(٢١) Richard N. Haass, «The Age of Nonpolarity: What Will Follow U.S. Dominance,» *Foreign Affairs* (May-June 2008), <https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2008-05-03/age-nonpolarity>.

والبرازيل وجنوب أفريقيا، ووراءهم مباشرة قوى إقليمية من الدرجة الثانية كتركيا وإيران وباكستان وإسرائيل والأرجنتين... إلخ. **والثالثة**، العولمة التي زادت حجمَ وسرعة وأهمية التدفقات العابرة للحدود، من البريد الإلكتروني إلى غازات الدفيئة والفيروسات، مروراً بالأسلحة والهجرات البشرية. العولمة تدفع إلى اللاقطبية عبر مدخلين: تنفيذ العديد من التبادلات عن طريق جهات غير حكومية وخارج سيطرة الحكومات، وتعاظم قدرات هذه الجهات كالشركات المصدرة للنفط والشبكات الإرهابية والأنظمة المتطرفة. كل هذه العوامل مجتمعة تقود إلى طاحونة اللاقطبية. وهذه الطاحونة تقود بدورها إلى الفوضى العالمية الراهنة.

هذا المنطق يبدو مقنعاً: فالسلطة العالمية الحقيقية في عصر العولمة، كما يقول محللون يساريون، تبدو في كل مكان ولا مكان في آن. إنها أشبه بشبح «متشّرد» لا منزل واحد له «يسكنه»، أو هو كتيار كهربائي تعرف بوجوده فقط حين يلسعك. وهذا ما يجعل هذه السلطة العالمية شديدة الشبه بـ «الحقيقة الافتراضية» التي خلقتها ثورة المعلومات في عوالم العقول الإلكترونية. بالطبع، لهذه السلطة رأس وجسم وقاعدة. لها قوانينها وقواعد عملها ومؤسساتها. فأمريكا هي رأس هذه السلطة حتى إشعار آخر. إنها الإمبراطورية الجديدة التي تحكم روما الجديدة. أما الجسم والقاعدة فهما على التوالي: الشبكات والمؤسسات العملاقة التي تنتجها الشركات متعددة الجنسيات، ثم «كل» شعوب العالم.

والكل هنا تعني الكل: أي شعوب العالم الأول كما الثاني كما الثالث والرابع، بعد أن أسقط عصر إمبراطورية العولمة التمايزات الخارجية بين الدول ونقلها إلى داخل كل دولة.

وهكذا، بات بالإمكان الحديث الآن عن عالم ثانٍ أو ثالث في الداخل الأمريكي والأوروبي والياباني (حيث ٢٠ بالمئة ينتجون ويحكمون و٨٠ بالمئة يفقرون ويهمشون، كما أشار مؤلفو «فخ العولمة» الألمان)[٢٢]. كما بات بالمستطاع العثور على عالم أول داخل الدول الفقيرة حيث النخب فاحشة الغنى مندمجة بالسوق العالمية كلياً بشتى تجلياتها الثقافية والاقتصادية والترفيهية.

بيد أن كل هذه التطورات لا تلغي أمرين اثنين:

الأول، أن اللاقطبية ستعني في لحظة ما، أو في مرحلة ما، تفاقم المنافسات والصراعات بين الدول الكبرى القديمة والجديدة، من أمريكا وأوروبا واليابان والصين إلى روسيا والبرازيل وبقية النمور الأسيوية، بعد أن أصبحت كل هذه الدول رأسمالية. أي أن الصراع سيكون بين مختلف أصناف الرأسماليات الأساسية في العالم، في شكل تنافس على الأسواق والرساميل والموارد الطبيعية وخطوط التجارة البرية والبحرية. وهذا ما دفع العديد من المحللين الأوروبيين إلى تشبيه الوضع الدولي الراهن بذلك الذي كان قائماً عشية الحرب العالمية الأولى.

---

(٢٢) Hans-Peter Martin and Harald Schumann, *The Global Trap: Globalization and the Assault on Prosperity and Democracy* (London: Zed Books, 1997), pp. 3-4.

وهذا أمر متوقع. فعلى الرغم من أن الجنس البشري حقق قفزات مدهشة في مجالات المعرفة والعلم والفنون والموسيقى، إلا أن طبيعة العلاقات الدولية لا تزال تستند إلى الوعي المكيافيلي والإمبراطوري القديم القائم على حروب الجميع ضد الجميع الهوبسية، وعلى مفاهيم القوة وموازينها تحت الشعارات الفضفاضة للمصلحة القومية أو الأمن القومي أو «ضرورات» وجود العدو.

الثاني، أنه حتى لو تمكَّنت القوى الكبرى القديمة والناشئة من تعديل وتحسين النظام الدولي الراهن بالطرق السلمية أو بسلاسة (وهذه مسألة تبدو صعبة بسبب التوحش الدائم للرأسمالية)، إلا أن هذا لن يُنقذ الجنس البشري من الأخطار الداهمة التي يتعرَّض لها.

لقد نجح الوعي المكيافيلي، طيلة الخمسة آلاف سنة الماضية، والذي أجمع على رفع لوائه كل الحكام في التاريخ بلا استثناء، من ملوك وأباطرة ودكتاتوريين إلى رؤساء «ديمقراطيين» حديثاً، في تبرير حروبهم وصراعاتهم المدمِّرة على أنها بديهية وضرورية. وهم فعلوا ذلك من خلال نشر ثقافة الخوف والتخويف والتغريب وخلق نزعة كراهية «الآخر». وهذا هو نفسه ما تكرره الآن في القرن الحادي والعشرين كل استراتيجيات الأمن القومي للدول الكبرى التي استعرضناها أعلاه، والتي يغيب عنها بشكل مطلق أي برنامج أو حتى مجرد توجّه، ولو اسمي وشكلي، نحو تحقيق السلام العالمي، والتعاون والتضامن الدوليين. أما وعد السلام الذي طرحته العولمة النيوليبرالية، فقد تكشف عن كونه حروباً بوسائل أخرى ضد ثلاثة أرباع البشرية وبيئة الأرض، وأيضاً ضد أي أمل بتحقيق قفزة ثانية وسامية في الحضارة البشرية، من شأنها إطلاق طاقات الفرد والجماعات الروحية والفكرية والعلمية والوجودية.

بيد أن كوكب الأرض لم يعد يحتمل مثل هذه العربدة الفكرية والاستراتيجية من كلٍ من الدول الكبرى والعولمة النيوليبرالية على حد سواء. فتغيُّرُ المناخ، الذي سنتطرق إليه في الفصل التالي، والذي يسير الآن بخطى مذهلة في تسارعه نحو دفع الحياة إلى الهاوية، وما يرافقه من تلوّث مخيف في مياه المحيطات والبحار والأنهار وفي أجواء كل العالم والذي أدى خلال ٢٠٠ سنة فقط إلى انقراض أكثر من ٧٠ ألف نوع وجنس من النبات والحيوانات، باتا يهددان الآن بانقراض الجنس البشري برمَّته. وكما قال نعوم تشومسكي عن حق: «في هذه المرحلة من التاريخ، أحد شيئين سيكون ممكناً: إما أن جمهور العالم سيمسك مصيره بيده مدفوعاً بقيم التضامن والتعاطف والاهتمام بالآخرين، أو لن يكون هناك مصير على الإطلاق».

الفصل الثاني

أُمُّنا الأرض تحتضر

لربما الشمس والقمر والنجوم كانت اختفت منذ أمد طويل،
لو أنها كانت في متناول اليد الضارية للإنسان
هافيلوك إيليز

نحن لا نرث الأرض من أسلافنا. نحن نستعيرها من أطفالنا
مَثَل شعبي لسكان أمريكا الأصليين

طيلة آلاف السنين، كانت الزهور والورود والنحل والفراشات مصدر وحي للشعراء والفنانين والعاشقين. فهي رمز لجمال الطبيعة (الوردة)، أو لتنظيمها الرائع (ممالك النحل)، أو لرقتها وحنوّها (الفراشة).

بيد أن كل ذلك كان حديث الأمس. اليوم كل هذه الجمالات مهددة بالانقراض، ومعها على الأرجح الحياة كما نعرفها على كوكب الأرض.

فقد اكتشف الباحثون في جامعة فيرجينيا[1] أن تلوّث الجو يعرقل قدرة النحل والحشرات الأخرى على التقاط رائحة الزهور واللحاق بها إلى مصدرها، الأمر الذي ينسف كل عملية التلقيح في جملة واسعة من المحاصيل.

(١) نُسِب إلى ألبرت أينشتاين في مجلة **النحل** الكندية (*Bee*) قوله: «أزيلوا النحل عن وجه الأرض تزيلوا في الضربة نفسها مئة ألف نوع من النباتات» (بسبب غياب عملية التلقيح). وفي قول آخر غير مؤكّد نُسِبَ إليه أيضاً أنه «بعد رحيل النحل، لن يستطيع الإنسان البقاء على كوكب الأرض أكثر من أربعة أعوام».

ثمّة دوائر أخرى إعلامية، قريبة على الأرجح من الشركات الكبرى، لا تنفي مخاطر اختفاء النحل لكنها تخفّف من مضاعفاتها. انظر: Micaela Strömbäck Vujica, «Myth Busters: Will Bees Become Extinct?, How Will Food be Affected?,» *Epoch Times* (5 November 2013), <http://www.theepochtimes.com/n3/344973-myth-busters-will-bees-become-extinct-how-will-food-be-affected/>. =

في التفاصيل أن الزهور تطلق جُسيمات من الهيدروكربونات الحاملة للروائح التي تستطيع السفر حتى ١٠٠٠ متر. لكن الآن، وبسبب التلوث الذي تفرزه عوادم السيارات وأدخنة المصانع، تقلصّت الرحلة إلى ٢٠٠ متر، ما جعل النحل الحامل للقاح يجد صعوبة في العثور على طعامه. والحصيلة: انقراض أجناس عدة من الحشرات المدهشة، وتراجع إنتاج العديد من المحاصيل، بما في ذلك الفواكه والخضر. وهذا يفسّر جانباً من الأزمة العنيفة التي تمر بها الطبيعة في مناطق عديدة من الولايات المتحدة والعالم.

في مقابل هذه اللوحة المثيرة للحزن، هناك لوحة أخرى مثيرة للخوف. فجنباً إلى جنب مع هذا التدمير البشري المنظم لمقوِّمات التوازن الدقيق للطبيعة، تنشط شركات البذور العالمية الكبرى للقضاء على البذور الطبيعية التي تطوّرت خلال ملايين السنين لتحل مكانها بذور معدَّلة جينياً. وجه الخطورة في هذا الموضوع لا يقتصر على احتمال وجود مواد مسرطنة وسامة ومكافحة للمضادات الحيوية في هذه البذور المعدلة، بل أيضاً في الموت التدريجي لتوازنات البيئة وسيطرة الشركات على الحياة من خلال بذور لا تعيش سوى سنة واحدة أو موسم واحد.

هذا الكابوس لا ينتمي إلى عالم الغد، بل هو حدث بالفعل. فالعراق، مثلاً،[٢] وهو بلد المليون نخلة منذ فجر التاريخ، تعرض لغزو شركة بذور أمريكية عملاقة تفعل في طبيعته ما فعلته قوات الغزو العسكرية الأمريكية في كيانه السياسي: التدمير غير الخلاق. **الأولى** تفعل ذلك عبر حمل المزارعين على التخلي عن «بذورهم التاريخية»، و**الثانية** فعلته حين دمرت الدولة المركزية، وحلّت الجيش الوطني، وشلّت المؤسسات. وما يحدث في العراق، يتكرر في كل مكان في كل قارات العالم، لكن على وجه الخصوص في العالم الثالث الفقير الذي يجد نفسه مخيَّراً بين الموت جوعاً أو الانتحار على يد البذور المعّدلة جينياً[٣].

= انظر أيضاً، استطلاع بي بي سي الذي توقّع أن تختفي نصف الخضروات والفواكه من الأسواق في حال اختفى النحل. «What Would Happen If Bees Went Exticnct,» BBC (4 May 2014), <http://www.bbc.com/future/story/20140502-what-if-bees-went-extinct>.

(٢) في ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ أصدر بول بريمر (Paul Bremer)، بوصفه الحاكم المؤقت للعراق، القرار الرقم ٨١ الذي منع فيه رسمياً الفلاحين العراقيين من إعادة استخدام البذور الطبيعية التي استخدمها آباؤهم وأجدادهم طيلة آلاف السنين، على أن يشتروا بدلاً منها بذوراً معدّلة جينياً من شركات أمريكية عملاقة مثل مونسانتو (Monsanto).

انظر: «Iraq Farmers, U.S government, Gm Crops, Monsanto f-Up-Again,» Food Democracy (20 September 2007), <http://fooddemocracy.wordpress.com/2007/09/20/iraq-farmers-us-govt-gm-crops-monsanto-f-up-again/>.

(٣) في ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٨، أجرت صحيفة **التلغراف** (*The Telegraph*) مقابلة مع أمير ويلز «تشارلز»، أعلن فيها أن المحاصيل المعدَّلة جينياً بدأت تتسبب بأسوأ كارثة بيئية في العالم، وأن الشركات متعدّدة الجنسيات تجري «تجارب خطيرة مع الطبيعة، مضيفاً أن العالم (وعلى عكس ما تقوله هذه الشركات) سيفتقر إلى المواد الغذائية بسبب الأضرار الفادحة التي تسبّبها الشركات للتربة.

وفي العام ٢٠١٢، أورَدَ مكتب السجلات الجنائية الوطنية الهندي (National Crime Records Bureau) أن نحو ١٤ ألف فلاح انتحروا في ذلك العام بسبب فقدانهم أعمالهم، غداة اكتساح شركات البذور المعدّلة جينياً لقطاع الزراعة الهندي. وتشكّل هذه الانتحارات، المستمرة منذ العام ٢٠٠٥ نسبة ١١,٢ بالمئة من إجمالي الانتحارات في الهند.

هذان التطوران، أي تلوُّث الجو من فوق وتلويث البذور من تحت، يثبتان أمراً ليس في حاجة إلى إثبات، وهو مدى ترابط وجود الإنسان وحياته بكل المخلوقات الأخرى وبكل توازنات الطبيعة. لا نحل تعني لا زهور. لا زهور تعني لا محاصيل. لا محاصيل تعني انقراض الجميع. وبالمثل، لا بذور طبيعية تعني لا حصانة طبيعية وانكشاف الإنسان والحيوان والنبات أمام «إيدز» (نقص مناعة) بيئي دائم.

علماء البيئة يحبون عادة الاستشهاد بمقولة جميلة حقاً للدلالة على الدقة الهائلة لتوازنات الطبيعة: إذا ما هزّت فراشة جناحيها أكثر من اللازم في طوكيو، تحدث أعاصير في سان فرنسيسكو. حسناً. كل الفراشات تهز أجنحتها بعنف هذه الأيام، حنقاً وغضباً على تدمير مقومات حياتها وحياة باقي المخلوقات. وهذا ما يتسبَّب إلى جانب عوامل أخرى، في تعاظم الأعاصير والتسوناميات المتكررة التي نشهد الآن. إنه مشهد الجمال والتنظيم والرقة في الطبيعة، وقد بدأ ينقلب إلى عكسه.

أولاً: معسكران حول البيئة

لكن، طالما أن خطر تغيُّر المناخ وتأثيره في الإيكولوجيا الحيوية لكوكب الأرض يبدو واضحاً وماثلاً للعيان، لماذا هذا الجدل القائم في العالم بين معسكرين: **أحدهما** يشكك بالمسألة المناخية باعتبارها **وهماً** أو حتى «مؤامرة» على الاقتصاد؛ **والثاني** يعتبر هذا النفي هو «المؤامرة» بعينها؟

السبب يعود في الدرجة الأولى، إلى جانب المصالح بالطبع، إلى البنى الفكرية لكلا المعسكرين. فالمعسكر **الأول** ينتمي إلى الفلسفة النفعية المادية البحتة التي لا ترى في الحياة والطبيعة سوى أفعال أو ردود أفعال ميكانيكية أو تفاعلات فيزيائية ـ كيميائية يمكن التحكُّم بها والتلاعب بتوازناتها. وكل هذا في إطار كون عنيف غير مستقر تشوبه الاضطرابات والفوضى ويفتقد أي نظام ظاهر أو كامن؛ في حين أن المعسكر **الثاني** يعتبر الأرض كياناً حياً حقق توازنه بعد مليارات السنين من الجهود المتصلة، وهو الآن يفقد هذا التوازن بسبب السلوكيات البشرية.

١ ـ المعسكر الأول

يستعين المعسكر الأول بتاريخ جيولوجيا الأرض لتدعيم وجهة نظره. يقول إنه قبل ٥٠ مليون سنة تقريباً، كانت الأرض خالية من الجليد، وكانت الأشجار العملاقة تنمو قرب القطب الشمالي، حيث معدل درجة الحرارة حوالى ٦٠ درجة فهرنهايت. كما يوجد ما يدل على أن الأرض كانت في فترات أخرى، على العكس، قبل حوالى ٥٠٠ مليون سنة، مغطاة كلياً بالجليد.

كيف يتم التعرف إلى هذه التغيّرات؟ عبر العينات المأخوذة من أعماق المناطق الجليدية. فعند تشكُّل الجليد، تُحتبَس فقاعات من الغلاف الجوي تضم في مكوناتها عناصر كيميائية منها ثاني أكسيد الكربون ومكونات الميثان التي يمكن تحليلها الآن لمعرفة كم كانت درجة حرارة الهواء عندما تشكَّل الجليد. وبالاعتماد على عيِّنات الجليد وعلى ترسبات من أعماق المحيطات، توصّل

علماء المناخ إلى افتراضات مهمة: دورات عصر الجليد خلال السنوات الثلاث الملايين الماضية، ربما حدثت بسبب التأرجحات الدورية لمدار الأرض التي تؤثر بشكل أساسي في اتجاه محور الأرض. هذه التأرجحات لا تؤثر في كمية ضوء الشمس التي تصل الأرض، لكنها تغيّر نمط توزيعها بين خطوط الطول. وهذا التوزُّع مهم لأن امتصاص وانعكاس أشعة الشمس يختلفان بين اليابسة والماء، وتوزع المحيطات والقارات يختلف ما بين الجنوب والشمال. وبالتالي، العصور الجليدية تنشأ نتيجة لاختلافات المدار التي تجعل المناطق القطبية تتلقى قدراً أقل من أشعة الشمس ما يجعل الجليد والثلج أقل ذوباناً(٤).

تسييس الطبيعة

إذاً، يُعتبر بروز التقلبات المناخية، بالنسبة إلى هذا المعسكر، نتيجة مركّبة لمدار الأرض وتكوينها الجيولوجي الأساسي. لكن هذا التركيب لا يفسر في الواقع أيّاً من ظواهر تحوُّل الأرض البطيء نحو المراحل الباردة من هذه الدورة أو العودة المفاجئة إلى الدفء، وهو الأمر الذي تؤكده العينات نفسها المأخوذة من أعماق الجليد، الفاصل بين دورين جليديين.

تشير أنماط المناخ، التي دُرِسَت من قبل العلماء على مستوى الكرة الأرضية، إلى أن حرارة الأرض سوف تستمر في الارتفاع خلال هذا القرن. والأهم من ذلك أن ارتفاع الحرارة سيكون بدرجة أقل في المناطق الحارة أصلاً، كالمناطق الاستوائية، بينما يتوقع للمناطق الباردة، مثل القارة القطبية، أن تسخن أكثر. وهذه مؤشرات باتت واضحة من خلال قياس درجات الحرارة على المستوى العالمي. كما أن درجات حرارة الليل تزداد ارتفاعاً بسرعة أكبر مما هو الحال في النهار.

يرى أنصار المعسكر الأول أن تقلبات المناخ على هذا النحو ستكون «إيجابية»، وإن كانت ستفرز خاسرين ورابحين. فالإنسان سيحتاج إلى قدر أقل من الطاقة لتدفئة المباني، وستبدأ الأراضي التي كانت منخفضة الخصوبة عند خطوط العرض العليا بإنتاج المحاصيل الوفيرة، وستقل المعاناة من موجات البرد القارس. كما أن ازدياد ثاني أكسيد الكربون قد يجعل المحاصيل تنمو بسرعة أكبر أيضاً. أما في الجانب السلبي فيتوقع حصول موجات حر أكثر حدة وتكراراً، ما يزيد نفقات تكييف الهواء، وستصبح المناطق التي كانت خصبة في السابق، مثل المناطق القريبة من خط الاستواء، غير قابلة للزراعة. ويختم هذا المعسكر بالقول: «حتى لو كانت التغييرات التي يسببها الإنسان أوسع مما شهدته الأرض خلال آلاف السنوات القليلة الماضية، إلا أنها تظل دون مستوى التأرجحات الطبيعية الكبيرة بين عصور الجليد والفترات الفاصلة بين الأدوار الجليدية التي استمرت الحياة بعدها»(٥).

---

(٤) «What Causes the Earth's Climate to Change,» British Geological Survey, <http://www.bgs.ac.uk/discoveringgeology/climatechange/general/causes.html?src=topnav>.

(٥) يقول أنصار هذه النظرية أيضاً إن مناخ الأرض يسخن كل ١٠٠ ألف سنة لمدّة ٢٠ ألف سنة. وبما أنه مرّ الآن نحو ١٨ ألف سنة على آخر فترة سخونة معتدلة، فربما باتت نهاية هذه الفترة وعودة المرحلة الجليدية قريبة، بغضّ النظر عن تأثيرات الإنسان على المناخ. وبالطبع تدعو هذه النظرية ضمناً إلى عدم الاهتمام بمسألة البيئة والإيكولوجيا. انظر: «A Brief History of Ice Ages and Warming,» Global Warming, <http://www.geocraft.com/wvfossils/ice_ages.html>.

٢ ـ المعسكر الثاني

يرى المعسكر الثاني أن أنصار زميله الأول يستخفّون على هذا النحو كثيراً بمسألة ارتفاع حرارة الأرض. فخلال ذروة آخر عصر جليدي، انخفض مستوى البحار بحدود ٤٠٠ قدم عمّا هو عليه الآن، لأن كميات كبيرة من الماء احتُجزت في الصفائح الجليدية الهائلة. وفي المقابل، إذا ما ارتفعت حرارة المناطق القطبية وذاب الجليد، فإن مستوى مياه البحار سوف يرتفع بحدود ٧ أمتار لتغمر كثيراً من المناطق الساحلية، بما فيها أقسام كبيرة من أمريكا الشمالية وأوروبا.

وتُظهر الدراسات الحديثة أن ازدياد درجة حرارة سطح البحر، كانت أكثر تأثيراً في زيادة عدد الأعاصير (٦٠ بالمئة) منذ سبعينيات القرن الماضي[٦]. وقد كان موسم الأعاصير في العام ٢٠٠٥ الأكثر شدة على مدى ١٥٠ سنة. إن زيادة درجة الحرارة بمقدار سبع درجات سوف يزيد بخار الماء بنسبة ٢٥ بالمئة، وهذا يعني زيادة الأمطار بمعدل مماثل. لكن المشكلة هي أن المناطق الماطرة ستكون أكثر مطراً، بينما تصبح المناطق الجافة أكثر جفافاً. وبالتالي فإن عالماً أكثر حرارة يعني مزيداً من أخطار الفيضانات والقحط في آن. وفي هذا الصدد، لا بد من تأمل النتائج التي ارتبطت بالتأرجحات المناخية الطبيعية منذ نهاية آخر عصر جليدي. فقد تعرّضت بعض الحضارات إلى الخراب، وفي بعض الحالات دُمِّرت حضارات بكاملها في مناطق مثل بلاد الرافدين ووسط وجنوب أمريكا والمنطقة الجنوبية الغربية مما يعرف الآن بالولايات المتحدة.

ويوضح أنصار المعسكر الثاني أنه رغم وجود حقيقة علمية لا خلاف عليها تؤكد أن حرق المواد الأحفورية يزيد نسبة ثاني أكسيد الكربون ويسهم في تغيير المناخ وزيادة معدل الحرارة، إلا أن هناك علماء يواصلون التأكيد أن ازدياد حرارة الأرض ناشئ عن تبدلات مناخية سبق أن حصلت في الماضي. وقد أدى هذا التباين في النظرة حول أسباب ارتفاع حرارة الأرض إلى تسييس الموضوع وظهور مجموعات من العلماء تدعمهم شركات النفط وصناعة السيارات (أو هم «يدعمونها»)، فاحتدم الجدل بين العلماء الذين يخدمون هذه المصالح وأولئك الذين يبحثون عن إجابات موضوعية وحيادية. وبالطبع كان للمجموعات السياسية ووسائل الإعلام دور كبير في دعم وجهة نظر المعسكر الأول.

أ ـ حقائق

مع ذلك هناك مجموعة من الحقائق ليس في وسع أحد المجادلة حول دقتها[٧]:

---

(٦) Geoffrey Lean, «The Truth behind Typhoon Haiyan,» *The Telegraph* (15 November 2003), <http://www.telegraph.co.uk/news/earth/environment/climatechange/10452258/The-truth-behind-Typhoon-Haiyan.html>.

(٧) Kerry Emanuel: *Divine Wind: The History and Science of Hurricanes* (New York: Oxford University Press, 2005), and *What We Know about Climate Change*, Boston Review Books (London: The MIT Press, 2007).

وفي العام ٢٠٠٦، اعتبرت مجلة تايم إمانويل واحداً من أبرز مئة من أكثر الناس تأثيراً في العالم.

• ازدياد تركيز غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان والأوزون والحمض النيتروجيني، بسبب حرق الوقود الأحفوري والمواد العضوية. فقد ازداد ثاني أكسيد الكربون بنسبة ٣٥ بالمئة عما كان عليه قبل الثورة الصناعية. وتشير المعطيات إلى أن هذا لم يحدث على مدى ٦٥٠ ألف سنة.

• ازدياد معدل حرارة الأرض بحدود ١,٢ درجة خلال القرن الماضي، ومعظم هذه الزيادة حدثت بين ١٩٢٠ و١٩٥٠ ثم جاءت زيادة أخرى العام ١٩٧٥ تقريباً. وكان العام ٢٠٠٥ الأشد حرارة في التاريخ الحديث المعروف.

• ارتفاع منسوب مياه البحار حوالى ٦,٨٦ سم إنشاً خلال الأربعين سنة الماضية.

• تناقص الجليد القطبي بنسب كبيرة منذ العام ١٩٧٨.

• درجة حرارة الأرض الآن أعلى من أي وقت مضى منذ ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ سنة مضت.

• مستوى البحار سيرتفع ما بين ٦,٣٥ و٢٢,٨٦ سم أو أكثر خلال القرن المقبل، وسيصبح المطر أكثر تركيزاً وغزارة في مناطق معينة ولكن على فترات متباعدة.

كل هذه التوقعات تتوقف على كميات الغازات التي سيُطلقها الإنسان إلى الغلاف الجوي.

ب ـ المُدخِّن والتنفُّس

ماذا تعني هذه المعطيات؟

إنها تعني أنه حتى لو كان صحيحاً أن المناخ شهد عبر التاريخ تقلبات دورية كبرى، إلا أن هذا لا يجب أن يجعلنا نقفز فوق التلوث الذي نتسبب به نحن، والذي يسهم في قلب التوازنات المناخية الدقيقة الراهنة[٨]. الأمر هنا أشبه بالمُدخن الذي يقول إن المدخنين وغير المدخنين على حد سواء سيموتون، لذا لا ضرر من التدخين. من يزور القاهرة أو بيروت أو حتى باريس هذه الأيام، ناهيك بالطبع ببيجينغ ونيودلهي، لن يستطيع التنفس بسهولة بسبب التلوُّث الذي يسببه البشر. وإذا ما كان القول بضرورة الفصل بين التلوث وبين تغيّر المناخ صحيحاً، فكيف نفسِّر الانقراض السريع الراهن لآلاف المخلوقات في البحر والبر في العصر الصناعي بسبب غازات الحبيسة؟ أليس هذا شكلاً من أشكال تغيّر البيئة والمناخ؟ ثم: إذا ما كان آلاف العلماء من كل الدول يجمعون الآن على أن القطب الشمالي يذوب بسرعة بسبب الملوثات البشرية، وأن ذلك سيتسبب عما قريب باختلال تيارات المحيطات وبالتالي بفيضانات وتسوناميّات ثم بعصر جليدي آخر، فهل نرد عليهم بأن هذا أمر طبيعي يتكرر بشكل دوري؟ أليس الأمر في يدنا لمنع حدوثه أو على الأقل تقليص أضراره الكارثية؟

---

(٨) حول الاحتباس الحراري، انظر: راغدة حداد وعماد فرحات، «المناخ حتماً يتغير،» **البيئة والتنمية**، العدد ٧١ (شباط/فبراير ٢٠٠٤)، <http://www.afedmag.com/web/ala3dadAlSabiaSections-details.aspx?id=1244&issue=&type=2&cat=>.

نتفق مع من يقول إن الاشتراكية السوفياتية والصينية لم تكن أكثر رحمة بالبيئة من الرأسمالية. العكس هو الصحيح كما تبيَّن بعد انهيار النظم الاشتراكية وقبلها في كارثة تشيرنوبيل. الاشتراكية كما طُبِّقت، حذت حذو الرأسمالية من حيث التركيز الكامل على النمو الاقتصادي والفلسفة النفعية المادية البحتة (الحداثة بمفهومها الرث). بيد أن الرأسمالية النيوليبرالية تبقى بيت الداء الرئيس، بسبب سطوتها الهائلة وسيطرتها الأيديولوجية الكاملة التي لا ترى سوى الربح والتوسُّع الاقتصادي الأبدي نمطاً للحياة، بغض النظر عن البيئة والمساواة وحتى عن الديمقراطية. وهذا ما أوضحه كتّاب بارزون غير معادين للرأسمالية على غرار بنجامين باربر[٩] وفرانسيس فوكوياما وحتى مرشح الرئاسة السابق آل غور[١٠] ثم الرئيس أوباما نفسه[١١].

ثانياً: قمم و«مؤامرات»

على أي حال، كل هذا الجدل المناخي الساخن حول سخونة المناخ، كان حاضراً في المؤتمرات والقمم الدولية التي عقدت في العقود الأخيرة لبحث هذه المسألة. فعلى سبيل المثال، قمة كوبنهاغن حول تغيّر المناخ التي عقدت العام ٢٠٠٩، بدأت بـ «مؤامرة علنية» و«خدعة خفية» كلتاهما أمريكيتان.

أطلق المؤامرة السيناتور الأمريكي جيم إنهوفي، الذي جاء إلى كوبنهاغن مُمثلاً الشركات والمصالح الرأسمالية الكبرى الرافضة لفرض أي قيود بيئية على الصناعات. إنهوفي هذا قال بوضوح إنه هو والعديد من زملائه في الكونغرس قرروا إجهاض أي اتفاق جديد لخفض غازات الحبيسة، بعد أن اكتشفوا بأن ذلك سيُكلّف الولايات المتحدة نحو ٣٣٠ مليار دولار سنوياً. وهم

---

(٩) Benjamin R. Barber, *Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy* (New York: Ballantine Books, 1995), Introduction.

يقول بنجامين باربر: «كل من الجهاد (أي الحركات المتطرفة من كل الأديان) وماكوولد (النيوليبرالية الرأسمالية) يقوّضان سيادة الدول ـ الأمم ويفكّكان المؤسسات الديمقراطية. وفي إطار ما يسميه «الإمبريالية الناعمة» تتمّ عولمة العديد من الموبقات، من الجرائم إلى الأسلحة غير التقليدية والمخدرات. لقد عولمنا الدعارة والأفلام الإباحية الجنسية والاتجار بالنساء والأطفال عبر «السياحة الجنسية» واستغلال الأطفال في الحروب والفقر.

(١٠) في العام ٢٠٠٦ خاطب آل غور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق، ندوة من ٢٠٠٠ شخص في لندن، ثم صحيفة **الغارديان** بالكلمات المجلجلة الآتية: «العلماء باتوا يصرخون عملياً من فوق السطوح محذّرين من الكارثة البيئية الرهيبة الوشيكة. الجدل حول هذا الموضوع انتهى. لا أحد بعد في جالية العلماء يناقش ما إذا كان ثمة احترار في الكوكب أم لا. المشكلة الوحيدة الآن هي في الأنظمة السياسية والشركات الكبرى التي ترفض الاعتراف بهذه الحقيقة لأسباب مصلحية».

(١١) في ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠١٣ قال الرئيس الأمريكي باراك أوباما في خطاب له: «في يوم ما، أطفالنا وأطفال أطفالنا سيحدقون في عيوننا ويسألوننا: هل فعلنا كل ما في وسعنا للتعاطي مع هذه المشكلة (تغيّر المناخ) لنوفّر لهم عالماً أكثر نظافة وأماناً واستقراراً». لكن، كما سنعرف في الصفحات اللاحقة، أوباما وإدارته لم يفعلا في الواقع شيئاً عملياً للتعاطي الجدّي مع هذه المشكلة.

«Someday, our children, and our children's children, will look at us in the eye and they'll ask us, did we do all that we could when we had the chance to deal with this problem and leave them a cleaner, safe, more stable world?».

على أي حال يعتبرون تغيّر المناخ مجرد «خدعة» يستخدمها أنصار تدخل الدولة في الاقتصاد ضد السوق الحرة.

بالطبع، لم يكتفِ السيناتور بهذا الدافع الاقتصادي المُشين، بل حاول حشد جملة من آراء العلماء الذين «استلحقتهم» الشركات الكبرى والذين يدّعون، رغم كل الأدلة الكثيفة المتوافرة، بأن حرارة الأرض لا ترتفع وأن الأعاصير لم تصبح أكثر انتشاراً.

أما الخدعة فأتت على يد الرئيس أوباما نفسه، حين انضم إلى قمة كوبنهاغن في أيامها الأخيرة. إذ إنه أعلن أن الولايات المتحدة قررت العمل على خفض غازات الكربون بمعدل ١٧ بالمئة من الآن وحتى العام ٢٠٢٠. كما أنه وقَّع اتفاقية جماعية جديدة تتعهد مكافحة سخونة المناخ.

لماذا هاتان الخطوتان خدعة؟

لأن أمريكا لن تستطيع في الواقع، وفق معدلات استهلاكها الحالية والمتزايدة من الطاقة الأحفورية، خفض معدل انبعاثات غازات الحبيسة لا بـ١٧ بالمئة ولا حتى بـ٧ بالمئة. وكذلك لأن اتفاقية كوبنهاغن كانت «إعلاناً سياسياً» غير مُلزم قانونياً؟ ثم لأن الكونغرس الأمريكي يرفضها، تماماً كما رفض قبلها اتفاقيات كيوتو.

هذه المؤامرة وتلك الخدعة، ليستا قصراً على أمريكا. فكل الدول تقريباً، عدا ربما بعض الدول الأوروبية، تزعم نظرياً أنها ستسعى إلى خفض غازات الحبيسة، لكنها لا تتخذ عملياً أي إجراء في هذا الاتجاه. وهذا يشمل الصين التي يُتوقع أن تكون مسؤولة وحدها عن ٥٣ بالمئة من ارتفاع غازات الكربون إلى الغلاف الجوي عام ٢٠٢٠، والهند التي ستتحمل مسؤولية نحو ٢٢ بالمئة من هذه الزيادة.

أما لماذا تركيز الاتهامات على الولايات المتحدة أكثر من غيرها، فهذا لسببين: **الأول**، أنها مسؤولة وحدها عن ٢٥ بالمئة من غازات الحبيسة، ببساطة لأنها تستهلك ربع إنتاج العالم من الطاقة الأحفورية، فيما لا يزيد عدد سكانها عن ٥ بالمئة من إجمالي سكان العالم. **والثاني**، لأنها (أو بالأحرى الشركات والكونغرس فيها) الأشرس في مقاومتها لأي إصلاحات في بنية الاقتصاد باتجاه وضعه في خدمة البيئة، لا العكس كما الأمر الآن.

هل يعني كل ذلك أن قمة كوبنهاغن، التي يُفترض أنها كانت تاريخية وحاسمة بالنسبة إلى مصير كوكب الأرض، لم تكن في الواقع تاريخية ولا حاسمة؟

نعم ولا.

نعم، لأنها لم تتمخض عن إجراءات عملية ملموسة للتصدي لظاهرة تغيّر المناخ، عدا بالطبع العبارات الفخيمة والأخلاقية التي تضمنها «إعلان كوبنهاغن». ولا، لأن هذه القمة كانت، كما رأى

الكاتب مارتن وولف، «نهاية البداية» في المعركة من أجل بقاء الجنس البشري(١٢). فالقمة لم تحصد في الواقع سوى الفشل الذريع. وكما كان منتظراً، هرع قادة الدول الغنية إلى إبداء الأسف والحسرة على هذا الفشل، وكأن رواد كواكب أخرى ما جاؤوا واتخذوا القرارات عنهم. فأوباما، وبرغم أنه اعتبر إعلان كوبنهاغن المحدود «اتفاقاً ذا معنى واختراقاً لا سابق له» (لم يوضّح ما هو هذا المعنى ولا ذاك الاختراق)، اعترف بأنه غير كافٍ لإنقاذ المناخ. والقادة الأوروبيون (عدا بريطانيا كالعادة) أجمعوا على أن الإعلان كان مُثبطاً للآمال وأبعد ما يكون عن تحقيق هدف خفض احترار الجو بمعدل درجتين مئويتين. أما رئيس فنزويلا الراحل تشافيز فقد كان أكثر وضوحاً ومباشرة، حين تحدث عن «انقلاب قامت به الدول الغنية ضد الدول الفقيرة».

كان تشافيز على حق. فالانقلاب وقع بالفعل، وهو كان حصيلة «مؤامرة» ما بين الولايات المتحدة وبين مجموعة دول «البريكس» وعلى رأسها الصين، لكنه لم يستهدف العالم الثالث وحده بل العالم برمته. فما حدث هو أن الرأسمالية العالمية، التي باتت القوة الوحيدة الحاكمة في كل العالم منذ العام ١٩٩٠، رفضت بـ«إباء» إخضاع النمو الاقتصادي إلى توازنات البيئة ومستلزماتها. وهذا الموقف كان امتداداً طبيعياً للفكرة العنيفة التي أقامت على أساسها الرأسمالية كل صرحها الكبير منذ القرن السادس عشر: اعتبار الطبيعة عدواً يجب مقاتلته وإخضاعه واستنزافه حتى الموت(١٣).

هذا الموقف كان تجسيداً، كما أشرنا قبل قليل، للفلسفة المادية الغربية التي قامت على الأسس التالية: ١ ـ المادة هي الحقيقة الوحيدة في الوجود، ٢ ـ الحياة (والوعي) مجرد حصيلة من حصائل «صُدَفِها»، ٣ ـ والكون برمته لا يعدو كونه آلة مادية عملاقة يمكن تفكيكها وتركيبها كما نشاء.

بدا أن هذه المقاربة تُحقق سيطرة واضحة على عالم الفكر، حين جاءت الاختراقات العلمية الكبرى لتؤكد أن العالم «يمكن فهمه وتغييره» في المختبرات والمصانع. لكن، يتبيّن الآن أن الفلسفة المادية الحديثة كانت تنتصر في الواقع على فلسفة مثالية «بدائية» (إذا جاز التعبير)، وأنها أبعد ما تكون عن امتلاك حقيقة الوجود وتوازناته. وهذا، على أي حال، ما أكدته التجارب العملية

(١٢) Marti Wolf, «Why Copenhagen Must Be the End of the Beginning,» *Financial Times* 1/12/2009, <http://www.ft.com/intl/cms/s/0/1f6c42fc-dead-11de-adff-00144feab49a.html#axzz3oj5Mbil4>.

(١٣) في تشرين الثاني/نوفمبر ١٦١٩، كان رينيه ديكارت، الذي لم يتجاوز آنذاك الثالثة والعشرين، يرسي دعائم عالم ميكانيكي بحت يديره إله عبر قوانين الرياضيات (قبل أن يحلّ مكانه عالم نيوتن). في عالم ديكارت، تحوّلت الطبيعة إلى كيان ميّت لا أثر للحياة فيه ولا للروح، وجرى وضع الوعي الإنساني في بقعة صغيرة من الدماغ داخل الغدة الصنوبرية. كانت هذه النظرية، إضافة إلى معتقدات بعض الأديان، في أساس التعاطي بالقوة والقسوة مع الطبيعة الذي وسم كل الحضارة البشرية الحديثة.

نقل سيغموند فرويد هذه الرؤية كاملة إلى علم النفس. قال: «في مواجهة العالم الخارجي المخيف، لا يستطيع المرء الدفاع عن نفسه عبر نوع من الهروب. الحل الأفضل هو أن يصبح جزءاً من المجتمع البشري، ويتلقى توجيهاً تقنياً من العلم، ثم يبادر إلى مهاجمة الطبيعة لإخضاعها للإرادة البشرية». انظر: Rupert Sheldrake, *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God* (London: Park Street Press, 1990).

التي أجريت في مجال فيزياء الكم (الكوانتوم) والتي أكدت أن مبدأ اللايقين هو الذي يحكم عالم المادة، وأن الوعي هو أحد أسس وجود العالم المادي، أو هو على الأقل يؤدي دوراً كبيراً في تشكّله.

وحين ظهرت هذه الكشوفات، انزاح الستار فوراً عن المشهد المروّع الذي خلّفته الرأسمالية المتطرفة وتدثّرت فيه برداء العلم: عالم بلا روح ولا أخلاق ولا قيم، يسبح في بحر من ظلمات الحروب والأحقاد والأمراض النفسية والعضوية. وفوق هذا وذاك، بان للجميع أي مصير ينتظر الجميع على يد من يدعو إلى تدمير البيئة والطبيعة. هذه الفلسفة، وليس الدول الغنية وحدها، كانت المنتصر الحقيقي في قمة كوبنهاغن. وعلى الرغم من أن العديدين توقعوا هذه النتيجة سلفاً، إلا أن المرء مع ذلك لا يستطيع إلا أن يرتجف وجلاً وهو يرى حفنة من أنصار «الجينة الأنانية» يقذفون بالبشرية بأسرها إلى أتون «الاحتراق الحراري».

عشية قمة كوبنهاغن طرح التساؤل: من سينتصر، الرأسمالية أم البشرية؟ وبعد مصير هذه القمة العاثر، تكاثر الحديث عن عدم أهلية الجنس البشري لقيادة مسيرة الحياة على الأرض. وهذه حصيلة بات يتردد صداها في أربع زوايا الأرض، بعد سلسلة الكوارث البيئية المتصلة، من تسوناميّات وزلازل وأعاصير، التي شهدها العالم في العقود الأخيرة.

١ ـ أعاصير بالجملة

«المشكلة ليست في نشوب الأعاصير في أمريكا الشمالية، فهذه أصلاً قارة لطالما اشتهرت بأعاصيرها. المشكلة أن قوة هذه الأخيرة باتت ضعفي ما كانت عليه من قبل. وهذا يجب أن يدفعنا إلى دق أجراس الإنذار بقوة». هكذا تحدث الباحث الأمريكي روس غيلبسبان (Ross Gelbspan)، من دون أن ينسى إضافة أن «الاسم الحقيقي لإعصار كارتينا المدمّر ولباقي الأعاصير التي ضربت أمريكا في ٢٥ آب/أغسطس ٢٠٠٥ هو ارتفاع حرارة الأرض، أو ما بات يعرف بـ «سخونة الجو». قوة الأعاصير لم تكن مجرد كارثة طبيعية، بل هي أيضاً كارثة لاطبيعية سببّها البشر لأنفسهم»[(١٤)]. لكن، وطالما أن أمر الأعاصير على هذا النحو، لماذا لا تعترف الحكومة الأمريكية بهذه الحقيقة وتعلن حال الطوارئ لمواجهة مضاعفاتها؟ ببساطة لأن هذا الذي يجب أن يعمل، يتضمن إعادة النظر في عمل النظام الرأسمالي نفسه: خفض استهلاك الفحم والنفط بمعدل ٧٠ بالمئة، ومنح الأولوية للتوازنات البيئية ولمستقبل الأجيال المقبلة وليس للنمو الاقتصادي الآني، والشره، والأعمى[(١٥)].

---

(١٤) Ross Gelbspan, «Hurricane Katrina's Real Name,» *New York Times* 31/8/2005.

(١٥) بعد أكثر من ٤٠ سنة من صدور إعلان نادي روما (The Club of Rome)، الذي ضمّ مجموعة كبيرة من رؤساء الدول والسياسيين والاقتصاديين والعلماء ورجال الأعمال، والذي أعلن (تحت عنوان «حدود النمو» ((Limits of Growth)) أنه من المستحيل استمرار النمو السكاني والصناعي واستهلاك المواد الغذائية واستغلال الموارد الطبيعية، من دون التعرُّض للانهيار في القرن الحادي والعشرين، لا تزال خلاصات هذا التقرير دقيقة وصحيحة. وقد أعاد تأكيد صوابيتها العديد من الخبراء والباحثين على غرار غراهام تيرنر (Graham Turner) الذي نشر دراسة عام ٢٠٠٨، انظر: Graham Turner, «A Comparison of the Limits to Growth with Thirty Years of Reality,» Socio-Economics and the Environment in =

هذا لا يبدو وارداً لدى أي إدارة أمريكية، بسبب تقاطع مصالحها السياسية مع المصالح الاقتصادية للشركات العملاقة الأمريكية التي ستتضرر نشاطاتها بشدة إذا ما أعطت الأولوية للحفاظ على توازنات البيئة. بيد أن إخفاء مشكلة سخونة الجو لا يعني اختفاءها. وعلى أي حال، آثار أقدام الكوارث البيئية منتشرة هذه الأيام في كل مكان، وهي لا تقتصر على الزوابع والأعاصير. فقبل كارثة تدفق النفط في سواحل خليج المكسيك العام ٢٠١٠، ارتفع منسوب الثلج في لوس أنجلس قدمين للمرة الأولى. وفي الدول الاسكندينافية وإيرلندا وبريطانيا وألمانيا، أغلقت الأعاصير والفيضانات المصانع النووية وقطعت إمدادات الطاقة عن مئات آلاف الناس. وفي إسبانيا والبرتغال وفرنسا أشعل الجفاف الحرائق وهبط بمعدلات تدفق المياه إلى أدنى مستوى لها منذ ٣٠ عاماً.

كل هذا سببّه تغيُّر المناخ، كما أكد ٢٠٠٠ عالم مناخ من ١٠٠ دولة[١٦]. وكل هذا مجرد مقدمات للكوارث البيئية الزاحفة لا محالة في كل مكان في العالم. إذ إن مئات الدراسات البيئية تؤكد الآن أن مناخ الأرض لم يعد يتحمّل الملوثات الصناعية القاتلة التي يتسبب بها الإنسان، وأن الطبيعة سترد على هذه العربدة البشرية عاجلاً وليس آجّلا. أو هذا على الأقل ما يراه البروفسور البريطاني جيمس لافلوك، رائد دراسات المناخ: «سيحاول كوكب الأرض الغاضب (الذي يسميه «غايا» لأنه يتصرّف ككائن عضوي واحد) إعادة التوازن إلى الطبيعة. بيد أن ذلك سيعني إزالة الحضارة ومعظم الجنس البشري». ويضيف: «إن جنسنا وضع نفسه في حال حرب مع الأرض نفسها. ووحدها الكوارث الآن يمكن أن توقف هذه الحرب التي يدمّر فيها التلوث الصناعي البشري الأعمى المناخ وتوازنات الرياح والمحيطات والبحار»[١٧].

شهدت حقبة التسعينيات أسخن جو في نصف الكرة الشمالي منذ ألف عام. وترافق ذلك مع ارتفاع مستويات البحر من ١٠ إلى ٢٠ سم خلال القرن الماضي، أي عشرة أضعاف ما كان عليه قبل ٣٠٠٠ سنة. كل هذا حدث (كما تؤكد لجنة « تبدّل الطقس الأمريكية») بسبب غازات الحبيسة التي يطلقها الإنسان، مثل ثاني أوكسيد الكربون، والميثان، وأوكسيد النيتروس. كما أن تزايد وتائر حرائق الغابات في أمريكا الشمالية، والذوبان المفاجئ للثلوج في أوروبا، قد يكونان البدايات الأولى لانقلاب نهائي في المناخ، ربما يعيد إنتاج عصر جليدي جديد.

= Discussion, Working Paper Series; 2008-09 (June 2008), <http://www.manicore.com/fichiers/Turner_Meadows_vs_historical_data.pdf>.

وقد نشر كلّ من هال وداي مقالاً تناولا فيهما ما تنبأ به تقرير «حدود النمو متطابق مع معلومات العام ٢٠٠٨»، انظر: Charles A. S. Hall and John W. Day, Jr., «Revisiting the Limits to Growth after Peak Oil,» *American Scientist*, vol. 9 (May-June 2009), <http://www.esf.edu/efb/hall/2009-05Hall0327.pdf>.

وقد قال أوغو باردي في كتابه إن «التحذيرات التي تلقيناها عام ١٩٧٢ تبدو الآن صحيحة بشكل مخيف». انظر: Ugo Bardi, *The Limits to Growth Revisited*, Springer Briefs in Energy (New York: Springer, 2011), and «The Limits to Growth,» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/the_limits_to_growth>.

(١٦) منذ عام ١٩٩٨ وقّع أكثر من ٣١ عالماً أمريكياً عرائض تطالب بالتصدي لظاهرة تغير المناخ.

(١٧) James Lovelock, *The Revenge of Gaia: Earth's Climate Crisis and the Fate of Humanity* (New York: Basic Books, 2007).

علاوة على ذلك، تلّوث البحار والمحيطات الكبرى يزداد سوءاً، وهو سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى كوارث طبيعة ضخمة، وخسارة العديد من الثروات السمكية، وتدهور الأنظمة البيئية على السواحل والجزر، وتفاقم الأمراض والأوبئة.

هذه الانقلابات في الطبيعة دفعت **نيويورك تايمز** الرزينة إلى التخلي عن رزانتها مؤقتاً، فجهرت بالصوت، وزمجرت بالغضب، وكادت تتهم البيت الأبيض بأنه يتحالف مع الأعاصير والزوابع ضد الأمة الأمريكية وكل البشر. قالت: «يتساءل المرء: ماذا يمكن أن يحرّك واشنطن ويوقظها من نومها وبلادتها حول مسألة سخونة المناخ. أينما يمّم المرء وجهه هذه الأيام ـ من لندن إلى موسكو وحتى مقاطعة واشنطن الانتخابية ـ يجد الدليل على وجود فقدان صبر متزايد إزاء رفض واشنطن مواجهة هذا التهديد الكبير»[١٨]. وتابعت: «على الرغم من أن الروابط بين السخونة العالمية وبين سلسلة الأعاصير لا تزال نظرية، إلا أن الطقس نفسه يبدو وكأنه يقول للسياسيين إن الوقت حان لبدء الاهتمام بهذه المسألة الخطيرة».

٢ ـ سقوط «اللفلفات»

قبل صرخة الغضب هذه، كان سياسيون أمريكيون وبريطانيون يعترفون للمرة الأولى بأنه لم يعد بالإمكان «لفلفة» قضية تغيّر المناخ. فطوني بلير، رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، وصف بشجاعة سخونة الجو بأنها «أعظم تحد بيئي في العالم»[١٩]. والسيناتور الأمريكي جون ماكين كان أشجع كثيراً، حين ارتاد أرضاً قلة من السياسيين تجرأت على أن تطأها، عاقداً العلاقة بين موسم الأعاصير الكارثية في الولايات المتحدة وبين تغّير المناخ[٢٠]. لا بل أكثر: امتد الصراخ إلى الرأسماليين أنفسهم، فعمدت منظمة شركات الضمان البريطانية (التي تضم بعض أغنى الشركات في العالم) إلى نشر تقرير مجلجل نادر حول تأثيرات تغيّر المناخ، قالت فيه إن مضاعفات (بالأحرى كوارث) الاحترار العالمي بدأت بالفعل. وبالتالي بات على الدول والمجتمعات أن تخصص موازنات لتغطية زيادة المخاطر الناجمة عن الحرارة والعواصف والفيضانات. وقدّرت المنظمة أن الخسائر الناجمة عن الكوارث الطبيعية زادت سبعة أضعاف خلال السنوات الأربعين الماضية، وأن المخاطر الناجمة عن كوارث

---

(١٨) انظر: Joe Romm, «New York Times: Those Who Deny Climate Science are not «Skeptics»,» Climate Progress (13 February 2015), <http://thinkprogress.org/climate/2015/02/13/3622819/new-york-times-skeptics-deniers/>.

(١٩) انظر نصّ خطاب طوني بلير حول تغير المناخ العام ٢٠١٢، في: «Tony Blair: Speech on Climate Change,» Climate-Debate.com (16 July 2012), <http://www.climate-debate.com/tony-blair-climate-change-speech-r16.php>.

(٢٠) في خطاب له أمام مجلس الشيوخ في ١٩ حزيران/يونيو ٢٠١٢ دام ٥٥ دقيقة، شنّ ماكين حملة عنيفة على القوى التي تنفي وجود ظاهرة الاحترار الحراري، متحدثاً عن حملة مدروسة تشنّها هذه القوى لتشويه الحقائق والمعلومات. ثمّة مقال ربما يشرح منطق مثل هذا القوى في: *Forbes* (17 July 2012), <http://www.forbes.com/sites/robindschatz/2015/10/18/how-a-social-entrepreneur-overcame-his-arrogant-failure-and-won-kudos-from-oprah/>.

المناخ سترتفع بنسبة قدرها ٢ إلى ٤ بالمئة سنوياً. وبلغة الارقام، ستكلّف الفيضانات التي ستضرب بريطانيا الساحلية خلال السنوات المقبلة شركات التأمين أكثر من ٤٠ مليار جنيه إسترليني.

في الوقت ذاته، كان رون أوكسبرغ (Ron Oxburgh)، رئيس شركة «شل» النفطية التي تعتبر من أكبر شركات البترول في العالم، يقول: «إن تهديد تغيّر المناخ، يجعلني أشعر بقلق بالغ على مصير كوكبنا. إننا في حاجة ماسة إلى «اعتقال» انبعاثات غازات الحبيسة المسّببة لسخونة الجو، خاصة ثاني أوكسيد الكربون، وخزنها تحت الأرض، وفق تقنية يطلق عليها اسم «حجز الكربون»[٢١].

هذان الاعترافان كانا الأولين في نوعهما. إذ درج قباطنة الرأسمالية على التأكيد دوماً أن العلم لم يثبت بعد أن تغيّر المناخ سببه غازات المصانع. وهذا ما قاله لي رايموند، رئيس شركة النفط «إكسون ـ موبيل»: «نحن في إيكسون ـ موبيل، لا نعتقد بأن العلم أثبت وجود علاقة ما بين الوقود الأحفوري وبين الاحترار العالمي». وهكذا أيضاً، كانت معظم الشركات العالمية الكبرى ترفض أي/وكل اقتراح لإعادة النظر في كيفية استهلاكها للطاقة، ناهيك بتوفير التمويل للأبحاث حول طاقة الريح والشمس، بحجة أن ذلك يضعف قدراتها التنافسية.

هل يعني تقريرا منظمة التأمين البريطانية ورئيس شل، أن بعض حس المسؤولية لدى بعض الرأسماليين العالميين بدأ يستفيق بالفعل؟ ليس بالتأكيد بالنسبة إلى منظمات التأمين. فهذه لم تتحرك بدافع روحي نبيل هو إنقاذ الكوكب الأزرق من الكوارث المناخية الزاحفة، بل بدافع مادي أناني هو إنقاذ نفسها من دفع أثمان هذه الكوارث. وليس أيضاً، على الأرجح، بالنسبة إلى رئيس شل نفسه، رغم تصريحاته الشجاعة التي ألّبت عليه كل أقرانه في صناعة الطاقة. أو هذا، على الأقل، ما تراه منظمات البيئة الدولية التي تقول إن فكرة «خزن الكربون» تحت سطح البحر أو الأرض، مكلفة للغاية. وبالتالي فهي مجرد ستار دخان لتبرير مواصلة الاعتماد على الوقود الأحفوري.

ويوضح بريوني وورثينغتون، أحد مسؤولي منظمة «أصدقاء الأرض»، هذه النقطة بقوله: «ليس موقفاً مسؤولاً القول بأننا سنتعهد القيام بخزن الكربون وإذا لم ينجح ذلك ستخرب الأرض. إنه (رئيس شل) كان ذكياً جداً حين قال إنه قلق للغاية من تغيُّر المناخ، بيد أنه في الوقت ذاته لم يتعهد بأي شيء من شأنه تبديد هذا القلق».

٣ ـ سيناريو الآخرة

ثمة شكوك عميقة، إذاً، حول هذين الاعترافين. لكنهما، رغم ذلك، يعتبران أول وثيقة تصدر عن الدوائر الرأسمالية الرئيسة، تؤكد وجود رابط قوي بين تغّير المناخ وبين التلويث الصناعي، وتعترف بأن الكوارث المناخية باتت في أمر اليوم. وهذا شرخ مهم في الجدار الأيديولوجي الرأسمالي يجب أن تنفذ منه الحركات البيئية والديمقراطية في العالم لإجبار حكومات الغرب كما الشرق على بدء

(٢١) David Adam, «Oil Chief: My Fears for Palent,» *The Guardian* 17/07/2004, <http://www.theguardian.com/science/2004/jun/17/sciencenews.research>.

التفكير بتغيير أنماط الإنتاج الحالية. بالطبع، هذه لن تكون مهمة سهلة. لكنها معركة يجب خوضها وكسبها، إذا ما أردنا إنقاذ الحياة على كوكب الأرض من «يوم الآخرة» الذي ينتظرها بفعل تغّير المناخ. وهو يوم باتت تفاصيله وحيثياته وسيناريوهاته أكثر من معروفة:

ـ ارتفاع مفاجئ في درجة حرارة الأرض وبدء ذوبان المجالد (الكتل الضخمة من الجليد الدائم) في القطب المتجمد الجنوبي أو غرينلاند.

ـ اختلال كبير في تيارات المحيط، واجتياح الأمواج البحرية العملاقة لكل المناطق الساحلية، خاصة في نصف الكرة الشمالي.

ـ وأخيراً حلول عصر جليدي جديد يقضي على كل البشر، كما قضى عصر جليدي آخر قبل ٦٠ مليون سنة على الديناصورات.

وهذا يعيدنا إلى سؤالنا الأولي: هل الرأسمالية، وهي النظام الاقتصادي ـ السياسي ـ الثقافي المهيمن على كل العالم الآن، مستعدة لتكييف مناخاتها الأيديولوجية مع المتغيرات الخطرة في مناخ الأرض؟

ثالثاً: الرأسمالية: مناخ وأيديولوجيا

لا بد من القول، أولاً، إن الرأسمالية هي أكثر أنماط الإنتاج دينامية ونجاحاً في التاريخ. وهي كانت ثورة حديثة (على رغم بربريتها الأولى) نقلت المجتمعات البشرية من عهود الإقطاع والزراعة البدائية والتقاليد الجامدة، إلى عصور الحداثة والصناعة والتكنولوجيا المتطورة. وهذه حقيقة لا ينفيها حتى عدو الرأسمالية الأول كارل ماركس. لكن في لحظة ما، تنقلب تقدمية الرأسمالية إلى رجعية خطرة، حين يبدو واضحاً أن نمط إنتاجها يتناقض ويتضارب مع قدرة كوكب الأرض على تحمل مضاعفاته. فالرأسمالية، كما هو معروف، تتطلب نمواً اقتصادياً سريعاً ودائماً. تاريخياً، تم تقديم الافتراض الصحيح عموماً بأن الاقتصادات الرأسمالية ستتمتع بنسبة نمو تبلغ ٣ بالمئة سنوياً. ومع مثل هذه النسبة، يجب ان يزداد نمو الاقتصاد العالمي ١٦ مرة خلال قرن واحد، و٢٥٠ مرة خلال قرنين، و٤٠٠٠ مرة خلال ثلاثة قرون. قد تبدو هذه مجرد لعبة حسابية. بيد أنها تُظهر كيف أن الاقتصاد الرأسمالي المتوسع أبداً، لن يستطيع في النهاية أن يتعايش مع المعطيات البيو ـ مناخية لكوكب الأرض.

والحل؟

أعلنت لجنة كبار العلماء الذين كلّفهم البيت الأبيض في العام ٢٠١٣ دراسة ظاهرة تغيُّر المناخ وكيفية مواجهتها[٢٢] في تقريرها أن خفض انبعاثات الغازات إلى أكثر من النصف خلال هذا القرن،

(٢٢) «Statement: Intergovernmental Panel on Climate Change Approves Physical Science Report,» White House (27 September 2013), <https://www.whitehouse.gov/blog/2013/09/27/statement-intergovernmental-panel-climate-change-approves-physical-science-report>.

أمر ضروري لوقف التغيير البشري لمناخ الأرض. لكنها أضافت أن هذا يؤدي إلى ضرورة وضع سياسات ناجعة تفرض تكاليف على مجتمعات اليوم، لكن من دون فوائد مؤكدة تعود على مجتمعات المستقبل. هذه «الفجوة الجيلية» بين تكاليف اليوم وفوائد الغد، هي التي تخلق الآن الجدل الكبير في أمريكا حول تغيُّر المناخ. فمن جهة، ثمة من يقول (أساساً في أوساط الشركات الكبرى) إن سخونة الجو (كما ألمعنا) «مجرد خدعة أو مؤامرة» اخترعها علماء متآمرون يريدون اغتصاب سيطرة الحكومة على الاقتصاد بهدف جنْي الأموال العامة الطائلة، ومن جهة أخرى، هناك من يحذّر أن تغّير المناخ خطير إلى درجة أنه بات يتطلب إعادة تنظيم فورية وشاملة للاقتصاد الصناعي الحديث.

وهذا النوع من الجدل يقود الآن إلى ثلاثة خيارات استراتيجية:

الخيار **الأول** (المتمحور حول التأقلم والإبداع) يفترض أن حوادث ومخاطر تغيُّر المناخ، تقارن ببساطة بالتحديات البيئية الأخرى التي نجحت المجتمعات المعاصرة في التأقلم معها. وهذه الاستراتيجية تحّبذ توسيع الاستثمارات الراهنة في البحث العلمي، وتحسين القدرة على التأقلم مع تغيرات الطقس، وتخصيص الموارد لابتداع تكنولوجيات جديدة تسمح بانبعاثات غازية أقل في المستقبل. ويفترض هذا الخيار أن تغيُّر المناخ حتمي، وبالتالي الاستثمار في عملية التأقلم معه أمر ضروري.

الاستراتيجية **الثانية** (تطوير اتفاقات كيوتو) تنتهج طريقاً مختلفاً بشكل راديكالي. فهي تشدّد على أن تغيّر المناخ يمكن أن يتسبَّب في تحولات مفاجئة وربما كارثية في أنماط الطقس أو مستويات البحر. وبالنسبة إلى البشر، التأقلم مع ذلك قد يكون مكلفاً للغاية. أما بالنسبة إلى الطبيعة، فإنه سيكون مستحيلاً وسيؤدي إلى انقراض واسع النطاق للمخلوقات الحية وإلى خسارة أنظمة بيئية فريدة. ومن هذا المنظور، الرد المعقول الوحيد هو تبني إجراءات قوية للسيطرة على انبعاثات الحبيسة بهدف تخفيف تغير المناخ من جذوره. وهذا يمكن أن يتم من خلال اتفاقات كيوتو بعد إصلاحها وتطويرها، مع فرض عقوبات على من يرفض الالتزام بشروطها[٢٣].

الاستراتيجية **الثالثة** (اليد الخفية للسوق)، تعترف بالحاجة إلى جهد دولي مشترك للسيطرة على الانبعاثات، لكنها ترفض اتفاقات كيوتو بصفتها غير واقعية وقاسية. ويجادل أصحاب هذا الخيار بأن أكثر الأنظمة الدولية فعالية، مثل منظمة التجارة العالمية، ظهرت من تحت إلى فوق بعد عقود من الجهود. وهذا يمكن أن يطبَّق أيضاً على مسألة تغير المناخ، عبر خلق سوق لتبادل كوتات الانبعاثات بين الدول.

---

(٢٣) معروف أن بروتوكول كيوتو (Kyoto Protocol) الذي وقّع عام ١٩٩٧ من قبل ١٩٢ دولة ما عدا أربع دول بينها الولايات المتحدة التي وقّعته لكنها لم تصادق رسمياً عليه (كندا انسحبت منه عام ٢٠١١)، وضع قواعد ملزمة للدول لتقليص انبعاث غازات الدفيئة، وأكّد مسؤولية الدول المتطوّرة في الوصول إلى المستويات المرتفعة الراهنة من الغازات الملوثة للبيئة نتيجة ١٥٠ سنة من النشاط الصناعي. البروتوكول يسمح للدول المتطورة بـ«مقايضة» وشراء حصص الدول النامية من معدلات انبعاث الغاز.

١ ـ الإنسان والطبيعة

هذه هي الاستراتيجيات الرئيسة المطروحة الآن أمام أصحاب القرار في الولايات المتحدة، التي تُعَدُّ الملوث الأول للبيئة في العالم. فأيها سيختارون؟

انحازت إدارة بوش الابن في وقت مبكر إلى الخيار الأول. فهي انسحبت العام ٢٠٠١ من اتفاقات كيوتو. ثم عمدت في شباط/ فبراير ٢٠٠٢ إلى الإعلان عن مقاربة بديلة، تستند إلى إجراءات اختيارية تقوم بها الشركات، وعن استثمارات في مجال البحث والتطوير لابتداع تكنولوجيات جديدة (مثل خلايا الوقود الهيدروجيني للسيارات ومصانع الفحم منخفضة الانبعاثات). وقد ركّز بوش آنذاك على «اللايقين» الذي يحيط بالنظريات حول سخونة الجو، وقال إن الحل لا يكمن في تقييد التكنولوجيا بل في تشجيعها على تطوير البدائل.

حسناً. تطوير البدائل مسألة مهمة، لكنها عملية ستستغرق على الأقل أكثر من أربعة عقود قبل أن تصبح ناجحة اقتصادياً ومربحة تجارياً. فهل يستطيع مناخ الأرض العليل، الانتظار كل هذه الفترة المديدة؟

أنصار البيئة (جماعات الخضر) وخصوم «العولمة المتوحشة»، ومعهم قطاعات واسعة من الديمقراطيين ـ الليبراليين الذين باتوا يخشون من قيام الرأسمالية النيوليبرالية ليس فقط بتدمير بيئة الحياة بل حتى بيئة الديمقراطية نفسها بوصفها أثمن إنتاجات البشرية، كل هؤلاء بدأوا يدركون أهمية العمل المشترك لمحاولة تغيير العلاقات الراهنة بين نمط الإنتاج الرأسمالي وبين بيئة الأرض[٢٤].

بعض هؤلاء يدعون الآن إلى رفض العلم والحداثة برمّتهما ومنح الأولوية لـ «مركزية الطبيعة» بدل «مركزية الإنسان». لكن هؤلاء قلة تطغى عليها الرومانسية والمُثُل غير القابلة للتطبيق. الأغلبية تنحو إما إلى اضفاء مسحة إنسانية على النظام الرأسمالي الراهن، عبر الدعوة إلى «تخضير» منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي، وإما إلى إعادة تنظيم جذرية للعلاقات بين الإنسان والطبيعة.

كتب جون بيلامي فوستر، في مؤلَّفه **الإيكولوجيا والرأسمالية**: «علينا أن نعيد النظر في علاقة الإنسان بالطبيعة، انطلاقاً من إدراك القيمة الكامنة في العالم الطبيعي والعمل على الحفاظ عليها. لكننا في حاجة أيضاً إلى الاعتراف بأنه ليس في وسعنا تجنّب تحويل الطبيعة في خضم عملنا وعيشنا فيها. وفي هذا الإطار، هدفنا يجب أن يكون تغيير الطبيعة بطريقة مستدامة، وتطوير علاقتنا معها في إطار تنظيم عقلاني جديد وحديث»[٢٥].

أفكار جميلة. لكن هل هي قابلة للتطبيق؟ يجب الاعتراف، من أسف، أن المتشائمين قد يكونون على حق: وحدها الكوارث الآن بإمكانها وقف حروب الإنسان الانتحارية ضد بيئة الأرض.

---

(٢٤) Barber, *Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy*, p. 236.

(٢٥) John Bellary Foster, «Ecology againd Capitalism,» *Monthly Review*, vol. 53, no. 5 (October 2002), <http://monthlyreview.org/2001/10/01/ecology-against-capitalism/>.

كل ما يمكن فعله هو الصلاة لأن تكون الكوارث البيئية المقبلة (وهي مقبلة حتماً)، محدودة لا شاملة، بحيث يتمكّن من سيتبقى من البشر من إعادة بناء علاقة سوية مع أمّنا الطبيعة. وهذه الفكرة، أي حتمية الكوارث المدمرة الزاحفة، باتت عملة رائجة في كل العالم، وهي تحوّلت إلى مادة أدبية وسينمائية كما في الشريط السينمائي الشهير «اليوم الذي سيلي بعد غد».

٢ ـ اليوم الذي سيلي

لم يصدّق أحد العالم الأمريكي جاك هول، حين أعلن أن مناخ الأرض بدأ يتغيّر بالفعل، وأن قَدَر الكوارث الكبرى بدأ يطرق أبواب البشرية. بيد أن هول نفسه لم يكن يعتقد أن هذه الكوارث ستكون آنية إلى هذا الحد. لكن هذا ما حدث بالفعل. فقد ارتفعت فجأة حرارة الأرض نصف درجة، وتسارع ذوبان مجالد العالم، واختل توازن تيارات المحيط. وما لبثت الأمواج البحرية العملاقة أن اجتاحت الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الشمالية، ثم تلاها سريعاً عصر جليدي جديد قضى على الحضارة الغربية في نصف الكرة الشمالي، ودفع من نجا من الغربيين إلى اللجوء إلى أمريكا اللاتينية وباقي أنحاء العالم الثالث.

هذا الشريط السينمائي استند إلى نظرية علمية محترمة تقول إنه في لحظة ما قد يؤدي ذوبان المجالد في القارة القطبية الجنوبية أو غرينلاند، أو كليهما، إلى خلق الفوضى في تيارات المحيطات التي تعمل كأحزمة ناقلة للحرارة. وهذا يؤدي بدوره إلى انخفاض حاد في درجات حرارة نصف القارة الشمالي (مهد الحضارة الغربية). لا بل أكثر. يعتقد العديد من الخبراء أن تغيّر المناخ بدأ بالفعل. ويؤكد خبراء لجنة تغيّر المناخ الأمريكية (وهي أهم وأوثق هيئة مناخية علمية في العالم) أن حرارة كوكب الأرض ازدادت درجة واحدة خلال المئة سنة الماضية بسبب التلوث الصناعي، وأن فترة التسعينيات شهدت أسخن طقس منذ ألف سنة في نصف الكرة الشمالي. ويشيرون إلى أن مستويات البحر ارتفعت من ١٠ إلى ٢٠ سم خلال القرن الماضي، أي عشرة أضعاف ما كانت عليه منذ ٣٠٠٠ سنة. وكل ذلك حدث، كما تشير اللجنة، بسبب غازات الحبيسة التي يطلقها الإنسان، مثل ثاني أوكسيد الكربون، والميثان، وأوكسيد النيتروس.

وتقدّم لجنة رئاسية أمريكية كلِّفت بدراسة الاحترار العالمي «عيّنة أولية» عن المضاعفات في تقريرها الذي حمل العنوان «محيطاتنا تموت»[٢٦]، قالت إن آثار أقدام هذا الاحتضار منتشرة الآن في

---

(٢٦) أشار تقرير وضعته اللجنة الدولية للعلماء البحريين إلى أن مستويات الأوكسيجين تنخفض ومياه المحيطات تتأكسد (من أسيد) بشكل غير مسبوق منذ ملايين السنين، الأمر الذي يهدّد الحياة على الأرض بالانقراض. انظر: «The State of the Ocean 2013: Perils, Prognoses and Proposals,» State of the Ocean (3 October 2013), <http://www.stateoftheocean.org/pdfs/ipso-summary-oct13-final.pdf>, and Fish Outo Water, «The Oceans are Dying: Oxygen is Depleting, Acidity Rising at Fastest Rate in 300,000,000 Years,» *Daily Kos*, 4/10/2013, <http://www.dailykos.com/story/2013/10/04/1243700/-The-Oceans-are-Dying-Oxygen-is-Depleting-Acidity-Rising-at-Fastest-Rate-in-300-000-000-Years>.

كل مكان، وهي تتمثّل بالتغيرات الجذرية في أحوال الطقس المولّدة للأعاصير الهائلة؛ في الضفادع المشّوهة والطيور البحرية التي تولد عمياء؛ وفي النسبة المرتفعة (والسامة) من الزئبق في الأسماك؛ وفي الأمراض الجلدية التي يعانيها كل من يسبح قرب السواحل الغارقة بالنفايات الصلبة وبقايا النفط والغاز... إلخ.

وحذّر التقرير من أن استمرار تلويث البحار الكبرى، سيؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى كوارث طبيعية ضخمة، وخسارة العديد من الثروات السمكية، وتدهور الأنظمة البيئية على السواحل والجزر، وتفاقم الأمراض والأوبئة.

وقبل هذا التقرير، كان ١٦٠٠ خبير من ٦٠ دولة يذكّرون الجنس البشري بأن التاريخ يثبت أن المياه الملوثة قتلت أو شوهّت أعداداً من البشر، أكثر كثيراً من أولئك الذي قضوا أو تشوّهوا بسبب الحروب. وهم أرفقوا هذا التذكير باللائحة الحزينة الآتية:

١ ـ الشُعَب المرجانية في أنحاء العالم تحتضر بنسب كارثية بسبب التلوث، ومياه الصرف الصحي، والتآكل، والصيد بسم السايناید، والممارسات السياحية السيئة، وتفاقم سخونة الجو. مثلاً: نسبة الموت المُرجاني في المحيط الهندي تتراوح الآن بين ٧٠ إلى ٩٠ بالمئة.

٢ ـ الإشعاعات في المناطق القطبية، الناجمة عن دفن الحاويات النووية والكيميائية، ارتفعت مئة مرة أكثر من مستوياتها العادية، ولا أحد يستطيع أن يتبنأ بحجم الكارثة التي سيسببها هذا التطور.

٣ ـ الكميات الكبيرة من بقايا السماد النيتروجيني الذي يقذف إلى الماء، يتسبب في نمو انفجاري في أعداد الطحالب البحرية. ومعروف أن الطحالب تستنزف الأوكسيجين، وهي خلقت في خليج مكسيكو منطقة موت مساحتها ١٨١٣٠كم^2.

٤ ـ التلوث أدى إلى انتشار مرض الكوليرا البكتيري في بعض البحار، ما أسفر عن مقتل ٥٠ ألف طائر بحري على طول سواحل كاليفورنيا، و٧٠٠ إوزة كندية نادرة.

٥ ـ السلاحف المائية في كل العالم تتعرض إلى تورمات خطيرة تسببها فيروسة «فريدة» لها علاقة بمرض القوباء (الجلدي) لدى البشر. هذا في حين أن فيروسة أخرى تهاجم الآن أسماك السلمون فتفتك بها بأعداد كبيرة، وتُلحق أفدح الأضرار بالحيتان والدلافين.

وتلخّص دراسة حديثة ما يجري الآن في البحار والمحيطات بالكلمات المعبّرة الآتية:

«نحن البشر أغرقنا المياه بنفاياتنا الكيميائية والصناعية، وسوائل الصرف الصحي، والسموم القاتلة للأسماك والحياة المرجانية. وكل ذلك من أجل المال والربح. لقد اعتقدنا أن الأرض والبحار متوفّرة إلى درجة أننا يمكن استغلالها إلى ما لا نهاية. لكني آسف أن أقول إننا كنا مخطئين. مخطئين حتى الثمالة، وسندفع الثمن غالياً»[٢٧].

---

(٢٧) علاوة على ذلك، أشارت الدراسة إلى أنه يوجد الآن في البحار والمحيطات أكثر من خمسة تريليونات من قطع البلاستيك. وهذه المواد السامة تهدّد كل أنواع الحياة في مياه الأرض. انظر: Michael Casey, «World's Oceans =

.. وتقرير البنتاغون

بعد التقرير الرئاسي الأمريكي، نُشر تقرير آخر أكثر خطورة أعدّه خبراء بطلب من وزارة الدفاع الأمريكية، أكّد أن تغيرات دراماتيكية في المناخ قد تحدث فجأة، مسّببة كابوساً أمنياً عالمياً. عنوان التقرير: «سيناريو التغيّر المفاجئ في المناخ، ومضاعفاته على الأمن القومي الأمريكي»(٢٨). بعض خلاصاته:

• انقلاب المناخ قد يجعل شتاء بريطانيا شبيهاً بشتاء سيبيريا الحالي. درجات الحرارة في أوروبا ستهبط بشكل درامي بحلول العام ٢٠٢٠.

• عواصف عنيفة ستضرب أقساماً كبيرة من هولندا وتجعلها غير قابلة للسكن. كما قد تضرب نظام المياه في جنوب كاليفورنيا كثيفة السكان.

• أوروبا وأمريكا ربما تتحوّلان إلى «قلاع حقيقية» لمحاولة وقف هجرة ملايين الأشخاص إليهما، بعد أن تؤدي مستويات مياه البحر العالية أو الجفاف إلى هجرة هؤلاء من أوطانهم.

• النقص الكارثي في مياه الشرب سيتسبب في حروب عدة قبل العام ٢٠٢٠.

• الصين ستتأثر بشدة من تغّير المناخ، في حين أن بنغلادش قد تصبح تقريباً غير ملائمة للحياة بسبب ارتفاع منسوب البحر.

هل تنتهي قصة هذا التقرير الخطير هنا؟

كلا. لا يزال في ثناياها فصول لم تكتب بعد. **أول** هذه الفصول أن البنتاغون، وعلى الرغم أنه راعي التقرير، بذل جهوداً مضنية للتغطية عليه لأنه اعتبر أنه سيسيء إلى الرئيس جورج بوش الابن في سنته الانتخابية. ومعروف أن هذا الأخير واصل الزعم حتى نهاية عهده بأن سخونة المناخ لا تشكل خطّراً جدّياً، لا على سكان الأرض ولا على الأمن القومي الأمريكي.

ثاني هذه الفصول أن النخبة الرأسمالية في الولايات المتحدة لن تستطيع، حتى لو أرادت، أن تتجاهل بعد الآن المضاعفات الجيوستراتيجية لانقلابات المناخ. لماذا؟ لسبب بسيط: الانقلابات قد تحدث قريباً، كما يؤكد الآن تقرير البنتاغون ومئات التقارير العلمية المشابهة الأخرى. وحين يحدث ذلك، لن تستطيع هذه النخبة إخفاء الكوارث الكبيرة وراء إصبع النفي الصغير. **ثالث** هذه الفصول أن العديد من كبار السياسيين والخبراء في أوروبا والعالم، بدأوا يدعون الآن إلى اعتبار تغيير المناخ القضية الأولى على جدول أعمال العلاقات الدولية. على سبيل المثال، خرج السير دايفيد كينغ، كبير المستشارين العلميين لطوني بلير، عن صمته الطويل ليعلن أن «الاحترار العالمي بات يعتبر تهديداً أخطر بكثير من تهديد الإرهاب».

= «Plagued» by 269,000 Tons of Plastic Pollution,» CBS News (11 December 2014), <http://www.cbsnews.com/news/worlds-oceans-plagued-by-269000-tons-of-plastic-pollution/>.

(٢٨) «Key Findings of the Pentagon,» *The Guardian* 22/2/2004, <http://www.theguardian.com/environment/2004/feb/22/usnews.theobserver1>.

وعلى سبيل المثال أيضاً، أعرب بوب واطسون، كبير علماء البنك الدولي، عن اعتقاده بأن بوش «لن يستطيع تجاهل تقرير البنتاغون لأن تغيّر المناخ سيشكّل تهديداً كبيراً للأمن القومي وللاقتصاد الأمريكيين. ولذا عليه أن يعمل، والآن». يعمل ماذا؟

يعمل أموراً عاجلة عدة: الخفض الحاد لاستهلاك الوقود الأحفوري خلال السنوات الثماني المقبلة؛ الموافقة على قرارات قمة كيوتو حول خفض نسبة غازات الحبيسة بنحو ٢٥ بالمئة؛ الاقتصاد في استهلاك الطاقة حيث إن الولايات المتحدة وحدها تستهلك، كما أسلفنا، ربع ما تستهلكه كل دول العالم.

لا بل ذهب خبير أمريكي إلى أبعد من ذلك، حين قال صراحة إنه يتعيّن على الولايات المتحدة «تغيير جلدها الرأسمالي»، إذا ما أرادت تجنّب الكوارث المناخية. وهذا لا يكون إلا عبر القبول بخفض نسبة النمو الاقتصادي إلى النصف.

لكن، ألا يمكن لاتفاقات كويوتو المناخية ان توقف هذه المسيرة الانتحارية؟

العديد من العلماء باتوا لا يعتقدون ذلك. فبروتوكولات كيوتو تستهدف خفض انبعاثات الغازات على المدى القصير لا الطويل. وهي تمنح أوروبا، الأكثر حماسة لها، حق شراء «كوتا التلوث» من دول أخرى أقل تصنيعاً منها على غرار روسيا. وهذا يعني أن نسبة الخفض ستكون دوماً محدودة. ثم إن الولايات المتحدة رفضت بإجماع الكونغرس وكل أعضاء السلطة التنفيذية الالتزام بكيوتو. وهي تدعو، بدلاً من ذلك، إلى تطوير التكنولوجيا التي قد تحوِّل الغازات المتبخرة إلى صخور جامدة، رغم معرفتها بأن هذا التطوير يحتاج إلى عقود، إن لم يكن إلى أجيال. يضاف إلى ذلك أن معظم الشركات متعددة الجنسيات لا تفكر، حتى مجرد تفكير، في خفض التلوث، لأن ذلك سيضعف قدراتها التنافسية. وأخيراً، تشعر الدول النامية، وخاصة الصين والهند والنمور الآسيوية حديثة التصنيع، أن الغرب يريد تدفيعها عن غير حق ثمن تلويث الأرض، رغم أنه هو الذي فعل ذلك على مدى الـ ٢٠٠ سنة الماضية.

٣ ـ «ترهات»

ماذا يعني كل ذلك؟

إنه يعني أن أحداً على الأرض لا يبدو مستعداً حتى الآن لإنقاذ هذا الكوكب العليل من مرض الاحترار العالمي: لا الدول، ولا الشركات، ولا حتى بعض العلماء الذين لا يزالون يتبنّون ترّهات السياسيين والاقتصاديين الرأسماليين الخطرة حول عدم وجود مخاطر داهمة على الأم «غايا». آخر تلك الترهات كانت الدراسة[٢٩] التي نشرتها باولا دوبريانسكي (Paula Dobriansky)، نائبة وزير

(٢٩) «State's Dobriansky Says U.S. Committed on Climate Change: Vienna Statement by under Secretary for Global Affairs,» IIP Digital (5 March 2004), <http://iipdigital.usembassy.gov/st/english/texttrans/2004/03/20040305152938lcjsamoht0.5399439.html#axzz3vwg32cxd>.

الخارجية الأمريكي للشؤون العالمية، والتي أقل ما يقال عنها إنها (الدراسة) كانت «فضائحية» لأسباب عدة.

فهي، **أولاً**، ادّعت أنه ليس هناك سوى مَخرجين من أزمة الغازات القاتلة للمناخ والحياة، وهما إما من خلال التكنولوجيات الراهنة على حساب النمو الاقتصادي، أو من خلال تكنولوجيات جديدة تغيّر الطريقة التي ينتج ويستهلك فيها البشر الطاقة. وهذه بالطبع فرضية زائفة. وسنرى بعد قليل لماذا.

وهي، **ثانياً**، تصف اتفاقات كيوتو بأنها «غير واقعية»، لأنها لا تأخذ التكنولوجيات الجديدة بعين الاعتبار، ولأنها لا تقدِّم حلولاً للدول النامية التي ستصبح قريباً أكبر الأطراف الملوَّثة في العالم. وهذا أيضاً توصيف زائف. فاتفاقات كيوتو لا تقف حجر عثرة أمام التكنولوجيات الجديدة (في حال وجودها). هذا إضافة إلى أن موافقة ١١٩ دولة عليها، جلّها من العالم الثالث، تظهر مدى جدّية الدول النامية في العمل لإنقاذ كوكب الأرض.

ثم إنها **ثالثاً**، تدّعي أنه ليس معروفاً بعد حجم الارتفاع في درجة حرارة الأرض التي يتسبب بها البشر، ولا محسوماً أيضاً مضاعفاتها بعيدة المدى. وهذا أيضاً وأيضاً توصيف زائف. فمعظم العلماء باتوا يجمعون على أن الغازات الصناعية بدأت تغيّر بالفعل تركيبة طبقة الأوزون الحيوية للحياة على الأرض. وأي طفل صغير في أصغر مدرسة يعرف أن تزايد معدلات ثاني أوكسيد الكربون وباقي الأوكسيدات السامة، يشكّل كارثة محققة لكل مخلوقات الأرض.

كيف يمكن لمسؤول أمريكي كبير أن يرتكب هذا النحو الكبير من المغالطات؟ وهل هو مقتنع حقاً بما كان يقول؟ الأرجح أن الأمر كذلك. فما هو قيد العمل في النخب الحاكمة الأمريكية، لا يقل عن كونه أيديولوجيا متكاملة تقوم على تنصيب التكنولوجيا كآلهة جديدة، بعد أن كانت ثورة الحداثة الأوروبية أعلنت موت كل / وأي آلهة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

٤ ـ الديانة التكنولوجية

نقطة البداية في هذه «الديانة التكنولوجية» هي نفسها نقطة النهاية: الالتزام المطلق بالفلسفة المادية الميكانيكية التي تعتبر الطبيعة الحية آلة أخرى، وتدعو إلى السيطرة على هذه الأخيرة بالقوة العارية، عبر القوة الرأسمالية العارية. إنها الليبرالية الاقتصادية المتطرفة نفسها وقد وجهت قذائفها هذه المرة نحو الطبيعة بدل المجتمع، بهدف «مسح الأرض» خدمة لحفنة رأسماليين قد لا يتجاوز عددهم بضعة آلاف، على حساب مئات مليارات المخلوقات البشرية وغير البشرية على هذا الكوكب الأزرق. وبالتالي من المستبعد أن تُقدم الإدارة الأمريكية، أي إدارة، على أي إجراءات مناخية من شأنها المس بمصالح كبار الرأسماليين. وهذا، على أي حال، كان واضحاً من خلال تجاهل الرئيس الأسبق بوش الابن لتقرير البنتاغون حول المناخ. كما كان واضحاً قبل ذلك في

رفضه لبروتوكول كيوتو حول وقف سخونة الأرض، وامتناعه عن التصديق على معاهدة الريو حول التنوع البيولوجي وعلى معاهدة الحرب البيولوجية.

خاتمة

الأرجح أن تعمد الإدارة، أي إدارة، إلى «تجزئة » الكوارث البيئية. أي: التعاطي مع كل كارثة على حدة، بعد وقوعها. ولا ننس هنا أن أي إدارة أمريكية جديدة ستقول إنها غير مسؤولة حين ستجتاح العواصف العاتية جنوب كاليفورنيا وهولندا، أو حين تصبح بنغلادش غير قابلة للحياة بعد ارتفاع منسوب مياه البحر.

ما المخرج إذاً؟ كيف يمكن إنقاذ الأرض والبيئة، قبل أن تبدأ أمّنا الطبيعة «غايا» انتقامها الرهيب منا؟

في إطار موازين القوى العالمية الراهنة، حيث النخب الرأسمالية المتطرفة هي القاضي والحكم، لا يبدو أن ثمة مخرجاً. الحل الوحيد هو في بروز موازين قوى جديدة، يقوم بموجبها المجتمع المدني العالمي بثورة مشتركة مع القوى الديمقراطية داخل المجتمع المدني الأمريكي، لإجبار هذه النخب على وضع حد لأنانيتها ولبدء التفكير بمستقبل البشرية وكوكب الأرض ككل.

قد لا تكون هذه مهمة سهلة، وبخاصة أن المخاطر البيئية والسكانية لا تزال بنظر أنصار النيوليبرالية في علم الغيب (على رغم أنه بات غيباً قريباً جداً). وقد لا تستجيب النخب الرأسمالية بسهولة للضغوط التي ستمارس عليها. لكن ليس هناك مخرج آخر. فارتفاع منسوب المحيطات والاحترار الحراري، بات أمام البشر، والشتاءات الجليدية الزاحفة والعواصف المدمرة باتت خلفهم. وعليهم أن يختاروا بسرعة بين الرفاهية على المدى القريب، والبؤس النهائي، أو حتى الانقراض، على المدى البعيد.

أكثر من ذلك: ستزداد هذه المهمة صعوبة الآن، بعد أن دخلت الولايات المتحدة عصر ما تسميه «ثورة النفط والغاز الصخريين»، والتي تراهن على أنها ستمكنها من تحقيق الاستقلال في مجال الطاقة، الأمر الذي قد يقوّض كل الجهود الراهنة لإيجاد بدائل نظيفة للطاقة الأحفورية، ويعيد جهود خفض الاحتباس الحراري إلى المربع الأول، كما سنرى في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

حروب النفط (الصخري والتقليدي) تتواصل ضد البيئة والحضارة

ليس من المفاجئ أن يؤدي ضخ كميات هائلة من الماء والرمال والكيميائيات تحت ضغط كبير إلى عمق الأرض لتمزيق الصخور النفطية، إلى اهتزاز هذه الأرض بعنف. لكن الزلازل لن تكون الحصيلة الوحيدة لذلك. هناك ما هو أسوأ من ذلك بكثير.

دايفيد سوزوكي

دعوني أوضح لكم ماذا لدى الإسرائيليين ضد (النبي) موسى: لقد أخذنا لمدة ٤٠ سنة عبر الصحراء، وأحضرنا إلى بقعة في الشرق الأوسط.. ليس فيها نفط.

غولدا مئير

اقترب العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين من نهايته، فيما الجهود لمواجهة أزمة البيئة الطاحنة (راجع الفصل الثاني) لا تزال تراوح مكانها، خاصة بالنسبة إلى الملوِّث الأول في العالم: الولايات المتحدة. لا بل ازدادت الأمور البيئية سوءاً بما لا يقاس في هذه الأخيرة بالتحديد، بعد أن أطلقت الولايات المتحدة ما اسمته «ثورة الشيل» (Shale Revolution) أي «ثورة نفط وغاز الصخر الحجري» والتي لم تكن في الواقع ثورة بل مجرد انقلاب آخر، وربما يكون أيضاً خطيراً للغاية، على البيئة لأنه سيؤدي إلى حصيلتين اثنتين في آن:

الأولى، إضافة مزيد من المخاطر على التوازنات الإيكولوجية وحتى الجيولوجية لكوكب الأرض، وعرقلة، أو نسف، الجهود للعثور على بدائل طاقة نظيفة ومتجددة. **والثانية، دفع** «حروب الطاقة» في العالم إلى مستويات جديدة، بعد أن تتم إضافة السباق للسيطرة على الغاز والنفط الصخريين إلى السباق المدمّر الآخر على النفط التقليدي والذي تسبَّب، ولا يزال، بسلسلة حروب

عالمية وإقليمية، وخاصة أن هذا النفط الأخير وصل (كما سنرى بعد قليل) إلى ذروة إنتاجه في العالم، وبدأ منذ سنوات رحلته إلى مرحلة الندرة.

فلنبدأ مع **الحصيلة الأولى**: بدءاً من العام ٢٠١٠، كانت الأطراف الرأسمالية الأمريكية، التي لا تعير هموم البيئة أدنى اهتمام، منتشية بنصر اقتصادي كاسح: ثورة الغاز والنفط الصخريين التي تكاد تحوّل الولايات المتحدة من مستورد للطاقة إلى مصدِّر لها قبل حلول العام ٢٠٢٠. فإنتاج الغاز الطبيعي الأمريكي زاد منذ ٢٠١٠ بنسبة ٢٥ بالمئة، وإنتاج النفط قفز بنسبة ٦٠ بالمئة منذ العام ٢٠٠٨ بزيادة ثلاثة ملايين برميل ليصبح ثمانية ملايين برميل في اليوم. وفي غضون سنوات قليلة، ستتفوق الولايات المتحدة على السعودية وروسيا لتصبح المنتج الأول للنفط في العالم. وهذا قد يضيف ٢,٨ نقطة إلى الناتج المحلي الإجمالي الأمريكي، ويوفِّر نحو ٣ ملايين فرصة عمل جديدة، ويجعل الولايات المتحدة تحتل مكان روسيا قبل نهاية العام ٢٠١٥ في مجال تصدير وقود الديزل ووقود الطائرات والمشتقات النفطية الأخرى، ومكان السعودية كأكبر مُصدِّر للبتروكيميائيات. ثم إن الغاز الصخري أسهم في بعث التصنيع في أمريكا، حيث أنفق المستثمرون مئات مليارات الدولارات على منشآت جديدة مثل الصناعات الكيميائية والفولاذ والألومينيوم. ويعتقد الأمريكيون الآن أنه حتى لو سقط النظام السعودي وتوقف ضخ بتروله، فسيكون في وسع الولايات المتحدة الإفادة من مزاياها التفاضلية الجديدة في مجال أمن الطاقة حتى منتصف القرن الحادي والعشرين[١].

لقد هاجرت كميات هائلة من الطاقة الهيدروكربونية من معاقلها الصخرية الأساسية وعلقت في الصخور الحجرية وصخور أخرى، مولِّدة موارد تفوق كثيراً ما تبقى من احتياطي النفط التقليدي الذي يراوح الآن بين تريليون وتريليون ونصف التريليون برميل. هذه الموارد موجودة في كل أنحاء العالم، ولا تحوز فيها الولايات المتحدة سوى ١٥ بالمئة من الإجمالي العالمي، فيما يُرجح أن تحاول دول أخرى غنية بموارد الغاز والنفط الصخري مثل الصين والمكسيك وروسيا والسعودية وبريطانيا وبولندا، الانضمام إلى ركب إنتاج هذا النوع من الطاقة قبل نهاية هذا العقد. وذلك على الرغم من أن الأمريكيين يعتقدون أن هذا سيكون صعباً، لأن الولايات المتحدة وحدها تمتلك العناصر الفريدة الضرورية لاستغلال موارد الغاز الصخري، وهي: نظام قانوني يسمح بالملكية الخاصة للأرض بكل ما تحتها؛ وأسواق رساميل مفتوحة؛ وأنظمة قواعد بيئية غير مقيّدة نسبياً. وكل هذا أدى إلى بروز آلاف شركات النفط والغاز الأمريكية المستقلة المتنافسة بشدة مع بعضها البعض. ونتيجة لذلك، تم حفر (حتى العام ٢٠١٤) ٤ ملايين بئر غاز ونفط في الولايات المتحدة في مقابل ١,٥ مليون برميل في كل أنحاء العالم[٢].

---

(١) «Big Fracking Deal: Shale and the Future of Energy,» *Foreign Affairs*, vol. 93, no. 3 (May-June 2014).

(٢) المصدر نفسه، ص ٦.

أولاً: مخاطر بيئية

بعد إيراد كل هذه الفوائد الاقتصادية الجمة التي يوردها الرأسماليون الأمريكيون لثورة، أو انقلاب، الطاقة الصخرية، نأتي إلى الحقائق البيئية الخطيرة اللصيقة بها، والتي يعترف بها حتى أكثر المصفقين المتحمسين لهذه الطفرة التكنولوجية ـ الصناعية الجديدة.

١ ـ التكسير المائي

تتضمن عملية «التكسير المائي» (Hydraulic Fracturing) عمليات حفر ثم حقن السوائل إلى باطن الأرض تحت ضغط مرتفع للغاية، بهدف تحطيم الصخور التي تحتوي الغاز والنفط. كل بئر يتم حفرها تطلب ما بين ١ إلى ٨ ملايين غالون من الماء لإتمامه، و٤٠٠ ناقلة مياه ومواد أخرى في مكان الموقع. يتم مزج الماء بنحو ٤٠ ألف غالون من ٦٠٠ نوع من الكيميائيات التي تُعرف باسم المواد المسرطنة (Carinogens) (ترفض الشركات الكشف عن طبيعتها وتعتبرها «أسراراً» صناعية) وتشمل مواد التوكسن السامة، والقصدير، واليورانيوم، والزئبق، والغليكول إيثيلين، والأسيد الهيدرولوجي، ثم يحقن السائل عبر أنبوب إلى باطن الأرض مع ٨ ملايين غالون من المياه. وتحتاج أمريكا الآن إلى ٧٢ تريليون غالون من الماء و٣٦٠ مليار غالون من الكيميائيات لتشغيل آبارها الحالية[٣].

لكن، خلال هذه العملية، يتسرّب غاز الميثان والكيميائيات السامة من النظام وتلوِّث الجو والمياه الجوفية القريبة. وقد تبيَّن أن تركزات غاز الميثان تكون أعلى ١٧ مرة في آبار مياه الشرب القريبة من مواقع التكسير منها في الآبار العادية. وقد سُجِّلت ألف حالة تلوث من هذا النوع قرب مواقع آبار الغاز الصخري، ومعها حالات أمراض نفسية وحسّية وعصبية، أساساً بسبب تلوّث المياه.

ويقول الخبراء إنه لا يمكن استعادة سوى ٣٠ إلى ٥٠ بالمئة من السائل المائي ـ الكيميائي، بينما تظل السموم الباقية في باطن الأرض وهي غير قابلة للتحلل البيولوجي الذي تقوم به البكتيريا. كما أن فضلات السائل المستخرجة تُترك في أوعية مكشوفة في الهواء الطلق فتتبخر وتطلق مكونات عضوية سامة وملتهبة في الهواء فتلوّث الجو وتفرز المطر الحمضي.

بالإجمال، يُجمع الخبراء على أن استخراج الغاز والنفط الصخري يتضمن الأضرار والمخاطر الآتية[٤]:

ـ صرف كميات هائلة من المياه، في وقت أصبح الماء عملة شحيحة في كل العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة، إلى درجة بات فيها الحديث عن «حروب المياه» الوشيكة على كل شفة ولسان.

---

(٣) انظر لوحة تصويرية عن كيفية تنفيذ عملية التكسير المائي، في: «What Goes in and Out of Hydraulic Fracturing,» <http://www.dangersoffracking.com/>.

(٤) «NRDC: Risky Gas Drilling Threatens Health, Water Supplies,» Natural Resources Defence Council (NRDC) ([n. d.]).

ـ الزلازل الأرضية. كل عملية حفر وتكسير تتضمن إثارة ملايين الهزات الأرضية الصغيرة للغاية والتي لا تلتقطها سوى المجسّات. لكن بدءاً من العام ٢٠١٢، بدأ السكان في بعض الولايات المتحدة يشعرون مباشرة بالهزات التي وصلت في بعض الأحيان إلى ٣ درجات وفق ميزان ريختر، أي ستة أضعاف الهزات التي كانت تحدث في القرن العشرين. وعلى سبيل المثال، سُجِّل وقوع زلازل صغيرة في منطقة يونغتاون في أوهايو في الفترة بين كانون الثاني/يناير ٢٠١١ وشباط/فبراير ٢٠١٢، وهي منطقة لم تكن تعرف الزلازل من قبل. ويخشى العلماء أن يؤدي تدمير الصخور تحت الأرض إلى إحداث خلل في خطوط الصدع تؤدي لاحقاً إلى زلازل كبيرة. وهذا يبدو شبه مؤكد بعد أن تنضم بقية دول العالم قبل العام ٢٠٢٠، كما هو متوقع، إلى عملية نبش بطن الأرض وضرب توازناتها الجيولوجية.

ـ ملايين الشاحنات المحملة بالمياه والمواد الكيميائية تجتاح المناطق الطبيعية في الأرياف، فتلوِّث الجو والتربة وتتسبب بالضوضاء.

ـ روّجت شركات النفط القديمة والجديدة فرضية تقول إن الغاز الصخري سيساعد على التخفيف من ظاهرة تغيّر المناخ لأنه سيقلص الاعتماد على الفحم. لكن دراسة بثتها الـ «بي. بي. سي» نقلاً عن خبراء جامعة كونيل، كشفت النقاب عن أن الغاز الصخري أسوأ من الفحم، لأنه خلال عملية التكسير يتسرَّب ما بين ٣,٦ بالمئة و٧,٩ بالمئة من غاز الميثان إلى الجو بمختلف الطرق خلال حياة كل بئر، وهو رقم يشكِّل ضعفي كمية تسرُّب الميثان من بئر النفط التقليدي. وهذا ما يجعل الغاز الصخري أسوأ من الغاز الطبيعي وحتى من الفحم، لأن غاز الميثان له تأثيرات ملوّثة في المناخ بنسبة ٢٠ بالمئة أكثر من غيره من الملوثات.

ـ والأهم من كل هذه العوامل أن التركيز الشديد على استخراج الطاقة الصخرية سيوقف كل مشاريع إنتاج الطاقة النظيفة، كالريح والطاقة الشمسية، كما سيشجّع على التوسُّع في إنتاج الطاقة النووية رغم مخاطرها الجمة التي كشفت عنها كوارث تشيرنوبيل وفوكوشيما، تحديداً لأن التركيز سيعرقل البحث عن الطاقة الخضراء البديلة.

لقد تحرّكت دول عديدة للتصدي لظاهرة الغاز والنفط الصخري، فمنعته فرنسا العام ٢٠١٣، وفرضت عليه ألمانيا حظراً مؤقتاً لمدة سبع سنوات، وفرضت عليه ولايتا كاليفورنيا ونيويورك قيوداً بيئية، هذا في حين لا تزال بريطانيا ودول أوروبية أخرى مترددة بين الحظر وبين السماح به.

بيد أن كل هذه الأطراف ستجد نفسها في وضع اقتصادي صعب، بسبب الاندفاعة الأمريكية الجموح راهناً لقطف كل ثمار هذا «الانقلاب» حتى الثمالة، بغض النظر عن مضاعفاته البيئية الكبيرة. وهذا ما عبّر عنه بوضوح روبرت هيفنر الثالث، مؤسس ومدير شركات GHK ومؤلف كتاب **مرحلة الانتقال الضخمة للطاقة**(٥)، حين قال: «في الوقت الذي تعاود الولايات المتحدة التصنيع

(٥) Robert A. Hefner III, *The Grand Energy Transition: The Rise of Energy Gases, Sustainable Life and Growth, and the Next Great Economic Expansion* (New York: John Wiley and Sons inc., 2009).

(بفضل ثورة الغاز الصخري)، قد تواجه أوروبا، إذا لم تحظَ بقادة سياسيين يفهمون بشكل أفضل اقتصاديات الطاقة، عقوداً من نزع التصنيع والجمود الاقتصادي. أما بالنسبة إلى أمريكا، فإنها تحوز الآن فرصة لا سابق لها لتحقيق نمو اقتصادي بعيد المدى يمكنه أن يولّد طبقة وسطى جديدة، ويساعدها على وضع الكساد الكبير على الرف إلى الأبد، ويمنحها ميزات جيوسياسية على كل منافسيها لعقود عدة آتية. ومن العار ألّا نغتنم هذه الفرصة (عبر قبول تحذيرات علماء البيئة)».

هل يستمع قادة أوروبا الحاليون، أو اللاحقون، إلى هذا الصوت «التنافسي» المدوي؟ وهل يطرحون على مواطنيهم الخيار المر بين مصدر طاقة خطر وبيئة أكثر خطراً وبين تنافسية اقتصادية أضعف ومستويات معيشة أقل؟ ربما. لكن الأرجح أنهم سيحاولون العثور على حلول وسط من خلال إضفاء وجه أكثر وداً مع البيئة لتكنولوجيا التكسير، مثل إدخال هيكلية تنظيمية جديدة وتطوير تقنيات للحد من تلوث المياه الجوفية والجو واحتمالات الزلازل.

لكن، حتى لو نجحت هذه التدابير، وهو أمر مشكوك فيه تماماً كما الأمر مع ملوثات النفط والغاز التقليدي، فإنه لن ينقذ بيئة الأرض. والأهم أنه قد يشعل حروب موارد جديدة، لأن الدول الكبرى ستحاول السيطرة، أو على الأقل الهيمنة، على موارد الطاقة الجديدة كما فعلت مع موارد الطاقة الأحفورية التقليدية، التي لا تزال حروبها مستعرة حتى الآن في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى وشرق آسيا وأفريقيا، بكل ما تحمله هذه الحروب من مآسٍ بشرية وحضارية ومن كوارث بيئية.

وهذا ما ينقلنا إلى الحصيلة **الثانية** التي أشرنا إليها في البداية، وهي إضافة تنافسات الطاقة الجديدة إلى حروب الموارد التي لا تزال مستمرة بعنف هذه الأيام والتي سنستعرضها الآن، على أن نعود بعد ذلك لنرى الصلة بين حروب الطاقتين القديمة والجديدة، سواء كحروب بحد ذاتها أو بتأثيراتها في بيئة الأرض.

٢ ـ في البدء كان النفط

فجر ١٥ أيلول/ديسمبر ١٩٩٧:

١٥٠٠ مظلي أمريكي من الفرقة المجوقلة الثانية والثمانين التابعة للجيش الأمريكي، يقفزون فوق منطقة قتالية قاحلة قرب جبال تيين شان في كازاخستان الجنوبية. مهمتهم المحددة: الاتصال مع قوات صديقة من كازاخستان وقيرغيزستان وأوزبكستان، والدخول في معركة وهمية ضد «قوات مرتدة» تعارض اتفاق سلام إقليمياً.

قائد الفرقة الأمريكية كان القائد جون شيهان، الذي أبلغ الصحافيين الذين دُعوا إلى مشاهدة هذه المناورة بالذخيرة الحيّة، أن القوات الأمريكية قامت بها «للتأكيد لدول المنطقة بأن الولايات المتحدة مستعدة للوقوف إلى جانبهم، إذا ما كانت المساعدة الأمريكية مطلوبة في أزمة إقليمية قد تنشب في المستقبل».

أمريكا تنغمس عسكرياً في آسيا الوسطى المحاذية لحدود الدب الروسي القلق والمتوتر؟ لماذا هذه المغامرة الأمريكية الخطرة؟ وهل باتت الولايات المتحدة مستعدة حقاً للتضحية بأرواح جنودها مجاناً من أجل السلام الإقليمي لوسط آسيا، بعد حروبها العنيفة في غرب آسيا (الشرق الأوسط)؟

بالطبع لا. الأمريكيون لم يقفزوا إلى جبال كازاخستان كرُسل سلام، بل كنذر صراعات متصلة تجري على بقعة شاسعة من العالم تمتد من جنوب شرق آسيا إلى وسطها، مروراً بأفريقيا والشرق الأوسط. الهدف المحدد: السيطرة على كل قطرة نفط تقليدي على الكرة الأرضية.

ربَّ متسائل هنا يسأل: ما الجديد في قيام أمريكا بمحاولة السيطرة على كل منابع النفط؟ أليس هذا ما كانت تفعله بالتحديد منذ أوائل القرن العشرين، حين أجبرت الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية (ضمن اتفاقات ما عرف بـ«سياسة الباب المفتوح») على منح شركاتها النفطية العملاقة امتيازات واسعة في نفط الشرق الأوسط؟ ألم يكن أحد أسباب اشتراك الولايات المتحدة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، هو منع ألمانيا من السيطرة على منابع وطرق مواصلات النفط؟ ثم أكثر من هذا وذاك: هل من المستغرب أن تكون الدولة العظمى الوحيدة في العالم، والتي يستند اقتصادها العملاق بمعظمه (٢٢ بالمئة من الناتج العالمي الإجمالي) إلى النفط الأحفوري ومشتقاته، حريصة على أمن طاقتها الذي هو قضية حياة أو موت بالنسبة إليها؟

كل هذه الأسئلة دقيقة وصحيحة. لكنها مع ذلك ليست كافية لتفسير «الحمّى النفطية» التي أمسكت بخناق السياسات الأمريكية والعالمية، إلى درجة أنه لم يعد من الممكن في الواقع فهم ماجريات السياسات الدولية بمعزل عن مجاري النفط وممارِّه وكمياته وأسعاره.

الجواب بسيط للغاية: الوفرة من النفط التقليدي انتهت أو تكاد، والندرة فيه ابتدأت أو تكاد. وهذا يتسبَّب في انفجار صراعات وتنافسات جديدة لم يشهد لها العالم مثيلاً: إنها حروب موارد الطاقة مجدداً وقد أفلتت من عقالها.

ثمة كتابان مثيران تطرقا إلى هذه الحروب الزاحفة، بكل ما قد تحمله من مضاعفات كارثية على الاقتصادات العالمية والبيئة والعلاقات الدولية، وربما حتى على مصير الحضارة البشرية. الكتاب **الأول** لدايفيد غودشتاين، البروفسور في مؤسسة كاليفورنيا للتكنولوجيا[٦]، بعنوان **نفاد الغاز** (النفط)، و**الثاني** للبروفسور بول روبرتس بعنوان **نهاية النفط**[٧].

لكن قبل أن نستعرض معاً المعلومات والتحليلات العلمية الدقيقة التي يتضمنها الكتابان، فلنستكمل معاً أولاً صورة التمدد العسكري الأمريكي في العالم على إيقاع طبول

(٦) David Goodstein, *Out of Gas: The End of the Age of Oil*, Norton Paperback (New ork: W.W. Norton and company, 2004).

(٧) Paul Roberts, *The End of Oil: On the Edge of a Perilous New World* (Boston, MA: Mariner Books, 2005).

النفط، لأن ذلك قد يلقي مزيداً من الأضواء على كيفية تحّول النفط التقليدي (أو ندرته بالأحرى) إلى المحرك الأول لكل الأحداث والصراعات العالمية خلال قرن كامل من الزمن.

أ ـ النُذر الأولى

خبر صغير في أوائل العام ٢٠١٤، ولكن خطير، لم يكد يلحظ الإعلام الدولي الذي كان غارقاً آنذاك حتى أذنيه في انتفاضات الشرق الأوسط وأزمة أوكرانيا ومستقبل الزعامة الأمريكية في العالم. عنوان الخبر: الصراع الصيني ـ الياباني حول النفط بدأ يصبح لاهباً. أما تفاصيله فتدور على النحو الآتي:

منذ أشهر عدة، وجدت الصين واليابان، وهما الآن من أقوى الدول صناعياً وسياسياً في العالم، نفسيهما عالقتين في عنق زجاجة خانق، بسبب الخلافات على المداخل إلى حقول النفط الغنية في سيبيريا. فاليابان، المعتمدة بشكل كامل على البترول المستورد، بذلت قصارى جهدها لإقناع موسكو بمد خط أنابيب نفط طوله ٣٧٠٠ كم من سيبيريا إلى السواحل اليابانية. وهذه «القصارى» شملت عروضاً للروس بدفع خمسة مليارات دولار لتمويل الخط، وسبعة مليارات أخرى لتطوير حقول سيبيريا، ومليارين آخرين لإقامة «مشاريع اجتماعية» (اقرأ مشاريع رشى) في بلاد القياصرة.

والصين، التي أصبحت ثاني أكبر مستهلك للنفط في العالم بعد الولايات المتحدة، ترى إلى النفط الروسي بوصفه جزءاً حيوياً من أمن طاقتها. وهي تستخدم العصا والجزرة مع موسكو لإقامة خط أنابيب بطول ٢٢٥٣ كم من سيبيريا إلى جنوب منطقة داغينغ الصينية. وفي النصف الأول من العام ٢٠١٤ حققت الصين تقدماً واضحاً في المنافسة مع اليابان حين وقّعت شركة «غازبروم» الروسية الحكومية عقداً مع شركة البترول الوطنية الصينية (سي إن بي سي) تصدِّر روسيا بموجبه ٣٨ مليار متر مكعب من الغاز سنوياً إلى الصين لمدة ٣٠ سنة. وتقدَّر قيمة الصفقة بـ٤٠٠ مليار دولار. ويتوقع أن تنفق «غازبروم» ٥٥ مليار دولار في التنقيب وتشييد خط أنابيب للتصدير إلى الصين. هذا التنافس الساخن بين العملاقين الآسيويين، دفع المحلل الأمريكي بول روبرتس إلى القول بأن العلاقات بينهما «وصلت إلى أخطر مرحلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية». كما دفعت العديد من كبار السياسيين اليابانيين إلى مطالبة حكومتهم بإعادة تسليح اليابان «لتمكينها من ضمان «أمن الطاقة»»، على حد قول بعضهم.

حتى الآن، قد يبدو هذا الخبر مجرد زوبعة عادية في فنجان صغير عادي، أو تنافسات محدودة المكان والزمان بين قوتين صاعدتين. لكن الصورة لا تبقى على هذا النحو حين نبدأ برؤية خلفيتها. وهي خلفية توضح أمرين اثنين:

الأول، أن «الحرب النفطية» الصينية ـ اليابانية الراهنة(٨) هي في الواقع جزء من حرب عالمية حقيقية وشاملة للسيطرة على ما تبقى من وقود أسود تقليدي على هذا الكوكب الأزرق. **والثاني**، أن هذه الحرب نشبت بالدرجة الأولى، لأن كل الدول الكبرى والمتوسطة في العالم باتت تدرك أن طاقة النفط التقليدي التي تستند إليها كل اقتصاداتها، وصل إلى الذروة في الإنتاج وسيبدأ قريباً مسيرته نحو الانحدار والنضوب.

المعطيات الموضوعية، والأرقام الأكثر موضوعية، توضح هذه النقطة الأخيرة. ففي العام ١٩٩٩ أصاب مايك بولين (Mike R. Bowlin) رئيس شركة «أركو»، العالم بالذهول حين قال: «لقد دخلنا مرحلة بداية الأيام الأخيرة لعصر النفط (التقليدي)»(٩). ومنذ ذلك الحين كرّت سبحة المعلومات، التي يبدو أن شركات البترول الكبرى كانت تعرفها لكنها اختارت إخفاءها.

ب ـ العد العكسي

النفط، كما هو معروف، أرخص وأهم مصدر طاقة اكتشفه البشر على مدار تاريخهم. وخلال القرنين الماضيين، اعتاد الناس في الدول الصناعية الغربية فكرة أن هذا النوع من الطاقة الأحفورية موجود بكثافة ووفر ورخص. وهم أقاموا كل أنظمتهم الاجتماعية استناداً إلى الاعتقاد بأن النمو الاقتصادي بلا حدود، أمر بديهي سيستمر إلى الأبد. لكن يبدو الآن أن هذه الفكرة بدأت تتبدد هباء منثوراً، بعد أن أكد العديد من الخبراء أن إنتاج النفط العالمي سيصل إلى ذروته قبل العام ٢٠١٦، وأنه سيكون هناك بعد هذا التاريخ تراجع بنسبة اثنين بالمئة كل عام من الطاقة المتوافرة للدول الصناعية.

ويورد الجيولوجي البترولي كولن كامبل المقارنات المهمة الآتية(١٠): اكتشافات النفط في الولايات المتحدة وصلت إلى ذروتها في ثلاثينيات القرن العشرين، ثم لحقتها ذروة الإنتاج بعد نحو ٤٠ عاماً. ومنذ ١٩٧٠، باتت الولايات المتحدة تستورد المزيد من النفط التقليدي كل عام للتعويض عن النقص في الإنتاج المحلي، ما حوّلها قبل بدء إنتاج الغاز الصخري إلى أكبر مستورد للبترول في العالم.

وبالمثل، وصلت الاكتشافات العالمية من النفط والغاز التقليديين إلى ذروتها في ستينيات القرن العشرين، تلتها ذروة الإنتاج العام ٢٠١٠، ولم يبق في باطن الأرض سوى نحو تريليون برميل نفط

---

(٨) Marianne Lavelle and Jeff Smith, «Why are China and Japan Sparring Over Eight Tiny, Uninhabited Islands?,» National Geographic (26 October 2012), <http://news.nationalgeographic.com/news/energy/2012/10/121026-east-china-sea-dispute/>.

(٩) تقرير شامل عن وصول النفط إلى ذروة الإنتاج وعلاقته بشركات النفط، انظر: «The Peak Oil Debate and Oil Companies,» Resilience (8 January 2008), <http://www.resilience.org/stories/2008-01-08/peak-oil-debate-and-oil-companies>.

(١٠) مقابلة مع كولن كامبل، في: «Dr. Colin Campbell on Global Oil Production: «Playing With Fire»,» *Financial Sense* (29 February 2012), <http://www.financialsense.com/financial-sense-newshour/guest-expert/2012/02/29/colin-campbell-phd/global-oil-production-playing-with-fire>.

جاهزة للاستخراج. والآن ومع كل سنة تمر سيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، ضخ الكميات نفسها من البترول التقليدي. لماذا؟ ببساطة لأن الطلب العالمي على النفط سيزيد، فيما سيبقى العرض (أو الإنتاج) على حاله قبل أن يبدأ بالانخفاض. وعلى سبيل المثال، الطلب الجديد على الكهرباء في الولايات المتحدة وأوروبا بدأ في مطالع القرن الحادي والعشرين يفوق العرض من إمدادات الطاقة والغاز الطبيعي. وهذا هدد بمزيد من انقطاع التيار الكهربائي.

وعلى سبيل المثال أيضاً، بدأ الطلب على النفط التقليدي في دول صاعدة مثل الصين والهند والبرازيل والنمور الآسيوية، يزداد بشكل سريع إلى درجة أنه قد يتضاعف العام ٢٠٢٠. وهذا بالطبع بدون ذكر أزمة أسعار الطاقة في دول العالم الثالث، التي تدفع أكثر من ملياري شخص نحو أشداق الفقر واليأس والحروب.

لكن، على الرغم من هذا الاستنزاف السريع للنفط التقليدي، تجرجر الدول والشركات الغربية قدميها، وترفض الاستثمار للعثور على بدائل جديدة للطاقة (وهي ستجرجر أكثر الآن مع النفط الصخري). فطاقة الشمس والريح المتجددة لا تحصل على أكثر من ١ بالمئة من ميزانية الطاقة الفدرالية الأمريكية. والتحوّل إلى الطاقة النووية يواجه بمعضلة كبرى هي كيفية التخلّص من النفايات الذرية القاتلة للحياة والبيئة. والهيدروجين ليست مصدر طاقة على الإطلاق، بل هو مجرد ناقل للطاقة. والمصانع تحتاج إلى طاقة لإنتاج كميات من الهيدروجين أكثر مما يمكن لهذا الأخير أن يعطي منها. وعلى أي حال، طاقة الهيدروجين التجارية في حاجة إلى الغاز الطبيعي، وهذا ما يعيدنا إلى دائرة الطاقة الأحفورية.

كل هذا يعني أن الدول الصناعية في العالم ستكون مضطرة من الآن وحتى عقود مقبلة، إلى الاعتماد على إمدادات النفط الأحفوري حتى مع صعود نجم النفط الصخري. كل هذا يعني أيضاً أن هذه الإمدادات، وبعد أن يصل إنتاج النفط التقليدي إلى ذروته خلال سنوات قليلة، ستكون أقل من المطلوب.

بالطبع ستكون مضاعفات هذا التطور مريعة. فالإنتاج العالمي للغذاء، الذي توّسع نوعياً خلال القرن العشرين بفضل إمدادات طاقة البترول، سيتوقف عن النمو. ومع التراجع المحتمل لهذه الإمدادات، لن تتمكن الجرارات من العمل ولن تتوافر الأسمدة الكيميائية والمبيدات والأدوية الزراعية التي كانت في أساس الثورة الخضراء.

وكما في الزراعة كذلك في الصناعة والحياة المدنية التي تعتمد برمتها على النفط والغاز الطبيعي. إضافة، الذروة، وبالتالي الندرة، النفطية التقليدية سيكون لها تأثير ضخم في العلاقات الدولية. صحيح أن حروب السيطرة على الموارد الطبيعية (الثروات الزراعية والسمكية، الخيول، المراعي، الممارّ المائية... إلخ) كانت هي التاريخ؛ وصحيح أن معظم حروب القرن العشرين خيضت أساساً من أجل النفط، إلا أن الصحيح أيضاً أن مثل هذه الحروب حدثت خلال وجود وفرة في معروض الموارد الطبيعية والطاقة.

أما الآن، ومع تبدد هذه الوفرة النفطية التقليدية، فإن هذا سيؤدي، وفق ريتشارد هاينبرغ مؤلف **النفط والحرب ومصير المجتمعات الصناعية**(١١)، إلى نشوب نزاعات عسكرية مريرة وضارية بين الدول. ويضيف: «... وأمريكا، بصفتها أكبر مستهلك للطاقة في العالم، ومالكة أكبر ترسانة حربية في التاريخ، ستكون الطرف الأبرز في هذه الحروب التي ستدمغ كل القرن الحادي والعشرين بدمغها الخاص».

ثانياً: رقعة الحروب

حسناً. مثل هذه الحروب تجري على قدم وساق بالفعل. وهي واضحة للعيان في كل/ وأي مكان يوجد فيه برميل واحد من النفط، أو ليتر واحد مكعب من الغاز الطبيعي، على وجه هذه البسيطة. خريطة الطريق العسكرية التالية توضح طبيعة هذه الحروب:

١ ـ حرب العراق

منذ أن وطئت أقدام المارينز الأمريكيين أرض العراق العام ٢٠٠٣، والترسانة الإعلامية الأمريكية تركّز على أن الحرب شنت من أجل السلام العالمي (أسلحة الدمار الشامل)، أو المُثل العليا (الحريات والديمقراطية). أما النفط فغاب إلا لماماً عن لعبة المصطلحات الأمريكية. لا بل ذهب دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي آنذاك، إلى حد القول: «نحن لا نحرّك قواتنا ونجعلها تدور حول العالم لمجرد محاولة السيطرة على نفط الآخرين. ليس هكذا تعمل الديمقراطيات». وقبل رمسفيلد وبعده، كرت سبحة البيانات الأمريكية التي تؤكد كلها أن غزو العراق معطّر بكل رياحين القيم والمثل، وبريء من كل ملوثات النفط والمصالح. وقد لخّص دونالد هيبرن، الباحث في «مجلس دراسات الشرق الأوسط» الأمريكي، هذا المنطق بالحجج التالية:

• الاستهلاك العالمي من النفط يبلغ ٧٨ مليون برميل يومياً، تقدّر مساهمة العراق فيه بقرابة ثلاثة ملايين برميل. وبغض النظر عمن يهيمن على الإنتاج العراقي، فإن الحجم الإضافي الذي بمقدور هذا البلد توفيره للسوق العالمية على المدى القصير، لا ينطوي على شأن كبير أو تأثير كبير في تجارة النفط الدولية.

• من السخف الاعتقاد بأن القيادة العسكرية الأمريكية ستُقدم على نحو خالٍ من المسؤولية، على التضحية بأرواح آلاف الشبان الأمريكيين لمجرد الحصول على نسبة ضئيلة من إنتاج النفط العالمي، حتى ولو أدى ذلك إلى إفادة مباشرة لشركات النفط الرئيسة في أمريكا.

---

(١١) Richard Heinberg, *The Party's Over: Oil, War and the Fate of Industrial Societies* (London: New Society Publishers, 2003).

• سينتج العراق خلال السنوات المقبلة نفطاً بقيمة ٤٠٠ مليار دولار، ستُستخدم كلها لإعادة البناء فيه. وهذا المبلغ لن يستخدم في تعويض خسائر الحرب الأمريكية التي يتوقَّع أن تبلغ قريباً ٢٥٠ مليار دولار (الرقم الحقيقي زاد على ما قيل ثلاثة تريليونات دولار)[١٢].

منطق مقنع؟ كلا البتة. أو هذا على الأقل ما يقوله الآن العديد من حلفاء أمريكا في أوروبا، وما يعرفه أصدقاؤها الكثر في آسيا وأفريقيا. وهكذا يقول جون تشابمان، وهو مساعد وزير بريطاني سابق، أن الرئيس بوش الابن سيطر على حقول النفط العراقية بهدف تحسين أمن إمدادات النفط الأمريكية[١٣]. فهذه الدولة تقع في قلب منطقة الخليج التي تنتج ربع البترول العالمي وتحتوي على ٦٠ بالمئة من احتياطي النفط على الأرض. ومع وجود احتياطي في العراق يقدّر بنحو ١١٥ مليار برميل، ومع حقيقة أن ٩٠ بالمئة من الأراضي العراقية لما تستكشف بعد، فإن العراق قادر ببساطة على أن يؤدي دوراً كبيراً في مجال ضمان أمن الطاقة لأمريكا. هذا إضافة إلى أن واشنطن بوجودها في قلب منطقة الخليج، سيكون في وسعها الإمساك بكل صنابير البترول الشرق الأوسطي، والتحكّم بأسعاره، وربما أيضاً تدمير منظمة «أوبك» عبر سحب العراق منها.

وإلى النفط، يورد محللون غربيون آخرون سبباً آخر لا يقل أهمية: الدفاع عن الدولار بوصفه العملة الصعبة الرئيسة في الاقتصاد العالمي، من خلال استخدام النفط (أو بالأحرى السيطرة عليه) كسلاح سياسي. كتب ديك تشيني في وقت مبكر من العام ١٩٩٠، حين كان يعمل في قطاع النفط: «من يسيطر على تدفق بترول الخليج الفارسي سيقبض ليس فقط على خناق اقتصادنا، بل أيضاً على خناق دول العالم الأخرى أيضاً». وهذه السيطرة لها رمز اسمه الدولار، الذي فرضته واشنطن خلال سبعينيات القرن العشرين كعملة وحيدة يتم بها التداول بنفط أوبك. ومنذ ذلك الحين، كان في وسع الإدارات الأمريكية المتعاقبة أن تطبع ما تشاء من الدولارات لتغطية عجزها التجاري الضخم، مع إبقاء هذه الدولارات في أسواق المال الأمريكية.

لكن في عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠، حدث شيء خطير: تحولت إيران ثم العراق من الدولار إلى اليورو. وهذا كان أحد الأسباب التي دفعت الرئيس بوش الابن إلى وضع هاتين الدولتين في خانة «محور الشر»، لأنه لو حذت دول أوبك الأخرى حذوهما، لكانت المضاعفات الاقتصادية ستغدو كارثية على الولايات المتحدة.

لكن، مع اجتياح القوات الأمريكية لبغداد، عاد الدولار سريعاً ليحتل عرش التبادلات النفطية العراقية مع العالم. ومع وثوب هذه القوات نفسها إلى كل حقول النفط العراقية المكتشفة وغير المكتشفة، كان في مقدور الشركات الكبرى الأمريكية الاطمئنان إلى أن في وسعها مواصلة النمو بلا حدود (ولو مؤقتاً).

---

(١٢) «Financial Cost of the Iraq War,» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/financial_cost_of_the_iraq_war>.

(١٣) John Chapman, «The Real Reasons Bush Went to War,» *The Guardian*, 28/7/2004, <http://www.theguardian.com/world/2004/jul/28/iraq.usa>.

٢ ـ أفغانستان: لماذا الغزو؟

كما الأمر في العراق، شدّدت واشنطن على أنها قدِمت إلى بلاد الأفغان لملاحقة أسامة بن لادن، والقضاء على نظام طالبان القروسطي، وتحرير المرأة الأفغانية من قيود العبودية. لكن مايكل مور، مخرج ومؤلف فيلم «فيهرينهايت ٩ ـ ١١» الشهير، ومؤلف كتاب **ستيوبيد سوبر وايت مان** *(Stupid Super White Men)*(١٤)، له وجهة نظر أخرى مغايرة تماماً. فهو يتساءل: هل آلاف الجنود الأمريكيين عدد كافٍ لتحقيق كل هذه الأهداف الكبرى ضد طالبان وبن لادن؟ وهو يرد سريعاً: كلا.

ثم يتساءل: إذاً، لماذا الغزو؟ وحينها يورد الوثائق التي تثبت أن حميد قرضاي وباقي أركان حكمه، كانوا موظفين في شركة نفط يديرها جورج بوش الابن وديك تشيني، وأن أحد الأهداف الحقيقية للغزو هو تسهيل مد خط أنابيب نفط بحر قزوين عبر الأراضي الأفغانية.

٣ ـ نفط آسيا الوسطى

«اللعبة الكبرى» تعبير شهير صكّه روديارد كيبلينغ لوصف السباق المحموم بين روسيا القيصرية وإنكلترا الفيكتورية والإمبراطورية العثمانية للسيطرة على آسيا الوسطى في القرن التاسع عشر. الهدف آنذاك: الإمساك بطرق التجارة المؤدية إلى الهند. هذه اللعبة الكبرى نفسها أطلّت برأسها مجدداً، بعد أن دخلت أمريكا رسمياً إلى آسيا الوسطى عبر أفغانستان، وإلى أفغانستان عبر بوابات آسيا الوسطى. بيد أن اللعبة الجديدة بات لها حلة جديدة، وأهداف جديدة، ولاعبون جدد. فهدف الصراع لم يعد الهند بل النفط. وجنباً إلى جنب مع النفط، هناك الموقع الجيوستراتيجي لآسيا الوسطى بصفتها قلب قارة «أورو ـ آسيا»، والنقطة الجغرافية التي تتقاطع فيها العوالم الأمريكية والصينية والروسية والهندية والإسلامية.

وهكذا، فإن من يسيطر على هذه المنطقة، سيمسك بخناق هضبة أوراسيا برمتها من أعلى العنق، وبعدها سيدين العالم كله له. كما أنه سيتّمكن من إدماج نفط وغاز حوض قزوين في منظومة «أمنه القومي»، بصفته ثاني أكبر «مزيّت» رخيص للاقتصاد العالمي بعد نفط الخليج. من هي القوى المشاركة في هذه اللعبة الكبرى الجديدة؟ محلياً، هناك دول آسيا الوسطى الإسلامية الخمس كازاخستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، طاجكستان، وتركمنستان. ثم هناك أيضاً دول منطقة القوقاز الثلاث أذربيجان وأرمينيا وجورجيا. الدول الخمس الأولى كان يمكن أن تكون دولة اتحادية واحدة، لولا المعارضة القوية من جانب روسيا. ولأن هذه الدول عالقة في بيئة جغرافية مغلقة بدون منافذ على البحار والمحيطات، فإنها تجد نفسها مضطرة إلى القيام بأمرين اثنين: قبول الهيمنة الروسية كأمر واقع تاريخي ـ جغرافي، وممارسة سياسات خارجية تتسم باللين والحلول الوسطى بهدف

(١٤) Michael Morre, *Stupid White Men: ...and Other Sorry Excuses for the State of the Nation!* (New York: Harper Collin, 2001).

الحفاظ على خطوط المواصلات البرية التي هي مورد عيشها. وهكذا فإن الجغرافيا لا الثقافة هي التي تحكم هنا. ولولا ذلك لوجدت هذه الدول نفسها مدفوعة للعودة إلى وضعيتها السابقة كمراكز حضارية وثقافية بارزة للشرق الأوسط الإسلامي.

أما دول القوقاز الثلاث، فهي أشد خضوعاً بما لا يقاس من دول آسيا الوسطى لنفوذ موسكو، بسبب سياسة «فرّق تسد» التي تمارسها هذه الأخيرة ضدها. أما اللاعبون الخارجيون فهم يتوزعون على ناديين اثنين: نادي الدول الكبرى والنووية (الذي يضم إلى روسيا، الولايات المتحدة والصين والهند)، ونادي الدول الإقليمية المتوسطة (إيران، تركيا، باكستان). لكل من هذه الدول مصالح قصوى في آسيا الوسطى ـ القوقاز. فالصين تعتبرها سوقاً مربحاً، ومصدراً مهماً لإمداداتها النفطية المستقبلية، وحاجزاً أمام امتداد الأصولية الإسلامية إلى منطقة كزينجيانغ الصينية الإسلامية. والهند تنشط فيها اقتصادياً وسياسياً، بالتعاون مع روسيا، لمنعها من التحوُّل إلى قاعدة إسلامية (وباكستانية) ضدها. أما إيران وتركيا، فهما الجسور الرئيسة التي تعبر فوقهما الصراعات الدولية إلى آسيا الوسطى، بسبب العلائق الإثنية والثقافية والدينية والتاريخية التي تربطهما بهذه المنطقة. لكن تجربة السنوات التي تلت سقوط الاتحاد السوفياتي، أثبتت أن هاتين القوتين الإقليميتين لم تستطيعا لا بشكل منفرد ولا ثنائياً ملء الفراغ الروسي، لاعتبارات شتى اقتصادية ودولية واستراتيجية.

يبقى الأهم في الميزان اللاعبون الروسي والأمريكي والأوروبي. فهم الأطراف التي ستقرر طبيعة العلاقات بينها، حاضر نفط وغاز كازاخستان وأذربيجان، ومعهما مستقبل قارة أوراسيا.

٤ ـ أفريقيا: موبقات أمريكا

من بين كل السياسات الأمريكية في أنحاء العالم، تبدو توجهات واشنطن في أفريقيا هي الأغرب. فبعد إهمال شبه كامل دام عقوداً طويلة، دبّ النشاط الأمريكي فجأة في كل أوصال هذه القارة السمراء من أسفل نقطة في جنوب أفريقيا إلى أعلى بقعة في شمالها. السبب؟ النفط بالطبع.

يقول وولتر كانشتاينر، المساعد السابق لوزير الخارجية الأمريكي: «نفط أفريقيا بات جزءاً من مصالحنا القومية الاستراتيجية». ويقول ديك تشيني (في تقرير «سياسة الطاقة القومية الأمريكية»): «القارة أصبحت الآن أسرع موارد الطاقة نمواً بالنسبة إلى السوق الأمريكي». وهذا صحيح بالطبع. فالنفط والغاز الأفريقيان، ورغم أن حصتهما العالمية لا تتجاوز الـ ٧ بالمئة، يزوِّدان الولايات المتحدة بنحو ١٥ بالمئة من وارداتها. وسيقفز هذا الرقم إلى ٢٥ بالمئة العام ٢٠١٥.

معظم هذه الواردات ستأتي من دول غير عضو في منظمة أوبك عدا نيجيريا (١,٨ مليون برميل) التي تحثها واشنطن دوماً على مغادرة المنظمة. وهذه الدول هي تشاد، جزيرة ساو تومي الصغيرة، غينيا الاستوائية، أنغولا (نحو مليون برميل) و... ومن؟ السودان. فكما في العراق وأفغانستان وآسيا الوسطى، رفعت واشنطن سيف حقوق الإنسان فوق رأس السودان في الجنوب ودارفور للسيطرة على نفطه وغازه وضمّه إلى مخزون المصلحة القومية الاستراتيجية الأمريكية.

بالطبع، ليس في وسع أحد الدفاع عن الفظائع التي ارتكبها نظام الرئيس عمر البشير ضد مواطنيه في إقليم دارفور. فما جرى هناك، حيث قتل خلال أشهر قليلة من الحرب أكثر من ٣٠ ألفاً وشُرِّد مليونا مواطن، تنطبق عليه كل مواصفات وتعريفات خرق حقوق الإنسان. كذلك، لا أحد في وارد الدفاع عن مركزية السياسة الاستبدادية في الخرطوم، التي لم تسفر خلال السنوات الخمسين الماضية إلا عن حروب دائمة، عدا حفنة سنوات سلام بين ١٩٧٢ و١٩٨٣. فالفدرالية الديمقراطية قدر سياسي لهذه الدولة العربية ـ الأفريقية، متطابق مع قدرها الجغرافي الذي جعلها الأكبر والأكثر تنوعاً إثنياً ودينياً في القارة الأفريقية، والتي حُبِيَت بنهرين كبيرين وتاريخيين (النيل الأبيض والنيل الأزرق) وخيرات زراعية وموارد طبيعية لاحدود لها.

لكن، وبعد قول كل شيء عن موبقات الحكومة السودانية حتى بعد انفصال الجنوب عنها، نأتي إلى موبقات الحكومة الأمريكية. فلا أحد أيضاً كان قادراً حتى الآن على إقناع أحد أن يقظة الضمير الأمريكية المفاجئة لحروب انفصال جنوب السودان، ثم انفجارات دارفور في غربه (وربما لاحقاً حروب جبال النوبة وضفاف النيل الأبيض)، كانت يقظة ضمير حقاً، لا يقظة نفطية واستراتيجية. ولهذا العجز عن الإقناع سبب معروف: كل آثار الأقدام الأمريكية في السودان تقود إلى حقول النفط لا إلى حقول القمح. وعلى الرغم من أن اللوبي المسيحي البروتستانتي القوي في الولايات المتحدة الداعم لمسيحيي جنوب السودان (ووثنييه..)، لعب على مدار السنوات الماضية دوراً في بلورة السياسات الأمريكية الراهنة إزاء هذه الدولة العربية الأفريقية، إلا أن هذه السياسات لم «تنضج» إلا بعد وصول بوش إلى سدة الرئاسة العام ٢٠٠٠ على أكتاف شركات النفط الكبرى الأمريكية.

وكان لافتاً، على أي حال، أن يُدلي بوش الابن بخطاب في ٣ أيار/مايو ٢٠٠١ أمام اللجنة اليهودية الأمريكية، يركّز فيه لا على العراق وإيران والشرق الأوسط الكبير، بل على السودان. فهو اتّهم حكومة الخرطوم «بشن حرب ضد مواطنيها المسيحيين والتقليديين»، وأعلن عن نيته «لفت أنظار العالم كله إلى الفظائع في السودان». وبقية القصة معروفة: ضغوط أمريكية عنيفة منذ ذلك الحين على نظام عمر البشير لحمله على تغيير لون جلده، وتكريس التدخل الأمريكي في كل شاردة وواردة في الوضع الداخلي للسودان، من أدغال الجنوب إلى سهوب دارفور. وحصيلة القصة معروفة أيضاً: نجاح هذه الضغوط؛ استسلام البشير؛ وبدء تحرك شركات النفط الغربية الرئيسة إيسكون وشل وتوتال للعودة إلى الساح السوداني لمنافسة (وربما للحلول محل) «سي. أن. بي. سي» الصينية، و«أو. أن. جي. سي» الهندية، وبتروناس الماليزية.

بلغ إنتاج النفط السوداني في ٢٠١٢ نحو ١١٨ ألف برميل، بينما كان ينتج قبل انفصال الجنوب ٤٥٩ ألف برميل يومياً. إلا أن المحللين يعتقدون أن مناطق سودانية عدة في الجنوب ودارفور تسبح فوق بحيرات كاملة من البترول.

بيد أن اهتمامات واشنطن لا تقتصر على النفط، برغم أولويته القصوى. فكما أنها خططت لكي يكون العراق منصة انطلاق نحو السيطرة على الشرق الأوسط الكبير (ومنه إلى قارة أوراسيا الأوسع)، كذلك هي تعتبر السيطرة على السودان منصة الانطلاق المفترضة الرئيسة للإطباق على كل بقعة تحتوي على النفط في القارة الأفريقية مهما صغر حجمها.

النفط التقليدي، أو بالأحرى السباق للسيطرة على ما تبقى منه، أطلق إذاً إشارة البدء لاندلاع «الحرب العالمية الرابعة». وهذه الحرب لم تدر رحاها بعنف في العراق والخليج العربي، وآسيا الوسطى والقوقاز، والسودان وأفريقيا، وحتى في محمية آلاسكا الأمريكية وحسب، بل حتى في أقاصي سيبيريا. وهذا، على أي حال، ما دل عليه هذا ذلك الخبر الصغير الذي أشرنا إليه أعلاه والذي لم ينتبه إليه الإعلام حول وصول الصراع النفطي الصيني ـ الياباني إلى مرحلة خطرة.

٥ ـ كتابا غودشتاين وروبرتس

نأتي الآن إلى كتابي الباحثين الأمريكيين البارزين دايفيد غودشتاين وبول روبرتس، اللذين توصلا في أبحاثهما إلى حصيلة خطيرة مشتركة واحدة: النفط (التقليدي) سيصل (أو هو وصل بالفعل) إلى ذروة الإنتاج، وسيبدأ قريباً (أو هو بدأ بالفعل) انحداره التاريخي. وهذه الأزمة، التي ستكون الأضخم في تاريخ الحضارة البشرية، لن تبدأ، برأيهما، حين ينتهي النفط، بل حين يصل إلى ذروة الإنتاج، بعد أن يكون البشر قد استهلكوا نصف احتياطي النفط التقليدي، أي نحو تريليون برميل، فيتراجع العرض بموازاة الطلب، وتنشب حروب الموارد والطاقة، وتندلع الصراعات بين الدول كبيرها والصغير.

أ ـ غودشتاين: معادلة هابرت تتحقق

علام استند غودشتاين وروبرتس في خلاصتهما المجلجلة هذه؟ نبدأ أولاً مع غودشتاين.

يسند هذا الباحث مقولاته إلى نظرية الجيولوجي الأمريكي م. كينغ هابرت (Marion King Hubbert)، الذي تنبأ في العام ١٩٥٦ بأن معدلات استخراج النفط من الولايات الأمريكية الـ ٤٨، ستصل إلى ذروتها سنة ١٩٧٠ ثم تبدأ بعدها انحدارها السريع. وهو حدد طبيعة هذه الذروة بأنها تعني الوصول إلى استهلاك نصف احتياطي النفط. نبوءة هابرت صدقت. فاستخراج النفط التقليدي الأمريكي وصل إلى ذروة بلغت ٩ ملايين برميل يومياً سنة ١٩٧٠، وهو يهبط منذ ذلك الحين حيث بلغ الآن أقل من ٦ ملايين برميل. والآن، بدأ الجيولوجيون بتطبيق معادلات هابرت وحساباته على النفط العالمي، فاستنتجوا أنه من أصل الـ٢ تريليون برميل المختزنة في جوف الأرض، وصل استهلاك البشر الآن إلى النصف، وبالتالي باتت معادلة هابرت حول الذروة ـ الانحدار قاب قوسين أو أدنى من التحقق.

بالطبع، يرفض بعض الجيولوجيين العاملين في الحكومات والشركات منطق هابرت وأنصاره، وهم يقولون إن النفط سيكفي العالم لمدة تتراوح بين ٤٠ إلى ١٠٠ سنة أخرى، وإن احتياطي

النفط لا يقف عند الرقم ٢ تريليون برميل بل يتعداه إلى ٧,٢ تريليون برميل. وهذا يعني أنه لا يزال بالإمكان اكتشاف كمية تبلغ نحو ٥,٢ تريليون برميل إضافية. وهذا ما يعادل كل نفط الشرق الأوسط الحالي. بيد أن معظم المحللين المحايدين يرفضون وجهة النظر هذه بصفتها حملات دعائية ليس إلا. لكن، إذا ما كانت نظرية هابرت صحيحة حول قرب نشوب أزمة «النفط التقليدي»، أليس بالإمكان تعويضها بموارد طاقة أخرى؟

يرد العلماء بكلمتين: أجل، ولكن. فهم يقولون إن هناك «النفط الثقيل» (الذي يزداد ثقلاً كلما ازداد استخراجه)، و«نفط الرمال»، ونفط القطران. بيد أن كل هذه الأنواع صعبة على الاستخراج ومكلفة للغاية وهناك النفط والغاز الصخري الذي أشرنا إليه. لكن هذا في الواقع ليس نفطاً على الإطلاق برأي العلماء، وأربابه أطلقوا عليه هذا الاسم لاستدراج الاستثمارات. إنه في الواقع كيروغين، وهي مادة لزجة يمكن تحويلها إلى نفط إذا ما تم سحق الصخرة التي تحتويها ووضعت على حرارة مرتفعة للغاية. وهذا أيضاً أمر مدمّر للبيئة أكثر من النفط التقليدي، كما رأينا.

في لائحة البدائل، هناك أيضاً الغاز الطبيعي، الذي يتكون أساساً من الميثان. وهو سهل على الاستخراج والنقل والضغط والتسييل، ويمكن أن يحل مكان البنزين. بيد أن استبدال السيارات وأنظمة توزيع البنزين الحالية أو بناء مصانع جديدة لتحويل الميثان إلى بنزين، سيكون صعباً للغاية. وحتى لو تم تحقيق هذا التحوّل، فهذا سيكون نجاحاً مؤقتاً فقط، لأنه وفق نظرية هابرت، ذروة إنتاج الغاز ستظهر خلال عقدين أو ثلاثة.

ثم هناك الفحم، الذي يُطلق عليه اسم «الوقود القذر»، بسبب تلويثه الهائل للبيئة، والطاقة النووية المكروهة للغاية والمحظورة في بعض الدول كإيطاليا. وكلاهما يتسببان بمشاكل أكثر مما يقدمان حلولاً. لكن، أليس بالإمكان بالفعل العثور على كميات جديدة من النفط في العالم؟

حتى الآن، ذهب جيولوجيو النفط إلى أقاصي الأرض بحثاً عن النفط، وبالتالي لم يعد ثمة الكثير لاكتشافه. أكبر منطقة احتياطي محتملة الآن هي بحر الصين الجنوبي التي تتنازع عليها الصين وتايوان وفيتنام والفيليبين وماليزيا وبروناي. وهناك منطقة وسط سيبيريا وأعماق المحيطات. لكن حتى لو تم اكتشاف حقل نفط كبير يوازي حقلاً سعودياً يتضمن ٨٧ مليار برميل، فإن ذروة هابرت لن تتأخر أكثر من سنة أو سنتين. أي أن هذا لن يغيّر من طبيعة الأزمة في شيء. ماذا يعني كل ذلك؟ يرى البروفسور غودشتاين السيناريوهين الآتيين:

الأول، الأسوأ، وهو أنه بعد الوصول إلى ذروة هابرت، كل الجهود التي ستبذل لإنتاج وتوزيع واستهلاك بدائل الطاقة، ستفشل. والتضخم المالي والكساد الاقتصادي اللذان سيبرزان، سيدفعان مليارات البشر إلى إحراق الفحم بكميات ضخمة لأغراض التدفئة والطبخ والصناعات البدائية. وهذا سيفاقم من أزمة احترار جو الأرض وقد ينهي الحياة نفسها على هذا الكوكب الأزرق.

الثاني، الأفضل، يستند إلى الآتي: يؤدي الاضطراب العالمي الذي سيلي ذروة هابرت إلى إطلاق أجراس الإنذار في كل مكان، فتسارع الدول إلى بناء اقتصاد يعتمد على الميثان

لسد الفجوة بين العرض والطلب، فيما يتم بناء المزيد من المفاعلات النووية والبنى التحتية الأخرى لبدائل الطاقة الأحفورية. لكن، حتى مع هذا السيناريو الثاني، سنصل في وقت ما إلى ذروة هابرت في اليورانيوم والنفط الصخري وغيرهما، وستعيد الأزمة إنتاج ذاتها. والحل؟

إنه في رأي هابرت يعتمد على الآتي:

• أن يتحلى الشر بالحكمة، فيغيّروا القوانين البشرية لأن تغيير قوانين الطبيعة مستحيل.

• أن يعاد بناء الاقتصادات على أسس جديدة تعتمد على توفير الطاقة، وصرف استثمارات ضخمة على الموارد التي لا تنضب خاصة الطاقة الشمسية.

• توفير كل الإمكانات المادية للعلم والعلماء كي يساعدوا على تحقيق هذه الأهداف.

ب ـ روبرتس: الجوانب الاستراتيجية لأزمة الطاقة

كما هو واضح، يركّز كتاب غودشتاين على الجوانب العلمية والتقنية من أزمة الطاقة. وربما هذا ما فسح في المجال واسعاً أمام زميله روبرتس للتركيز على الجوانب الاستراتيجية والدولية لهذه الأزمة.

فهو يبدأ بالملاحظة أن البترول يشكّل الآن ٤٠ بالمئة من طاقة العالم، فيما يأتي الباقي من الفحم (٢٦ بالمئة) والغاز الطبيعي (٢٤ بالمئة). وفي العام ٢٠٣٥ سيكون العالم في حاجة إلى ضعفي الإمدادات الراهنة من الطاقة. فالطلب على النفط سيقفز من ٨٠ مليون برميل في اليوم إلى نحو ١٤٠ مليون برميل في اليوم. وثمة تكهنات على نطاق واسع بأن الغاز الطبيعي سيتوّسع أكثر من النفط (أكثر من ١٢٠ بالمئة، والفحم بنحو ٦٠ بالمئة). وهذه بالطبع تطورات مدوّخة. لكن من أين ستأتي الطاقة الهيدروكربونية الإضافية؟

يوضح روبرتس أنه خلال العقد الماضي، استخدم العالم ٢٤ مليار برميل من النفط سنوياً، لكنه لم يجد سوى أقل من ١٠ مليارات برميل من النفط المتجدد سنوياً. بكلمات أخرى، الطلب على النفط يتصاعد، خاصة من جانب الصين والهند الصاعدتين، فيما يتقلّص الاحتياطي والقدرات الإنتاجية. إضافة، لاستقرار سوق الطاقة العالمية يتفاقم. وفي نهاية العقد الحالي، ستزوّد أوبك العالم بنحو ٤٠ بالمئة من نفطه، أي أكثر بكثير من المعدل الحالي الذي يبلغ ٢٨ بالمئة.

تعطينا هذه الخلفية، برأي روبرتس، فكرة واضحة عن أسباب حرب العراق. فقبل الحرب كان العراق ينتج ٥,٣ مليون برميل في اليوم، والعديد من مسؤولي الإدارة الأمريكية اعتقدوا أن هذا الرقم يمكن أن يتضاعف قبل نهاية العام ٢٠١٠. وإذا ما كان بالإمكان «إقناع» العراق بتجاهل كوتا أوبك وإنتاج أقصى طاقته، فإن دفق النفط الجديد يمكن أن يُنهي سيطرة أوبك على التسعير. ثم: إذا ما نجحت أمريكا في تفكيك أوبك، وبسبب كونها متقدمة لمدة عقد على الأقل عن باقي العالم في

مجال التكنولوجيا العسكرية، فإن هذا سيضمن لها التفوق لمدة قرن أو أكثر. السيطرة على النفط لن تركّز السلطة والقوة الاقتصادية في يد أمريكا وحسب، بل ستكون أيضاً جزءاً من رؤية جيو سياسية أوسع، لأنها ستعني التحكُّم بدول أكثر اعتماداً على نفط الخليج، مثل الصين وأوروبا.

بيد أن رد واشنطن على الأزمة النفطية العالمية، الذي يتمثّل بضمان باقي الموارد من إمدادات النفط بالقوة إذا لزم الأمر، ستكون له مضاعفات قاتلة على الكوكب. فانبعاثات غازات الحبيسة الملوّثة الناجمة عن إحراق الوقود الأحفوري، خاصة الغاز والفحم، يتزايد بمعدل ٣ بالمئة سنوياً، وهو سيصل مع مثل هذا المعدل إلى ١٢ مليار طن سنوياً العام ٢٠٣٠، وأكثر من ٢٠ مليار طن قبل نهاية هذا القرن. وعلى هذا الأساس، ستصل غازات الحبيسة في الجو إلى تركّز قدره ١١٠٠ جزء من المليون (ثلاثة أضعاف المستويات الحالية). وهذا باعتراف كل علماء المناخ سيؤدي إلى كوارث محققة.

هل ثمة مخرج من «يوم الآخرة» هذا؟

أجل. إنه برأي روبرتس: اقتصاد أمريكا، أساساً، في استهلاك الطاقة، إذ يقدّر الخبراء أن مصانع الطاقة الأمريكية تهدر طاقة، في شكل بقايا حرارية، أكثر من كل حاجات اليابان من النفط. ويشيرون إلى أن إدخال تحسينات في اقتصاد الوقود الخاص بالسيارات والإنارة بمعدل ٧,٢ ميل في الغالون الواحد، سيكون كافياً لإنهاء الأزمة من دون الحاجة إلى كل واردات النفط من الخليج. وهذا بالطبع حل أفضل بكثير من تدمير العراق ومن شن حروب النفط الدموية في كل الكرة الأرضية. لا بل إن الاقتصاد في الطاقة وزيادة فعاليتها، قد يوفّران في الواقع نفطاً أكثر مما يمكن اكتشافه تحت الأرض، وبأسعار أقل من معدل سعر النفط في السوق. ثم إن مضاعفات مثل هذا الأمر مذهلة: إذا ما تم، على سبيل المثال، خفض استهلاك الطاقة بمعدل ٣ بالمئة سنوياً، سيكون ثمة إمكان لتلبية طلبات العالم في العام ٢١٠٠ من خلال ربع الطاقة التي نستهلك اليوم.

بيد أن المعطيات الإيجابية شيء، وتفاعل الإدارات الأمريكية معها بشكل إيجابي شيء آخر. إذ إن كل المؤشرات تدل على أن هذه الأخيرة ليست في وارد تقليص أرباح الشركات الكبرى عبر الاقتصاد في استهلاك الطاقة. جل خياراتها تتركز إما على شن حروب السيطرة على النفط، أو إيهام الآخرين بأن التكنولوجيا ستكون قادرة قريباً على إيجاد الحلول لأزمة الطاقة. بيد أن كلا الأمرين مجرد حلول مزيفة، أو في أحسن الأحوال مؤقتة، ولن يؤديا إلا إلى مفاقمة أزمة الطاقة ومعها الكوارث البيئية.

ثالثاً: ما بعد النفط الصخري

لكن، هل يمكن أن تؤدي «ثورة» الغاز الصخري، وبالتالي احتمال امتلاء خزائن الطاقة الأمريكية بوفرة من الغاز الطبيعي والنفط، إلى تهدئة روع الولايات المتحدة وبالتالي إلى تراجع حدة حرب الموارد في قطاع طاقة النفط التقليدي؟

لا يبدو أن الأمر سيكون على هذا النحو، لسببين: **الأول** تقني **والثاني** استراتيجي.

في الجانب التقني، تدور شكوك عميقة حول حقيقة ثورة الغاز والنفط الصخري، إذ يقول العديد من الخبراء إن هذه الثورة أسطورة أو حتى خرافة أكثر منها حقيقة. فعلى سبيل المثال، نشر دايفيد هيوغز، وهو خبير جيولوجي يتمتع بخبرة ٤٠ سنة في مجال دراسة الموارد في كندا، تقريراً في منتصف العام ٢٠١٤ بعنوان «ثورة الغاز والنفط الصخري: الأسطورة والحقائق»(١٥) توقّع فيها أن يصل الإنتاج في الحقلين الرئيسيين لإنتاج الغاز والنفط الصخريين في الولايات المتحدة، وهما باكان وإيغيل فورد، إلى ذروته في وقت مبكر للغاية لا يتجاوز العام ٢٠١٦. وهذا التقدير يتنافى مع كل بيانات شركات النفط التي تحدثت عن فورة غازية ونفطية تدوم عقوداً طويلة. وهذا ما يراه أيضاً خبير جيولوجي آخر هو أرت بيرمان(١٦)، الذي يضيف أن كل الأحاديث عن إنتاج غاز طبيعي رخيص هو محض خيال. ويضيف أن آبار الغاز كما آبار النفط الصخري تعاني هبوطاً سنوياً ثابتاً في قدراتها الإنتاجية. وهذا يعني أنه سيكون على شركات النفط والغاز مواصلة حفر المزيد من الآبار كل سنة لمنع الإنتاج من التراجع، وبتكلفة باهظة. ويخرج بيرمان بالخلاصة التالية: «أصدقائي: هذه ليست ثورة الطاقة، إنها حفلة تقاعد»(١٧).

ثم هناك تعقيد آخر: إحدى المشاكل الكبرى التي تواجهها شركات الغاز والنفط الصخري هي أنه يتعيَّن عليها أن تنفق الرساميل بشكل متواصل في هذه الصناعة، من دون أن يكون في مقدورها الجلوس والاسترخاء وقطف المكافآت السخية من العائدات لسنوات عديدة، كما تفعل الشركات في الصناعات الأخرى. سبب ذلك هو الانحدار السريع في إنتاجية آبار الغاز الصخري، والخسائر الكبرى من العائدات مع مرور الوقت، إذ إن العديد من الآبار سيتوقف عن العمل بعد ست أو عشر سنوات من الإنتاج.

علاوة على ذلك، في حين أنه من الصحيح أن ثمة موارد ضخمة من النفط الصخري في العديد من الدول حول العالم، إلا أن العديد من المحللين لا يعتقدون أنه يمكن تكرار «ثورة» النفط والغاز الصخري بحذافيرها في كل أنحاء الكرة الأرضية بسبب عوامل عديدة، منها نقص البنى التحتية، وكميات المياه الكافية، والخبرة التقنية، والقوانين المنظمة للملكية الخاصة للأراضي (حيث ثروات باطن الأرض ملكية عامة في كل دول العالم عدا الولايات المتحدة). وفوق كل ذلك مقاومة الحركات والمنظمات والتشريعات البيئية لكل صناعة الغاز والنفط الصخري.

---

(١٥) J. David Hughs, «The «Shale Revolution»: Myths and Realities,» Trans-Atlantic Energy Dialogue (Washington, DC) (10 December 2013), <http://www.jeremyleggett.net/wp-content/uploads/2014/01/131210-tesd-hughes.pptx>.

(١٦) انظر: «Special Report: The Coming Bust of the U.S. Shale Oil & Gas Ponzi,» Outsider Club, <http://www.outsiderclub.com/report/the-coming-bust-of-the-us-shale-oil-gas-ponzi/1041>.

(١٧) James Stafford, «Shale, the Last Oil and Gas Train: Interview with Arthur Berman,» Oil Price (5 March 2014), <http://oilprice.com/Interviews/Shale-the-Last-Oil-and-Gas-Train-Interview-with-Arthur-Berman.html>.

لكن، حتى لو افترضنا أن كل تحفظات النقاد حول طبيعة «ثورة الشيل» غير دقيقة (على رغم أن الأمر لا يبدو كذلك)، فهل هذا يعني أن سعي الولايات المتحدة إلى السيطرة على موارد الطاقة الجديدة هذه ستتوقف؟

مرة أخرى، الجواب لا، لأن الزعامة الأمريكية العالمية لا تستقيم أو تستقر من دون السيطرة الكاملة أو شبه الكاملة على كل موارد الطاقة في العالم. وهذا على أي حال ما يوضحه ويؤكده لنا التاريخ الحديث الذي يشير إلى أن الولايات المتحدة سعت إلى السيطرة على الموارد النفطية حتى حين كانت المنتج والمصدر الأول والأكبر لها في العالم.

رابعاً: قرن وقوده النفط

القرن العشرون كان بحق قرناً أمريكياً، كما كان القرن التاسع عشر بريطانياً. وهو أيضاً كان قرناً وقوده النفط الذي من دونه ليس بالمستطاع فهم مصادر وديناميات الزعامة الأمريكية في العالم. ففي العقود الثلاثة الأولى من القرن الماضي، كانت الولايات المتحدة هي المنتج الأول للنفط في العالم، وكانت خمس من سبع أكبر شركات نفط أمريكية. ويتفق المحللون والمؤرخون على القول إن السيطرة النفطية الأمريكية أدت دوراً كبيراً ورئيساً في تعزيز القوة العسكرية والاقتصادية الأمريكية، ومكّنت الولايات المتحدة من ربح الحربين العالميتين الأولى والثانية ثم الحرب الباردة. لذا، خططت الولايات المتحدة، بالتنسيق مع «الشقيقات السبع»، للسيطرة على احتياطي النفط العالمي والحفاظ على مداخله الآمنة. وهذا أصبح من أولى أولويات السياسة الخارجية الأمريكية، وفي أساس كل «المبادئ» التي وضعها الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون، من مبدأ ترومان للدفاع عن إيران وتركيا واليونان (حفاظاً على نفط الشرق الأوسط) إلى مبدأ أيزنهاور ونيكسون وكارتر. كل هذه المبادئ تعلقت بشكل أو بآخر بنفط الشرق الأوسط.

في الفترة بين ١٩٢٨ و١٩٣٤، كسبت شركات النفط الأمريكية تنازلات نفطية ضخمة في مناطق شرق الإنديز الهولندية وفنزويلا والعراق والبحرين والسعودية والكويت. وهذا، إضافة إلى مواردها النفطية الضخمة الخاصة، مكن الولايات المتحدة من كسب الحرب العالمية الثانية بعد أن اضطر هتلر الذي حاصرته الولايات المتحدة نفطياً إلى غزو الاتحاد السوفياتي لمحاولة الوصول إلى نفط بحر قزوين وآسيا الوسطى، تماماً كما اضطرت اليابان إلى مهاجمة أمريكا في بيرل هاربر بعد أن قطعت هذه الأخيرة عنها النفط، لمحاولة الحصول على نفط جنوب شرق آسيا.

كان النفط أيضاً في أساس كل التحوّلات الاقتصادية الكبرى التي جرت في الداخل الأمريكي، منذ أن بدأت الولايات المتحدة قبل فترة قصيرة من الحرب العالمية الأولى في الانتقال من طاقة الفحم إلى طاقة الوقود الأحفوري، وفي تطوير السفن الحربية والغواصات والذخائر والدبابات التي تعمل بوقود النفط، وفي بناء المصانع ووسائل النقل العام والخاص ونمط السكن المبعثر في الضواحي وكل وسائل الإنتاج الحديثة. وقد شجّع النفط الرخيص،

الذي بدا في أوائل القرن العشرين أنه غير قابل للنضوب، الولايات المتحدة على تبني أنماط تنظيمات اجتماعية ـ اقتصادية تقوم على الاستهلاك الكثيف للنفط، وبات الأمريكيون يساوون بين السيارة الخاصة التي أطلقتها ثورة النفط الأحفوري وبين الحراك الاجتماعي الشخصي في إطار «الحلم الأمريكي».

وصل إنتاج النفط التقليدي الأمريكي وصل إلى ذروته، كما ألمعنا، العام ١٩٧٠ ثم بدأ مسيرته الانحدارية. وهذا ما دفع الولايات المتحدة إلى العمل على تشديد قبضتها على احتياطيات النفط العالمية وممراته وأسواقه أكثر كثيراً من ذي قبل. والأرجح أن هذه السياسة لن تتغيَّر الآن، مع إنتاج الغاز والنفط الصخري؛ لا بل قد تحتل مسألة النفط العالمي، بشكليه الصخري والتقليدي، أهمية أكبر في الأولويات الأمريكية مع عودة الصراعات الجيوسياسية إلى العلاقات الدولية (راجع الفصل الأول)، خاصة مع روسيا والصين. وهنا يجب ألّا ننسى أن ما يقال عن قرار الرئيس الأمريكي الأسبق ريغان خفض أسعار النفط العالمية، كان أحد الأسباب الرئيسة لانهيار خطط الرئيس السوفياتي غورباتشيف لتحديث اقتصاد الاتحاد السوفياتي ورفع مستوى المعيشة ومن ثم انهيار الاتحاد السوفياتي نفسه، هي مقولة تتضمن على الأرجح قدراً كبيراً من الصحة. وبالتالي، ما نجح في صراعات الأمس الجيوستراتيجية قد ينفع في صدامات اليوم مع روسيا والصين وغيرهما.

خامساً: أين البيئة؟

لكن، ثمة أمر مثير، وخطير، يبرز خلال التطرق إلى مسألة حروب الموارد في العالم، وهو الإغراق والاستغراق في البحث عن الجذور الاستراتيجية لهذه الحروب ومبادئ السياسة الخارجية المتعلقة بها، والمصالح الاقتصادية وقواعد الأمن القومي، وتغييب المسألة البيئية المتحصلة عن هذه الحروب بشكل شبه كامل. وهي إن ظهرت فبشكل عرضي أو كمضاعفات جانبية.

وهذا ينطبق الآن على مسألة الغاز والنفط الصخريين، حيث يجابه كل من يعترض على هذه الصناعة الجديدة المدمرة للبيئة باتهامات بأنه يرفض استقلال الولايات المتحدة في مجال الطاقة، ويعرقل استعادة هذه الأخيرة لعافيتها الاقتصادية ورفاهها الاجتماعي. بيد أن الحقيقة أن «ثورة الشيل» جاءت في وقت قد يكون الأسوأ بالنسبة إلى البيئة والأمن الإيكولوجي. ففي وقت تعمل فيه دول العالم (أو على الأقل تدّعي أنها تعمل) على الحد من كوارث الوقود الأحفوري في مجالَي تغيّر المناخ وتلوث البيئة، يطل الغاز والنفط الصخري برأسه ليضيف إلى هذه الكوارث مصائب أخرى تتعلق بتلويث المياه الجوفية والأجواء، والتسبب بمخاطر زلزالية ليس بمقدور أحد بعد التكهن بمداها. وهذه مخاطر ستكون ضخمة للغاية إذا ما انضمت دول العالم إلى الولايات المتحدة في «نخر» بطن الأرض بمئات آلاف الآبار، التي ستتلاعب على نحو خطر بالتوازنات الجيولوجية التي جهد كوكب الأرض طيلة ملايين السنين لإقامتها ودفعها إلى الاستقرار.

خاتمة

تطل التكنولوجيا البشرية، مجدداً، برأسها لتقدّم الوجه الكالح فيها متمثلاً بـ «ثورة الشيل»، أسوة بوجوهها السلبية الأخرى التي تجسّدت في انفجارات تشيرنوبيل وفوكوشيما النووية وقبلها التفجير الذري لهيروشيما ونكازاكي، وفي الفيروسات القاتلة التي «تهرب» (على ما يقال) من المختبرات العسكرية، وفي الأطعمة المعدّلة جينياً التي تتضمن مخاطر غير محسوبة على الصحة والزراعة في آن، وفي «صناعة» المضادات الحيوية المنفلتة من عقالها. هذا بالطبع إضافة إلى مواصلة إنتاج أكثر أنواع الأسلحة التقليدية فتكاً وتدميراً.

لكن قصة الوجه المكفهرّ للتكنولوجيا، الذي يُغطي تقريباً على الوجه الآخر المُشرق المتمثِّل بالإنجازات العلمية الرائعة في مجالات الفضاء والطب، والإلكترونيات، والنانو ـ تكنولوجيا، لا تكاد تنتهي هنا. ثمة أيضاً فصل آخر لا يقل خطورة أبداً عن استخدامات العلم والتكنولوجيا ضد الطبيعة والحياة: تغيير الطبيعة البشرية نفسها.

الفصل الرابع

الثورة التكنولوجية الثالثة:
الحلم ينقلب إلى كابوس؟

لقد بات واضحاً بشكل مروِّع
أن تكنولوجيتنا تجاوزت كثيراً
إنسانيتنا.

ألبرت أينشتاين

ذهبت أدراج الرياح كل وعود أقطاب النيوليبرالية لإنقاذ البيئة والمناخ والطبيعة من خلال التطويرات التكنولوجية، في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين. العكس كان صحيحاً كما رأينا في الفصل الثالث، حين استُخدمت التكنولوجيا لإنتاج المزيد من الطاقة الملوّثة التي أُطلق عليها اسم «ثورة النفط والغاز الصخريين».

بيد أن الوعود استمرت، لكن هذه المرة ليس في ما يتعلق بتحسين طبيعة كوكب الأرض بل في مجال تغيير طبيعة الإنسان نفسه لجعله أكثر سعادة وذكاء وصحة بما لا يقاس، كما يُقال. كيف؟ عبر عقد زفاف البيولوجيا على التكنولوجيا، وشرائح السيليكون على الخلايا الحيّة، والمادة على الروح لتصبح هذه الأخيرة «روحاً تكنولوجية».

ومن أجل هذا الهدف، تعيّن رفع التكنولوجيا إلى مرتبة القداسة بصفتها قوة تغيير محايدة وهائلة ستقوم باختصار ملايين السنين من التطور الداروينى لدى الإنسان، في الوقت نفسه الذي تُلغي فيه الجوع في العالم من خلال ثورة علمية وجينية لصنع الغذاء في المختبرات، وتحل مشاكل الطاقة عبر الطاقة النووية «النظيفة والآمنة والرخيصة» أو من خلال تقليص أضرار الطاقة الأحفورية. وهي تنشر عبر وسائط الإعلام الاجتماعي وعياً عالمياً جديداً سيأتي بالتفاهم والسلام بين البشر.

أولاً: قصف إعلامي وخداع ساحر

كل هذا غيض من فيض القصف الإعلامي الذي يدوي يومياً في كل أرجاء المعمورة حول الدور السحري و«القُدُسي»[1] للتكنولوجيا. وهو قصف متواصل إلى درجة أنه نادراً ما يخطر في بالنا أن نتساءل عن الأبعاد السياسية والأيديولوجية والاقتصادية الخفية للتكنولوجيا كما تطبق الآن، وعن الأثر الذي تتركه في عملية تسارع العولمة النيوليبرالية وسيطرة الشركات الكبرى على كل مفاصل القرارات المتعلقة بكوكب الأرض.

بيد أن الناقد البارز للتكنولوجيا البروفسور لانغدون وينر (Langdon Winner) يوضح أن كل الأشياء في الواقع لها محتوىً سياسي. وهذا يعني أن أي نوع من التكنولوجيا له عواقب اجتماعية وسياسية وبيئية ملموسة. وهذا ما يجب أن يدفعنا إلى طرح أسئلة من نوع: كيف تغيّر التكنولوجيا حياتنا، ونظرتنا إلى أنفسنا، ومفهومنا عن المجتمع والسياسة والطبيعة؟ ما هي آثارها الحقيقية في صحة البشر وفي البيئة؟ كيف تعيد تنظيم السلطة في المجتمع والعالم، ولمصلحة من؟[2]

نشرت مجلة **بدائل** البيئية دراسات لباحثين بارزين خرجوا فيها بالردود التالية على هذه الأسئلة[3]:

الطريقة التي تُبث فيها المعلومات في ما يتعلق بالتكنولوجيا، تأتي دوماً من قبل الشركات والعلماء الذين وضعوا هذه التكنولوجيا وسوّقوها. فهم المستفيدون من إعطائنا صورة جيدة عنها، كما أن وصفهم المتفائل لها تدعمه مليارات الدولارات من الإعلانات والحملات الموجهة إلى الجمهور الذي لا يبدأ بالتعرُّف إلى آثارها المدمِّرة للإنسان والطبيعة إلا بعد أن يتم تعميمها.

رضوخنا الكامل للتكنولوجيا مرتبط بالفوائد التي تؤمنها لنا. فالسيارة تأخذنا إلى الأماكن التي نريد. والتلفزيون يأتينا بالاسترخاء. والطائرة تختصر مساحات الكوكب. والكمبيوتر ينظِّم المعلومات ويخزنها ويصلنا بالآخرين الذين يفكرون مثلنا. كل تكنولوجيا مفيدة، وإلّا لما كانت أثارت كل هذا الاهتمام لدينا، أو هكذا يقولون لنا.

بيد أن كل ذلك «خداع ساحر». فالتكنولوجيا ليست محايدة، وهي تتضمن في الواقع تحوّلات سياسية كبرى محددة سلفاً، تتعلّق بالقرارات الكبرى حول أنماط عيشنا.

---

(١) «إذا ما كان هناك دين حقيقي في الولايات المتحدة، فهو ذلك الذي يقودنا إلى العبادة والصلاة على مذبح التكنولوجيا. ونحن سواء كنا مسيحيين أو مسلمين أو يهوداً أو ملحدين، نقبل مبادئ هذا الإيمان المشترك وهي أن التكنولوجيا توفِّر الطريق الرئيس لتحسين حياتنا حتى ولو فشلت أحياناً بطريقة كارثية». انظر: Anne Lutz Fernandez and Catherine Lutz, «Why Do We Worship at the Altar of Technology?,» *The Guardian*, 3/8/2010, <http://www.theguardian.com/commentisfree/cifamerica/2010/aug/03/technology-bp-oil-spill>.

(٢) «Langdon Winner, «Do Artifacts Have Politics?»,» Innovation Group: Center for Nanotechnology in Society, <http://innovate.ucsb.edu/463-langdon-winner-do-artifacts-have-politics>.

(٣) **بدائل**، العدد ٤ (خريف ٢٠٠٥).

على سبيل المثال، الشركات الكبرى هي التي قررت أن نعتمد على الطاقة النووية بدل الشمسية، (والآن طاقة النفط الصخري) على رغم الكوارث الكبرى التي تتسبّب فيها الأولى، والتوازن البيئي الكامل الذي توفّره الثانية. وهي اتخذت هذا القرار لأن الطاقة الشمسية يمكن توفيرها من دون الشركات العملاقة، في حين أن الطاقة النووية تعتمد بالكامل على هذه الأخيرة. ثم إن إنتاج الطاقة النووية يحتاج أيضاً إلى حماية عسكرية ضد الإرهاب وضد سرقة المواد الخطرة، وهو يولّد في النهاية نفايات مرعبة يحتاج بعضها إلى التخزين في أماكن محصنة لفترة قد تصل إلى مئتين وخمسين ألف عام. وهي مهمة تطرح العديد من المشاكل التقنية غير المحلولة، تتطلب طوال هذه المدة حضوراً وحماية من الشركات على كل الصعد التقنية والعلمية والعسكرية. الطاقة النووية تتوافق مع مجتمع صناعي منتظم حول ماكينات عسكرية ومالية مركزية، أما الطاقة الشمسية فتناسب غالباً مجتمعات مؤلفة من تجمعات صغيرة تتزود بما تحتاجه من الأسواق المحلية، ولديها أثر طفيف جداً على البيئة.

١ ـ مَثَلٌ جميل

وكما الأمر مع الطاقة النووية، فهو كذلك مع السيارة والكومبيوتر والتلفزيون وبقية الأدوات التكنولوجية التي تستخدمها مؤسسات العولمة لممارسة «سحرها» على العالم. بالنسبة إلى السيارة، يطرح العلماء الفرنسيون المَثَل الجميل التالي: ماذا كان سيحصل لو أن تحليلاً منهجياً عُرِض على الجمهور عشية زمن اختراع السيارة؟ فعلى الرغم من الآثار السلبية المعروفة للسيارة، قدّمها مروِّجوها كهنري فورد وغيره، بأفضل الصفات والمميزات: وسيلة نقل خاصة، سريعة ونظيفة، من شأنها أن تفتح عهداً جديداً «ثورياً» من الحرية الفردية والديمقراطية. لكن، ماذا كان سيحدث لو عرفنا أن السيارة ستؤدي إلى بناء المدن والقرى الإسمنتية الجافة التي لا روح فيها ولا مُتنفس؟ وأنها ستسهم في التلوّث المناخي المُسبب للسرطان ومروحة واسعة أخرى من الأمراض، وتبديد الموارد الطبيعية للكوكب، والاحترار المناخي، وأنها ستخلق مشاكل ضخمة من جراء تراكم النفايات الصلبة والضجيج؟

ماذا كان سيحدث أيضاً لو أُعلن أن حفنة قليلة من الشركات ستحتكر الإنتاج الضخم للسيارات، وستحوز بحكم ذلك سلطات اقتصادية وسياسية جبارة، وأن هذه الشركات تتآمر لإلغاء أو خفض استعمال وسائل النقل العام وخصوصاً القطارات؟ وماذا لو عرفنا أن مئات آلاف الأشخاص سيموتون أو يُجرحون سنوياً جراء حوادث السير، أو أن السيارة سوف ترتهن بالحصول الملحّ على النفط الذي من أجله ستندلع الحروب الدامية؟

لو علم الناس كل ذلك، هل كانوا قبلوا بتطوير وسيلة النقل هذه، أم طالبوا بوسائل نقل أكثر ملاءمة للحياة البيئية، عبر تعزيز وسائل النقل العامة وتقليص كثافة السيارات على الطرقات؟ لو أن

نقاشاً شعبياً عاماً كان قد حصل بالفعل، لكانت التطورات المرتقبة من مدن الإسمنت والحروب واستنفاد الموارد الطبيعية، ستثير بلا شك القلق وربما الانتفاضات الشعبية[٤].

ومن السيارة إلى الفضائيات التلفزيونية الذي كان يُفترض أن وعياً عالمياً ـ إنسانياً جديداً يتجاوز الانقسامات القَبَلِية والعصبيات القومية والدينية سيولد في كنفها. لكن ما حدث أن الفضائيات روّجت في الواقع لفرد مستهلك معزول عن الطبيعة والاجتماع البشري الصحي، ومُعتقل في إسار السلع غير الضرورية في معظمها التي تخلقها الشركات الكبرى، ثم تقنع الناس بعد ذلك أنها جزء من حاجتهم وهويتهم وشخصيتهم. هذا بالطبع من دون نسيان ترويج الآلة التلفزيونية العملاقة لثقافة العنف والجنس المشوّه والأطعمة غير الصحية والموسيقى الصاخبة.

٢ ـ ثورة معلوماتية لمن؟

علاوة على ذلك، يتم الترويج على نطاق واسع أن الثورة المعلوماتية في الإنترنت، ستؤدي في النهاية إلى ولادة «التكنولوجيا الروحانية» التي ستعطي الديمقراطية سلطاناً قل نظيره. بيد أن كل ذلك يبدو الآن أمراً مبالغاً فيه، لأن من يمسك بكل تلابيب الشبكة المعلوماتية ومفاتيحها وصنابيرها هي المؤسسات المالية والتكنولوجية العملاقة التي هي، **أولاً**، المستفيد الأكبر من الثورة المعلوماتية، **وثانياً** لأنها تستخدمها للسيطرة على أدمغة البشر وإعادة إنتاجها في القوالب الاستهلاكية والأيديولوجية المطلوبة. وهكذا، فإن المعلوماتية في الواقع هي الأداة الأكثر فعالية في تسريع عملية تمركز السلطة في يد حفنة من الشركات العملاقة، التي لا تقوم بعملها على مستوى تبادل المعلومات فقط، بل هي تحصل أيضاً على النتائج الملموسة التي تُترجم في القضاء على الغابات، وإنشاء البنى التحتية الضخمة، وتغيير تموضع المجتمعات الريفية والفلاحية ومعها ملايين الأشخاص، وشل عمل الحكومات والدول التي تفقد دورها في تحقيق الرفاه والتوازنات الاجتماعية، فتصبح مجرد أداة أمنية لخدمة مصالح قوى العولمة النيوليبرالية.

صحيح أن ثورة تكنولوجيا المعلومات توفّر للفرد والجماعات البشرية فرصاً ثمينة وتاريخية للاشتراك معاً في بناء عالم جديد وحضارة جديدة (كما سنرى في الفصول التالية)، إلا أن الصحيح أيضاً أن مواجهة سيطرة رأس المال على مفاتيح هذه التكنولوجيا، هي معركة يجب خوضها وربحها. وهي معركة ضخمة بالفعل. إذ إن لكل تكنولوجيا، في تراكيبها الراهنة، دوراً محدداً تؤديه: فالفضائيات تمرر مخيلة الرؤية العالمية الجديدة للشركات العابرة للقوميات؛ والمعلوماتية هي الجهاز العصبي الذي يسهّل تركيب نظام امبراطورية العولمة؛ وتسمح الاتصالات بالتحويل الفوري لرؤوس الأموال والمعلومات عن «مليارات المستهلكين؛ أما الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الفضائية فتستخدم حالياً لتوسيع السوق العالمية إلى مناطق جديدة عذراء هي الملاذ الأخير للكائنات

(٤) المصدر نفسه.

الحية. هذه التكنولوجيات وغيرها تلم شملها الآن لخلق «عالم تقني» منافٍ للديمقراطية والتعددية الحقيقية[٥].

ثانياً: تغيير طبيعة الإنسان

«بعد ٥٠ سنة، سيتم تطوير علم جديد يُدعى «علم الأعصاب التموجي» (Brain Waves Neuroscience)، يستطيع ترجمة المعلومات في الأجهزة العصبية إلى إشارات كهرو - مغناطيسية. وهذا، ببساطة، سيكون الحدث الذي سيفتح الأبواب على مصراعيها أمام نمط جديد كلياً من الاتصالات تدعى «راديو تيليباثي» (Radio Telepaty)، يستطيع بموجبه مواطن في القاهرة الاتصال بصديقه في نيويورك من دون أن ينبس ببنت شفة ومن دون أن يستخدم جهاز الهاتف. كل شيء سيتم مباشرة من الدماغ إلى الدماغ، من خلال رقاقة كومبيوتر متناهية الصغر تلصق في مكان ما من الجسم. وهذا بالطبع سيغير ليس فقط حياة الإنسان بل ربما طبيعته أيضاً».

هذا غيض من فيض وعود عالم الفيزياء الأمريكي فريمان دايسون، في كتابه الشهير **عوالم متخّيلة**[٦]. وهو ينطلق بالطبع من الإيمان العميق بأن التكنولوجيا ستكون قادرة على تحرير الإنسان في كل المجالات، وبأن العلم يمكن أن يكون أخلاقياً ومتصالحاً مع مفهوم العدالة الاجتماعية. مرة أخرى، نحن أمام الترويج لسحر التكنولوجيا «المحايدة»، لكن هذه المرة في مجال قلب طبيعة الإنسان نفسه رأساً على عقب.

لكن، هل هذه الورود التفاؤلية في محلها؟ حسناً، التكنولوجيا تقفز بالفعل قفزات نوعية هائلة هذه الأيام إلى الأمام، وفي كل المجالات تقريباً. فعلى صعيد «الفكر والمادة» (أو الراديو تيليباثي)، لم تعد القدرة على جعل الأفكار البشرية قادرة على تحريك الأشياء المادية أو الميكانيكية مجرد حلم مستحيل التحقق إلا في عالم الأساطير، أو المعجزات، أو الخيال العلمي. فقد تمكّن فريق من العلماء الأمريكيين بقيادة ميغيل نيقوليليس، من جعل القرود قادرة على تحريك الأشياء بأفكارها، عبر زرع رقائق معدنية أرق من الشعرة في أدمغتها ووصلها بجهاز كومبيوتر وبذراع ميكانيكي.

---

(٥) في مقابلة أُجرِيَت مع آل غور النائب الأسبق للرئيس الأمريكي عام ٢٠٠٤، قال إن «شركات التكنولوجيا خطفت الديمقراطية». انظر: *Pando Daily*, 10/06/2004.

وفي كتابه يقول روبرت ماكينزي إن «استعمار الإنترنت» أسفر عن انهيار الصحافة الموثوقة وجعل الإنترنت جهازاً لا يُقارع لخدمة تجسّس الشركات والحكومات على المواطنين. انظر: Robert W. McChesney, *Digital Disconnect: How Capitalism is Turning the Internet against Democracy* (New York: The New Press, 2013).

وفي دراسته عام ٢٠٠٢، شدّد بنجامين باربر على أن التكنولوجيا التي دعمت انطلاقة العولمة تقوّض الديمقراطية بدل تعزيزها. انظر: Benjamin R. Barber, The Ambiguous Effects of Digital Technology on Democracy in a Globalizing World,» Heinrich Böll Stiftung (2002), <http://www.wissensgesellschaft.org/themen/demokratie/democratic.html>.

(٦) Freeman Dyson, *Imagined Worlds* (New York: Harvard University Press, 1946).

في البداية، تم تدريب القرود على تحريك الذراع بواسطة مقبض يدوي، فيما كان الكومبيوتر يسجّل أوامر الدماغ المترافقة مع تحريك الذراع. لكن بعد فترة، عمد العلماء إلى فصل المقبض اليدوي، وحينها حدثت المفاجأة: القرود واصلت تحريك الذراع الميكانيكي ولكن بواسطة دماغها وحده هذه المرة، فيما الكومبيوتر لا يقوم إلا بدور المترجم للأفكار. وهذه كانت المرة الأولى التي يتم فيها التأكيد أن الإشارات الكهربائية الرقيقة المنطلقة من الدماغ، تستطيع تحريك أجهزة بسيطة في العالم المادي والتأثير فيها.

وتقول كارن مايكسون (Karen Myxon)، أستاذة هندسة الطب البيولوجي في جامعة دركسيل في فيلادلفيا: «قدرة بعض البشر على التواصل مع شاشة فيديو تبدو أمراً مهماً. لكنها لا تقارن بما فعلناه نحن حين تمكّنا من جعل الأفكار تؤثر في العالم المادي. هذا إنجاز علمي كبير». وهي على حق بالطبع، خاصة حين نعلم ما يمكن أن تفعله هذه التكنولوجيا الجديدة في مجال الطب العصبي.

فبعد حين، سيكون في إمكان البشر المشلولين بسبب إصابات بالغة في الجهاز العصبي، تشغيل آلات أو أدوات بواسطة أفكارهم، كما يفعل الناس العاديون بأيديهم. لا بل يمكن لهذه التكنولوجيا أيضاً تمكين المشلولين من تحريك أيديهم أو أرجلهم مجدداً، عبر بث توجيهات الدماغ ليس إلى الآلات بل إلى العضلات مباشرة. ويُتوقع ألا يمر وقت طويل قبل أن يتمكن العلماء من تطوير عملية زرع الرقاقات في الدماغ، بحيث يمكن بث الأوامر العقلية إلى الآلات على نحو لاسلكي.

بالطبع، الاختراقات التكنولوجية لم تتوقف عند هذه الحدود. ففي الفضاء، جاء اكتشاف آثار الماء على القمر[٧] وفي بعض الكواكب الأخرى، إضافة إلى تصوير ما يمكن أن يكون غيوماً كونية هائلة من الماء في الفضاء، ليرجّح كفة النظريات التي تقول إن القوة الخلاقة (وفق الفيلسوف بيرغسون) أو الإرادة (وفق شوينهور) يريدان للإنسان (والحياة) أن يتمددا في كل الكون. وعلى الأرض، كان إعلان العلماء أنهم نجحوا في إنماء خلايا بشرية جذعية في المختبر من أنسجة جنينية، خطوة عملاقة أخرى نحو علاج أمراض مستعصية مثل السكري والشلل والأيدز وأمراض القلب وغيرها. ومثل هذا الفتح العلمي، قد يجعل صناعات البيوتكنولوجيا درة التاج الاقتصادي والاجتماعي للقرن الحادي والعشرين.

وماذا أيضا؟ ثمة الكثير الكثير في الجعبة التكنولوجية. إذ إن التكنولوجيا لا تتقدم سنة فسنة، بل يوماً بيوم وأحياناً ساعة بساعة. وفي كل تقدم تخطوه التكنولوجيا نحو التطويرات الاقتصادية الجديدة، تتراجع مواقع القوة الكلاسيكية (أي السياسة) بصفتها المدخل الأساسي للثروات والسلطة

---

(٧) في ٨ آب/أغسطس ٢٠١٣ أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) أن الباحثين عثروا على دلائل تشير إلى وجود ماء داخل حبيبات معدنية جاءت من مصدر غير معروف من أعماق القمر. انظر: «NASA-Funded Scientists Detect Water on Moon's Surface that Hints at Water Below,» Jet Propulsion Laboratory (28 August 2013), <http://www.jpl.nasa.gov/news/news.php?release=2013-262>.

(والطبع للصراعات والحروب) كما كانت على مدار التاريخ. فالمعرفة تصبح شيئاً فشيئاً هي القوة. والتكنولوجيا تصبح أكثر فأكثر هي المحرِّك الرئيس للتاريخ البشري.

... ومخاطر

لكن، وبعد قول كل شيء عن «معجزات» التكنولوجيا الحالية والمقبلة، تبرز أمامنا سريعاً المخاطر المترافقة مع هذه الإنجازات على الصعد الاقتصادية الاجتماعية، والسياسية، والوجودية ـ الأخلاقية. وهي مخاطر ناجمة في الدرجة الأولى عن طبيعة القوى الراهنة (الرأسمالية) التي توجّه التطويرات التكنولوجية نحو مصالحها الخاصة والضيقة.

فعلى الصعيد الأول (الاقتصادي ـ الاجتماعي)، تتساوق وعود صناعات البيو ـ تكنولوجيا والهندسة الجينية بالقضاء على الفقر، مع الوعيد برَمْي مئات ملايين الفلاحين في شتى أنحاء العالم إلى أشداق الفقر والبطالة، إذ إن هذا العلم، الذي بات يعرّف بأنه «أي تقنية تستخدم المواد الحية لتعديل المنتوجات النباتية والحيوانية»، بدأ ينتج داخل المختبرات (In Vitro) العديد من السلع الزراعية التي اعتادت البشرية اشتقاقها من الأرض طيلة خمسة آلاف عام. على سبيل المثال، تحل الآن مادة «الأيسوكلوكوز» الكيميائية مكان قصب السكر الذي يعتاش من زراعته ملايين الفلاحين في الدول النامية. كما بات بإمكان علماء الكيمياء إنتاج الفانيليا في المختبرات، الأمر الذي قد يحيل كل شعب مدغشقر إلى التقاعد المبكر. إضافة، تصدير زيت جوز الهند، الذي يوفّر معيشة ربع سكان الفيليبين، مهدد ببديل آخر هو حبوب الصويا التي تم تطويرها بالهندسة الجينية. أما الدول النامية التي تعتمد على تصدير سلعة واحدة مثل الكاكاو أو السكر، فعليها أن تبدأ من الآن بتغيير «مهنتها»، لأن المستهلكين الأجانب سيحصلون على هذه السلعة قريباً وبأسعار أرخص كثيراً من المختبرات المجاورة لأماكن إقامتهم.

وكذا الأمر بالنسبة إلى منتوجات زراعية كالمطاط. فعمّا قريب سيفقد ١٦ مليون مزارع في ماليزيا وإندونيسيا عملهم، لأن علماء البيو ـ تكنولوجيا أوشكوا على تطوير مطاط اصطناعي أفضل جودة من الطبيعي. لا بل يجري الحديث الآن عن قرب التوصل إلى إنتاج اللحوم والأسماك في المختبرات، بكل ما سيعنيه ذلك من ثورة هائلة في نمط عيش البشر[٨]. بيد أن الفلاحين «الكلاسيكيين» لن يكونوا الأضاحي الوحيدة على مذبح الثورة التكنولوجية الجديدة. هناك أيضاً العمال «الكلاسيكيون» من ذوي الياقات الزرق الذين تتهدد وظائفهم الآن ليس فقط على يد عمال

---

(٨) Paul Kennedy, *Preparing for the Twenty-First Century* (New York: Vintage Books, 1993), pp. 79-80.

يتحدّث بول كينيدي هنا عن ثورتين للبيوتكنولوجيا لا ثورة واحدة: **الأولى** «الحقول» حيث تستخدم الهندسة الجينية لتعديل وتطوير الحبوب وزيادة إنتاج المواشي، **والثانية** في المختبرات (In Vitro) حيث يجري العمل على تغيير مفهوم الزراعة كما عرفها البشر منذ ١٠ آلاف سنة ونقلها من الحقل إلى المختبرات. يقول: «الجنّي خرج من أسر الزجاجة وبدأ يؤثر على الحياة البشرية في كل المجالات، لكن ما ليس واضحاً هو ما إذا كان المجتمع البشري قادراً على مواجهة المضاعفات الاقتصادية والاجتماعية الهائلة المتمثلة بالانتقال إلى الزراعة البيوتكنولوجية. الدلائل الراهنة لا توحي بذلك» (ص ٨١).

الياقات البيض النشطين في مجالي الكومبيوتر والاتصالات، بل أيضاً على يد عمال غير بشريين: «الروبوتس»، أو البشر الآليون.

شيئاً فشيئاً، بدأ «الروبوتس» بالحلول مكان العمال الكلاسيكيين في العديد من مجالات الإنتاج الصناعي، وسط تصفيق حار من الدول الصناعية الغنية والشركات الكبرى. ولا عجب. فالبشر الآليون لا يحتاجون إلى أجهزة تكييف هواء، ويستطيعون العمل في الظلام فيوفرون الطاقة. لا يتعبون ولا يشتكون ولا يطالبون برفع رواتبهم. وإلى ذلك، فهم يساهمون في إدخال ليونة أكبر على الإنتاج، لأنهم مبرمجون على القيام بمختلف المهام. وبالطبع، ليس الأمر في حاجة إلى كبير خيال لمعرفة ماذا سيحل بمئات ملايين العمال في العالم، حين تستكمل ثورة «الروبطة» اندفاعتها الراهنة. فمصير العمال هنا مع هذا النوع من التكنولوجيا، لن يكون أفضل حالاً من مصير الفلاحين مع البيو ـ تكنولوجيا[٩].

هذه التمزقات الاجتماعية الزاحفة بدأت تثير، كما هو متوقع، ممانعات قوية نجحت، خاصة في أوروبا، في عكس تفاؤليات المستقبل التكنولوجي إلى تشاؤميات عبر طرح السؤال: هل الثورة في مجال البيوتكنولوجيا الزراعية والهندسة الجينية مفيدة للإنسان والبيئة أم تشكل خطراً عليهما؟

أمريكا، الحاضن الأول للشركات البيوتكنولوجية، سارعت إلى الإجابة: لا مخاطر علمية «واضحة» بعد من هذه التكنولوجيا. والدليل أنه رغم مرور عقد كامل على إنزال الأطعمة المعدّلة جينياً إلى الأسواق البشرية والنباتية والحيوانية، لم تظهر بعد أي مضاعفات جانبية ذات شأن. لكن أوروبا، المقاوم الأول للهندسة الجينية، سارعت بدورها إلى الرد على هذا الرد: لا أدلة بعد على أن هذه الأطعمة لا تشكِّل خطراً على الإنسان والبيئة. وبالتالي، لا مناص من التريث قبل السماح باستهلاكها.

القوى التي تقف في أمريكا إلى جانب تكنولوجيا الطعام المعدَّلة جينياً معروفة. إنها الشركات متعددة الجنسيات المموّلة للاستثمارات الضخمة في هذا الحقل، والتي تشن حرباً حقيقية على كل من يقف في طريقها. أما القوى التي تناهضها في أوروبا، فهي مزيج من الحركات البيئية والسياسية والعلمية، التي تتبنى شعار أحزاب الخضر المُسمى «المبدأ الاحترازي» الداعي إلى تجنّب التكنولوجيات الجديدة، طالما أنها لا تزال تفرض مخاطر نظرية.

خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، حوّل الطرفان القارة الأفريقية التي تضم ربع السكان الجائعين في العالم (أكثر من ٨٠٠ مليون نسمة) إلى مسرح لصراعاتهما.

فالأمريكيون قالوا إن البيوتكنولوجيا هي الآن الأمل الوحيد أمام القارة السمراء للقضاء على الجوع والمجاعة. لا بل ذهب الرئيس الأمريكي بوش الابن، الذي يدعم بالطبع بقوة الشركات، إلى أبعد من ذلك بكثير حين ألمح في العام ٢٠٠٣ إلى أن الأوروبيين يعرقلون المساعي لمواجهة

---

(٩) Kennedy, Ibid., chap. 5: «Robotics, Automation, and a New Industrial Revolution,» p. 82.

الجوع. قال: «من أجل قارة تتهددها المجاعة، أحث الحكومات الأوروبية على وقف معارضتها للبيوتكنولوجيا. يجب علينا أن نشجّع انتشار البيوتكنولوجيا الآمنة والفعّالة لكسب المعركة ضد الجوع العالمي». بيد أن الأوروبيين ردوا باتهام الأمريكيين بالرياء والديماغوجية. واتهموا الشركات الأمريكية بالمبالغة عن قصد في تضخيم دور التكنولوجيا في حل مشاكل أفريقيا. وتشّدد هنا مسؤولة البيئة في الاتحاد الأوروبي السويدية مارغوت إليزابيث ولستروم (Margot Elisabeth Wallström) على القول: «إنهم يحاولون الكذب على الناس لإجبارهم على قبول هذه التكنولوجيا. لكن، رغم كل الحملات البلاغية والإعلامية التي تشنها الشركات الأمريكية حول مساعدة أفريقيا، إلا أن مبلغاً زهيداً جداً من أموال البيوتكنولوجيا ذهبت إلى الأبحاث المتعلقة بالمحاصيل الرئيسة في هذه القارة، مثل الموز مثلاً، التي يعتاش منه ملايين الأفارقة».

من سينتصر في هذا السجال؟

إذا ما كانت موازين القوى الراهنة هي المقياس، فالفوز سيكون من نصيب الشركات العملاقة. وهذا لا يجب ألّا يكون مفاجئاً. فالعصر هو عصر النيوليبرالية التي لا تعترف بأي حدود صحية ولا تقف أمام أي قيود أخلاقية ـ اجتماعية، وهي تمتلك (حتى الآن) كل القوة والموارد لفرض أجندتها على شعوب العالم.

ثالثاً: احتضار السياسة والديمقراطية

هذا على صعيد تأثيرات ثورة التكنولوجيا على الجبهة الاقتصادية ـ الاجتماعية. ماذا الآن عن الجبهة السياسية؟ هنا المضاعفات السلبية تبدو أكثر سطوعاً بما لا يقاس. فالسياسة لا تتأثر فقط، كما المزارعون والصناعيون، بهذه الانقلابات التكنولوجية، بل هي ربما «تحتضر» بسببها.

لقد خسرت السياسة السباق مع التكنولوجيا والاقتصاد، ولم يعد أمامها الآن سوى محاولة التأقلم مع السيد التكنولوجي الجديد للعالم، عبر محاولة تطوير ما يُسمى: «التكنو ـ سياسة». وهذا رأي يوافق عليه الفيلسوف الفرنسي جاك أتالي، المستشار الخاص للرئيس الراحل ميتران، الذي يعتبر أن الخطر الرئيسي في عالم القرن الحادي والعشرين، «سينبثق من التناقض بين التكنولوجيا واقتصاد السوق، وبين السياسة والديمقراطية»[١٠].

والحال أنه يبدو واضحاً الآن في أمريكا والعالم، أن التكنولوجيا والعولمة أكثر دينامية وسطوة بما لا يقاس من الديمقراطية، لأن ثمة قوى هائلة تدعمهما: فالسياسيون، على سبيل المثال،

---

(١٠) جاك أتالي، **آفاق المستقبل**، ترجمة محمد زكريا إسماعيل (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١). عنوان الكتاب بالفرنسية: Jacques Attali, *Lignes d'horizon* (Paris: Fayard, 1990).

يقول أتالي (ص ٩): «إن السياسة لن يكون لها أي دور فعّال في القرن الحادي والعشرين، لأن عالم المال يسيطر على كلّ شيء. وما عرف تاريخ الإنسانية عهداً سيطر فيه المال على كلّ شيء مثل عصرنا هذا. وبالتالي، وضع مشروع سياسي ـ اجتماعي (أي ديمقراطي) لأي بلد سيكون مطلباً عسير المنال».

يحتاجون إلى جيوب الرأسماليين لتمويل حملاتهم الانتخابية، والفساد يزداد انتشاراً، والاقتصاد الإجرامي (أي اقتصاد المافيات) يتوسّع بشكل انفجاري منذ العام ١٩٨٩، ودور جماعات الضغط الإثنية يشهد صعوداً هائلاً. وهذه كلها مؤشرات على اضمحلال السياسة والأخلاقيات الديمقراطية.

إن مضاعفات هذا التطور ستكون عميقة: فالأقليات المالية القوية التي تسعى للإفادة الكاملة من اقتصاد السوق، تسعى دوماً للسيطرة التامة على الموارد والسلطات، وهي تعتبر القرارات الديمقراطية الجماعية للأغلبيات الفقيرة «أعباء لا تطاق» على حرية حركتها وأرباحها. ومع خسارة البرلمانات، وكذا السلطة القضائية، للكثير من سلطاتها لمصلحة المصارف والشركات الكبرى، ستصبح نخب السوق ـ التكنولوجيا أقوى بكثير من النخب الديمقراطية، وستبرز طبقة جديدة من «البدو التكنولوجيين»، وسيسقط الإعلام التقليدي والجديد في يد الشركات متعددة الجنسيات التي ستوجّه أفكار الناس وأذواقهم نحو قيم معادية للسياسة، وللمبادئ الديمقراطية المشتقة من هذه السياسة. وهكذا، ستذوي السياسة وتندثر، وستحل مكانها ميكانيزمات السوق والفساد، وستهيمن دكتاتورية السوق، من دون أن توازنها مؤسسات سياسية قوية[(١١)].

بيد أن هذا ليس كل شيء بالنسبة إلى المخاطر على الديمقراطية. هناك أيضاً المحاذير المتعلقة بالحريات الشخصية. فكل الأماكن العامة باتت عملياً قيد الرقابة هذه الأيام من جانب كاميرات أجهزة الأمن ووكالات التجسس. وكل تحركات المواطنين وتنقلاتهم مراقبة من قبل الأقمار الاصطناعية التي ترصد سياراتهم وهواتفهم. اعتقال المواطنين وسجنهم بدون محاكمة، يمكن أن يحدثا في أي وقت لمجرد وشاية من الجيران. التعذيب النفسي بات الوسيلة الفضلى للدولة، وبطاقات الهوية الإلكترونية أصبحت بمنزلة إضبارة اتهام لكل مواطن، لأنها تتضمن كل المعلومات والأسرار عن حياته الخاصة، وعائلته، ومعتقداته، إضافة إلى سجله الطبي والعدلي[(١٢)].

كل هذا ليس وصفاً لمزرعة حيوان جورج أورويل الدكتاتورية، ولا لكوريا الشمالية أو لروسيا ستالين أو لكمبوديا بول بوت. إنه صورة عما يجري الآن وتحت أعيننا مباشرة في أول دولة برلمانية دستورية في العصور الحديثة (بريطانيا)، وأيضاً في أول الديمقراطيات الليبرالية في التاريخ (الولايات المتحدة). كتب سيمون جينكينز[(١٣)]: «الديمقراطيات الغربية تخسر الحريات الشخصية التي دفعت شعوبها ثمنها نقداً من دمائها، والتي تتطلب الأمر قروناً طويلة لتحقيقها».

---

(١١) Benjamin R. Barber, *Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy* (New York: Ballantine Books, 1995), Introduction.

(١٢) في العام ٢٠١٣، كشف إدوارد سنودن عن المدى الهائل الذي تتجسّس فيه وكالة الأمن القومي الأمريكية (National Security Agency) على المواطنين في أمريكا وكلّ دول العالم. فقد تبيّن أن هذه الوكالة، التي أسسها الرئيس هاري ترومان عام ١٩٥٢ والتي تحوّلت فيما بعد إلى أضخم وكالة أمنية في الولايات المتحدة والعالم، تلتقط الاتصالات التي يقوم بها أكثر من مليار شخص في كل أنحاء العالم، وتتابع تحركات مئات ملايين الأشخاص عبر هواتفهم الجوالة، وتراقب كلّ شاردة وواردة على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت). وفي الداخل الأمريكي تحتفظ الوكالة بكلّ السجلّات الهاتفية للمواطنين الأمريكيين، هذا علاوة على مراقبتها لهواتف كلّ قادة العالم، خاصة مستشارة ألمانيا ميركل.

(١٣) Simon Jenkins, «How the Freedom Show is Losing the Plot,» *The Guardian*, 20/9/2007.

لماذا هذا الانقلاب المخيف؟ التبرير جاهز فوراً: حماية المواطنين الغربيين أنفسهم من الإرهاب والإرهابيين، والتطرف الديني (الإسلامي على وجه الخصوص) والمتطرفين. الإرهاب موجود بالطبع، وكذلك الحاجة إلى الوقاية منه. لكن كيف؟ ليس حتماً بالأسلوب الذي تتبعه الدول الغربية: تحويل الإرهاب من مشكلة بوليسية جرمية إلى حرب عسكرية عالمية سلاحها الأول تخويف المواطنين من عدو خفي يلاحقهم في كل مكان حتى في أسِرَّتهم. المسألة في العديد من مناحيها اختراع باختراع. والهدف كله تأسيس دكتاتوريات خفية في الدول الديمقراطية، تكون تمهيداً لتأسيس ما هو أهم بكثير: نظام عالمي سلطوي يتحَكم بمضائر البشر، بمعرفتهم ومن دون معرفتهم، من المهد إلى اللحد.

١ ـ معطيات مخيفة

لكي لا يبقى حديثنا نظرياً أو افتراضياً، نسوق المعطيات المخيفة الآتية:

أ ـ ثمة برامج عدة في الولايات المتحدة وبريطانيا يطلق عليه أسماء MK-ULTRA[١٤] وMKDEL، وBlue Bird وMonarsh تديرها كلها وكالات الاستخبارات الأمريكية والبريطانية والهيئات الملحقة بها. هذه البرامج، التي وضعت في وقت مبكر من الخمسينيات بإشراف عالم النفس السكوتلندي الدكتور دونالد أوين كاميرون (Donald Ewen Cameron)، تستهدف السيطرة على عقول البشر، وإجراء اختبارات سيكولوجية ـ بيولوجية في مختبرات سرية تحت الأرض عبر استخدام عقاقير (LSD) وتقنيات التلاعب بالعقول يطلق عليها اسم «السياقة السيكولوجية» و«تفكيك الشخصية».

ب ـ تجري حالياً أبحاث في مختبرات سرية أيضاً على إنتاج رقاقة إلكترونية دقيقة توضع في رأس الإنسان أو يديه، ويمكن بواسطتها التحكم بسلوكياته كما الإنسان الآلي. ويقال إن هذه التقنية التي بلغت مرحلة النضج، تتضمن بث إشارات راديو إلى أجزاء معينة من دماغ الإنسان، تدفع المرء إلى تنفيذ توجهات إجرامية وهو يعتقد أن هذه السلوكيات من بنات أفكاره.

ج ـ وهناك التنويم المغنطيسي الجماعي، الذي يعتمد على قصف الوعي الكامن والوعي الباطن بمعلومات متكررة عبر طريقتين: **الأولى** علنية، وتتمثل في التغطيات الموجّهة المعتمدة على التخويف والترهيب وغسل الأدمغة التي تبثها أجهزة الإعلام الكبرى التابعة للنخبة العالمية الحاكمة. **والثانية** سرية، وتتضمن بث رسائل خفية في الأغاني والموسيقى والأفلام والإعلانات لا يستطيع البشر سماعها مباشرة، لكنها قادرة على التسرُّب إلى وعيهم الباطن.

---

(١٤) في أوائل السبعينيات، قالت المحكمة الدستورية العليا الأمريكية إن برنامج (MK-ULTRA) «يتعلّق بالأبحاث والتطويرات الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية التي يمكن استخدامها في عمليات السيطرة على السلوك البشري. وقد تكوّن البرنامج من ١٤٩ برنامجاً فرعياً تعاقدت الوكالة (السي. أي.آي) مع مختلف الجامعات ومراكز الأبحاث ومؤسسات مشابهة لها للقيام بها. وقد شاركت فيها ٨٠ مؤسسة و١٨٥ باحثاً خاصاً من دون أن يعرف العديد منها أن التمويل يأتي من السي. أي. آي.».

هذه التقنيات، إضافة إلى غيرها الكثير، تستهدف جميعاً أمراً واحداً: تحويل المواطنين المعاصرين إلى بشر ذوي بعد واحد، وربطهم جميعاً في النهاية بجهاز كومبيوتر عملاق واحد قادر على التحكّم بكل سلوكياتهم وتوجهاتهم، وحتى رغباتهم. إنه « الأخ الأكبر ـ الوحش» الذي تنبأ جورج أورويل بظهوره وسيطرته على كل الجنس البشري عبر التكنولوجيا والعلم. وهذا الوحش بدأ على ما يبدو يلتهم أولى وجباته: أبناءه وبناته في أمريكا وبريطانيا نفسيهما. والبقية على الطريق.

٢ ـ «ما بعد الإنسان»

نأتي الآن إلى النقطة الأخيرة من تأثيرات التكنولوجيا: المسألة الوجودية البشرية. السؤال هنا لا يقل إثارة (وإخافة) عن الصعيدين الاقتصادي ـ الاجتماعي والسياسي. إذ ما هو الميزان؟ ليس شيئاً آخر سوى احتمال تغيير الطبيعة البشرية نفسها عن طريقي الهندسة الجينية وتقنيات الكومبيوتر. إنه كابوس فرانكنشتاين وقد بدأ يقترب من التحقق على أرض الواقع.

قد يعتقد البعض هنا أن هذا الخطر افتراضي أو هو، في أسوأ الأحوال، في رحم مستقبل بعيد. لكن الأمر ليس كذلك. فثمة العديد من الأصوات التي بدأت تلعلع في الولايات المتحدة وغيرها، مطالبة بالتدخل المباشر لـ «تسريع» تطور الإنسان إلى «ما بعد الإنسان»، أو حتى إلى مخلوق جديد لا علاقة له البتة بالبشر.

هذه الأصوات تنتظم الآن في حركة. وهذه الحركة اسمها «ترانس هيومان» (Transhuman)، أي «العابر للإنسان» أو «ما بعد الإنسان». وهي تستقطب مروحة من العلماء في شتى المجالات وشخصيات بارزة سياسية واقتصادية وقطاعات من الشباب المتحمسين لـ «تغيير الوعي البشري». وقد وضعت الحركة برامج مرحلية تنفيذية لتحقيق أهدافها، مركزة تركيزاً شديداً على العقل، والتخطيط العلمي، والخطوات البراغماتية المدروسة.

يلخّص أندرز ساندبرغ، أحد أبرز مفكري الحركة، أفكارها الرئيسة بالآتي[١٥]:

ـ طيلة أزمان سحيقة، كان الانتخاب الطبيعي البطيء هو المسؤول عن تطور أجناس المخلوقات. لكن آن الأوان كي يمسك الإنسان بزمام التطور بنفسه، وأن يتحرر من التغير البيولوجي التدريجي عبر (ما تسميه الحركة) «التطور الذاتي التلقائي».

كيف؟

ـ من خلال استخدام التكنولوجيا نفسها التي مكنتنا من التغلب على الأمراض والأوبئة، وزيادة معدلات الحياة، والتخلّص من الآلام النفسية. هذه التكنولوجيا تتطور الآن بسرعة، وبدأت تمكنّنا من تغيير بيئتنا وزيادة وعينا بالقدرة على تغيير مصائرنا البيولوجية.

(١٥) Anders Sandberg, «Humanism as Core Value of Transhumanism,» Tecnoumanisti, <http://www.tecnoumanisti.org/sandberg.htm>.

ـ نجحنا في السابق في تحرير أنفسنا من بعض القيود الأساسية المفروضة على كل الأجناس الحيوانية على الأرض. لكننا بدأنا ندرك حالياً كيف يمكننا تحرير أنفسنا حتى من بعض «القيود البشرية». سيكون في وسعنا قريباً تطوير أشكال جديدة من البشرية، عبر الهندسة الجينية، وعبر علم البيونيكس الذي يزيل الفوراق بين الإنسان والآلة، وعبر مضاعفة الذكاء ودمج الإنسان والكومبيوتر وتطوير العقاقير التي تؤثر في الذاكرة والتركيز.

ـ كل هذا سيعني بداية النهاية للجنس البشري الحالي (تماماً كما انتهت من قبله أجناس أخرى عديدة مثل «الإنسان المنتصب» وغيره)، وولادة عرق جديد «ما بعد إنساني».

هذا المولود الجديد سينقسم إلى فروع: بعض «ما بعد البشر» سيطوّرون أنفسهم ليكونوا مثل آلهة الإغريق الأسطوريين، فيعيشون طويلاً ويكونون كاملين جسدياً وعقلياً. البعض الآخر سيطوّر نفسه بشكل أكثر راديكالية بكثير، وربما يتحّول إلى أشكال حياة رقمية ويسبح عبر شبكات المعلومات، أو يكون عقلاً متفوقاً يتجوّل بين كواكب المجموعة الشمسية.

قد يقال هنا إن هذه «الرؤى» ليست جديدة. وهذا صحيح. فمنذ أقدم الأزمنة والإنسان يحلم بتجاوز قدراته البيولوجية. وهكذا ولدت أساطير البشر ـ الآلهة أو أنصاف الآلهة، وتلتها في العصور الحديثة أحلام «الإنسان المتفوق» (السوبرمان) الذي أبدع في وصفه الفيلسوفان نيتشه وبرنارد شو، كل من موقعه. كل هذه الأساطير والأحلام لم تكن أكثر من ذلك: أي مجرد أساطير وأحلام. بيد أن الصورة الآن تبدّلت تماماً: تغيير طبيعة البشر لم يعد احتمالاً بل واقعاً. لم يعد فرضيات في عالم الغيب، بل تطبيقات في علم الواقع. النانوتكنولوجيا (التكنولوجيا متناهية الصغر) باتت تمكّن العلماء من إدخال روبوتات وعقول إلكترونية بحجم رأس الدبوس إلى جسم الإنسان، حيث يمكنها إما أن تجري عمليات جراحية موضعية أو تعمل على تغيير السلوكيات. ورقائق الكومبيوتر بدأت تندمج بالتدريج بـ«رقائق» (خلايا) الدماغ البشري لتكون جزءاً منه أو ليكون هو جزءاً منها لا فرق. والهندسة الجينية تتوّج كل هذه الجهود بوعود قدرتها على إدخال تغييرات كاسحة على بنية الجسم البشري. وهذا يعني أن أنصار «الترانس هيومان» لا يسبحون في بحر من الخيالات، كما كان الأمر مع أصحاب الأساطير والأحلام حول الإنسان المتفوق. إنهم يرتكزون على/ وينطلقون من قاعدة تكنولوجية متقدمة باستمرار، ومتنامية باستمرار، ومذهلة باستمرار.

وأخطر ما في هذه الحركة هي أنها تعد بتغيير طبيعة البشر القائمة على الحقد والعنف والقلق، إلى طبيعة أخرى تقترب من صورة الملائكة المسالمين والعقلانيين والقادرين على فتح كل مغاليق المعرفة. وهذا ما يستدرج إلى صفوفهم العديد من الناقمين على التاريخ البشري المدمّر للذات والبيئة، من علماء وسياسيين ومثقفين ورجال أعمال.

لكن يوجد أيضاً الكثيرون الذين يدركون المخاطر الكبرى لدمج البشر بالتكنولوجيا. ويسند هؤلاء منطقهم إلى التالي:

• «الترانس هيومانيون» يؤمنون إيماناً أعمى بقدرة التكنولوجيا على إبداع جنس بشري جديد، سواء عبر تعديل جينات الجنس الحالي، أو من خلال إدماج المادة الميتة (الكومبيوترات) بالمادة الحية (أجسامنا). لكن من يضمن بأن يكون هذا الجنس الجديد أكثر حكمة من الجنس القديم؟ على الأقل، الجنس الحالي، على عنفه الشديد وأنانيته المفرطة، يمر بمراحل استفاقة ضمير تجعله يتعاطف مع الضعيف، ويحن على الفقير، فيما الجنس المقبل سيكون علمياً بالكامل لا شفقة لديه ولا رحمة.

• سيؤدي المشروع الجديد إلى انقسامات هائلة بين البشر، ستبدو معها حروب كارل ماركس الطبقية في التاريخ، نزهة بريئة في حديقة جميلة. فالبشر المتفوقون الجدد في المجتمعات الغنية، سيشعرون بأن البشر العاديين تحتهم متخلفون ولا يستأهلون الحياة ولا بالطبع الحرية. وهذا ما قد يدفعهم إلى إحياء نظريات الإبادة الجماعية الهتلرية.

وبالطبع، ليس ثمة ضرورة للتساؤل عن الموقف المحتمل لهؤلاء من شعوب العالم الثالث التي تشكّل ثلثي البشرية، والتي لا تمتلك أصلاً المداخل إلى التكنولوجيا المطورة للجنس البشري.

• ما الذي يضمن أن يكون البشر الجدد سعداء حقاً؟ صحيح أن وافر الصحة، وطول العمر، والذكاء المضاعف، ستخفف من الآلام، لكن هذا لا يكفي لتحقيق السعادة. وكما أثبتت تجارب البلدان الغربية، المال والثروة و«حرية الاستهلاك» لا تكفي لا لتحقيق القناعة ولا لمعالجة سيل الأمراض النفسية الهائلة التي تفتك بمواطني هذه البلدان (راجع مقدمة الكتاب).

على أي حال، يبدو واضحاً أن التكنولوجيا الراهنة المفتقدة للحكمة، تدفع البشر لا محالة نحو مستقبل قريب سيتم فيه «إنتاجهم» في مختبرات العلم الجيني، وستربط بموجبه خلايا أدمغتهم العصبية بمليارات رقائق السيليكون الإلكترونية. إنها الثورة المزدوجة التي ستغيّر طبيعة الإنسان عبر تغيير جيناته، ثم ستغّير هذا التغيير من خلال تزويج الإنسان للآلة، أو الآلة للإنسان، كما أشرنا.

الثورة **الأولى** (الجينية) وضعت على نار حامية منذ العام ٢٠٠٣ حين استكمل العلماء وضع «الخريطة الجينية» (Genome) بتكلفة ٣ مليارات دولار. لكن كل التوقعات تشير الآن إلى أنه بعد فترة قصيرة، سيكون في وسع أي كان شراء «جينومه» الخاص أو جينوم طفله بمبلغ لا يتجاوز الألف دولار. وحينها، ستكون المسألة مسألة وقت قبل أن يكون في وسع الآباء والأمهات، كما الحكومات والدول، تحديد شكل الطفل الذي يريدون، ومستوى ذكائه، وأوضاعه الصحية. كيف؟ ببساطة عبر استبدال بضع جينات في حمضه النووي.

وكما الثورة الأولى (الجينية)، كذلك الثورة **الثانية** (الذكاء الاصطناعي). فهذه أيضاً حققت انطلاقة قوية مؤخراً بعد أن وضع العلماء خططاً لدمج خلايا الدماغ بخلايا تبتكرها الآن «النانوتكنولوجيا» المتخصصة بإنتاج الروبوتات متناهية الصغر. الهدف: تطوير الدماغ بحيث يتمكّن ليس فقط من القيام بنحو ٢٠٠ عملية حسابية في الثانية كما الحال حالياً، بل بمئة مليون عملية في الثانية.

البشر الذين سيولدون من رحم هاتين الثورتين لن يكونوا «بشراً» تماماً. ثلثهم سيكون جسماً حياً. ثلثهم الثاني سيكون آلة. أما الثلث الثالث فسيتحّكم به العلماء الذين سيكونون قادرين، بحكم اطلاعهم على الخرائط الجينية والرقاقات الإلكترونية، على التحّكم بسلوكياتهم. هذه الحقائق تثير القشعريرة الآن في أبدان الكثيرين، الذين يوردون الاحتجاجات الآتية:

- هذه التطويرات ستقضي على حرية الإنسان، طالما أنه سيكون حصيلة ما يختاره الآباء والأمهات من الجينات، لا نتيجة ما يحققه هو لنفسه بنفسه.

- وهي ستدّمر أيضاً علاقات الحب والتعاطف بين البشر، وتحل مكانها نزعة الاستهلاك والتمّلك الشخصي للمواليد الجدد.

- والأهم أنها (التطويرات) ستشعل «سباق تسلّح جينياً» في كل أنحاء العالم: بين الدول التي ستتنافس على « إنتاج» الأفراد الأذكى والأكثر صحة وصلابة؛ وفي داخل هذه الدول نفسها، حيث سيتّمكن الأغنياء من استخدام ثرواتهم للحصول على سلالات تتفوق على باقي فئات المجتمع. وهذا سيخلق صراعات اجتماعية لا مثيل له في التاريخ البشري، كما ألمعنا.

- علماء الجينات والذكاء الاصطناعي يعترفون بوجود كل هذه المخاطر. لكنهم يقولون انه لا سبيل لوقف تقدم العلم ولاكتساح التكنولوجيا لكل مجالات الحياة. وهذا ليس فقط بسبب طبيعة هذا العلم وتلك التكنولوجيا وحسب، بل أيضاً بسبب المصالح الاقتصادية الضخمة (اقرأ الرأسمالية) الجاهزة أبداً للإفادة من كشوفاتهما.

٣ ـ الحلم والكابوس

هذه المعطيات المتناقضة حول وعد التكنولوجيا ووعيدها يجعلها، إذاً، سيفاً ذا حدين. فهي يمكن أن تكون نعمة كبرى كما يمكن أن تنقلب إلى طامة كبرى. إنها الحلم والكابوس وقد تعايشا تحت سقف واحد. لمن ستكون اليد العليا في هذه الثنائية الملحمية؟ لندع صاحب **نهاية التاريخ** فرانسيس فوكوياما يجيب:

«لا أحد يعرف أي احتمالات تكنولوجية ستنبثق من التعديل الذاتي للجنس البشري. لكن الحركة البيئية على حق حين تعلمنا ضرورة التواضع واحترام وحدة الطبيعة. نحن في حاجة الآن إلى تواضع مماثل في ما يتعلق بالطبيعة البشرية وطبيعة الحياة. وما لم نفعل، سنكون قد فسحنا في المجال واسعاً أمام ما بعد الإنسانيين لتشويه البشرية ومسخها بجرافاتهم الجينية»[١٦].

لكن، هل نحن البشر قادرون حقاً على التواضع؟ قصة التواضع هذه يجب أن تكون هنا قصتين: **الأولى**، البت في مسألة مفهوم «التقدم»، من حيث مضامينه ومعناه ومدى ارتباطه وتشابكه مع العوامل المقررة الأخرى لظروف الحياة على كوكب الأرض. **والثانية**، مسيرة العلم في التاريخ

(١٦) Francis Fukuyama, «Transhumanism,» *Foreign Policy* (23 October 2009), <http://foreignpolicy.com/2009/10/23/transhumanism/>.

ومآلاته في العصر الحديث، بعد أن باتت السيطرة لا عشق الطبيعة والحياة والمعرفة هي دين العلم وديدنه.

بلير فان فولكنبرغ (Blaire van Valkenburgh)، أستاذة علوم الإنسان في جامعة كاليفورنيا، اشتهرت بالتواضع الشديد والقناعة التي اقتربت من حد الزهد. وهذا ما يجعل أبحاثها حول علاقة التقدم بالتواضع جديرة بالتوقف ملياً أمامها. فولكنبرغ لم تكن مقتنعة بالنظريات الاجتماعية الحديثة التي باتت بديهية، والتي تعتبر أن التطور في شتى أشكاله لا يعني سوى شيء واحد: التقدم إلى أمام. ولذا فهي انبرت مع فريق من علماء جامعة كاليفورنيا لمحاولة الإثبات بأن هذه البديهية ليست بديهية على الإطلاق.

نشرت فولكنبرغ حصيلة سنوات أبحاثها الطويلة في مجلة **نيوساينتيست** وضمّنتها المعطيات الرئيسة الآتية:

ـ الانتخاب الطبيعي، أو التطور، لا يهتم بالمستقبل. لذا من المحتمل، نظرياً، أن يؤدي هذا التطور ليس إلى تقدم وازدهار مخلوق ما، بل إلى دماره واندثاره.

ـ البقايا المتحّجرة للعديد من الثدييات التي تمت دراستها، تشير إلى تكرار ظاهرة تطور تؤدي بالفعل إلى الفناء. أبرز هذه الثدييات كانت فصيلة من الكلاب التي يدعوها علماء الحيوان «كانينا». قبل ٥٠ مليون سنة، كانت هذه الفصيلة صغيرة الحجم وتعتاش على فرائس صغيرة. لكن تطورها من مخلوقات صغيرة إلى كبيرة (وهذا أحد القوانين الرئيسة للتطور الطبيعي)، جعلها تتخصص في فريسة كبيرة واحدة. وحين انقرض هذا النوع من الفرائس، انقرضت أيضاً الفصيلة، لأنها لم تعد تجد ما يكفيها من طعام، وأيضاً لأنها لم تستطع التأقلم سريعاً مع ضرورات تنويع مصادر طعامها.

ـ تبيّن أن معدلات بقاء الحيوانات الكبيرة المتطورة والمتخصصة بطعام واحد، هو ستة ملايين سنة. فيما معدل بقاء الحيوانات الصغيرة هو ١١ مليون سنة، أي نحو الضعف. ماذا يعني، أو يجب أن يعني، هذا بالنسبة إلى البشر؟

الكثير. فالاكتشاف ينسف **أولاً**، تلك القناعة الراسخة المريحة (والمخطئة) بأن جنسنا يتطور دوماً إلى الأمام، وأنه غير مهّدد بالزوال. من المحتمل جداً، وفق نظرية فان فولكنبرغ، أن يكون تقدمنا الراهن وصفة ممتازة لانقراضنا المقبل، لأننا، مثل تلك الكلاب الكبيرة و«المتخصصة»، كبرنا وأدمنّا على «وجبة» واحدة هي استنزاف موارد الطبيعة بلا حسيب، والإخلال بتوازناتها بلا تدقيق. وحين ستقرر الطبيعة الرد، وهي سترد حتماً، سنكون على لائحة المخلوقات المعرضة للانقراض.

وهو (الاكتشاف)، يشير **ثانياً**، إلى أن التقدم في مجال التكنولوجيا، لن يكون بالضرورة، هو الآخر، تطوراً إيجابياً. فالعديد من العلماء يحذّر الآن من أن تؤدي التكنولوجيا المنفلتة من عقالها

إلى سيطرة الآلة على الإنسان، وبالتالي إلى نهاية الجنس البشري[١٧]. ثم إن هذا الاكتشاف، أخيراً، يجب أن يكون حافزاً للبشر على التواضع، وعلى تصفية الحساب مع تلك الفكرة المجنونة التي جعلتهم يفتكون بالطبيعة ومخلوقاتها وبيئتها، بذريعة أن «سّيد الكون والمخلوقات» مخوَّل بتخريب الكون ومخلوقاته كيفما يشاء.

هذا على صعيد مسألة التواضع. أما في ما يتعلّق بالعلم فالمسألة تبدو في الواقع أخطر كثيراً، خاصة بعد أن حلَّ العلم والتكنولوجيا مكان الاستراتيجيات العسكرية والحروب كمدخل إلى «الهيمنة والسيطرة». الآلة هنا (بشتى أشكالها، من الصاروخ النووي إلى رقاقات الكومبيوتر، ومن النانوتكنولوجيا إلى البيوتكنولوجيا) باتت الكأس المقدسة الجديدة في كل أنحاء العالم، فاستكملت بذلك مسيرة تصحير المجتمعات البشرية التي كانت قد دشنتها تكنولوجيا السيارات التي خلقت كل العالم الإسمنتي القاتل الحالي الذي حمل اسم المدن الحديثة.

خاتمة

هذا التقديس للتكنولوجيا، الذي أصبح في الواقع الدين الضمني الجديد لكل المجتمعات في العالم، سدَّد في الواقع ضربة مؤلمة إلى العلم الذي انطلقت منه التكنولوجيا. فالعلم قد بدأ مسيرته التاريخية مع الإغريق والهنود والصينيين والعرب بحثاً عن معنى وقيم وحقيقة الوجود، أي بحثاً عن المعرفة الحقيقية. وهذا أمر لا يزال يفعله فرع واحد على الأقل من العلم هو الفيزياء والرياضيات النظرية التي لا تسعى إلى السيطرة (كما التكنولوجيا) على العالم بل إلى فهمه وتفكيك مغاليقه وأسراره المدهشة. رجال العلم من هذا الصنف، الذين أحبوا الكون وعشقوا الطبيعة بكل إبداعاتها، كانوا الأقدر على رسم معالم مستقبل أكثر حكمة وجمالاً وروعة لو تسنى لهم هم قيادة مسيرة «التقدم». وهذا لسبب مقنع: إنهم كانوا يريدون معرفة هذا الذي يحبون لا العمل للسيطرة عليه. مثلاً هم قالوا إن الحياة الخالدة تستند إلى «معرفة الله» (أو السر الأكبر في الكون)، لكن لم يرد قط في أذهانهم أن مثل هذه المعرفة ستمنحهم فرصة «السيطرة» على الله.

بيد أن التاريخ سجّل هزيمة عاشق الطبيعة وانتصار كارهها الساعي إلى السيطرة عليها. ومنذ ذلك الحين، بات جزء كبير من العلم في خدمة الأنانية والجموح الأرعن، بدل الحق وجمال المعرفة وخير ما في الإنسان.

العلم من دون حكمة وقيم وروح، سيقود إلى عبودية لا مثيل لها في التاريخ. كما أن الانبهار بالإنجازات التكنولوجية المولّدة للسيطرة، والانكباب عليها من دون دراسة وتدقيق، هي وصفة لنظام سادي لا بد من أن يتحطّم في النهاية.

---

(١٧) حذّر ستيفن هاوكينغ (Stephen Hawking) من أنّ «تطوير ذكاء صناعي كامل، سيعني نهاية الجنس البشري». وأعرب إيلون ماسك (Elon Musk) عن مخاوفه من أن مثل هذا التطوير «قد يكون أكبر تهديد وجودي واجهته البشرية». أما بيل غيتس (Bill Gates) فقد اكتفى بحفز الناس على الحذر منه.

وَرَدَت النصوص في: *The Economist* (9 May 2015).

هذه الاعتراضات والتحذيرات من النزعة التصحيرية المنفلتة من عقالها للتكنولوجيا ليست بالأمر المستجد. وهي كانت في الماضي مجرد صرخة في وادٍ صرصر، لأن الشعار المجلجل الذي أطلقته العصور الحديثة (ربما في الدرجة الأولى انتقاماً من قيود وظلاميات العبوديات الكَنَسِية والدينية السابقة) هي أن شيئاً لا يستطيع أن يقف في وجه «التقدم» العلمي والتكنولوجي. وهي (الاعتراضات) كان يمكن أن تكون اليوم صرخة أخرى في وادٍ آخر، خاصة وأنهما يأسران كل خيال وآمال الجمهور العالمي العريض، لولا أنهما يرتطمان الآن بصخرة ضخمة اسمها عجز بيئة الأرض عن تحمّل المزيد من هذه العربدة التكنولوجية غير الحكيمة. فالخيار الآن لم يعد بين «التقدم والرجعية»، أو بين «العلم والجهل»، بل بات بين الحكمة والتعقل وبين الانقراض. أي باختصار: بين حياة أو موت الجنس البشري.

وهذه الحكمة، وذاك التعقل، لم يعد أمامهما الآن سوى مخرج وحيد: تطوير وعي جديد، صافٍ، كلي، متجاوز لمفاهيم الهيمنة والسيطرة ولدافع صراع بقاء لم يعد له مبرر. وعي يعيد إلى العلم رونقه الإيجابي الرائع، وينصّب عاشق الطبيعة مجدداً على عرش المغامرة البشرية الكبرى قبل فوات الأوان. وهذا ما سنبحث عنه في الفصول التالية.

الفصل الخامس

الوعي الجديد: تمخضات ولادة عسيرة

العلم لا يستطيع حل السر النهائي للطبيعة. وهذا لأنه، وفي التحليل الأخير، نحن أنفسنا جزء من هذا السر الذي نحاول فك طلاسمه.

ماكس بلانك

ثلاثة عوامل متصلة تفرض بزوغ ثورة شاملة في الوعي الإنساني، تنقل الجنس البشري من جهنَّم الأرضية الخطرة الراهنة إلى مرحلة مشرقة جديدة من المشروع البشري؛ ومن التراقص على شفير الانقراض إلى الرقص على أنغام التناغم (الكوني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي) في حضن أمِّنا الطبيعة:

الأول، الأزمة البيئية الطاحنة التي أشرنا إليها بسبب المرحلة الجديدة التي دخلتها الرأسمالية النيوليبرالية المتعولمة، والتي تشوِّه فيها بشكل منهجي البيئة والفرد والمجتمعات ومنظومات المثل والقيم الساعية إلى ترقية الإنسان، ومعها المخاطر الجمة للتحالف الراهن بين الرأسمالية والتكنولوجيا.

الثاني، هو التطورات المذهلة التي طرأت على النظريات العلمية الحديثة، والتي لم تنهِ التقسيم الديكارتي بين العقل والجسد وحسب، بل أيضاً (وأولاً وأساساً) أنهت خرافة انفصال الجزء عن الكل، والفرد عن الطبيعة والكون، وكشفت النقاب في آن عن كلٍ من «الوعي المزيف» والوعي الحقيقي الذي يجب أن تتحوَّل إليه البشرية في مغامرتها الانتقالية الجديدة.

والعامل **الثالث** هو وصول معركة الوعي الجديد المفترض، الذي تخوض غماره كل المدارس الفكرية على أنواعها إلى مفترق طرق، فيما الصراع على أشده ووصل إلى مرحلة مفصلية بين الحكمة وبين الجنون في المجتمعات البشرية. نبدأ مع العامل الأول.

أولاً: رسملة البيئة

كثيرة هي الأبحاث التي تطرقت إلى علاقة الأزمة البيئية الراهنة بتطورات النظام الرأسمالي. إحدى هذه الدراسات[1] تعيد هذه الأزمة إلى بدايات نشوء الرأسمالية على رفات النظام الاقطاعي. فبما أن نظاماً زراعياً كان يسيطر على الإقطاعية، كان لا بدّ من تحوّل في العلاقات الزراعية، أي في علاقة العمّال بالأرض كوسيلة إنتاج. بناء على ذلك، تطلّبت الرأسمالية علاقة جديدة بالطبيعة، وهي علاقة قامت على قطع صلة الإنسان العامل المباشرة بوسائل الإنتاج، أي الأرض. وهكذا تمحورت الثورة الصناعية في بريطانيا حول إبعاد العمّال عن الأراضي بعد مصادرتها، وذلك بدءاً من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر. أما في ظلّ الكولونيالية والإمبريالية، فقد أخذ التحوّل شكلاً أكثر قساوة في ضواحي الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وقُطّعت العلاقات الموجودة سابقاً بين الإنسان والطبيعة إرباً في إطار ما سمّاه كارل ماركس «اقتلاع واستعباد ودفن الناس في المناجم، في أعنف مصادرة في تاريخ البشرية».

النتيجة المباشرة لذلك تمثّلت في انتقال العمّال، بعد طردهم، إلى المدن. هناك التقى هؤلاء برأس المال المتكدّس عن طريق السلب. في الوقت نفسه، فُرضت على الأطراف أشكال متعددة من «الأشغال الشاقة»، حيث كانت إعادة الإنتاج الاجتماعية مسألة هامشية بالنسبة إلى الاستغلال الإمبريالي. واستُعمل فائض الأطراف في تغذية التصنيع في مركز الاقتصاد العالمي، حيث دُعّم النظام من خلال التكديس المتواصل لرأس المال دورة تلو دورة، وحيث كانت اللاحقة تأخذ من السابقة منطلقاً لها. في هذا السياق، بدأت تظهر المعالم التي أنذرت بقرب وقوع الكارثة البيئية: الفصل بين المدينة والريف، استهلاك التربة، التلوّث الصناعي، سوء التنمية المُدنية، تدهور الصحة وعجز العمّال، سوء التغذية، التسمّم، فقر الريف وانعزاله، إزالة الأشجار والتصحّر، شحّ المياه والفيضانات. وقد عنى ذلك مزيداً من تغريب البشر في عملية مدمّرة لعلاقة البشرية مع الطبيعة. وهي عملية تخرج عن السيطرة اليوم على مستوى الكوكب، إذ إن حالة عدم المساواة بين المركز والأطراف في النظام العالمي تتزايد باستمرار، بموازاة تعاظم حالة عدم المساواة بين الطبقات المختلفة داخل كل دولة رأسمالية على حدة[2].

ثم: بما أن متطلبات النظام الرأسمالي التي تقوم على النمو والتوسع الدائمين وتدفع إلى استنزاف الموارد، تتناقض حرفاً بحرف مع مستلزمات البيئة التي تنزع باتجاه المحافظة على هذه الموارد، سيكون لزاماً على تيار الوعي الجديد طرح بدائل جديدة ومجدية عن البنية الرأسمالية في المجالات الاقتصادية ـ الاجتماعية والتكنولوجية. وهذا ينطبق أيضاً على أي بديل اشتراكي؛ على بديل محتمل يضع في صلب توجهه ما قاله إرنستو تشي غيفارا من أن «بناء الاشتراكية لا يتطلّب

---

(١) انظر: John Bellamy Foster, «Capitalism and Environment Catastrophes,» *Monthly Review* (20 October 2011).

(٢) المصدر نفسه.

تطوّراً اقتصادياً وحسب، بل أيضاً تطوّراً بشرياً من حيث تفاعل الإنسان مع الطبيعة». أي أنه يفرض عملياً ثورة في الوعي الاجتماعي ـ الثقافي كما الاقتصادي والإيكولوجي.

ثانياً: النقلة العلمية

ينبع المنطلق **الثاني** الأساسي الدافع إلى ولادة الوعي الجديد، من التغييرات التي طرأت على المفاهيم العلمية، والتي صفّت الحساب تقريباً مع المقاربة المادية الميكانيكية التي كانت في أساس الوعي الإنساني «الزائف» طيلة العصور قديمها والحديث.

يمكن اعتبار مقاربات برتراند رسل، أبرز فيلسوف للعلم في القرن العشرين، نقطة الانطلاق في ثورة المفاهيم العلمية الجديدة. أفكاره الرئيسة في هذا الصدد[٣]:

ـ الرجل العادي يظن أن المادة متماسكة، فيما عالم الطبيعة يعتقد أنها موجة من الاحتمال تتذبذب في اللاشيئية، وهو لم يعد يؤمن بالمادة. إيماننا بالعالم الخارجي إيمان حيواني، وهو فكر تسيطر عليه نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية. فنحن لا نعرف سوى العلاقات في عالم الطبيعة ولا نعرف الأشياء في ذاتها بل مجرد صور عنها. وهذا ما تشي به ما يسميه رسل رؤية جونس التي تسير على النحو التالي: لا بد من أن هناك نسخاً مختلفة من شخص اسمه جونس يمر في الشارع يبلغ عددها عدد النظارة. لكن رؤية جونس غير جونس. هذه رؤيتي للبناية وليس البناية نفسها. هذه رؤيتي للبحر وليس البحر نفسه. الأشياء منفصلة عنا في المكان، كما أن نابليون منفصل عنا في الزمان.

ـ نظرية فيزياء الكمّ تبيّن أن قانون السببية لا يسري على أعمال الإلكترونيات الفردية، وأن الذرات ربما لها قدر خاص من الإرادة الحرة. لذلك سلوكها لا يخضع لقانون. وهذا الشك العلمي قد يؤدي إلى انهيار العصر العلمي، ولن يبقى سوى الآلات كما بقي القساوسة بعد انهيار الدين المسيحي.

ـ لولا الهوى والعادة لقلنا إنه لا يكاد يقوم أي دليل على وجود العالم، فكله أخلاط وأشتات لا رابط بينها ولا استمرار ولا تماسك ولا نظام. أما النظام الذي يتراءى لنا في العالم الخارجي إنما يرجع في رأي الكثيرين إلى غرامنا بالتقسيم والتصنيف، وأن من المشكوك به حقاً وجود شيء كقوانين الطبيعة. العالم الخارجي قد يكون وهماً، لكنه إذا كان موجوداً فهو يحتوي على أحدث قصيرة صغيرة وعشوائية. فالنظام والوحدة والاستمرار هي من مخترعات البشر.

وبعد هذه المقاربات التي كاد فيها نبي فلسفة العلم يفقد الثقة ليس فقط بنبوته بل بمادة هذه النبوة نفسها (العلم)، يعلن رسل بكلمات مجلجلة بأن «ثنائية المادة والعقل انتهى زمانها، فالمادة

---

(٣) برتراند راسل، **النظرة العلمية**، ترجمة عثمان نويه وإبراهيم حلمي عبد الرحمن، مكتبة نوبل؛ ١٩٥٠ (أربيل: دار المدى، ٢٠٠٨)، ص ٧٤ وما بعدها.

أصبحت أشبه بالعقل والعقل أشبه بالمادة. والمرء يميل إلى الظن بأن ما هو موجود فعلاً هو شيء وسط بين كرات البليار في المادية العتيقة وبين الروح في الروحانيات العتيقة»[٤].

وبعد رسل، كرّت سبحة العلماء والفلاسفة الذين يدعون إلى وعي إنساني جديد يطابق المكتشفات العلمية الحديثة، ويستند إلى المصالحة التاريخية بين العلم وبين الفلسفات الشرقية، على الأقل في جانبها الصوفي النقي.

فريتجوف كابرا (Fritjof Capra)[٥] أحد أبرز المنظِّرين الحديثين لهذه المصالحة. فهو يعتبر أن ثمة انبثاقاً لرؤية جديدة للحقيقة ومفهوماً جديداً للحياة متسقاً مع «الفيزياء الجديدة»، وأنه ستكون هناك حتماً مضاعفات اجتماعية لهذا التحوُّل الثقافي الكبير. الكون في هذه الرؤية لم يعد آلة تتكون من عناصر أولية، بل العالم المادي في نهاية المطاف شبكة من أنماط العلاقات غير المنفصلة، وكوكب الأرض ككل هو نظام حي ذاتي التنظيم.

التطور، في هذا السياق لم يعد يعني، أو يتعيّن أن يعني، تنافساً من أجل البقاء، بل هو برأيه رقصة تعاونية يكون فيها الخلق والبروز الدائمين للجديد هي القوى الدافعة. «الإيكولوجيا العميقة» بالنسبة إلى كابرا هي الإطار الكاسح للفهم الجديد للحياة. فهذه الإيكولوجيا[٦] لا ترى العالم كمجموعة من الأشياء المنفصلة، بل شبكة من الظواهر المرتبطة بشكل أساسي والمعتمدة بشكل وثيق لا فكاك فيه على بعضها بعضاً. هنا تذوب الإيكولوجيا في الروحانية بفعل اختبار الارتباط بكل الطبيعة. اختبار الوحدة والانتماء إلى كل الكون. الروح هنا تعني الحياة نفسها.

أعادت الفيزياء الحديثة بضربة قلم واحدة، الوَحْدة إلى مقاربتي العلم والفلسفة الصوفية: العقل والحدس. فالفلسفات القديمة نظرت إلى الوجود على أنه وحدة متكاملة، ولم يبدأ الفصل إلا مع المدرسة الإيلية (Eleatic School) القائلة بانفصال الله عن الكون، وانفصال المادة عن الروح. ثم مع برمانيدس الذي عاكس مقاربة هيراقليطس القائمة على مبدأ التغيُّر الدائم. فهو أسمى الله «الكائن» (Being) وقال إنه فريد وغير متغيّر. كما اعتبر أن التغيير مستحيل وأن التغييرات التي نراها في العالم هي أوهام الحواس. مفهوم المادة التي لا تدمَّر، استند إلى هذه الفلسفة وأصبح أحد المفاهيم الرئيسة للفكر الغربي.

---

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٥) Fritjof Capra: *The Turning Point: Science, Society, and the Rising Culture* (New York: Bantam Books, 1982), and *The Tao of Physics: An Exploration of the Parallels between Modern Physics and Eastern Mysticism* (New York: Shambhala Books, 2010).

(٦) الإيكولوجيا العميقة (Deep Ecology) هي فلسفة بيئية وإيكولوجية معاصرة تشدّد على القيمة الكامنة في كل المخلوقات الحيّة بغضّ النظر عن فائدتها أم لا للحاجات البشرية. وهي تدعو إلى إعادة تشكيل جذرية للمجتمعات البشرية وفقاً لهذه الأفكار، حيث كلّ حيّ يعتمد في وجوده على باقي الأحياء في داخل الأنظمة الإيكولوجية. هذه الفلسفة تصف نفسها بـ«العميقة» لأنها تنظر إلى عمق العلاقة البشرية الحقيقية مع العالم الطبيعي، فيما الحركات البيئية الإنسانية لا تهتمّ سوى بالحفاظ على البيئة لاستغلالها لاحقاً لمصلحة البشر.

في القرن الخامس قبل الميلاد، حاول الإغريق التغلُّب على التناقض الحاد بين هيراقليطس وبارمانيدس. لكن، حالما تم تقسيم الروح والمادة، تحوّل اهتمام الفلاسفة إلى العالم الروحي بدل المادي وإلى عالم الإنسان ومشاكل الأخلاق. هذه المسائل استغرقت الفكر الغربي لمدة ٢٠٠٠ سنة بعد وصول الفكر والثقافة الإغريقيين إلى ذروتهما في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. معرفة الغربيين العلمية نظّمها أرسطو الذي وضع المقاربة التي ستصبح أساس وجهة النظر الغربية حول الوجود لمدة ٢٠٠٠ عام. والسبب أن أحداً لم يَتَحَدَّ أنموذج منطق أرسطو، هو دعم الكنيسة الكاثوليكية لهذا الموقف.

لكن الطامة الحقيقية أكثر بدأت مع ديكارت في القرن السابع عشر، الذي فصل العقل والمادة إلى مملكتين منفصلتين ومستقلتين. هذه القسمة الديكارتية سمحت للعلماء بمعاملة المادة والطبيعة على أنهما شيء ميت وبالتالي منفصلتان عنا، وعلى أن العالم المادي مجرد مروحة من الأشياء المختلفة المجمعة في آلة واحدة ضخمة. تبنّى نيوتن هذه النظرة الميكانيكية وسيطر على العلم من نهاية القرن ١٧ إلى نهاية القرن ١٩، وكانت فرضياته تجسيداً لإله مَلَكِي يحكم العالم من فوق عبر فرض قانونه الرياضي السماوي عليه. هنا قوانين الطبيعة أصبحت قوانين الله الأبدية وغير المتغيّرة.

لم تكن أفكار ديكارت فقط أساس الفيزياء الحديثة بل أثرَت في كل الفكر الغربي حتى يومنا هذا. فمقولته «أنا أفكر إذاً أنا موجود»، دفعت الغربيين إلى مساواة هويتهم بعقولهم بدل الكل المتعضّي (Organism) كله. ونتيجة لهذه القسمة الديكارتية، بات كل الأفراد واعين لأنفسهم كأنوات (جمع أنا) معزولة توجد «داخل» أجسادهم. أصبح العقل منفصلاً عن الجسم وأعطي مهمة لا جدوى منها هي السيطرة، والتي، بالتالي، كانت سبب الصراع بين الإرادة الواعية وبين الغرائز غير الواعية. كل فرد بات مقسوماً أكثر إلى أجزاء منفصلة أخرى وفق نشاطاته ومواهبه ومشاعره ومعتقداته، التي تنخرط في نزاعات لا نهاية لها وتولِّد فوضى ميتافيزيقية متواصلة وإحباطاً.

ويرى كابرا أن هذا التجزؤ الداخلي امتد إلى نظرة الغرب إلى العالم الخارجي كأجزاء منفصلة أيضاً. فالبيئة الطبيعية عوملت على أنها تتكوَّن من أجزاء منفصلة يجب استغلالها من جانب مختلف مجموعات المصالح. ثم امتدت هذه الرؤية المجزأة إلى المجتمع الذي قُسم إلى أمم وأعراق ومجموعات سياسية. هذه الرؤية هي سبب أزماتنا الراهنة الاجتماعية والإيكولوجية والثقافية وعدم عدالة توزيع الموارد الطبيعية، والفوضى الاقتصادية والاجتماعية والبيئة الملوثة البشعة وموجهات العنف المتصاعدة، وكل ذلك جعل البيئة غير قابلة للحياة صحياً ومادياً[٧].

القسمة الديكارتية كانت مفيدة للتكنولوجيا والفيزياء، لكنها أدت إلى مضاعفات سلبية كبرى على حضارتنا. والمثير أن علم القرن العشرين الذي نشأ من هذه القسمة ومن النظرة الميكانيكية

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٣.

للعالم والذي لم يكن ممكناً من دون هذه القسمة، بدأ يتغلب هو نفسه على هذا التجزؤ ويعود إلى فكرة الوَحْدة التي عبّر عنها الإغريق والفلاسفة الشرقيون.

فبالنسبة إلى الصوفية الشرقية، كل الأشياء والحوادث التي تدركها الحواس مترابطة ومتصلة، وهي ليست سوى مجالات مختلفة أو تمظهرات عدة للحقيقة النهائية الواحدة نفسها. ميلنا للتقسيم والفردية وهم يدعى أفيدا أو الجهل في الفلسفة البوذية: «حين يضطرب العقل يتم إنتاج كثرة وتعددية الأشياء، لكن حين يكون العقل هادئاً تتبخر الكثرة».

وحدة الكون (والوجود) هي القاسم المشترك بين الفلسفات الشرقية، وهدفها دفع أتباعها إلى إدراك هذه الوحدة والعلاقات الترابطية بين كل الأشياء، بهدف جعل الفرد يتجاوز أنانيته ويتعرَّف إلى نفسه في الحقيقة النهائية حين يصل إلى التنوير. يعتبر الشرقيون كل شيء في حالة سيولة (الموجة في الفيزياء) وتغيُّر، والكون حقيقة واحدة لا ينفصم عراها، وهو إلى الأبد في حالة حركة. إنه حي وعضوي وروحي ومادي في آن. والمُشاهد (الوعي الإنساني) جزء لا يتجزأ من هذا المشهد ومشارك في أحداثه.

القوى المحرِّكة لهذه الحركة ليست موجودة خارج الكون (كما كان الإغريق يقولون) بل داخله، وهو من الطبيعة العميقة للمادة. وبالتالي رؤية الشرقيين للسماوي ليست لحاكم يوجِّه العالم من فوق، بل لمبدأ يسيطر على كل شيء من داخل.

هذه الرؤية الشرقية هي ما يقوله بعض العلم الآن. الشبان الغربيون المتحمسون لهذه الفكرة يعتبرون العلم مصدر كل شرور التكنولوجيا الحديثة. لكن كابرا يريد أن يثبت أن ثمة تناغماً بين العلم وبين الروحانية الشرقية، وأن الفيزياء الحديثة تتجاوز مادية التكنولوجيا، وأنها قد تكون أيضاً «الطريق» (الطاو في الفلسفة الصينية) إلى المعرفة الروحية وتحقيق الذات الفردية الحقيقية كما الجماعية الحقيقية.

كون هولوغرامي

لقد حتمت اكتشافات الفيزياء الحديثة تغيير مفاهيمنا حول الزمان ـ المكان والمادة والسبب والنتيجة. فالمفاهيم الميكانيكية لم تعد كافية لفهم العالم أو الوجود. وهذا بدوره قد يحتم الثورة الجديدة التي أشرنا إليها في طبيعة الوعي البشري.

الفيزيائي البارز دايفيد بوم[8] دشّن ما يمكن أن يكون إحدى القواعد العلمية الصلدة لهذا الوعي، حين أشار إلى أن الحقيقة الموضوعية لا وجود لها، وعلى الرغم مما نراه من كون يبدو صلداً، إلا أنه في الحقيقة وهم كبير وهو ليس إلا «هولوغراما» واحداً يتضمن كل شيء وكل الاحتمالات. يطلق بوم على الكون اسم «الكون الهولوغرامي»، حيث كل جزء يتضمن الكل (وهذا أيضاً ما اكتشفه الصوفيون قبل ألف عام)، وحيث الماضي والحاضر والمستقبل، كما المكان، موجودون كلهم في

---

(٨) David Bohm, *Wholeness and the Implicate Order* (London: Routledge, 1980).

«إناء واحد» ويتصلون بعضهم ببعض اتصالاً لا فكاك فيه. أما ما نراه «أنا» و«أنت» من أشياء حسية منفصلة فهو وهم. كل الأجزاء في الكون ما هي إلا أوهام تخلقها تفسيرات خلايا الدماغ البشري المولعة بتجزئة الأشياء. فالكل موجود في الجزء والجزء موجود في الكل (الهولوغرام).

نظرية بوم هذه وجدت دعماً كبيراً من الفيزيائي ألان أسبكت الذي أجرى تجربة في أواخر القرن العشرين قد تغيِّر مجرى العلم. فقد اكتشف أسبكت وفريقه أنه في ظروف معينة تكون الجُسيمات تحت الذرية قادرة على التواصل الفوري مع بعضها بعضاً، بغض النظر عن المسافات التي تفصل بينها. فلا يهم ما إذا كانت هذه الجسيمات على بعد ١٠ أقدام أو ١٠ ملايين ميل. إذ بطريقة ما، كل جُسيم يبدو دوماً أنه يعرف ماذا يفعل الجسيم الآخر. هذه التجربة أوحت بخرق مبدأ انشتاين القائل بأنه لا اتصالات يمكن أن تحدث بسرعة أسرع من الضوء. الفيزيائيون عجزوا عن تفسير هذه الظاهرة المذهلة، لكن بوم وحده كان جريئاً بما فيه الكفاية ليعلن أن تصرفات الجُسيمات تثبت أن ما نراه من جسيمات عديدة ليس كذلك في الحقيقة بل هي جسيم واحد في إطار هولوغرام واحد يحتوي كل شيء وعلى كل المعلومات في الكون. مرة أخرى: الكل في كل جزء.

تتناقض نظرية الهولوغرام هذه حرفاً بحرف مع كل مبدأ العلم الغربي (والفكر الرأسمالي) الذي يقول إن أفضل وسيلة لفهم الظاهرة المادية، سواء كانت ضفدعة أو ذرة، هي تقطيعها ودراسة أجزائها. لكن تقطيع الهولوغرام لا يؤدي سوى إلى أجزاء تتضمن الكل مهما صغر حجم هذه الأجزاء.

ويعتقد بوم أن الجُسيمات ما تحت الذرية تستطيع الاتصال بعضها ببعض، ليس لأنها ترسل إشارات أسرع من الضوء، بل لأن الانفصال بينها وهم. ففي مستوى أعمق من الحقيقة هذه الجُسيمات ليست كيانات فردية بل هي في الحقيقة امتدادات للشيء الأساسي نفسه. إننا نرى الأشياء مثل الجُسيمات دون الذرية منفصلة، لأننا لا نرى سوى جزء من حقيقتها. فهذه الجسيمات ليست «أطرافاً» منفصلة بل هي أوجهٌ من وحدة أعمق كامنة. هي في نهاية المطاف كيان هولوغرامي لا ينقسم كما الوردة. وبما أن كل شيء في الحقيقة المادية يتكوّن من أطياف وأشباح، فإن الكون نفسه هو مجرد انعكاس لحقيقة أعمق: الوحدة، الواحد. الكل المتكثف في الجزء.

يتضمن هذا الكون كذلك سمات مذهلة أخرى. فالإلكترونات في ذرة الكربون في الدماغ البشري ترتبط بالجُسيمات دون الذرية في كل سمكة سليمان تسبح، وكل قلب ينبض، وكل نجم يلمع. كل شيء يخترق كل شيء. الكون شبكة واحدة متصلة.

فكر بوم هذا متّسق مع نظرية البنية الموجية للمادة التي تقول إن الحقيقة على مستوى أساسي ليست مصنوعة من أجزاء جامدة ومنفصلة (جُسيمات) بل كل تموجي واحد لا تنفصم عراه. وهو انطلق من التفكير بأسباب التناقض الكبير بين نظريتي الفيزياء: الكم (الكوانتوم) والنسبية. وهو تناقض لا يُعتبر البتة تفصيلاً بسيطاً بل هو أساسي، لأن فيزياء الكم تتطلب أن تكون الحقيقة غير متواصلة وغير محلية، فيما النسبية تتطلب أن تكون الحقيقة متواصلة وسببية. لحل هذا الإشكال،

بحث بوم عمّا هو مشترك بينهما وما اكتشف هو كلٌ غير منقسم. وهذه أصبحت مساهمته الكبرى في الفيزياء الحديثة.

يحتوي الكون الهولوغرامي على كل تشكّل ممكن للمادة والطاقة. إنه مخزن كوني (وهذا قريب من فكرة «اللاشيء» أو «اللامتعيّن» في الفلسفة الشرقية الذي يولد كل شيء منه ويعود إليه). مع ترابط كل شيء بلانهاية، تصبح ظاهرة التخاطر عن بُعد (Telepathy) مجرد دخول إلى مستوى هولوغرافي من اللاوعي أو الجماعي البشري. وهكذا، يستطيع كل عنصر فردي كشف معلومات مفصلة عن كل شيء في الكون. الفكرة الرئيسة هنا هي تلك الكليانية لإجمالي الوجود كحركة تدفق لا تنقسم ولا تعرف حدوداً.

ثمة بعدٌ أعمق للحقيقة ينبثق منه المكان والزمان، تماماً كما أن التلفزيون ثنائي الأبعاد يتضمن حقيقة ثلاثية الأبعاد. هذه الحقيقة هي «النظام المُتضمن». هناك تطور في الكون لأن هناك مستويات مختلفة من أبعاد الحقيقة الكامنة كلها في النظام المتضمن. الأمر يشبه البذرة التي يتضمن فيها كل تركيب شجرة الكينا الضخمة. البذرة هي النظام المتضمن الذي يحتوي على كل المعلومات الخاصة بنشوء الشجرة. وبالمثل الحياة متضمنة في النظام المتضمن.

يعتبر بوم الوعي سمة عميقة للكون الذي قد لا يكون تاماً من دونه. وبسبب مشاركة الإنسان، بات النظام المتضمن يعرف نفسه بشكل أفضل. وهكذا، الفرد الذي يستخدم الطاقة الداخلية (للنظام المتضمن) يستطيع، برأي بوم، تحويل الجنس البشري برمَّته.

عند هذه النقطة، نصل إلى الربط المُحكم الذي ينسجه هذا العالم بين النظرة العلمية الجديدة وبين كل من الوعي البشري الجديد ومستقبل البشرية ككل. فهو يعتبر أن بروز عناصر وفئات بشرية قادرة على كسر ما يسميه «تلوث العصور» (أي الآراء المخطئة التي تعمم الجهل القاتل الذي يفصل بين الإنسان وبين الطبيعة وبين البشر وباقي المخلوقات والموجودات)، يمكن أن يولِّدوا القوة الكاسحة الضرورية لإشعال كل الوعي العالمي أو الوعي الكوني. ففي النظام المتضمن هناك وعي جماعي في العمق لكل الجنس البشري. ومسؤولية كل فرد هي المساهمة في إبراز هذا الوعي الجماعي البشري وهذا المحيط العقلي (Noospher)[٩]، أي فضاء الفكر البشري. ليس هناك شيء آخر نفعله غير ذلك، وليس هناك، برأي بوم، مخرج آخر من جهنم التي نعيش غير ذلك. هذا بالمطلق ما يجب أن نفعل.

البشرية هي مسيرة الحج في هذه العملية الكونية. والشر هو اللانظام الذي يسبب الشقاء. لا يعتقد بوم أن هناك لانظاماً على المستوى غير الإنساني بل هو موجود فقط على المستوى

---

(٩) المحيط العقلي هو تعبير اشتقّه فلاديمير فيرنادسكي (Vladimir Vernadsky) وتيلار دي شاردان (Teilhard de Chardin) في عشرينيات القرن العشرين. وهما اعتبرا أن المحيط العقلي هو ثالث مجال من مجالات تطور كوكب الأرض، بعد المحيط الجيولوجي (Geosphere) والمحيط البيولوجي (Biosphere). فكما أن بروز الحياة غيّر الحقل الجيولوجي، كذلك سيغيّر بروز الإدراك الإنساني المحيط الحيوي بشكل أساسي.

الإنساني، أساساً بسبب الجهل: أي جهل الوحدة العميقة لكل شيء. سيستمر اللانظام طالما أن البشر لا يدركون هذه الحقيقة ولا يعملون معاً على بلورة هذا الوعي الجماعي.

فالتمييز الشائع بين الشعوب (العرق، الأمة، العائلة، المهنة... إلخ) هو الذي يمنع الجنس البشري الآن من العمل معاً للصالح العام. الفكرة أن كل الأجزاء قائمة بشكل منفصل هي بوضوح وهم. وهذا الوهم لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يقود إلى نزاعات وفوضى في المجتمعات البشرية لا نهاية لها. والواقع أن هذه الفكرة هي التي أدت إلى السلسلة المتنامية من الأزمات العاجلة للغاية التي تواجهنا هذه الأيام. وهكذا وكما نعرف جيداً اليوم، هذا النمط من الحياة جلب لنا التلوث وتدمير توازنات الطبيعة، والطفرة الزائدة في تعداد السكان، والفوضى السياسية والاقتصادية في طول العالم وعرضه. كما خلق بيئة غير صحية لا مادياً ولا عقلياً لمعظم الناس الذين يعيشون في إطارها. لقد باتت الفردية الأنانية هي السجن الجهنمي الحقيقي الذي تصوّره الأيديولوجيا الغربية الميكانيكية على أنه الجنّة المرتجاة على الأرض.

بات الغرب، وبعد انبلاج عصر الفيزياء الحديثة، في حاجة إلى الشرق لأنه (كما يقول خليل أحمد خليل عن حق)[10] لم يعد يرى نفسه في مرآة الحقيقة بل في مرآة الحروب: حروب على الذات تدمرها، أو حروب على الذات الأخرى والطبيعة. ونظرية الميتا ـ واقعية الجديدة[11] قد تكون هي مخرج الغرب من هذا المأزق، لأنها فكر جديد يمحو الحدود بين المادة والروح، ويكشف عن حضور الروح في قلب المادة أو في قلب الوردة القادرة، كما يقول هيدغر، على الإفصاح عن سر الوجود وعن لغز الكون: «ليس في مستطاع أي كان أن يقول ما تقوله الوردة. فهي كانت هناك، بسيطة، طاهرة، صافية، صامتة، واثقة من نفسها، تفصح عن حضور الروح وراء المادة المرئية التي يثبت الآن أنها وهم».

تعني «الروح» هنا محيط حقل طاقة لا نهاية له منه تولد كل الأشياء وإليه تعود. منه أيضاً يولد الوعي والحياة التي تنهض من قلب المادة ومن قلب الجماد، فتكون بذلك ارتقاء ضرورياً للمادة يؤكد أن الحياة مدعوَّة حتماً إلى الارتقاء في سلّم صاعد نحو وعي أكبر.

والحال أن العالم بأسره يبدو متجهاً نحو الوعي. فالمادة بلا وعي ليست سوى دمار للعالم. ولولا وعي يشهد لذاته لما أمكن للعالم نفسه أن يوجد. فنحن العالم ذاته. حياته. وعيه. وهو موجود على ما يبدو لاستيلاد الوعي. هل كان هنري بيرغسون مغالياً حين اعتبر أن «بارقة وعي محض، هي أصل الكون»؟

---

(١٠) جان غيتون، **الله والعلم**، ترجمة خليل أحمد خليل (بيروت: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ١٩٩٨).

(١١) الميتا ـ واقعية (Metarealism) هي في الأساس اتجاه في الشعر الروسي برز في سبعينيات القرن العشرين، لكنه تحوّل بعد ذلك إلى مقاربة فلسفية جديدة تمحو الحدود بين المادة والروح. «ميتا» تعني في آن «خلال» و«ما بعد» الواقع الذي نستطيع أن نرى. لا علاقة للميتاواقعية بالسوريالية، لأنها تركِّز على الوعي الأعلى (Superconscious) وليس على ما دون الوعي (Subconscious)، وبالتالي فهي تفتح الأبواب والنوافذ أمام إدراك متعدد الأبعاد للوجود.

لكن، ما هو الوعي؟ ما طبيعته؟ وكيف تطور؟ وإلى أين يتجه الآن؟ وما سمات الوعي الكوني الجديد الذي يفترض أن نستولده من رحم الأزمة الكبرى الراهنة التي تعيشها البشرية ومعها كل الحياة على كوكب الأرض؟ وما علاقة «الأنا الأنانية» (ego) به؟

هذه الأسئلة تنقلنا إلى العامل الثالث الذي يجب أن يدفع إلى ثورة شاملة في الإدراك، وهي معركة الوعي الراهنة بين مختلف مشارب التوجهات العلمية.

ثالثاً: معركة الوعي

الجدل بين النظريات المادية المكانيكية والحيوية والشمولية، بصفتها المقاربات السائدة في العصور الحديثة[١٢]، حول كل من مسألتي الوعي والحقيقة، والذي وصل إلى ذروته في أواخر القرن العشرين، لم يعد مجرد اجتهادات فلسفية أو علمية، بل بات مسألة وجودية ـ سياسية من الطراز الأول، تتصل مباشرة بمسألة بقاء الجنس البشري أو انقراضه. إذ إن هذا الجدل يجري في إطار أزمة بيئية كبرى لا تقلب موازين الطبيعة وحسب بل تشي بعدم ملاءمة الأنظمة الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية الراهنة، لمستلزمات الحياة البشرية (والحياة عامة) على كوكب الأرض.

تستند المقاربة الحيوية (Vitalism) الحديثة إلى فرضية أن عمليات الحياة تحتوي على مبدأ أساسي وجوهري غير مادي ولا يمكن تفسيره بشكل كامل كظواهر فيزيائية أو كيميائية. لكنها تعتبر المتعضّيات (الكائنات الحية) وحدها حيّة، فيما هي تترك بقية الطبيعة للمادية الميكانيكية.

النظرية المادية الميكانيكية للحياة تنفي وجود اختلاف بين المتعضّيات الحية والمتعضّيات الميتة أو المادة غير الحية عموماً. فهي تعتبر المتعضّيات مجرد آلات تحكمها فقط قوانين عامة للطبيعة هي نفسها القوانين التي تنطبق على الكيمياء والفيزياء. الميت والحي لا يختلفان بالنسبة إليها إلا بالدرجة، وهما يخضعان للقوانين الكيميائية والفيزيائية نفسها. تنظيم المادة الحية لا يعتمد على أي مبدأ غير مادي عدا هذه القوانين.

بيد أن المشكلة المزعجة للميكانيكيين منذ عصر الأنوار هي ما هدف المتعضّيات الحية. إذ يبدو أن الجنين لديه حافز ليكبر إلى متعضٍّ بالغ. وغرائز الحيوانات مثل بناء العنكبوت لشبكته، أو النمل والنحل لقفيره، أو هجرة الطيور، تكشف عن أنها مدفوعة بدوافع وأهداف داخلية. الحيويون ينحون هذا إلى الروح أو مبادئ الحياة، لكن الميكانيكيين يرفضون ذلك ويستبدلونه بـ «جرثومة الجِبِلة» (Germ Plasm) الوراثية الموجودة في نواة الخلية. هذه النواة أشبه بدماغ دقيق يدير ويوجِّه جسم الخلايا المحيطة به. وهذا الدور أُنيط الآن بالجينات التي تتألف من جُسيمات الحمض النووي.

---

(١٢) اعتمدنا في استعراض مقولات هذه النظريات على كتاب روبرت شيلدريك **انبعاث الطبيعة**. انظر: Rupert Sheldrake, *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God* (London: Park Street Press, 1990).

بيد أن هذه الجسيمات أبعد ما تكون عن كونها مجرد جزيئات لا حياة فيها، ولذلك مُنِحت كل خصائص العقل والحياة. لا بل يُعتقد أيضاً أنها أنانية.

العالم الحي بالنسبة إلى الميكانيكيين يجري تماماً كما الاقتصاد الرأسمالي، حيث توجد السمات الفردوية والأنانية والمتنافسة التي تعتبر بديهيات من جانب أنصار نظريات الاقتصاد الحر. الجينات هنا باتت أشبه بـ «اليد الخفية» للسوق. والمتعضّيات هي مجرد آلات بقاء تبنيها الجينات الأنانية لنفسها لتعيش فيها. هذه الجينات لم تعد محض كيميائية بل أصبحت حية ولها عقول مثل الرجل قاسي القلب، وهي تملك القوى لـ «خلق الشكل» وتشكيل المادة، و«تختار» بل هي تنخرط أيضاً في «سباق تسلح تطوري»، وحتى تتطلع إلى الخلود. وهكذا، فإن نظرية الجينة الأنانية تأخذ نزعة مركزية البشر إلى درجة متطرفة لا سابق لها في العلم.

أشهر تطبيقات هذه النظرية الآن هي الكومبيوتر وبرامجه. فالمبادئ التنظيمية الهادفة للمتعضّيات تعتبر الآن «برامج جينية» تشبه برامج الكومبيوتر. وهذه طريقة أخرى لمنح جزيئات الحمض النووي خصائص العقل والحياة. أنها جسيمات الروح وقد تجسّدت في الجينات. لكن من يكتب هذه البرامج الجينية؟ على الرغم من أن معظم البيولوجيين يدعون أنهم لا يزالون ماديين ميكانيكيين، إلا أن أنموذج البيولوجيا المعاصرة قد أصبح في الواقع شكلاً خفياً أو سرياً من النزعة الحيوية، حيث «البرامج الجينية» و«الجينات الأنانية» تلعب دور العوامل المنظمة الحيوية.

فيما النظريتان الميكانيكية والحيوية تعود بدايتهما إلى القرن ١٧، فإن النظرية الشمولية (holistic) بدأت في عشرينيات القرن العشرين، وهي تحاول ردم الهوة بين النظريتين. إنها توافق الميكانيكيين في تأكيد وحدة الطبيعة وترى حياة المتعضّيات مختلفة في الدرجة فقط لا في النوع عن بقية العالم المادي. كما أنها تتفق مع الحيويين في التشديد على أن المتعضّيات كلٌّ واحد عضوي ولا يمكن تقليصه إلى أنظمة فيزيائية وكيميائية أبسط.

النظرية الشمولية تتعامل مع الطبيعة ككل على أنها حيّة. وفي هذا فهي تُعتبر صيغة مستحدثة من الروحانية ما قبل الميكانيكية. ومن وجهة النظر هذه، حتى الكريستال والجُسيمات والذرات هي متعضّيات بمعنى ما. إنها ليست مصنوعة من ذرات هامدة من المادة كما في النظرية الذرية القديمة بل هي، كما أظهرت الفيزياء الحديثة، بُنى من النشاط وأنماط من النشاط الحيوي داخل حقول. وكما في تعبير الفيلسوف ألفرد نورث وايتهيد (Alfred North Whitehead): «علم الأحياء هو دراسة المتعضّيات الكبيرة، فيما الفيزياء هي دراسة المتعضّيات الصغيرة»[١٣].

(١٣) يرى الفيلسوف ألفرد نورث وايتهيد (Alfred North Whitehead) أن: «ثمة حاجة عاجلة لرؤية العالم بوصفه شبكة من العمليات المترابطة التي نحن جزء عضوي فيها، وأن كلّ خياراتنا وأعمالنا لها مضاعفات على العالم من حولنا». أحد أهم التطبيقات الواعدة لفكر وايتهيد تكمن في بروز «الحضارة الإيكولوجية» والأخلاقيات البيئية التي تدعو إلى تمديد الحدود التقليدية الراهنة للأخلاق من البشر إلى العالم غير البشري.

يرد الشموليون على الميكانيكيين بأنه ليس ثمة آلات تنمو وتتطور بشكل تلقائي من بيض الآلات، وهي لا تستطيع أن تتناسل كما مع بعض المتعضّيات التي تتكاثر حتى لو قُطعت إلى ألف قطعة.

لطالما جادل الحيويون بأن التكوُّن الشكلي (Morphgenesis) لمتعضٍّ والانبعاث والتجدد العضويين، لا يمكن تفسيرهما ميكانيكياً. الآلات هي مجموع أجزائها ومجموع التفاعلات بين هذه الأجزاء. وإذا ما استبعدت بعض الأجزاء تفقد الآلة نفسها. بالمقارنة، المتعضّيات الحية تملك كلاً (Wholeness) أكثر من مجموع أجزائها ومن تفاعلات هذه الأجزاء، وهي غالباً ما تستعيد أشكالها العادية حتى حين إزالة بعض هذه الأشياء. ثمة شيء فيها شمولي وهادف يوجِّه تطورها إلى الشكل البالغ أو الناضج لجنسها. وهذه برأيهم هي روح مبدأ الحياة.

معضلة الماديين الميكانيكيين أن برامج الجينات موروثة وهادفة وتستند إلى مبادئ تنظيمية شمولية، وهي لا تتكوّن من مادة بما هي كذلك بل من معلومات. المعلومات هي من يعطي الشكل للأشياء.

طالما أن النظريتين الميكانيكية الكلاسيكية والحديثة كانتا تخوضان المعارك ضد النظريات الدينية المستندة إلى نظريات الخلق الكاملة والتدخل الإلهي أو الذكاء الكوني في شؤون العالم، كان قصب السبق لها، بسبب الإنجازات الضخمة التي حققها العلم والتكنولوجيا على كل المستويات في العصور الحديثة. بيد أن التحدي الذي تقف هذه النظرية الآن عاجزة عن هزيمته ينطلق الآن من داخل صفوف العلم نفسه. وهذا لا يستند فقط إلى ما أشرنا إليه أعلاه من تشكك برتراند رسل وغيره من كبار العلماء وفلاسفة العالم بمادية العالم المادي، بل حتى بوجوده، بل أيضاً بسبب بروز تيارات علمية مؤخراً تضع كلاً من النظريتين الميكانيكية والدينية في سلة واحدة من حيث الابتعاد عن الحقيقة.

١ ـ «الواقعية غير المادية»

أبرز ممثلي هذه التيارات هو توماس ناغل (Thomas Nagel) الذي يرفض، رغم كونه فيلسوفاً بارزاً ملحداً، المقاربات المادية والاختزالية (Reductionism) التي تفسّر كل الظاهر بالعوامل الفيزيائية والبيولوجية. يقول ناغل[١٤] إن العلوم الطبيعية الحديثة غير قادرة على تقديم وصف دقيق للطبيعة، وبخاصة للطبيعة الإنسانية. فعمليات الوعي وأحكام القيمة هي سمات حقيقية للكون، ومع ذلك فهي لا توضع في فئات العلوم الطبيعة، كما هي الآن. يجب أن يكون التطور البيولوجي أكثر من مجرد عملية فيزيائية وأكبر من نظرية التطور. وإذا ما أريد له أن يفسّر وجود الحياة الواعية، فيجب أن يكون أكثر من مجرد نظرية فيزيائية.

(١٤) Thomas Nagel, «The Core of «Mind and Cosmos»,» *The New York Times*, 18/8/2013, <http://opinionator.blogs.nytimes.com/2013/08/18/the-core-of-mind-and-cosmos/?_r=0>.

يعتقد ناغل بأن علينا أن نكتشف، أو نعيد اكتشاف، النظام المتأصّل باطنياً في الطبيعة، وهذا يجب أن يكون جزءاً من أي علم متوسِّع. يقول: العقل ليس حادثاً يتعذر تفسيره أو هبة سماوية أو شاذة، بل مجال أساسي من الطبيعة الذي لن يُفهم حق فهمه إلا حين نتجاوز حدود الأرثوذكسية العلمية التي فشلت في آن في الاعتراف بوجود العقل والوعي ثم في تقديم تصوُّر وفهم واضحين لهما. وهو يعتبر أن هذا الفشل يتطلب إعادة النظر بالعلوم الطبيعية ومنهجها.

يرى ناغل أن المتعضّيات الحية التي تملك قدرات عقلية هي في الواقع وحدة حقيقية. فالإنسان هو الذي يفكر ويعمل وليس الدماغ الذي يفكر ولا الجسم هو الذي يعمل. من دون كون الإنسان واحداً فلا مسؤولية ولا أخلاق.

تعرَّض ناغل لهجمات عنيفة نتيجة تجذر الفكرة (الغربية) المادية المتطرفة الراهنة عن العالم، عبر الاعتقاد بأن الفيزياء في صيغتها الراهنة قادرة على تقديم «نظرية لكل شيء». لكنه يعتقد أن هذا الاحتمال مستبعد بسبب الظروف التي حددت العلوم الفيزيائية من البداية. هذه العلوم تستطيع أن تصف متعضّيات مثلنا كجزء من النظام الزمكاني الموضوعي ـ أي تركيبنا وسلوكنا في الزمان والمكان ـ ، لكنها لا تستطيع أن تصف التجارب الذاتية لمثل هذه المتعضّيات أو كيف يظهر العالم لمختلف وجهات النظر. ولذلك فإن العلوم الفيزيائية، وبرغم كل نجاحاتها، تترك بالضرورة حيزاً هاماً من الطبيعة من دون توضيح. وبالتالي، العلم يجب أن يتوسَّع إلى ما بعد العملية الفيزيائية وإلى ما بعد نظرية التطور، إذا ما أراد فهم الحياة الواعية. يجب أن يصبح أكثر من مجرد نظرية فيزيائية. يقول: «العلم الميكانيكي ينفي أن يكون الوعي والعقل جزءاً من الحقيقة على الإطلاق، ويعتبر أنه نوع من الوهم». لكن، هو وهمٌ لمن؟

يرفض ناغل كلاً من نظرية التطور المستندة إلى العشوائية والصدفة ونظرية الخلق حول التدخل الإلهي. فالبديل بالنسبة إليه هو «الواقعية غير المادية». يقول: «أشتبه أن العقل ليس حادثاً يتعذر تفسيره أو أنه هبة سماوية أو شاذة، بل هو جزء أساسي من الطبيعة التي لن نفهمها إذا لم نتجاوز حدود العلم المعاصر. فنحن لا نستطيع أن نمتلك وجهة نظر شاملة عن الطبيعة إذا لم نضمِّنها دراسة الوعي. والعلم الصحيح يجب أن يفسِّر:١ ـ كيفية انبثاق المتعضّيات الحية من المادة غير الحية؛ ٢ ـ تطور المتعضّيات إلى أشكال معقدة؛ ٣ ـ انبثاق الوعي والدور الأساسي للوعي في حياتنا؛ ٤ ـ القيمة الموضوعية.

لا بل أكثر: النظرية المادية غير مكتملة حتى كنظرية للعالم المادي، لأن الكون الفيزيائي يشمل المتعضّيات الواعية. البيولوجيا التطورية توضح الكثير من الأشياء حول تطور المخلوقات الحية، لكنها لا توضح بروز البيولوجيا التطورية نفسها. الوعي لا يختزل بالظاهرة المادية، وثمة قوانين غائية طبيعية تحكم تطور المتعضّيات مع الزمن. والغائية الطبيعية كامنة في الطبيعة، وهذا لا ينفي تطور المخلوقات ولا الانتقاء الطبيعي، لكن هناك «استعداداً كونياً لتشكّل الحياة والوعي والقيمة التي لا تنفصل عنه». وربما هنا من المفيد برأيه العودة إلى نظريات أرسطو وسبينوزا وهيغل.

٢ ـ الوعي والماركسية

هناك، إذاً، دعوة إلى ثورة تطويرية في الوعي كما في العلوم الفيزيائية والكيميائية. لكن يبدو أيضاً أن هناك حاجة إلى ثورة أخرى في العلوم الاجتماعية التي اختزلت بدورها الوعي (والحياة) إلى مكونات مادية مطلقة.

وهنا تقفز إلى الذهن المقاربة الماركسية لمسألة الوعي، والتي احتلت طيلة جُل القرن العشرين مركز الصدارة في النقاشات الفكرية ـ الثقافية والنظرية ـ السياسية في كل أنحاء العالم. بالطبع، تضمنت هذه المقاربة إيجابيات لا ريب فيها. فهي أنزلت مسألة الوعي البشري من عالم الغموض الفلسفي السماوي إلى عالم الواقع الملموس، وأماطت اللثام عن الأيديولوجيا التي تسوِّق «الوعي المزيف» في المجتمع.

كان كارل ماركس يسعى في نهاية المطاف إلى تحقيق الحرية الإنسانية الحقيقية، فدفعه هذا إلى إحياء أفكار المفكرين القدماء حول مفهوم الشيوعية، حيث يستطيع البشر أن يحققوا أدوارهم التعاونية في داخل المجتمع من دون خوف من الاستغلال. وهو اعتبر المرحلة التاريخية للرأسمالية نفي «خبيث» لهذه الحرية لأنها وعلى عكس الإقطاع كانت (ولا تزال) قادرة على مواصلة نشر وهم الحرية، رغم أن مبرر وجودها يعتمد على أولئك الذين ليس لديهم شيء يبيعونه سوى قوة عملهم. لعل هذا كان أحد الإنجازات الكبيرة لماركس، حيث قادته هذه المقاربة إلى إجراء تحقيق شامل حول الدور الهائل للأيديولوجيا في تسيير المجتمعات. وترجم هذا نفسه في مقولته الشهيرة في **حول نقد الاقتصاد السياسي**: «ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم، بل على العكس وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم»، الأمر الذي يسفر (بشكل غير واعٍ في معظم الأحيان) عن بروز أنظمة قيَم ومعتقدات، استناداً إلى بنى اقتصادية مُحددة في كل عصرٍ من العصور.

جاء موقف ماركس هذا على طرَفي نقيض مع المدرسة المثالية التي كانت ترى أن وعي البشر هو أساس سائر الأحداث الاجتماعية، والتي تضع تحت تعبير الوعي «الروح» تارة و«العقل» تارة أخرى. وعي الإنسان الفرد مرة (على النمط الفرويدي)، ومقولات «الرأي العام» أو «الروح القومية» أو «الروح الشعبية» مرة أخرى. وهذا ما فعله أيضاً ممثلو المدرسة التاريخية الألمانية في نظريتهم عن الدولة حين استخدموا مفاهيم «الروح القومية» أو الروح الشعبية كمبادئ تاريخية كونية.

يقول أنصار التصور المثالي إن الحياة الاجتماعية لا تخضع لمبدأ السببية، بل هي تملك سببية «نفسية» خاصة، ولا يجدون في العلاقات الاجتماعية للبشر سوى علاقات نفسية. وبالتالي، علم النفس الاجتماعي بالنسبة إليهم هو العلم الوحيد القادر على تفسير التاريخ[١٥]، بمعزل عن العلاقات المادية للبشر.

---

(١٥) أ. ك. أوليدوف، **الوعي الاجتماعي**، ترجمة ميشيل كيلو (دمشق: دار ابن خلدون، ١٩٧٨)، ص ٨ وما بعدها.

هذا الفصل الكامل بين الوعي وبين المعطيات الاقتصادية ـ الاجتماعية في التاريخ والمجتمعات، أدى إلى فرض قيود أيديولوجية ودوغمائية واضحة على فرص تطوير وعي بشري جديد ومتوازن ومتطور، رغم ادعاء العلوم الاجتماعية والسايكولوجية وسوسيولوجيا المعرفة الغربية التمسُّك بالمنهج العلمي في مقاربة مسألة الوعي. هذا مع أن تطور العلوم نفسها، خاصة العلوم الطبيعية، ارتبط تاريخياً بحاجات ومصالح الإنتاج المادي، هذا ناهيك بتحوّله هو نفسه في العصر الحديث إلى قوة منتجة.

ماركس وأنغلز لم ينكرا طبيعة ما هو فكري، أي طبيعة الوعي، لكنهما يقولان في **الأيديولوجيا الألمانية** إن «الأفكار السائدة ليست سوى التعبير الفكري عن العلاقات المادية السائدة المعبر عنها بأفكار».

بيد أن الماركسيين اللاحقين، مثل توغارينوف، كانوا حرصاء على التمييز بين الوعي على إطلاقه وبين الوعي الاجتماعي؛ يقول توغارينوف[١٦]: «تدخل في الوعي ـ إطلاقاً ـ كل الأفكار حول العالم المحيط بنا وليس فقط حول المجتمع. وهنا يمكن للمرء أن يفكر بالمقولات حول الطبيعة التي لا يمكن اعتبارها جزءاً من الوعي الاجتماعي باعتباره انعكاساً للعلاقات الاجتماعية». وهكذا يميّز توغارينوف بين وعي الطبيعة وبين وعي المجتمع، ويستثني وعي الطبيعة من الوعي الاجتماعي.

وهذا أمر بالغ الأهمية، لأنه يُسقط عن الماركسية تهمة تحويل كل أنواع الوعي والفكر إلى مجرد انعكاس صرف (ولو كان ديالكتيكياً) للواقع المادي، الأمر الذي يفسح في المجال واسعاً أمام مقاربة ماركسية جديدة لمسألة الوعي، تأخذ في الاعتبار المكتشفات الهائلة في العلوم الحديثة، خاصة فيزياء الكم، والتي تعطي الوعي والمراقب الواعي دوراً كبيراً في تشكُّل الظواهر المادية.

إن المقاربة الماركسية للوعي، ومعها الأيديولوجيات المنبثقة منه، تبقى ضرورية لرسم معالم الوعي العالمي الجديد الذي يتم السعي إليه في أوائل القرن الحادي والعشرين، والذي ينطلق (من فوق) من حقيقة وحدة الكون والمخلوقات، ويجب أن يستند (من تحت) إلى تغييرات اقتصادية ـ اجتماعية شاملة لا غنى عنها لإطلاق الوعي الجديد من عقاله. فوعي جديد من دون أساس مادي هو سراب، ووعي مادي من دون تطور روحي هو صحراء جدباء لا بد من أن تؤدي في نهاية المطاف إلى توتاليتارية ودكتاتورية جامحة، كما حدث طيلة القرن العشرين.

هذا لا ينفي بالطبع ضرورة تصفية الحساب بشكل جذري مع التجارب الماركسية في القرن العشرين التي دفعت مقولة ماركس حول كون الواقع الاجتماعي أساس الوعي إلى ذرى مادية مطلقة، أسفرت في نهاية المطاف عن التوتاليتارية التي أشرنا إليها، في مجالين اثنين: البيئة أو العلاقة بين الاشتراكية والطبيعة، والتطور الروحي للوعي البشري.

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

والحال أن لينين وجد نفسه معارضاً للحركة البيئية البولشيفية الناشئة ولبطلها ألكسندر بوغدانوف الذي هوجم لاحقاً بصفته «مثالياً»، انطلاقاً من فلسفته التي تأسست سريعاً على رفض الثنائية المادية الشبيهة بالفصل الديكارتي التي جعلت البيئة والطبيعة تلك المادة الميتة التي يجب أن تعمل عليها اليد الإنسانية بلا ضوابط ولا قوانين. وفي الظروف الروسية أيام لينين، عنى هذا التصنيع السريع وبأي طريقة مهما كانت مضرة بالبيئة وبالديمقراطية الداخلية للاشتراكية، بهدف إخراج روسيا من دائرة التخلف. وقد فاقم هذه النزعة رغبة النخبة السوفياتية في اللحاق بالغرب الرأسمالي والأزمة الحادة الداخلية والخارجية التي عاشتها الثورة البلشفية في سنواتها الأولى.

الستالينية، التي دمّرت البيئة والمجتمع، لم تكن إذاً مجرد نزعة شخصية من ستالين أملتها «الثورة من فوق» التي أراد تحقيقها، بل هي حصيلة لدفع مقولة ماركس حول الوعي إلى أقصى درجات التطرف المادي. وهذا ما جعل الاشتراكية البلشفية تسقط في نهاية المطاف في أشداق العداء للحركات البيئية والإيكولوجية، من جهة، وتدير الظهر لتفتح الوعي الجديد المتحرر من قيود صراع البقاء والمنطلق إلى رحاب «الإنسان المتفوق الاشتراكي» الذي كان الاشتراكيون يبحثون عنه.

* * *

هذه العوامل الثلاثة التي تطرقنا إليها: الأزمة البيئية الطاحنة، والتطورات المذهلة في العلوم الحديثة، ومعركة الوعي الطاحنة هي الأخرى بين النظريات العلمية ـ الاجتماعية، تتقاطع الآن ممهدة أمام شق طريق جديد، وفجر جديد، ووعي جديد محتمل للمشروع البشري.

الفصل السادس

الإيكو ـ اشتراكية، علم النفس النقدي، وحركة التطور الواعي: خطوات جريئة نحو «الإنسان الكامل»

ليس هناك تقدّم نحو الوعي من دون ألم.
والناس سيفعلون أي شيء، مهما كان
سخيفاً، لتجنّب مواجهة روحهم. المرء
لا يصبح مستنيراً عبر تخيّل أشكال الضوء،
بل عبر جعل الظلمة وعياً.

سي.جي. يونغ

الوعي الجديد أو الجميل، الذي أشرنا إليه في الفصل الخامس، لن يستطيع الولادة والترعرع والازدهار، ما لم يتم قبل ذلك تصفية الحساب مع الوعي القديم الذي ساد جل تاريخ الحضارة البشرية، والذي يتبيّن الآن ليس أنه لم يعد مناسباً للبقاء وحسب، بل بات يتهدد بقاء الجنس البشري والحياة نفسها على كوكب الأرض.

كتب إيكهارت تول[1]: «العقل البشري ذكي للغاية، لكن ذكاءه هذا ملطّخ بالجنون. وقد عمل العلم والتكنولوجيا على تضخيم التأثيرات المدمّرة الذي مارسها خلل العقل البشري على الكوكب وأشكال الحياة الأخرى وعلى البشر أنفسهم. والحال أنه لو كان تاريخ البشرية يتلخّص بتاريخ الحالة السريرية لإنسان واحد بعينه لجاء التشخيص كالتالي: تهويمات ارتيابية حادة، ونزعة اضطراب عقلي (سايكوباثي) لارتكاب الجرائم وأعمال العنف الفظيعة، وقسوة ضد من يعتبرهم «أعداء» بينما هم في الواقع انعكاس خارجي لوعيه الباطن. ثمة جنون إجرامي، مع برهات مشرقة وجيزة».

(١) Eckhart Tolle, *A New Earth: Awakening to Your Life's Purpose*, Oprah's Book Club; Selection 61 (New York: Penguin Books, 2005), pp. 11-12.

لا أحد من المفكرين، على ما نعلم، أطل على التاريخ البشري إطلالة إيجابية. وحتى حين تكون مثل هذه الإطلالات موجودة، مثل تطور الروح المطلقة في التاريخ عبر الديالكتيك المثالي لدى هيغل، أو مسيرة المجتمعات الحتمية نحو الاشتراكية لدى الماركسية الكلاسيكية عبر الديالكتيك المادي، فإنها لا تنفي في الواقع أن هذا التاريخ لا يعدو كونه سجلاً للجرائم وضروب الحمق والمصائب.

تساءل أمين معلوف، في **اختلال العالم**[٢]: هل بلغ جنسنا البشري، بمعنى ما، عتبة قصوره الخلقي، وهل باشر تواً حركة تقهقرية... مع صعود التعصب والعنف والنبذ واليأس؟ إن الإنسانية تواجه في مرحلة تطورها الراهنة إخطاراً جديدة لا مثيل لها في التاريخ».

بيد أنه في مرحلة لاحقة من هذا الكتاب يعتبر أن المرحلة الراهنة «ليست نهاية التاريخ»، إلا أنه يرجح أن تكون نهاية غسق تاريخ ما. فالتاريخ الذي ولى زمانه والذي يجب أن يختتم الآن هو تاريخ البشرية القَبَلِي. «تاريخ الصراع بين الأمم وبين الدول وبين الجماعات الإثنية أو الدينية كما بين الحضارات المشحون بتشنجات الهوية وانطواءاتنا الإثنية العمياء وأنانيتنا المشهورة بقدسيتها سواء أكانت «وطنية» أو طائفية أو ثقافية أو إيديولوجية»[٣].

لكن، كي تنتهي هذه الحقبة وتولد من رحمها حقبة جديدة، يجب أن ينتهي أيضاً حامل هذا التاريخ: نمط الوعي القديم المتمحور حول الأنا الأنانية الذي هو في الواقع لاوعي جنوني جعل البشر أشبه بآلات قتل عمياء لأنفسهم وللبيئة ولكل المخلوقات. فهو، سواء أكان وعي الأنا الفردية أو الجماعية الأنانية، أشعل على نحو مستدام حروب الجميع ضد الجميع، ونشر الأمراض النفسية والعضوية، وخلق الأيديولوجيات المغلقة التي تحوّل كل ما هو «آخر» إلى خطر يجب إبادته، وسد الأبواب والنوافذ أمام إدراك الإنسان لوحدة وترابط كل المخلوقات والموجودات واعتمادها المطلق في وجودها على بعضها بعضاً.

أولاً: الرأسمالية المستدامة

آل غور، نائب الرئيس الأمريكي الأسبق وزعيم حركة إنقاذ الأرض، تبنى وبالكامل كل نظريات علم «الاقتصادات السلوكية» (Behavioral Economics). وكما هو معروف، هذا الفرع الجديد من علم الاقتصاد يُطبّق البحث العلمي على العوامل البشرية والاجتماعية، والمعرفية والعاطفية، لمحاولة فهم دوافع قرارات الإنسان الاقتصادية.

على سبيل المثال، يرى علماء الاقتصادات السلوكية أن الدماغ البشري بَرْمَجَ نفسه على التفكير قصير الأمد. لماذا؟ لأن التطور كافأ النجاحات السريعة في تجنّب الضواري والمخاطر الأخرى

(٢) أمين معلوف، **اختلال العالم** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٩)، ص ١١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

التي واجهها أجدادنا في العصر الحجري. ورغم أن هذا كان أمراً إيجابياً في الماضي، إلا أنه أصبح سلبياً الآن. فالمخاطر القديمة زالت، لكننا لا نزال نفكّر على المدى القصير.

آل غور ينطلق من هذه المقولة ليدعو إلى تفكير جديد بعيد المدى، يقود إلى استيلاد رأسمالية جديدة يسميها «الرأسمالية المُستدامة»(٤). وهو يرى في ذلك المخرج الوحيد من الأزمات المالية ـ الاقتصادية الحالية، ناهيك بأنها قد تكون الطريقة الوحيدة لوقف قذف ٩٠ طناً يومياً من الملوّثات إلى الغلاف الجوي للأرض، ما يؤدي إلى كارثة الاحتباس الحراري الراهنة.

نختلف بالطبع مع آل غور حول إمكان ولادة مثل هذه الرأسمالية. فهذه الأخيرة كانت منذ ولادتها في القرن السادس عشر، ولا تزال في القرن الحادي والعشرين، تتمحور حول ما تسميه الفيلسوفة الأمريكية آيان راند (Ayn Rand) «الأنانية العقلانية والأخلاقية» (Rational and Ethical Egoism) التي تعتبر أنه حين يبحث الفرد عن مصالحه الخاصة بحرية ومن دون تدخل الدولة، يكون «أخلاقياً في أنانيته». ولأن هذه «الأنانية الأخلاقية»، التي تم تبينها كلياً في الغرب، لا تستطيع التفكير بمصالح بعيدة المدى (خاصة منها المصلحة العامة البشرية أو العالمية)، سيكون من الصعب عملياً استيلاد «رأسمالية مُستدامة». هذا بالطبع إلا إذا قبلنا منطق البعض حول قيام «الاشتراكية» ببناء هذا النمط من الرأسمالية، كما يحدث الآن في الصين(٥).

بيد أننا قد نتفق مع آل غور في أمر آخر: البرمجة الخاطئة لأدمغتنا، والتي تدفعنا إلى محاولة حل المشاكل الجديدة عبر وعي قديم.

فلنتلفَّت قليلاً حولنا. ماذا سنجد؟ حروب وصراعات؛ أحقاد وضغائن؛ أزمات نفسية تتحوّل إلى أمراض عضوية عضال؛ سعادة مفقودة وتعاسة مُقيمة؛ قتل على الهوية الدينية أو العرقية، وقتال على الطريقة التي يقرر بها الله أن يتجلى في العالم. إنها حقاً جهنم على الأرض. وما أسبابها؟

ثمة سبب رئيس: البشر لا يزالون يعتقدون أنهم يعيشون في العصر الحجري حيث الحيوانات الضارية والمفترسة، والبرد أو الحر القاتلين، والندرة في المأكل والمشرب. وهذا ما دفعهم إلى وضع صراع البقاء أو البقاء للأصلح (Survival of the Fittest) على رأس جدول أعمالهم.

الظروف الخارجية تغيّرت كلياً، لكن الساعات البيولوجية لأدمغتنا لا تزال متوقفة عند السنة المليون قبل الميلاد. هذا بالطبع عدا قلة قليلة كانت هي الناجية من هذا الجحيم الأرضي، لأنها

---

(٤) Al Gore and David Blood, «Time is Up for Short-Term Thinking in Capitalism,» *Financial Times* (26 November 2009), <http://www.ft.com/cms/s/0/1b1067b2-dacd-11de-933d-00144feabdc0.html>.

(٥) قبل نحو ٥٠ سنة، كانت الصين تموج بالثورات الثقافية والسياسية المتلاحقة ضدّ الرأسمالية والإمبريالية العالمية بقيادة الحزب الشيوعي. لكن، بعد الصفقة التي أبرمها ماوتسي تونغ مع الرئيس نيكسون في ٢١ شباط/فبراير ١٩٧٢ حول مقايضة السياسة الأممية الصينية بدمج الصين في الاقتصاد العالمي، ومع مبدأ الثورة «الليبرالية الاقتصادية» لدنغ هسياو بنغ (ليس مهماً لون القطة. الأهم أن تصيد الفئران)، بات الصينيون مطالبين من قياداتهم بمراكمة المال والأرباح، وإلى الانغماس بنشاط في بناء الرأسمالية. أُطلق على هذه العملية اسم «الرأسمالية بقسمات اشتراكية»، واعتبر دنغ أن هذا هو السبيل لانتصار الاشتراكية.

اكتشفت أنه لا يتعيّن عليها لكي تحصل على الخبز والسعادة أن تخوض الحروب الضروس، أو تنغمس في لجج الأحقاد الاجتماعية القاتلة.

هذا رغم أن العديد من العلماء يؤكدون الآن أن عهد الصراع الدارويني على البقاء، من خلال الانتقاء الطبيعي، قد انقضى أمره بعد أن أصبح البشر هم الجنس الوحيد على كوكب الأرض الذي أوقف عملية الانتقاء هذه، من خلال التطويرات الطبية والصحية التي أبقت أضعف الاشخاص على قيد الحياة، وأيضاً من خلال التمازج بين الأجناس. وبهذا المعنى، كما يقول السير دايفيد أتينبورو (Sir David Attenborough)، فإن «تطور البشر البيولوجي قد توقف ولم يعد الناس خاضعين إلى قوانين التطور الدارويني»[٦]. بيد أن أتينبورو يعتقد أيضاً أن توقف التطور البيولوجي يفتح الأبواب والنوافذ أمام البشر لتحقيق التطور الثقافي، هذا رغم أنه يعتبر الجنس البشري «بمنزلة وباء على الكرة الأرضية» بسبب تكاثره من دون تخطيط. لكن، كيف يمكن لهذا التطور الثقافي أن يساعد البشر على الخروج من جهنهم الأرضية الراهنة؟ يكون ذلك عبر تاريخ جديد يكتبه وعي جديد. لكن قبل أن نمضي قدماً لمعرفة عناصر هذا الوعي الجديد الذي بات يتبلور بسرعة في العالم في العقود الأخيرة، فنتوقف أولاً أمام تركيبة الوعي وطبيعته وعلاقته بما حولنا في الكون.

١ ـ لغز الوعي

لا نبالغ إذا ما قلنا إن مسألة الوعي كانت منذ فجر التاريخ الفكري، حلبة الصراع الأولى الكبرى بين التيارات الفلسفية ولاحقاً العلمية المختلفة. وهذه المعركة لا تزال تصطرع بصخب في القرن الحادي والعشرين. حدث هذا على الرغم من أن كل المذاهب الفكرية، والآن العلمية، لم تستطع أن تقدِّم تعريفاً واضحاً أو مقنعاً لظاهرة الوعي، عدا القول إنه «يشير إلى العلاقة بين العقل والعالم الذي يتفاعل معه، وأنه يتميز بالاعتبارية الذاتية، والانتباه، والقدرة على اختبار حالة اليقظة أو الشعور بها، وحس الذات أو الفرادة الشخصية»، أو بأنه «نظام السيطرة التنفيذية التي يمتلكها العقل»[٧]. أما طبيعة الوعي ذاته، ومصدره، وتركيبته، فقد شطرت التيارين المادي والمثالي إلى معسكرين متناحرين بدا أنه لا سبيل البتة لوقف الحرب بينهما.

فقد جادل المعسكر المادي بقوة (كما رأينا في الفصل الخامس) أن مفهوم الوعي ظاهرة مزيفة، رغم اقتناع كل البشر بوجوده، إما لأنه غير متسق بشكل جوهري وإما لأن حدسنا حوله يستند إلى الأوهام. وعلى سبيل المثال، يقول غيلبرت رايل (Gilbert Ryle) إن «الفهم التقليدي للوعي يعتمد على وجهة النظر الثنوية التي تميّز بشكل مخطئ بين العقل والجسم، أو بين العقل والعالم». وهو

(٦) مقابلة مع السير دايفيد أتينبورو في دايلي تلغراف. انظر: Hannah Furness, «Sir David Attenborough: If We Do Not Control Population, the Natural World Will,» *The Telegraph*, 18/9/2013, <http://www.telegraph.co.uk/culture/tvandradio/10316271/Sir-David-Attenborough-If-we-do-not-control-population-the-natural-world-will.html>.

(٧) انظر التعريفات العديدة لظاهرة الوعي، في: «Consciousness,» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/Consciousness>.

اقترح بدلاً من ذلك الحديث ليس عن العقول والأجسام والعالم، بل عن الأفراد أو الأشخاص الذين ينشطون في العالم. وبالتالي، إذا ما تحدثنا عن «الوعي» فإننا سننتهي بتضليل أنفسنا من خلال الاعتقاد بأن ثمة شيئاً ما اسمه الوعي منفصل عن الفهم السلوكي واللغوي(٨).

انطلاقاً من اعتبار الوعي مجرد ظاهرة مزيفة أو وهم، تجنّب العلماء والباحثون الغربيون لعقود طويلة التطرق إليه بسبب شعورهم أن هذه ظاهرة ذاتية لا تخضع للاختبار والتجارب، ما يجعلها غير علمية.

كان ديكارت، كما أسلفنا، أول فيلسوف يناقش هذه المسألة بالتحديد. والجواب الذي قدمه بات يعرف بالثنائية الديكارتية، التي تقترح أن الوعي يقطن في حقل غير مادي أطلق عليه اسم «مملكة الفكر» (Res Cogitans)، بالمقارنة مع الأشياء المادية التي أسماها «مملكة الامتداد» (Res Extensa)، والتي تفترض أن التفاعل بين هذين العنصرين يحدث داخل الدماغ، ربما في بنى خط وسطي قصير يدعى الغدة الصنوبرية.

مع ثورة نيوتن في الفيزياء، مع رؤاها حول المبادئ الميكانيكية البسيطة التي تحكم الكون برمته، شعر بعض الفلاسفة بالإغراء إزاء الفكرة بأنه يمكن تفسير الوعي في إطار مادي فيزيائي بحت. أول من اقترح هذا المفهوم كان جوليان أفراي دي لا ميتري (Julien Offray de La Mettrie) في كتابه **الرجل الآلة** (L'homme Machine). ثم لحق به علماء الجهاز العصبي، مثل جيرالد إدلمان (Gerald Edelman) وأنطونيو داماسيو (Antonio Damasio) وفلاسفة مثل دانييل دينيت (Daniel Denette)، الذين جادلوا بأنه يمكن تفسير الوعي بوصفه جزءاً من أحداث عصبية تحدث في الدماغ. وقد عمل العديد من علماء الجهاز العصبي على استطلاع الأساس العصبي للوعي، ولحق بهم علماء العقول الإلكترونية الذين نشطوا في حقل الذكاء الاصطناعي، بهدف خلق إنسان آلي قادر على تحقيق الوعي الإنساني.

بيد أن أنصار هذه المدرسة ما زالوا عاجزين عن تفسير كيفية انبثاق شيء غير مادي (الوعي، الفكر) من شيء مادي. وهذا ما دفع ثمانية علماء جهاز عصبي، كانوا قد نشروا مؤلفاً ضخماً وقع في ١١٤٤ صفحة بعنوان **وظيفة الدماغ البشري** (Human Brain Function)، إلى تقديم اعتذار جاء فيه:

«ليست لدينا فكرة كيف ينبثق الوعي من النشاط المادي للدماغ، ولا نعرف ما إذا كان الوعي يستطيع أن ينبثق من أنظمة غير بيولوجية، مثل العقول الإلكترونية. في هذه النقطة، كان القارئ يتوقّع أن يجد لدينا تعبيراً علمياً دقيقاً ومحدداً يعرِّف الوعي. لكنه سيصاب بخيبة أمل. فالوعي لما

(٨) انظر فلسفة رايل، التي انهى فيها القسمة الديكارتية، في: Gilbert Ryle, «Stanford Encyclopedia of Philosophy,» plato.stanford.edu (18 December 2007).

يصبح بعد تعبيراً علمياً يمكن تعريفه على هذا النحو. ونحن حالياً نستخدم تعبير«الوعي» بطرق مختلفة للغاية وغالباً غامضة»[9].

إنه اعتراف شجاع. لكنه على أي حال لا يؤثّر في الموقف الأساسي لأصحاب التيار المادي وهو أن المادة تسبق الوعي، أو هي التي تخلقه. فهي الحقيقة الموضوعية الأولى، وهو مجرد حصيلة هذه الحقيقة، كنتيجة لتفاعل الخلايا والأجهزة العصبية المختلفة مع المثيرات الخارجية.

يقف أصحاب المدرسة الثانية على طرفي نقيض كلياً مع هذا الرأي. فهم لا يعتبرون فقط (كما سنرى بعد قليل) أن الوعي والذكاء جزء لا يتجزأ من مكونات الكون الأخرى مثل الزمان والمكان والطاقة، بل هما الحقيقة الحقيقية الوحيدة، فيما المادة هي الوهم.

منطق هؤلاء، على غرار بيتر رسل (Peter Russell)[10] يقوم على أن الوعي قد يكون وهماً، لكنه الشيء الوحيد الذي لا يمكننا نفيه. وعلى رغم أن ديكارت قال إنه يستطيع أن ينفي كل شيء، بما في ذلك جسده، لكنه لا يمكنه أن ينفي أنه يختبر الوعي («أنا أفكر إذاً أنا موجود»)، إلا أنه دعا، وتبعه معظم العلماء في ذلك، إلى التركيز على العناصر المادية «وإلا سيقودنا ذلك إلى الكنيسة».

يعترف أنصار هذا التوجه أنه لا سبيل لقياس الوعي، وأنه لا دليل علمياً قط على وجوده لأنه لا يقاس. وقد يكون الكثير من الناس في الواقع من نوع «الزومبيات» الحيّة ولكن غير الواعية، لكن مرة أخرى ليس ثمة اختبار علمي لمعرفة ما إذا كان الإنسان واعياً أم زومبياً.

لكن، وعلى رغم غياب الأدلة العلمية، إلا أننا نعرف أن الوعي موجود. وعلى رغم أنه يُقال أننا لا نحتاج إلى الوعي لفهم الكون، إلا أنه لا علم من دون الوعي. وهذه عبارة تبدو متناقضة، لكنها صحيحة.

بيد أن الأمور بدأت تتغير في مملكة العلم. فنظرية الكوانتوم (الكم) في الفيزياء تعطي اعتباراً قوياً للمراقب أو المُختبِر في انتقال العناصر ما تحت الذرية من كونها موجة إلى جُسيم. وباقي فروع العلوم تنحو الآن المنحى نفسه، وهي باتت تدرك أنه لم يعد بالإمكان تجاهل ظاهرة الوعي الذي تتخذ أشكالاً مختلفة للغاية سواء أكانت أفكاراً أو أحلاماً أو ذكاء أو نزعة روحانية. الوعي هو القدرة على الاختبار، أو بالأحرى هو الفضاء الذي تحدث فيه الاختبارات. والأمر هنا أشبه بالقماشة التي يتم فوقها رسم كل أنواع اللوحات (أي أنماط الوعي)، أو النور الذي ينطلق من جهاز عرض الصور إلى الشاشة. فحين يظهر المشهد على الشاشة، يتركز كل اهتمامنا نحن على الشاشة وننسى أن كل شيء في هذه الصور أو الأفلام يتعلق بالنور. الضوء (أي الوعي هنا) يستطيع التحوّل إلى أي شكل أو صورة، لكننا ننسى ذلك.

---

(٩) Richard S. J. Frackowiak [et al.], *Human Brain Function* (New York: Academic Press, 1997).

(١٠) Peter Russell: Spirit of Now Website, <http://www.peterrussell.com/index2.php>.

الأمر نفسه يحدث في الوعي. فنحن نمتلك القدرة على الاختبار، ثم يأخذ هذا أشكالاً مختلفة: المدركات، الأفكار، المشاعر. صحيح أن عمليات الوعي تجري في الدماغ، لكن الدماغ لا ينتج الوعي، تماماً كما أن جهاز العرض لا ينتج الصور. الدماغ هنا هو جهاز العرض.

لطالما فاخر العلم بقدرته على فك طلاسم الكون وعلى التوقع، لكن هذا لم يحدث حتى الآن مع العقل والوعي. وهذا ما يسمى في العلم «المشكلة الصعبة». في حين أن تأثير الدماغ في الوعي، أي معرفة ماذا يجري في الدماغ حين يحدث الوعي، يسمى «المشكلة السهلة».

التساؤل الأساسي هنا هو: طالما أننا نفترض أن المادة غير واعية، فكيف برز الوعي منها؟ يرى أنصار هذا التيار أن العلم يعتبر هذه مشكلة صعبة لأنهم لا يزالون يتمسكون بالأنموذج (Paradigm) الكلاسيكي أو القديم الذي يقف وراء كل فروع العلوم، والذي يقول إن العالم الحقيقي هو العالم المادي وإن المكان والزمان والمادة لهم العُلوية على كل ما عداهم.

٢ ـ الوعي والوهم

هنا ثمة شذود (Anomaly) (أي شيء لا يمكن نفيه ولا أيضاً يمكن تفسيره) على هذه القاعدة، في العالم، لكن العلماء الماديون ما زالوا يرفضون الاعتراف به (الشذوذ) أو يحاولون دمجه في أنموذجهم القديم: البحث عن الوعي في التراكيب العصبية. لكن عاجلاً أم آجلاً ، سيُجبر العلماء على الاعتراف بأن الوعي والذكاء عنصران أساسيان في الكون، مثلهما مثل المكان والزمان والمادة، وأن هذا الوعي مبثوث في الواقع في كل مكان وليس فقط لدى الإنسان. والعكس صحيح أيضاً: كل شيء موجود في الوعي. فكل ما نعرف ونختبر، عبر النور والعين والدماغ، في العالم الخارجي يظهر في العقل. الدماغ يخلق صوره أو تمثلاته الخاصة عما يحدث في العالم الخارجي وهو يفعل ذلك بشكل ذكي للغاية بثلاثة أبعاد. العلم لا ينفي هذه الحقيقة لكنه ينفي مضاعفاتها، وهو أن كل ما نعرف ونختبر هو تجربة في العقل. في الوعي. فالمعرفة تتشكَّل في الوعي، كما يقول مهاريشي صاحب فلسفة التأمل التجاوزي[١١].

أدرك إيمانويل كانط أيضاً هذه الحقيقة فميّز بين أمرين: الشيء في ذاته (Noumenon) والمتمظهر الذي يتمثَّل بالعقل. نحن لا نعرف أبداً الشيء في ذاته، فكل ما نعرف هو الأشكال التي تظهر في الدماغ، وهذا أساس كل فلسفة كانط.

تتحدث الفلسفة الشرقية القديمة عن الأمر نفسه حين تشير إلى «المايا» (Maya)، أي الوهم الذاتي الذي يوحي أن الأشكال أو التمظهرات في العقل هي الشيء في ذاته. خذوا مثلاً اللون الأحمر. ليس هناك في الواقع شيء أحمر، بل مجرد تجربة في الدماغ بفعل طول الموجة وتذبذبات محددة تثير بعض المستقبِلات العصبية في العين. والأمر نفسه يتعلق بالصوت والموسيقى وذبذباتها

(١١) Maharishi Mahesh Yogi, *Science of Being and Art of Living: Transcendental Meditation* (New York: Meridian Book, 1995), section III: «Man's Full Potential».

الهوائية. كل ذلك يظهر في الدماغ. ينطبق هذا الأمر كذلك على المادة التي نعتبرها صلبة لأن هذا ما يبدو في العقل، لكن الواقع أنها تتكوَّن من أشياء مختلفة تتجمع مع بعضها البعض فيما ٩٩,٩٩٩٩ من ذراتها تتكوّن من خلاء.

لا يشبه العالم الخارجي بشيء كل ما نختبره في الدماغ، والخطأ الرئيس الذي نرتكب دوماً هو أننا نعتبر ما نختبره هو العالم. لكن العالم ليس شيئاً من هذا. وهذا ما بدأت تدركه الفيزياء. يقول البروفسور هانس بيتر دور (Durr)، أستاذ الفيزياء في مؤسسة ماكس بلانك: «المادة ليست مصنوعة من المادة. أجل، المادة غير موجودة في المادة بل في العقل. لكن، إذا ما كان الشيء في ذاته ليس مادة، فماذا يكون؟ لا أحد يعرف. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعرفه هو أننا نختبر، أننا نعي، وأننا لسنا زومبيات[١٢]».

ويعتقد أنصار عُلوية الوعي أن العلم يفترض وجود حقيقة موضوعية، لكن كل الدلائل تشير إلى أنه قد لا يكون هناك حقيقة موضوعية. ليس هناك سوى الوعي الذي هو حقل عقلي تتمثل به كل الموجودات الخارجية. وبالتالي، الوعي له العلوية المطلقة على الزمان والمكان والمادة. في العالم الواقعي ليس هناك شيء. لا شيء. والشيئية والتجزؤ والانفصال في العالم الخارجي هي أمور يخلقها العقل. ماذا يحدث إذا ما سافرنا بسرعة الضوء (٢٩٩٧٠٩ كم في الثانية) سنكون صفراً في المكان وصفراً في الزمان. فمن وجهة نظر الضوء، لا مكان ولا زمان، والفوتون يولد ويموت في الوقت نفسه. والطاقة التي كنا نعتبر أن الكون كله يتكوّن منها، يتبيّن الآن أنها وهم هي الأخرى.

ثمة تشابه بين الضوء والوعي. فالأول ليس له مكان ولا يعرف الزمان ولا المادة، ولا يسافر من نقطة إلى نقطة، فهذا وهم. والوعي أيضاً ليس من عالم المادة. وهذا ما يختبره الصوفيون حين يصلون إلى مرحلة يتوقف فيها المكان والزمان عن الوجود.

والخلاصة؟ إنها واضحة: أنصار الوعي يقلبون «السؤال الصعب» رأساً على عقب: بدلاً من «كيف تعطي المادة غير الواعية تجربة الوعي؟»، يجب القول «كيف يتجسد الوعي في كل الأشكال المختلفة؟ الوعي الصافي هو نفسه الله أو الحق (في الإسلام والمسيحية واليهودية) أو البراهما (في الهندوكية) أو الحقيقة المطلقة (في البوذية)، وكل شيء في العالم هو تمظهر للوعي.

٣ ـ الوعي الشامل

الآن، ولأن الوعي يتجسَّد في كل شيء، فهذا يعني أن مفهوم الوعي لا يعود قصراً على الإنسان، كما ألمعنا. فالكلاب والدلافين، على سبيل المثال، قد لا تكون واعية لكثير من الأشياء التي نعيها نحن، وهم لا ينتبهون إلّا إلى العالم المباشر المحيط بهم ووعيهم لا يتجاوز اللحظة الحاضرة. فهم لا يعرفون التاريخ أو ما قد يحدث غداً، ولا يعون موتهم ولا يفكرون بأنفسهم

(١٢) Hans-Peter Duerr, «The Crisis and Challenge of Globalization,» Living Economies Forum (15 August 2001), <http://livingeconomiesforum.org/Duerr-Physics>.

بالكلمات ولا يمتلكون الوعي الذاتي ولا يقلقون لصورتهم الاجتماعية. بيد أن كل ذلك لا يعني أنهم لا يمتلكون أي وعي أو مشاعر أو أحاسيس أو مخاوف. ولذلك القول إنهم لا يمتلكون وعياً ما، هو أمر لامنطقي. إنهم لا يختلفون عن البشر بإمكانات الوعي بل بما هم واعون حوله. وقل الأمر نفسه عن الببغاوات والطيور والضفادع والأسماك. فما يعيه كل هؤلاء مختلف، لكن لديهم قدرات الوعي. لا بل يعتقد الفيلسوف ألفرد نورث وايتهيد أن الوعي موجود بشكل ما في الحشرات والمتعضيات ذات الخلية الواحدة وحتى في أحجار الكريستال، لأن الوعي برأيه «خصيصة جوهرية من خصائص الخلق».

ويعتقد بيتر رسل أنه إذا ما كانت كل المخلوقات واعية بطريقة أو أخرى، فإن الوعي حينذاك لن يكون شيئاً تطوّر مع البشر أو مع الثدييات والرئيسيات (البشر والقرود). فالوعي كان موجوداً دائماً، وما ظهر في مسار التطور هو نوعيات وأبعاد مختلفة من تجربة الوعي، من مضمون الوعي[١٣].

٤ ـ مادة أم وعي؟

أي النظريتين، المادية والمثالية على حق؟ النظريات الجديدة في العلم نفسه التي برزت في العقود الأخيرة، تُميل الكفة نسبياً (أو حتى الآن على الأقل) لمصلحة نظرية عُلوية الوعي. إذ ما إن آمنا نحن الناس العاديين بالعلم، حتى بات علماء الطبيعة يشككون بقدرته على فك طلاسم الوجود، بل وينحاز بعضهم إلى رؤية الفيلسوف بيركلي الذي كان يرى أن العالم المادي غير موجود، وأن الموجود الوحيد هو الأفكار.

فنظرية الكم (Quantum Theory) هي أكثر النظريات إقلاقاً وإزعاجاً للعلماء، بمن فيهم ألبرت أينشتاين. وهي تُظهر أن ثمة احتمالاً بأن قانون العليّة الشهير لا يسري على نشاطات الإلكترونات الفردية. والقانون الثاني للديناميكا الحرارية يقول بوجه عام إن نظام العالم يزداد اضطراباً مع الأيام، كما يحدث حين يتم خلط أوراق اللعب ويصبح من المستحيل بعد ذلك وضع كل منها في مكانها الصحيح. أو كما يحدث حين تسقط قطرة حبر في كوب ماء ويغدو من غير الممكن بعد انتشارها استعادتها كقطرة.

ثم إن الرأي العلمي يقول الآن إن الذرات ربما كان لها قدر خاص من الإرادة الحرة، ولذلك فإن سلوكها لا يخضع لقانونٍ خضوعاً كلياً. وهذا يؤدي إلى انهيار مبدأ الجبرية في علم الطبيعة، وإلى بروز قاعدة اللاأدرية العلمية.

كل ذلك قد يكون صحيحاً. لكن السؤال الكبير الذي يبرز هنا هو: بماذا نفسّر نجاحات العلم والعقل التطبيقيين في كل علوم الفيزياء والطب والكيمياء والبيوتكنولوجيا والعقول الإلكترونية وغيرها، رغم سيادة الشك بين العلماء حول وجود المادة؟

---

(١٣) Peter Russell: Spirit of Now Website, <http://www.peterrussell.com/index2.php>.

إنه سر قد تتكشف أبعاده في مستقبل ما. لكن بالانتظار، سيكون علينا أن نرفض هذه القطيعة الكاملة بين نظرية تقول إن الوعي وهم وإن المادة هي الوجود، في مقابل النظرية التي تؤمن أن المادة غير موجودة وأن الوعي هو الموجود الوحيد. يجب أن نعتبر أن تطور الوعي وتطور العلم بمنزلة جوادين رائعين يجران عربة واحدة.

هذا ما تدعو إليه أيضاً «النظرية الإدماجية في الوعي» (Integral Theory of Consciousness) التي تجمع كل أوجه الوجود في رؤية عالمية كبرى واحدة، وتوضح كيف أن الوعي والذكاء لا يتفاعلان فقط مع المادة (الطاقة والمكان والزمان) بل هما أيضاً جزء لا يتجزأ وغير منفصل عنهم. وهذه على ما نعتقد النظرية الوحيدة حتى الآن التي تأخذ بعين الاعتبار كل مجالات الحقيقة المادية والعقلية التي كان يُطل عليها على أنها كيانات منفصلة.

المقولة الأساسية في هذه النظرية هي أنه كان هناك حقل طاقة متجانس ولا نهاية له عملياً في بداية الكون، يتكوّن من المادة والطاقة والزمان والمكان والوعي والذكاء. وهذه الخصائص الست كانت مندمجة كلياً ومعتمدة بعضها على بعض. وقد بدأ الوعي ـ الذكاء بتوجيه الحقل الأساسي من أصله البسيط إلى حالة التعقيد المذهلة التي بات عليها الكون الآن. بدأ كل ذلك في الانفجار العظيم (Big Bang) قبل نحو ١٣,٧ مليار سنة حين انتقل الكون من حالة التقلُّص اللانهائي، وصار في حالة تمدد وتطور متواصلين منذ ذلك الحين.

تجمع هذه النظرية بين فهمنا الراهن لميكانيكا الكم، ونظرية النسبية العامة، جنباً إلى جنب مع الاهتمام بنظرية الأوتار الفائقة (Super String Theory) وتطور الحياة من الأشكال البسيطة إلى المعقدة، وتشرح كيف يتعلق كل ذلك بالوعي ويُتوّج في الحالات العادية للوعي الإنساني وفي الوعي الكلي المعترف به مؤخراً والمتحد مع الطاقة والمادة والزمان بصفتهم كل واحد. لقد وحّد أينشتاين المكان والزمان، والمادة والطاقة، في معادلته الشهيرة: ($E=mc^2$). بقي أن نقوم نحن بتوحيد باقي خصائص الحقل الأول الست.

٥ ـ أبعاد ومضاعفات

لكن، حتى لو وضعنا جانباً الجوانب النظرية والميتافيزقية في الموقف من الوعي والمادة، فإننا سنكتشف سريعاً أن الإغراق في «التعصب» لعُلوية أي منهما، له في الواقع أبعاد خطيرة في التطبيقات العملية للحياة البشرية، وأيضاً لفرص «نجاة» الجنس البشري من الأخطار الداهمة المحدقة بوجوده.

فالنظرية المغرقة في المادية، والتي تعتبر الوعي وهماً وتحيله على التفاعلات الكيميائية ـ الفيزيائية، تنسف بشطحة قلم جوهر المغامرة الإنسانية وتُفرغها من نزعتها الكامنة نحو التسامي والتطور الخلّاق وبلورة قيم الحب والتضامن، كما تقطع صلاتها الوثيقة (الوجودية والمصلحية في

آن) بالبيئة الطبيعية وبأمِّنا الأرض. كما تقفز فوق كلٍ من دور المجتمع (الإيجابي كما السلبي) في تحديد أنماط الوعي، ودور الوعي الخلّاق نفسه في تغيير الواقع.

هذه ليست دعوة إلى وقف الأبحاث والتجارب العلمية على الوعي والعقل. فهذه تبقى بالغة الأهمية في مجال إلقاء الضوء على العلاقة التفاعلية بين الوعي والمادة. لكن قصر الوعي على المعطيات المادية، أو حتى رفض الاعتراف بوجود ظاهرة الوعي كما يفعل بعض العلماء (وبالتالي رفض إمكان تطوير الوعي، إلا في «المختبرات» كما رأينا في الفصل الرابع) سيكون وصفة ممتازة لبروز دكتاتورية علمية ستهون أمام هولها كل أصناف الدكتاتوريات مجتمعة في كل التاريخ البشري.

هذه نقطة. وثمة نقطة أخرى لا تقل أهمية: ليس هناك نظريات علمية تجري في فراغ أو بمعزل عن السلطة والقوة كما اكتشف ميشال فوكو، وبخاصة أن تمويل معظم الأبحاث العلمية يأتي إما من دول أو شركات كبرى. وهذه لها مصلحة كبرى في الترويج لأيديولوجياتها بتعابير علمية. وهكذا، وإذا ما كنا نتحدث عن «جينة أنانية» كتبرير بيولوجي أول وأكبر للأنانية الرأسمالية بصفتها تعبيراً دقيقاً عن الطبيعة الإنسانية، فأي شيء أخطر من أن يبني العلماء صرحاً مما يسمونه «الإثباتات العلمية» التي تؤكد أن الجبرية الجينية هي الحاكم سعيداً على كوكب الأرض، وأن الجهود الفردية والجماعية لتطوير وعي جديد يستند إلى التعاون بدل التنافس، وإلى الحب بدل الحرب، هو أمر مخالف لطبيعة البشر، كما أنه مشروع مستحيل.

وما يُقال عن المدرسة المادية، يسحب نفسه أيضاً على مدرسة الوعي النافية لوجود المادة، وبشكل مطابق تقريباً. فحين يقول أنصار هذه المدرسة الأخيرة إن المادة غير موجودة وإن الوعي هو كل شيء، يديرون الظهر (بشطحة قلم واحدة أيضاً) لحقيقة التفاعل بين الوعي البشري وبين الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتي تؤدي إلى حد كبير دوراً هائلاً في عرقلة بروز وعي جديد وبشرية جديدة.

التاريخ يعج بالأمثلة التي تدل على استحالة تغيير الوعي الفردي بمعزل عن تغيير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يترعرع فيها هذا الوعي. وهذا ما لحظه بشكل خلّاق عبد الرحمن بن خلدون حين ربط ربطاً محكماً بين طبيعة مراحل الوعي وبين الظروف الاقتصادية والسياسية: «إذا ما تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحوّل العالم بأسره وكأنه خلق جديد». الأنبياء والمصلحون في التاريخ هم نموذج حي عن هذه الفرضية. فحين كان هؤلاء يطرحون أفكاراً جذرية وراديكالية لتغيير المجتمع، كانوا يقابلون بردود فعل متطابقة مع الأوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية والثقافية للناس في ذلك الحين: إما الرفض (وبالتالي قتل أو صلب النبي غير المسلّح المعني)، وإما التجاهل والتهميش، وإما القبول بشرط ألا تكون التغييرات المراد تطبيقها كبيرة (أي عملياً تطويع النبي أو المَصلح للظروف الموضوعية). لا بل أكثر: أي تدقيق في حصائل معظم الحركات الإصلاحية في التاريخ، خاصة الأديان على أنواعها، تشير إلى مدى

التغييرات الكاسحة التي يدخلها الناس على الرسائل الأصلية للأنبياء. وهكذا، تم تحويل بعضهم إلى آلهة أو أصبحت تعاليمهم الكونية والتوحيدية أيديولوجيات مغلقة وانفصالية(١٤).

نشر الوعي من دون تغيير «المادة» (المجتمعية والاقتصادية والبيئية) التي يتفاعل معها هذا الوعي (وهو لا بد من أن يتفاعل معها لأن البشر ليسوا، ولن يكونوا في يوم ما، ملائكة أو أرواحاً متجاوزة)، هي حرث في البحر. وتغيير «المادة» من دون نشر الوعي وتطويره هي وصفة لفشل مطبق ودمار شامل، كما أثبتت ذلك التجارب الاشتراكية والإصلاحية الاجتماعية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ليس فقط في أوروبا بل في كل العالم.

النظرة التجزيئية كانت في صلب هذا الفشل. فعلى رغم أن كبار مؤسسي هذه المقاربات، من ماركس إلى فرويد وقبلهما سبينوزا وشوبنهاور، اكتشفوا أن معظم ما يعيه الناس هو «وعي مزيف»، هو أيديولوجيا، وأن الدوافع الحقيقية لسلوك الإنسان غير واعية بالنسبة إليه (الجنس عند فرويد، والاقتصاد عند ماركس، والإرادة العمياء عند شوبنهور)، إلا أن تطبيقات نظرياتهم التجزيئية هذه، على صحتها، تركت المجتمعات في حالة جدب صحراوي كما كانت.

ثانياً: طلائع التغيير

بيد أن كل هذا بدأ يتغيَّر الآن، وعلى نطاق واسع أيضاً. فكما أن العلماء يجهدون لتوحيد قوى الطبيعة في إطار نظرية واحدة «تفسّر كل شيء»، ينشط أنصار الوعي الجديد في العالم لتوحيد القوى والعوامل التي يجب أن تصب في خاتمة المطاف في بلورة هذا الوعي. في طليعة هذه التيارات تبرز الآن الحركة الإيكو ـ اشتراكية، أو الاشتراكية الخضراء، أو الإيكولوجيا الاشتراكية، التي تدمج بين الماركسية والاشتراكية والسياسات البيئية الخضراء، والإيكولوجيا ومناهضة العولمة(١٥).

---

(١٤) حركات التأمل واليوغا الحديثة نموذج آخر عن استحالة عزل تطور الوعي عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حيث فشلت محاولات وقف الصراعات والحروب من خلال تركيز وعي وتأمل قلّة على هذه الحلول، على رغم نُبل هذه الأهداف.

(١٥) الكتب والمواقع والمنظمات الداعية إلى الإيكو ـ اشتراكية عديدة منها:

كتب: Joel Kovel, *The Enemy of Nature: The End of Capitalism or the End of the World?*, 2nd ed. (London: Zed Books, 2007); Derek Wall, *The Rise of the Green Left: Inside the Worldwide Ecosocialist Movement* (New York: Pluto Press, 2010), and Maria Mies and Vandana Shiva, *Ecofeminism*, Critique. Influence. Change., 2nd ed. (London: Zed Books, 2014).

مواقع إلكترونية: Lucha Indigena Website, <http://www.luchaindigena.com>; Ecosocialists Unite Website, <http://www.ecosocialistsunite.com>; Climate and Capitalism Website, <http://climateandcapitalism.com>, and Capitalism Nature Socialism Website, <http://www.cnsjournal.org>.

منظمات: Indigenous Environmental Network, <http://www.ienearth.org>; Ecosocialist International Network, <http://ecosocialistnetwork.org>; Afrika Global Network, <http://www.afrikaglobalnetwork.com>, and Red de Guardianes de Semillas, <http://www.redsemillas.org>.

يعتقد الإيكو ـ اشتراكيون عموماً أن توسُّع النظام الرأسمالي هو المسؤول عن الإقصاء الاجتماعي، والفقر، والحروب، والتدهور البيئي، وتعاسة البشر، من خلال العولمة والإمبريالية اللتين تديرهما شركات متعددة الجنسيات ودول إمبريالية قمعية.

ينتقد الإيكو ـ اشتراكيون، الذين يطلق عليهم أحياناً اسم «البطيخ» (لأنهم خضر من الخارج واشتراكيون من الداخل)، ما يسمونه النظريات النخبوية والبيروقراطية، مثل الستالينية والماوية، ويركزون على دمج الاشتراكية بالإيكولوجيا[١٦]. وهم يدعون إلى ملكية «منتجين مترابطين بحرية» لوسائل الإنتاج، وتقويض كل أشكال السيطرة، خاصة العنصرية وعدم المساواة بين الرجل والمرأة.

بعض الإيكو ـ اشتراكيين، مثل جون بيلامي فوستر (John Bellamy Foster) أعادوا قراءة ماركس، مشيرين إلى مقولاته حول «الصدع الأيضي» بين الإنسان والطبيعة، وحول «الملكية الخاصة لقلة من الأفراد للكوكب»، وينقلون عنه قوله أنه يتوجب على المجتمع «تسليمه (الكوكب) إلى الأجيال التالية بظروف أفضل». لكن إيكو ـ اشتراكيين آخرين يشعرون أن ماركس تجاهل في الواقع الاعتراف بالطبيعة نفسها ولنفسها، وعاملها على أنه «خاضعة للعمل منذ البداية».

في العام ٢٠٠١، أصدر جويل كوفل (Joel Kovel) ومايكل لوي (Michael Lowy) مانيفستو إيكو ـ اشتراكيا[١٧]، طرحا فيه بعض الاقتراحات حول تطوير وعي إيكو ـ اشتراكي. وبعدها في العام ٢٠٠٢، أصدر كوفل كتابه «عدو الطبيعة: نهاية الرأسمالية أم نهاية العالم»، الذي يُعتبر الآن من مراجع الإيكو ـ اشتراكية الرئيسة. في المانيفستو، يشدد كوفل ولوي على أن التوسُّع الرأسمالي يسبّب كل أزمات الإيكولوجيا من خلال «التصنيع الجامح» و«الانهيار المجتمعي الذي ينبع من شكل إمبريالي يدعى العولمة». وإلى جانب تدميرها للبيئة، تحوّل الرأسمالية غالبية شعوب العالم إلى مجرد مستودع لقوة العمل، فيما هي تخترق المجتمعات عبر الاستهلاك وتقويض السياسة.

الأهم في توجهات الإيكو ـ اشتراكيين، التي تعنينا هنا، هو موقفهم من الملكية الخاصة. فهم يعتبرونها «متناقضة ذاتياً»، لأن الأفراد يترعرعون في نسيج من العلاقات الاجتماعية و«الدوائر المجتمعية»، حيث الذات أو الأنا تعيش في حلقات تبرز فيها قضايا المشاركة في وقت مبكر من الطفولة فصاعداً». ويضيفون أن «الذات الكاملة تتطور أكثر عبر العطاء وليس عبر الأخذ، وأن الإيكو ـ اشتراكية تتحقق حين لا يكون للممتلكات سوى تأثير «طفيف» على الذات. وهكذا فإن استعادة قيمة الاستخدام (الاشتراكية) على حساب قيمة المبادلة (الرأسمالية)، يساعد على عدم التركيز على السلع المادية الاستهلاكية التي لا تفعل شيئاً سوى تغذية الأنا الأنانية المتزعزعة.

---

(١٦) علماً أن البيئة والإيكولوجيا متشابهان. الفارق أن الأخير يركّز اهتماماً أكبر على المخلوقات الحيّة وكيفية تفاعلها مع البيئة ومع بعضها البعض. أما الإيكولوجيا العميقة، فهي تهتم، كما ألمعنا سابقاً، بقيمة كل الكائنات بغضّ النظر عن فائدتها أو لا فائدتها للإنسان وتدعو إلى إعادة تشكيل المجتمعات البشرية الحديثة على هذا الأساس.

(١٧) «Joel Kovel and Michael Lowy: An Ecosocialist Manifesto (from our archives),» *History Philosophy and Didactics of Science and Technology*, no. 6 (2007).

ويرفض الإيكو ـ اشتراكيون العنف لأنه يؤدي إلى تمزيق الأنظمة البيئية، وبالتالي فهو يناقض القيم الإيكو ـ اشتراكية.

١ ـ علم النفس النقدي

إلى جانب الإيكو ـ اشتراكيين، هناك التوجُّه لربط علم النفس، الذي أسسه فرويد على أساس الفردية (منضماً بذلك إلى علماء الجينة الأنانية الرأسمالية)، بالمجتمع وصراعاته وتناقضاته كأحد أسس الأمراض النفسية. وقد أفرز علم النفس النقدي هذا وعلم نفس الأمراض النفسية النقدي (Critical Psychopathology)، الذي وقف على طرفي نقيض مع الثنوية التي طرحها علم النفس في الفكر الرأسمالي الغربي بين الرجل والمرأة، والعالم الداخلي والخارجي، والفرد والمجتمع، وحاول أن يفهم الاضطرابات النفسية خارج إطار هذه الثنوية[١٨].

علم النفس الفردي هذا كان يطل على مشاكل الفرد المتعلقة باللامساواة، والقمع الاجتماعي في العمل، والأحكام المسبقة، والتوتر، والاضطهاد السياسي، والعنف، والاستغلال الاقتصادي، على أنها أمراض شخصية ويعالجها على هذا الأساس إما بالعقاقير أو بالتحليل النفسي أو العلاجات السلوكية الذاتية.

هذا في حين أن علم النفس النقدي هو بالضرورة غير فردي. وهو يعطي الأولوية للفهم الثقافي والتاريخي للظاهرة السايكوباثولوجية، من دون أن يهمل الفهم البيولوجي. وهو يأخذ في الاعتبار المعاناة والآلام النفسية التي تفرضها اللامساواة وسوء توزيع القوة الاجتماعية على النفس البشرية؛ إضافة إلى أن علم النفس النقدي لا يهدف إلى اتخاذ موقف الحياد العلمي في هذه القضايا، بل يدعو إلى الالتزام العلمي بخير الإنسان وسعادته. وهذا يعني منح الأولوية للمنحى الأخلاقي الضميري في العلم، ورفض معالجة العوارض من دون التطرق إلى جذور المشاكل وأصولها، وهي الأمراض المجتمعية. فاللامساواة والفقر والاستغلال الاجتماعي، علاوة على العديد من العمليات الأيديولوجية، تخلق الخواء النفسي، والشعور بالعجز واللاحول ولاقوة، وفقدان المعنى في الحياة. وهذا اكتشاف مثير، لأنه إذا ما افترضنا أن هذا يشكِّل مَرَضاً، فإن الحل يجب أن يكون أعقد كثيراً من العلاجات التقليدية في العيادات النفسية وفي الطب النفسي. إذ يجب أن يعطي هذا العلاج اهتماماً كاملاً للعمليات السياسية والاجتماعية التي هي وحدها تجعل من الممكن تعبيد الطريق استعادة الصحة النفسية والحفاظ عليها.

من بين هذه الأمراض الاجتماعية ـ النفسية، يركِّز علم النفس النقدي على مسألة الشعور بالعجز (Disempowerment) لأنها تخترق معظم الأمراض النفسية. فالفرد المريض يشعر بأنه بلا حول ولا قوة ولا يملك القدرة على تطوير مشاريع في الحياة. وهو/أو هي يعيش تجارب القمع وفقدان

(١٨) انظر: Virginia Moreira, «Critical Psychopathology,» *Radical Psychology* (Spring 2005), <http://www.radicalpsychology.org/vol4-1/moreira.html>.

الطاقة والأمل. ويعاني المريض أيضاً من الشعور بالعدمية التي تبدو حادة في بعض الأحيان. ويقول أنصار هذه المدرسة إن المجتمعات الحديثة تسهم ليس فقط في خلق هذه المشاعر الشخصية من خلال تقديس الفردية وحب الذات (الأنا الأنانية) اللتين تديمان اللامساواة الاجتماعية، بل أيضاً تحافظ عليها وتكرسها. وحينها لا يستطيع المريض الخروج من هذا الوضع بنفسه ويكون في حاجة إلى مساعدة الطب النفسي (على المستوى الشخصي) الذي يعتمد أساساً على العقاقير الكيميائية.

ويطرح هنا علم النفس النقدي، على سبيل المثال، مسألة مرض الاكتئاب الذي يعتبر الآن أكبر وباء في العصر، فيقول إن هذا المرض، وعلى الرغم من أنه كان موجوداً منذ أيام الإغريق والرومان، إلا أنه في هذا العصر ينبع أساساً من ثقافة الاستهلاك، والنرجسية الفردية، ومذهب المتع الحسية المنفلتة من عقالها. كل هذه تقدّم على أنها المعبر الوحيد إلى السعادة. لكن ولأنه لا يمكن بأي حال خلق الاكتفاء الذاتي من المتع الاستهلاكية التي تتوالد كالفطر في الحضن الرأسمالي، يقع المرء فريسة المرض. لكن، هل يجب توصيف هذا المرض بأنه اكتئاب، أم أنه مجرد اضطرابات نفسية سببها خلل في طبيعة الحياة الاجتماعية النرجسية؟ لا يتردد علم النفس النقدي في القول إن معظم ما يوصف بـ «الاكتئاب» هو في الحقيقة «حزن» ومعاناة من ظروف اقتصادية ـ مجتمعية قاسية. وبالتالي، العلاج لا يكون بالحبوب المضادة للاكتئاب (التي تروجها صناعات الأدوية الضخمة)، بل بالحلول الثقافية ـ الاجتماعية ـ الاقتصادية الشاملة التي تعالج النفس والمجتمع في آن.

٢ ـ تطور الوعي

إلى جانب الإيكو ـ اشتراكية وعلم النفس النقدي، ثمة حركة جديدة صاعدة على المستوى العالمي تدعى تيار «التطور الواعي» (Conscious Evolution). ماذا في جعبة هذا التيار[١٩]؟

إنه، **أولاً**، يعرِّف الوعي بأنه «إدراك الإدراك، الأفكار حول التفكير، الرغبات حول الرغبات، المعتقدات حول المعتقدات».

وهو، **ثانياً**، يعتبر أن التطور الواعي، الذي يستند إلى تحمل مسؤولية التوجيه الأخلاقي للتطور، بدأ يبرز بالفعل في أيامنا هذه، وبالتحديد في النصف الثاني من القرن العشرين، لأن البشرية امتلكت القدرة على تدمير عالمنا، أو بالعكس على ضخ الحياة والنضارة في مستقبل رائع بلا حدود، ولأن القدرات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية الجديدة منحتنا القوة للتأثير في تطور الحياة على الأرض. يتمخض الدافع إلى هذه الرؤية العالمية الجديدة من جملة ظروف جديدة: تطورات علم الكون (كوزمولوجيا)، والأزمات الجديدة على كوكب الأرض (من تغيّر المناخ إلى

---

(١٩) انظر: «Conscious Evolution,» Conscious Life News, <http://consciouslifenews.com/category/conscious-living/conscious-evolution/>.

دمار بيئة الحياة)، والقدرات الجديدة التي امتلكها الإنسان. وكل هذه الظروف تقود الآن إلى تحوُّل كبير وإلى مرحلة جديدة من التطور البشري: إما التطور أو الانقراض.

يعرِّف البروفسور أ. هاريس (A. Harris) التطور الواعي كالتالي: «هو إيقاظ «الذاكرة» الكامنة في توليفة المعرفة الإنسانية: الروحية والاجتماعية والعلمية، جنباً إلى جنب مع اكتشاف المخطط التطوري الكامن، وهو المخطط الذي نسعى نحن إلى إظهاره من خلال الخيار الأخلاقي والعمل الخلّاق»[٢٠]. بكلمات أخرى: التطور الواعي سينبثق من تطور الوعي ومن وعي التطور.

تطورات علم الكون معروفة؛ فنحن ندرك الآن أن الكون نشأ بشكل غامض من حدث فريد غير مفهوم تماماً حتى الآن هو الانفجار العظيم، وأنه لا يزال يتطور منذ مليارات السنين من خلالنا كما من خلال الكون كله. إن اكتشاف أصل الكون هذا يولّد الوعي التطوري الذي هو شرط ضروري ولازب لخوض غمار التطور الواعي الذي يستند إلى الإدراك بأن الكون له تاريخ وتوجُّه، وبالتالي نحن أيضاً لنا تاريخ وتوجُّه. لماذا؟ لأن الإدراك اليقظ لأصل الكون يعزز القوة الدافعة لدينا للتطور في التاريخ، ليس كحدث ميتافيزيقي أو كحياة أخرى في عالم ما بعد الموت، بل كحدث واقعي وآني وراهن. مثل هذا الإدراك اليقظ يساعدنا على رؤية المستقبل ليس كتكرار ممل لا نهاية له لرواية الجنس البشري، بل كتجاوز جديد وراديكالي للذات، ما يحقق طموحنا العميق والقديم في بلوغ التحوّل الكبير. وكل هذا لأننا نرى، خلال مشاهدتنا للتطور خلال مليارات السنين، أن التطور يتجاوز الذات دوماً ويستولد الوعي والحرية من خلال بروز نظام يزداد تعقيداً، وأننا جزء من هذه القصة.

بيد أن تيار التطور الواعي يعتبر في الوقت نفسه أن المستقبل ليس قدراً محتماً بل هو احتمال وإمكان. فبعد كل شيء، معظم الأجناس والمخلوقات التي ظهرت على سطح الأرض انقرضت. وبالتالي، يعتمد مستقبلنا علينا الآن وأكثر من أي وقت مضى لأننا امتلكنا القوة إما لتدمير أنفسنا أو لخلق جديد مبدع.

فكما أننا طورنا أسلحة الدمار الشامل النووية والجرثومية والكيميائية، كذلك أحرزنا تقدماً هائلاً (رغم أنه لا يزال في بداياته الأولى) في مجالات التكنولوجيا الحيوية والنانو ـ تكنولوجيا والسُبرانية والذكاء الاصطناعي وغزو الفضاء وتكنولوجيا التواصل الاجتماعي التي تطلق الآن فرص التفاعل التعاوني بين كل البشر.

باختصار، مفاهيم تيار التطور الواعي هي التالية:

ـ «الحقل العقلي» (Noosphere) بدأ ينضج بسرعة ليصبح «كائناً عضوياً فائقاً» يجمع بين وعينا الجماعي وقدراتنا. صحيح أننا كأفراد لا نختلف كثيراً عما كنا عليه قبل ألفي سنة من الناحية

---

(٢٠) انظر: «Posthumanism, Transhumanism, and Superhumanism in the 21st Century,» University of Philosophical Research, <http://www.uprs.edu/upr-blog/transhumanism-posthumanism-superhumanism/#sthash.pe1Au6wK.dpuf>.

الجسمانية، لكن الحقل العقلي يصعد بقوة، حيث إن قدراتنا التكنولوجية والاجتماعية بدأت تغيِّر بالفعل العالم المادي بما في ذلك أجسامنا. وبالتالي، إذا ما تعلمنا التطور الأخلاقي ودمجنا بين الوعي التطوري والتطور الواعي وقدرات التخطيط الواعي، فإننا نقف أمام بداية «الحياة العالمية أو الكونية» التي تتميز بقدرات لا نهاية لها.

مضمون التطور الواعي ينبثق من الرؤية الجديدة للطبيعة والكون التي تستطلع علمياً احتمال ألّا يكون كوننا آلة مفككة لا حياة فيها، بل نظاماً حياً موحّداً قادراً على التنظيم الذاتي والتجدد الذاتي والحفاظ على الذات وتجاوزها بشكل دائم.

كما أن هناك نظاماً كامناً (أي حقيقة تتضمن قوة توليدية وتوجُّهاً مطرداً وديناميةً تجاوزية) يختفي وراء الفوضى الكونية، ويتجه نحو وضعية أكثر تجانساً. وهذه الحقيقة أو النظام الكامن هما بالتحديد ما يدفعنا نحن البشر إلى التطور. فنحن الكون مجسّداً، ولم نعد غرباء في فراغ كوني، بل بتنا نعتبر أنفسنا تعبيراً حيوياً عن كون حي. إننا نضع أنفسنا في قلب الصورة بوصفنا تجسداً لكل عملية التطور والخلق. وهذا أساس بروز الرؤية الجديدة للأنا البشرية الخلاقة (غير الأنانية).

انطلاقاً من هذه المعطيات، يسعى التيار الجديد إلى تحقيق تحوّل داخل أنفسنا، من الشخصيات الأنانية إلى الذوات الخلّاقة والمترابطة التي تعمل وترقص على إيقاع إبداع التطور الكوني والاجتماعي، وعلى الانتقال من علاقات الهيمنة والسيطرة إلى علاقات الشراكة والتعاون، ومن التعايش الإجباري إلى الألفة.

٣ ـ من «أنا»؟

هذه التوجهات، أي الإيكو ـ اشتراكية وعلم النفس النقدي وتيار الوعي الشامل، تتناقض حرفاً بحرف مع المفاتيح النظرية والفكرية للعولمة النيوليبرالية ومع منطلقاتها الميتافيزيقية التي يتم تجسيدها على نطاق واسع عبر نشر الوهم بأن السوق الرأسمالية ونظام الإنتاج الرأسمالي أبديّان لأنهما يتطابقان مع الطبيعة البشرية الأنانية. وبالتالي يستحيل التغلب عليهما أو تجاوزهما، لأن بديلهما هو الفوضى العمياء. هذا في حين أن العولمة الرأسمالية (كما يقول أربابها) توفّر أجمل ما في الحضارات البشرية: الحرية، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، و«الحلم الأمريكي» الفردي بفرص الرفاه المادي والاستهلاكي[٢١].

هذه هي نظرية «الجينة الأنانية»، أو «الأنانية الأخلاقية»، أو «الفردية المقدسة»، التي تسيطر أيديولوجيتها بشكل كاسح هذه الأيام على مشهد «القرية العالمية»، على رغم تهافتها العلمي.

---

(٢١) جورج قرم، **حكم العالم الجديد: الأيديولوجيات، البنى والسلطة المعاكسة** (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ٢٠١٣)، ص ٣٠. يتساءل قرم في خاتمة الكتاب: «هل ثمة حاجة إلى ثورة عالمية؟ وهل هذه الثورة ممكنة لوضع حد لتجاوزات ومظالم النظام الاقتصادي المتعولم ولإفلاسه في كثير من الميادين؟ غالباً ما تجلب الثورات موكباً من المعاناة والدمار، لكن من جانب آخر أوليست هي المخرج الوحيد المتاح، حين تكون جميع سبل الإصلاحات الكبيرة موصدة بشكل مطبق؟» (ص ٣٢١).

لكن، ماذا يقوله لنا اليوم العلم عن الأنا الأنانية؟ إنه يسأل: ماذا نعرف نحن عن أنفسنا، عن «أنا»نا؟ مادياً لا شيء. فأعضاؤنا الداخلية تعمل من تلقاء نفسها خارج سيطرتنا ومن دون معرفتنا. ونحن لا نعرف شيئاً عن التفاعلات الحيوية ـ الكيميائية التي تجري داخل جسمنا.

بيد أن هذا ليس كل شيء حول الحقيقة المادية لأجسادنا. فما يبدو لنا أنه جسم صلب، يتكوّن في الواقع من جُسيمات تحت ذرية حياتها أو عمرها الزمني أقل من تريليون من الثانية. هذه الجسيمات تظهر وتختفي بشكل متواصل، وتدخل وتخرج إلى الوجود مثل دفق من الذبذبات. هذه هي الحقيقة النهائية لأجسامنا: إنها تتغيّر وتتحوّل في كل لحظة، فهي لا «تكون» أبداً بل «تُصبح» دائماً، على المستويات المادية. فكيف لنا والحالة هذه أن يتحدث كلٌّ منا عن «أناه» الخاصة، وهو لا يعرف شيئاً عما يجري ويتغيّر بسرعة مخيفة في قلبه وكبده ورئتيه وباقي أعضاء جسمه الداخلية وكأنها تعود إلى شخص آخر؟ أين الأنا هنا؟

وكما على الصعيد الجسدي، كذلك على مستوى العقل. فهذا العقل يرفض أن يعمل ما نريد، ويفعل غالباً ما لا نريد. سيطرتنا على العقل الواعي ضئيلة بما فيه الكفاية، إذ إننا غالباً ما نجد أنفسنا مدفوعين من دون أن ندري إلى القيام بأعمال وتصرفات نعتقد أنها تشكّل بنية شخصيتنا المستقلة. بيد أنها في الواقع وليدة التربية أو البيئة الاجتماعية والثقافية أو الجينات الوراثية. وكل هذه تعمل بخفاء كما الأعضاء الداخلية في الجسم[٢٢].

وإذا ما كان الأمر كذلك على مستوى العقل «الواعي»، فما بالك باللاوعي الذي يجعلنا نستفيق في الصباح من الأحلام والكوابيس ونحن نتساءل: هل عقلنا منفصل عنا وعن إدراكنا إلى حد أنه يمكن (هنا أيضاً) أن يكون لشخص آخر؟ أين «الأنا» هنا؟

ماذا يجري داخل العقل؟ حين تتلقى الحواس معلومات يحدث التالي: وعي، يليه إدراك ثم إحساس ثم رد فعل. وهذا يحدث بسرعة البرق، بل وحتى أسرع من الجسيمات ما دون الذرية، من دون أن ندري. ومع ذلك، نحن نعيش طيلة عمرنا ونحن نعتقد أن هويتنا و«أنانا» ثابتة لا تتغير. وهذا يشبه تفكيرنا بأن النهر أو اللهب ثابت، فيما الحقيقة أن العقل كما النهر، والشخص ككل، ليس كياناً مُنجزاً لا يتغيّر، بل عمليات تدفق مستمر من لحظة إلى أخرى. إذ ليس هناك كينونة حقيقية، بل فقط دفق متواصل وعملية متصلة من الصيرورة. كل منا في الحقيقة تيار متواصل من تغيّر الجسيمات الأولية والمتغيرات العقلية.

هذه هي الحقيقة النهائية للأنا التي نهتم بها كل الاهتمام. إنها ليست موجودة لا في الجسم الذي لا نعرف عنه شيئاً، ولا في العقل الذي لا أثر فيه تقريباً لما نعتبره نحن «الأنا»، سواء في الوعي أو اللاوعي. الأنا مجرد فقاعة سريعة الزوال. وإذا ما أدركنا هذه الحقيقة، كانت هذه بطاقة

(٢٢) William Hart, *The Art of Living: Vipassana Meditation* (New York: HarperOne, 2009), chap 2.

أولية خروجنا من السجن ـ الوهم القاتل، وأيضاً بطاقة دخول أولية إلى مرحلة جديدة وعصر جديد يتطوَّر فيه الوعي إلى وعي جمعي وكوني، لينهي الفصل الكارثي بين الفرد والكون(٢٣).

إن إدراك لاديمومة الأنا في الجسد والعقل الفرديين، هو بمنزلة الشمس التي تبدد أعتى الظلمات، كما يقول بوذا، وهو النواة العميقة التي تحتضن جوهر ثورة الوعي الجديد: فهو (الإدراك) يعني الخروج من التقوقع على الذات الأنانية، أو بالأحرى وهم الذات، والانطلاق في رحلة رائعة جديدة لاكتشاف عوالم داخلية وكونية قد لا تخطر على بال(٢٤). الأمر هنا أشبه بطير تحرَّر فجأة من أسر قفص لم يكن يرَ فيه أبعد من قضبانه، فانطلق في الفضاء متحرراً من قيوده وبات يحلّق فوق ذرى جبال وقرى وبلدات لا عدّ لها ولا حصر، فارشاً جناحيه عملياً فوق كل الوجود. لقد أصبح يرى شمس الصورة الكلية التي كانت ضائعة في ظلام الأنا ـ السجن.

وهو (الإدراك) يعني أيضاً الشفاء من الأمراض النفسية العاتية، التي ينشأ معظمها من هلوسات وأوهام الأنا الأنانية، في علاقتها التدميرية مع الأنوات البشرية الأخرى، والمستندة إلى الحقد والبغضاء وحروب الجميع ضد الجميع الهوبسية والمكيافيلية، الأمر الذي حوّل البشر إلى مرضى نفسيين يقطنون كهفاً داخلياً محكم الاغلاق يتآمرون فيه على بعضهم بعضاً في الظلام، وعلى أنفسهم أيضاً.

وهذا يتطلب تصفية الحساب مع النزعة المكيافيلية التي سيطرت (ولا تزال) على جل الفكر البشري، الحديث منه والقديم، والتي حكمت على الإنسان بأن يبقى في سجن مؤبد مع أناه الأنانية المغلقة بادعاء أنها مكوّن أساسي من طبيعته نفسها.

---

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢٤) النظريات والفرضيات العلمية الجديدة تبدو أغرب من الخيال: من عوالم متوازية (Parallel Universes) لا نهاية لها، (حيث كل منّا له «نسخ» عديدة في أكوان أخرى)، إلى ١٠ و١١ بعداً في الكون لا ثلاثة أو أربعة أبعاد وفق نظرية الأوتار الفائقة (Superstring Theory)، مروراً بغرائب فيزياء الكم حيث الشيء يمكن أن يكون موجوداً في المكان نفسه في الوقت نفسه.

العالم البريطاني العربي الأصل «جيم الخليلي»، الذي نال جائزة مايكل فاراداي للاتصال العلمي، بسّط هذه النظرية المعقّدة كالآتي:

فيزياء الكم (التي تدرّس أصغر ذرات الكون) أثبتت أن الجُسيم يمكن أن يكون موجوداً في مكانين في الوقت نفسه، على الرغم من أن هذا منافٍ لـ «الفطرة السليمة» البشرية. هذا الجسيم لا «يقرّر» أي موقع يجب أن يكون عليه إلا حين ننظر إليه أو عندما يجبره ظرف خارجي على ذلك.

حين يواجه أي جُسيم خيارات متعدّدة البدائل (كما يحدث فعلاً في الواقع طيلة الوقت)، فهو لا يختار بديلاً واحداً، بل كل البدائل مجتمعة. وبعده ينقسم الجسيم ومعه الكون، إلى نسخ متعددة من نفسه مساوية للخيارات المتاحة. حين ننظر إلى هذا الجسيم، تنفصل الأكوان إلى حقائق مستقلّة وغير متفاعلة مع بعضها بعضاً. أما نحن، فلا نرى سوى صيغة واحدة من هذه الأكوان، فيما يرى أشباهنا صيغة أخرى.

أما الفيزيائي في أوكسفورد ديفيد دوتش (David Elieser Deutsch) فطوَّر هذه النظرية بقوله إن كلّ الأكوان الممكنة توجد بالفعل في عالم الجُسيمات المتعدّد. وما نراه نحن على أنه حقيقة، ليس سوى لمحة من هذه الحقائق المتعددة.

انظر: Jim Al-Kalili, «In a Parallel Universe, This Theory Would Make Sense,» *The Guardian*, 1/12/2007, <http://www.theguardian.com/commentisfree/2007/dec/01/comment.spaceexploration>.

٤ ـ هكذا تحدث مكيافيلي

كان نيكولو مكيافيلي يحتقر البشر ويعتبرهم خبثاء، يتمسّكون بمصالحهم المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة. فهم، برأيه، ناكرو جميل، متقلبون، مراؤون، شديدو الطمع. يحزنون لانتزاع ملكية منهم أكثر من حزنهم على موت أب أو أخ، لأن الموت بالنسبة إليهم يُنسى، أما الثروة الشخصية فلا تُنسى أبداً. لا يفعل البشر أي خير إلا إذا اقتضت مصلحتهم أو الضرورة ذلك، وهم يميلون إلى عصيان القوانين وعدم دفع الضرائب. نادرون من بينهم هم الأبطال أو القديسون الذين يضحون بمصلحتهم الخاصة من أجل المجموع، ولذلك انتصر دوماً في التاريخ الأنبياء المسلحون فيما هلك الانبياء العُزَّل. ولا ريب في أن الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في المجتمع، سيصاب بالحزن والأسى حين يرى نفسه محاطاً بهذا الكم الهائل من الناس الذين لا خير فيهم، والذين يرتدّون سريعاً عن مبادئهم. ولذا دعا مكيافيلي إلى استخدام القوة لإكراه البشر على الإيمان بما ارتدوا عنه، مؤكداً أنه لو كان موسى وقورش ورومولوس عُزَّلاً، لما استطاعوا حمل غيرهم على أن يمارسوا شعائرهم طويلاً[٢٥].

رفض مكيافيلي أيضاً الاهتمام بتثقيف المواطنين واعتبرهم جامدين هامدين، وهو ميّز تمييزاً قاطعاً بين السياسة والأخلاق معتبراً أنه لا رابط البتة بينهما. ولذلك لم يجد غضاضة في الدعوة إلى حيازة السلطة والإمارة «عن طريق النذالة والذبح بالجملة»، بشرط أن «يرتكب الأمير الفظاعات فوراً ومرة واحدة، لأنه من المستحيل عليه الوقوف دائماً والسيف في يده». على الأمير ألّا يدرس شيئاً سوى الحرب، لأن هذه هي «اللغة الوحيدة التي يحتاجها كل من يتولى القيادة الذي إذا لم يُحارِب سيتم اصطياده»[٢٦].

هذا التوصيف حول طبيعة الإنسان (الحالي) يتقاطع حتى مع آراء أنصار تيارات اللاعنف، الذين يرون هم كذلك أن العدوانية (Agressivity) متأصلة في الواقع في الطبيعة البشرية. ولم يكن صدفة تبعاً لذلك أن تمجّد كل الأيديولوجيات العنف حين ربطته بجملة فضائل مثل: الشجاعة والجرأة؛ التضحية والرجولة؛ والنبل والشرف؛ والعدالة والحرية. وبذلك بات العنف في لاوعينا فضيلة وقيمة عليا، وتحوّل السلام واللاعنف في التاريخ البشري إلى جبن ونقيصة كبرى[٢٧].

---

(٢٥) نيكولو مكيافيلي، **الأمير**، ترجمة أكرم مؤمن (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠٠٤)، ص ٥١ و٧٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٢٧) على سبيل المثال، يرى الفيلسوف سيسرو أن الحرب هي عموماً «نزاع عبر القوة». وتوماس هوبس من هذا الموقف أيضاً: «المقصود بالحرب هي تلك الحالة من الأوضاع التي تتواجد (الحرب) حتى لو لم تكن العمليات (العسكرية) مستمرة». أما ديدرو فيرى أن الحرب هي «مرض تشنجي عنيف يصيب الجسم السياسي». ثم هناك بالطبع تعريف كارل فون كلاوسفيتز الشهير: «الحرب هي استمرار للسياسات بوسائل أخرى».

أما المدارس الرئيسة الأخرى فتندرج آراؤها كالتالي:

ـ فلسفة هيراقليطس وهيغل وفولتير: وهي تعتبر الحرب ظاهرة كلية الانتشار في الكون برمّته. المعارك ليست سوى عوارض للطبيعة القتالية الكامنة في الوجود، والمستندة إلى قانون التغيّر والتحوّل الذي لا يمكن أن يُولّد سوى الحرب أو العنف. =

في مثل هذه المقاربة، يتحوّل «الآخر» البشري من شقيق في الوجود إلى عدو في الكون يشكِّل تهديداً وجودياً للأنا. وهذا موقف تبناه جان بول سارتر: «الخطيئة الأصلية هي مجيئي إلى العالم حيث يوجد الآخر». فهذا «الآخر»، برأي بعض الوجوديين، هو الذي تُهدد حريته حريتي، ورغباته رغباتي، وحقوقه حقوقي، ومشاريعه مشاريعي. والأنا لا تتعرف إلى الآخر سوى من خلال «النزاع».

جان ماري مولر، أحد أبرز منظِّري اللاعنف، يعتبر أنه من الصحيح القول بأن الوجود هو صراع من أجل البقاء، إذ لا مجال لجعل الآخرين يعترفون بحقوقي إلا عبر الصراع أو النضال وليس عبر الحوار. فالعدوانية (التي ليست بالضرورة هي العنف) «قوة نضالية يؤكد بها المرء نفسه وعليها تقوم شخصيته وتتأسس. من دون هذه العدوانية أقف عاجزاً عن النزاع الذي يضعني في مواجهة مع الآخر، وأغدو في حالة هرب دائم أمام تهديدات الآخر، فأصبح سجين الخوف الذي هو مستشار سيئ طالما أنه ينصح بالهروب تارة وبالعنف تارة أخرى»[٢٨].

تُشدِّد تيارات اللاعنف، باختصار، على أن النزاع مع «الآخر»، والعدوانية، وصراع البقاء، وعلاقات القوة، من طبائع البشر والطبيعة، على رغم أنها ترفض العنف وتدعو إلى وعيه باعتباره عائقاً أمام مصالحة الإنسان مع ذاته ومع الآخرين.

ثالثاً: تطور الوعي

لكن، وكما الأمر مع المكيافيلية، تُسقط مثل هذه المقاربة أمراً مهماً. إذ هي تعمد، سواء ضمناً أو صراحة، إلى تأبيد الوعي البشري الراهن باعتباره ظاهرة ثابتة لا تتغير. وهذه فرضية غير دقيقة كما ألمعنا. فالكون برمَّته وكل شيء فيه يتغيَّر في كل لحظة، حيث تنشأ أكوان برمَّتها وتندثر أخرى في إطار رقصة هائلة من التبدُّل والتطور. ووعي الإنسان نفسه مرّ، ولا يزال، في مراحل تطور متلاحقة، من وعي النواة الأولية للحياة، ثم وعي الكهوف القائم على صراع البقاء إلى وعي موزارت وبيتهوفن وكانط... إلخ. المتعضّيات البسيطة الأولى، كالبكتيريا والطحالب، التي ليس لديها حواس، كانت واعية بشكل جنيني للغاية: مجرد ومضات من الإدراك، وصورتها للعالم ليست أكثر من بقع خافتة من الألوان، أي عملياً لا شيء مقارنة مع غنى وتفاصيل التجربة الإنسانية. وحين تطورت المتعضيات متعددة الخلايا تطورت معها قدرات الإحساس. فقد ظهرت الخلايا المتخصصة بالإحساس بالضوء، والذبذبات، والضغط أو التغيرات في الكيمياء. شكلت هذه الخلايا الأعضاء الحسية، ومع تطورها زادت القدرة على تلقي المعلومات. وهكذا نشأ الجهاز العصبي الذي يعالج هذه المعلومات ويوزعها على الأقسام الأخرى من المتعضّي. وقبل وقت طويل، تطلب دفق

= - الفلسفة البيولوجية التي لا ترى الحرب في الكون بل في جينات الإنسان الوراثية التي هي بدورها عنيفة وعاشقة للسيطرة على الحيّز المكاني.
- الفلسفة الثقافية التي ترفض الحتمية البيولوجية وتسعى إلى تفسير الحرب بوصفها ناجمة عن المجتمع، أو أنماط الثقافة، أو العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية.

(٢٨) جان وماري مولر، **معنى اللاعنف**، ترجمة أنطوان الخوري طوق (بيروت: حركة حقوق الناس، ١٩٩٥)، ص ١٥.

المعلومات نظام معالجة مركزياً ومعه برزت صورة مدمجة أكثر للعالم. ومع تطور الدماغ، تمت إضافة سمات جديدة إلى الوعي وبرزت مناطق في الدماغ متخصصة بالأحاسيس[٢٩].

نما الجهاز العصبي لدى الطيور والثدييات، ليصبح أكثر تعقيداً مُطوِّراً لحاء الدماغ حوله. ومع اللحاء ظهرت قدرات جديدة، فالكلب الذي يطارد قطة، أصبحت لديه صورة في دماغه عن القطة حتى ولو لم يعد يراها. المخلوقات التي لديها لحاء دماغي تمتلك ذاكرة وقدرة تمييزية، فهي تنتبه وتظهر نوايا. ومع الثدييات الرئيسة، أصبح لحاء الدماغ أكبر، الأمر الذي زاد سمات الوعي، وبخاصة القدرة على استخدام الرموز، ومكّن من التفكير وتطوير شكل جديد من الاتصالات: اللغة الرمزية. قد تكون قردة الشيمبانزي والغوريلا غير قادرة على الكلام، لكن سبب هذا ليس نقصاً في الدماغ بل لأنها تفتقد إلى حجرة الصوت، الحنجرة. كما أنها لا تستطيع تحريك لسانها بحرية كما يفعل الإنسان، لكنها تستطيع استخدام أشكال أخرى من اللغة الرمزية كلغة الإشارة.

لسبب ما، طوّر البشر حنجرة متطورة، وحين يبلغ الطفل السنة الأولى من عمره يتحرر لسانه، ما يسمح بإطلاق الأصوات المعقدة الضرورية للكلام. ومع هذين التطورين اللذين يبدوان صغيرين، تغيّر كل شيء. فالقدرة على الكلام مكنتنا من تبادل الخبرات مع بعضنا بعضاً. وفي حين أن الحيوانات تتعلم من خبرتها الخاصة وتبني معرفتها للعالم من الصفر، نستطيع نحن أن نتعلم من بعضنا البعض وأن نبني معرفة جماعية تنتقل من جيل إلى جيل. وهذا كان أساس تماسك المجتمعات البشرية[٣٠].

هذه القدرات الجديدة وسَّعت وعينا بطرق عدة. فاختبارنا للحيز المكاني تضخم حين تعرفنا إلى أحداث خارج نطاق البيئة الحسية المباشرة وخارج حياتنا. لقد تطور اختبارنا للزمن. وإضافة إلى استخدام الكلام للتواصل مع بعضنا البعض، تعلمنا التواصل مع أنفسنا أي داخل عقولنا، وبات في مقدورنا التحدث مع أنفسنا بالكلمات. وهذا كان أهم محصلات تطوير اللغة، لأن التفكير بالكلمات فتح الباب أمام الفهم والإدراك، وبات في وسعنا التساؤل عن أسباب وجود الكون. وذلك أضاف سمة جديدة إلى الوعي هي الفهم وتطوير الافتراضات والمعتقدات حول العالم وحول أنفسنا وحول تجربتنا الواعية. لقد أصبحنا مدركين ليس فقط لوعينا بل أيضاً لقدرات الوعي. أصبحنا ندرك أننا ندرك، ونعي أننا نعي. لقد ولد الوعي الاستبطاني، أي فحص الأفكار ودوافع الذات.

١ ـ رحلة التطور

تناول العديد من العلماء رحلة تطور الوعي هذه، وتقدموا باقتراحات قد تبدو غريبة أو متطرفة في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، يرى عالم النفس الأمريكي جوليان جاينز (Julian Jaynes)[٣١]

(٢٩) Peter Russel, «The Primacy of Consciousness,» Youtube, <http://www.youtube.com/watch?v=-d4ugppcRUE>.

(٣٠) المصدر نفسه.

(٣١) Julian Jaynes, *The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind* (New York: Mariner Books, 2000), <http://www.julianjaynes.org/bicameralmind.php>.

أن الوعي كان حيازة حديثة ومتأخرة لحياتنا العقلية، أو بأنه ليس كما هو عليه الآن. وقد استعرض جاينز الوثائق التاريخية والأبيولوجية والآثار التي خلفتها الحضارات القديمة، واستنتج أنه حتى ٣٠٠٠ سنة، لم يكن الجنس البشري ممتلكاً للوعي، إذ كان لا يزال معتمداً، مثله مثل الثدييات الرئيسيات الأخرى، على ردود الفعل المُتعلمة. لا بل حتى شعوب الحضارات الأكثر تقدماً في السنة الألف قبل الميلاد (الأشوريون، البابليون، المصريون القدماء) لم يكونوا واعين حقاً. فالكتب مثل الإلياذة والتوراة كتبتها عقول غير واعية، الأمر الذي يوضح لماذا لم يستطع هؤلاء التمييز بين الأحداث الخيالية والحقيقية. كان أبطال هذه الكتب يتصرفون بشكل غير واعٍ خلال اتخاذ القرارات، ويعتمدون دوماً على «الأصوات» وعلى إيقاع الشعر سداسي التفاعيل الذي هو سمة خاصة بالمعالجة الفورية التي يقوم بها النصف الأيمن من الدماغ. انفصام الشخصية، الشيزوفرانيا، تميل غالباً إلى هذا الإيقاع نفسه.

ولأن الشعوب القديمة لم تكن «واعية»، لم تشعر بمسؤولية إزاء أعمالها، فلم يكن لديها مفاهيم الخير والشر ولا ذكريات واعية ولا اهتمام بالتاريخ (الماضي) ولا اهتمام بالتقدم (المستقبل). باختصار، لم يكن لديها حس بالذات. الهلوسات هي التي كانت تقود حياتها لا العقلنة الواعية على رغم استخدامها اللغة للتواصل مع بعضها البعض والتعاون على بناء المجتمعات. «الله»، بالنسبة إلى جاينز، هو أحد تجليات هذا اللاوعي، وهو الصوت الرئيس الذي قاد السلوكيات الفردية والجماعية.

يعتبر جاينز أن الوعي لم يظهر إلا مع الأوديسة والفصول المتأخرة من التوراة قبل ٣٠٠٠ سنة. هذه الكتابات تحوَّلت بالتدريج من الأعمال اللاوعية إلى القرارات الواعية. فأبطال الأوديسة كانوا واعين للمضاعفات المادية والأخلاقية لتصرفاتهم. وفي الغرب، لم تبدأ القضايا الأخلاقية بالانتشار في اللغات المكتوبة إلا في القرن السادس قبل الميلاد، وفي الصين في القرن الخامس قبل الميلاد مع كتابات كونفوشيوس، وفي الهند في القرن الرابع قبل الميلاد مع الأوبانيشاد. في هذه الفترة، بدأت «أصوات الهلوسة»، وبسبب تعقّد البيئة، تصبح مضطربة ومتناقضة وفي النهاية غير نافعة، ولم تعد قادرة على توفير الإرشاد الفوري في صراع البقاء. وفي الوقت نفسه، قلَّص تطور الكتابة والتسجيل الدائم للأحداث في العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد الحاجة إلى توجيهات أصوات الهلوسة وأحلَّ مكانها وسائل تنظيم أكثر فعالية. وبالتالي، اخترع البشر الوعي عبر عملية تضمنت فقدان الإيمان بالآلهة. لقد بدأ التطور يكافئ البشر الواعين على حساب اللاواعين.

كما ألمعنا، فرضيات جاينز هذه تبدو متطرفة، خاصة حين نضع في الاعتبار أن العلماء يميزون بين الذكاء وبين الوعي. وفي هذا السياق، يعتبرون أن إنسان النياندرثال والإنسان المنتصب اللذين كانا أسلاف البشر قبل ظهور جنسنا قبل ١٠٠ ألف سنة، ربما امتلكا حتى هما أيضاً شرارة وعي في بعض لحظات حياتهما حين لم يكونا منهمكين في صراع البقاء. ومع ذلك، تبقى أفكار جاينز الثورية مهمة لأنها تساعد على لفت الانتباه إلى ضرورة هذا التمييز بين الذكاء (أو بالأحرى القدرات

العقلية) وبين الوعي. فهذا الأخير لا يبدو ضرورياً بالنسبة إلى المفاهيم، والتعلّم، أو حتى بعض الأشكال الأولية للفكر. وبالتالي، يمكن للمخلوقات غير الواعية (الزومبيات الفلسفية) أن تطوِّر حضارات معقَّدة تستند إلى الذكاء وحده، وكذا الأمر بالنسبة إلى العقول الإلكترونية التي يمكن أن تمتلك ذكاء فائقاً على رغم افتقادها الوعي الذاتي(٣٢).

٢ ـ أين الساعة البيولوجية؟

ما يهمنا هنا هو أن الوعي البشري عملية قيد التطور المستمر، وليست معطى ثابتاً أو نهائياً، وهو يتفاعل بقوة مع البيئتين الطبيعية والاجتماعية كعوامل مسببة أو دافعة لهذا التطور. وهذا ما يجب أن يدفعنا إلى الإدراك أن مكيافيلي وهوبز وكل الفكر السياسي ـ الاجتماعي، حديثه والقديم، كانوا يتحدثون في الواقع عن «طبيعة الإنسان» في إطار صراع البقاء الذي وسم حياة البشر منذ عصر الإنسان المنتصب إلى عصر الحروب بين البشر، في إطار التنافس على المأكل والمشرب والجنس. إنهم ينطلقون من الفرضية بأن البشر لا يزالون يعيشون في العصور الأولى حيث الحيوانات الضارية والمفترسة، والبرد أو الحر القاتلين، والندرة في المأكل والمشرب. وهذا ما يدفعهم إلى وضع صراع البقاء أو البقاء للأصلح (Survival of the Fittest) على رأس جدول أعمالهم.

الظروف الخارجية تغيّرت كلياً، لكن الساعات البيولوجية لأدمغة أصحاب الرؤية المكيافيلية لا تزال مجمّدة في الزمن. هذا في حين أن معطيات المجتمعات البشرية الراهنة الاقتصادية والتكنولوجية والعلمية تشي بأنه لم يعد يتعيّن على الجنس البشري أن يخوض غمار الحروب الضروس، أو أن ينغمس في لجج الأحقاد الاجتماعية القاتلة كي يحصل على الخبز والأمن السعادة. لا بل أكثر: هذا الوعي المكيافيلي، لم يعد في الواقع يساهم إيجابياً في معركة البقاء بل على العكس تماماً: إنه بات يدفع البشر إلى خطر الانقراض، عبر التدمير المنهجي لظروف الحياة وتوازناتها.

هذه هي الأسس التي ينطلق منها أنصار تيار الوعي الجديد. وهي، كما هو واضح، أسس مكينة ومُقنعة بما فيه الكفاية. لكنها تصبح أكثر إقناعاً، حين نكتشف أنها تستند إلى إرث فلسفي وفكري ثري للغاية، ما يُضفي على هذا التيار زخماً وجودياً رائعاً ومصداقية واسعة.

كيف؟

(٣٢) انظر: «Consciousness and Intelligence,» On Philosophy (5 June 2006), <http://onphilosophy.wordpress.com/2006/06/05/consciousness-and-intelligence/>.

الفصل السابع

سبينوزا، كانط، وثوار الحداثة الأولى: «أنبياء» قدماء لوعي جديد



كما لكل أنموذج أو طفرة فكرية ـ اجتماعية جديدة في التاريخ مفكروها ومنظّروها، فإن لتيار الوعي الجديد الذي نشهد التمخضات الأولى لولادته الآن، فلاسفته ومنظّريه المميزين. وهؤلاء لم يولدوا من رحم العصر الراهن، بل برزوا من بطون تاريخ تعود بداياته إلى القرن السابع عشر. على رأس هؤلاء باروخ سبينوزا، الذي باتت مساهماته الفلسفية والأخلاقية والسياسية، بمنزلة الروح المحرّكة لتيارات التغيير في القرن الحادي والعشرين، تماماً كما كانت الشرارة التي أطلقت العنان لفلسفات وعلوم إنسانية جديدة.

وعلى الرغم من أن سبينوزا لم يسعَ لتأسيس مذهب، وكان ناس عصره يتحدثون عنه كأنه «كلب ميت»، إلا أن فكره اخترق كل فلسفة جاءت من بعده. وهذا ما اعترف به الجميع تقريباً بما في ذلك ناقدوه الرئيسيون فريدريك جاكوبي (Friedrich Jacobi) الذي قال إنه «لاتوجد فلسفة أخرى ما عدا فلسفة سبينوزا»، وفريدريك هيغل الذي شدّد أنه يرفض منهج سبينوزا: «ومع ذلك، لكي يكون المرء فيلسوفاً يجب أن يكون أولاً سبينوزياً». وجد غوتيه لدى سبينوزا المبدأ القائل بأنه يتوجّب علينا قبول الحدود التي تفرضها علينا الطبيعة، وانبثقت «أنا» فيخته من نظرية سبينوزا القائلة بالجهد لحفاظ المرء على ذاته. كما ولّدت إرادة الحياة لدى شوبنهاور، والتطور الخلاّق لدى بيرغسون، أساساً من رحم الفلسفة السبينوزية[1].

---

(١) وَصَفَ الفيلسوف الفرنسي جيل ديلوز (Gilles Deleuze) سبينوزا بأنه «أمير الفلاسفة ومسيحهم، فهؤلاء لم يكونوا بالنسبة إليه أكثر من حواريين، كما كان للمسيح حوارييه». وقال إيرنست بلفورت باكس (Ernest Belfort Bax) أن «امتلاء العلم الحديث يعود إلى سبينوزا»، هذا في حين كان أرنست رينان يعلن خلال حفل افتتاح نصب تذكاري لسبينوزا: «ربما أصدق رؤيا في الله اختبرها إنسان موجودة هنا».

أولاً: الإنسانية المضاعفة

عوامل عدة في فكر سبينوزا تدفع تيارات التغيير إلى اعتباره أحد النجوم الفكرية الهادية للقرن الحادي والعشرين[٢] أبرزها: **أولاً**، مساهماته المثلثة في مجالات الفلسفة والأخلاق والسياسة. كل هذه المساهمات انطلقت من فكرة رئيسة، وحيوية، قوامها رفض سبينوزا اعتبار الإنسانية كياناً مستقلاً داخل كيان آخر؛ أو، بعبارة أخرى، رفض إضفاء أي قوانين مختلفة عن قوانين الطبيعة ككل على الطبيعة الإنسانية. فإذا ما كنا نريد تصوّر الإنسان منفصلاً عن الطبيعة، فهذا الإنسان غير موجود.

هذا الإقرار الصريح بـ «موت الإنسان» الذي سار على دربه تيار ما بعد الحداثة في القرن العشرين، أطلق في الوقت نفسه النزعة الإنسانية الأصلية والأصيلة من عقالها؛ بعد أن أمعنت فيها الثورة الرأسمالية قتلاً وتدميراً، كما سنرى بعد قليل. تلك النزعة الأصيلة دعت إلى بناء «الإنسان الإنسان» Homo Homo (أو الإنسان المُضاعف)، عبر جسد اجتماعي جديد يتجاوز مجرد رفض الواقع الراهن، كما يتجاوز المقولة المكيافيلية بأن بناء مثل هذا المجتمع يتطلب أسلحة ومالاً يجري البحث عنهما في الخارج. لكن سبينوزا يرد على ذلك بالقول: «ألسنا حائزين أصلاً عليهما؟ ألا تكمن الأسلحة الضرورية تحديداً في قلب القدرة الإبداعية والنبوئية التي يتمتع بها الجمهور؟»

كان سبينوزا مقتنعاً تمام الاقتناع بأن النبي، أي نبي، ينتج شعبه الخاص. وأن هذا الشعب الخاص هو الذي يمتلك الرغبة الكامنة في خلق مدينة جديدة أو أرض جديدة. ويقول إنه إذا ما بادرنا ببساطة إلى قطع الرأس الاستبدادي للجسد الاجتماعي، فإننا سنبقى مع الجثة المشوهة للمجتمع. ما نحن في حاجة إليه هو جسد اجتماعي جديد، وهو مشروع يتجاوز مجرد الرفض. يجب أن تكون أشكال خروجنا قادرة على إيجاد بديل معين. علينا أن نبني مجتمعاً جديداً قبل كل شيء. لا يفضي هذا المشروع إلى حيث الحياة العادية للإنسان (Homo Tantum)، بل يقود إلى الإنسان الإنسان، وهي الإنسانية المضاعفة وقد اغتنت بالذكاء والحب الكليين للجماعة[٣].

أقام سبينوزا صرح فلسفته على المحاور الرئيسة التالية: الله وعمليات الطبيعة واحد أحد، وهو يعمل بالضرورة وفقاً لقانون ثابت لا يتغيّر. الله ليس شخصاً بالمعنى البشري للكلمة وليس ذكراً

---

(٢) الاهتمام المتزايد بفكر سبينوزا برز لدى العديد من المفكرين المُحدثين على غرار ماثيرون (Matheron) (١٩٦٩)، وماكيري (Macherey) (١٩٩٠)، ونيغري (Negri) (٢٠٠٠، ٢٠٠٣ و٢٠٠٤)، وديلوز (Deleuze) (١٩٨٨، ١٩٩٠ و١٩٩٧). وفي مجال سياسات علم الوجود (الأنطولوجيا) نلحظ تأثيرات سبينوزا لدى مونتاغ (Montag) (٢٠٠٥) وغاتن وللويد (Gatens and Lloyd) (١٩٩٩) ووليامز (Williams) (٢٠٠٧)، وغيرهم...

(٣) حول فكر سبينوزا، انظر: سبينوزا، رسالة **في اللاهوت والسياسة**، ترجمة وتقديم حسن حنفي؛ مراجعة فؤاد زكريا (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)؛ فؤاد زكريا، **اسبينوزا**، سلسلة الفكر المعاصر (بيروت: دار التنوير، ١٩٨١)؛ ول ديورانت، **قصة الفلسفة: من أفلاطون إلى جون ديوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم**، ترجمة أحمد الشيباني، ط ٢ (القاهرة: دار القارئ العربي، ١٩٩٤)؛ Gilles Deleuze, *Spinoza: Practical Philosophy*, translated by Robert Hurley (London: City Lights Books, 1988), and Antonio Damasio, *Looking for Spinoza: Joy, Sorrow, and the Feeling Brain* (New York: Harvest, 2003).

(كما الاعتقاد الشعبي) أو أنثى. إنه إله لاشخصاني. كلٌ يعزو صفاته الخاصة على الله (المثلث والدائرة سيقولان إن الله مثلث كامل أو دائرة كاملة). لكن لا الإرادة ولا الفكر يمكن أن ينسبا إلى طبيعة الله. إرادة الله هي المجموع الكلي لكل العقول. عقل الله هو كامل الذهنية المنثورة فوق الفراغ والزمان. إنه الوعي المنشور الذي يُحيي العالم وينعشه. الله له عقل وجسم، لكن لا العقل ولا المادة هي الله بل إن العمليات الذهنية والجزيئية التي تشكِّل التاريخ المزدوج للعالم، هي وعللها، تكون الله. الله وعقله والأشياء التي أدركها عقله هو وهي الشيء الواحد نفسه(٤).

النظام الميكانيكي الذي رآه ديكارت في المادة والجسد وحدهما، يراه سبينوزا في الله والعقل أيضاً (أي أن الله عملية متطورة هو أيضاً). هناك هنا جبرية، ولكن ليس غائية عن سابق تصميم. هناك قوانين لا غائيات.

ثانياً: رفض عبودية الماضي

العامل **الثاني** في مسألة ثورية وراهنية فكر سبينوزا، تكمن في مقولاته حول الأخلاق الوضعية. فهو يعتبر أن كل كائن يسعى إلى التشبُّث بكينونته الخاصة، وهذا ليس سوى الماهية الواقعية لذلك الشيء. القوة التي يبقى بموجبها الشيء، تكون لب كينونته وجوهره. فكل غريزة هي حيلة أو تدبير أوجدته الطبيعة وطورته للحفاظ على الفرد (أو النوع). اللذة والألم ليسا سبب رغباتنا بل هما من نتائجها، فنحن لا نرغب في الأشياء لأنها تعطينا لذة، بل هي تعطينا لذة لأننا نرغب بها. نحن نرغب بها لأنه يجب علينا ذلك. وبحكم ذلك ليس هناك إرادة حرة، فضرورات البقاء تعيّن الغريزة، والغريزة تعيّن الرغبة، والرغبة تعيّن الفكر والفعل. الذهن مقرَّر له أن يريد هذا الشيء أو ذاك. الناس يعتقدون أنهم أحرار، وسبب ذلك أنهم يعون إرادات أفعالهم ورغباتهم، لكنهم يجهلون العلل والأسباب التي تدفع بهم إلى هذا التمني أو الرغبة.

يقارن سبينوزا وهْمَ الإرادة بحَجَر يُفكِّر وهو مندفع إلى الفضاء بأنه هو الذي يعيّن فضاء مساره ومكان سقوطه ووقت هبوطه. القاعدة الوحيدة للفضيلة هي أن تفهم، وليس الأخلاق المسيحية. فالانفعال هو فكرة ناقصة. حين نتبصر نصبح خالقي مستقبلنا لا عبيداً لماضينا. وحينها نحقق الحرية الوحيدة المممكنة للإنسان. سلبية العاطفة هي «العبودية البشرية»، وفعل العقل هو الحرية الإنسانية. أن تكون إنساناً متفوقاً (سوبرماناً) لا تعني أن تكسر القوانين بل أن تتحرر من الغرائز. هذه الحرية أنبل من تلك التي يدعوها الناس الإرادة الحرة، وذلك لأن الإرادة ليست حرة.

العامل **الثالث** في ثورية سبينوزا المتواصلة هي رؤيته السياسية الطليعية. فيما كان هوبز يحمل على الشعب الإنكليزي لثورته على مليكه، كان سبينوزا يؤسس للديمقراطية الليبرالية ولروسو:

«لا تتمثّل الغاية النهائية للدولة في السيطرة على الناس ولا في كبح جماحهم عبر الخوف، بل هي بالأحرى تحرير كل إنسان من الخوف كي يعيش ويعمل بكل أمن واطمئنان وبدون أن يؤذي

---

(٤) سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص ١٨٣ وما بعدها.

نفسه أو جاره. ليس غاية الدولة أن تصنع من الكائنات العقلية وحوشاً كاسرة وآلات، بل تمكين أجسادهم وعقولهم من القيام بوظائفها باطمئنان. إنها إرشاد الناس إلى ممارسة عقل متحرر حر وذلك كي لا يهدروا طاقاتهم على البغضاء والخداع والغضب، ولذلك فإن غاية الدولة هي فعلاً وواقعاً الحرية».

لكن، ماذا إذا ما استبدّت الدولة عبر حكامها؟ يدعو سبينوزا إلى إطاعة حتى هذا القانون الظالم، بشرط أن يحصل الناس على حرية التعبير وذلك كي يتم تأمين بديل سليم لهذا القانون. فالناس لا يحترمون مدة طويلة تلك القوانين التي لا يجوز لهم انتقادها: كلما تزايدت جهود الحكومة لخنق حرية الرأي كلما تزداد مقاومة الناس لها ضراوة وعناداً. وكلما تناقصت سيطرة الدولة على العقول كان هذا أفضل لكل مواطن وللدولة.

يعترف سبينوزا بضرورة وجود الدولة، لكنه في الوقت نفسه يشك ويرتاب بها لأن السلطة تفسد حتى من لا يُفسد (أفلم يُطلق نعت «غير القابل للإفساد» على روبسبيير قبل انفلات عنفه؟). وهو لا ينظر بعين الرضى إلى امتداد سلطة الدولة من الأجساد والأفعال إلى نفوس الناس وأفكارهم فهذا سيكون نهاية التطور وموت الجماعة.

يفضّل فيلسوفنا النظام الديمقراطي لأنه عقلاني. فالمرء يذعن إلى سيطرة السلطة على أفعاله، لكنه لا يسلِّم بسيطرتها على عقله ورأيه: إذا كانوا يساوون العبودية والبربرية بالسلام، فلن يصادف البشر حظاً أسوأ من هذا. لا شك في أن المنازعات بين الوالدين وأطفالهم تكون عادة أوفر وأشد من منازعات العبيد والأسياد، ومع ذلك تلك النزاعات لا تدفع الوالد إلى اعتبار أولاده عبيداً. الاستعباد لا السلام هو الذي يقوى ساعده حين نضع السلطة في يد رجل واحد. عيب الديمقراطية أنها تضع السلطة في يد متوسطي الكفاءات عقلاً وقدرة.

ثالثاً: الثورة السبينوزية

تكمن أيضاً ثورية الفكر السبينوزي وراهنيته في بث الروح مجدداً في الثقة بقدرة الجمهور، أو المجتمع المدني، على إعادة صنع التاريخ، بعد أن ضرب الاكتئاب الحاد واللامبالاة العديد من اليساريين والديمقراطيين، بفعل الانتصار الكاسح للرأسمالية النيوليبرالية، وبعد أن وصل «الخوف من الجمهور» إلى ذروة نظرية قصوى. وقد تجلى ذلك في إعادة تشكيل المخيِّلة السياسية المعاصرة، فجرى تبني مفهوم ما بعد الإنسان بدلاً من مركزيته، والنزعة الاحتمالية بدلاً من الادعاءات الغائية في الماركسية العلمية، ومفهوم القوة كالقدرة الكامنة (Potantia) لدى المجتمع، في مواجهة الرأسمالية الطفيلية والأشكال الأخرى من تغريب القوة.

كما تجلى في التقاط الفكرة المُبدعة لدى سبينوزا حول ضرورة تعاون البشر بعضهم مع بعض لتحسين القدرة الكامنة لديهم ولتطوير قدراتهم على الفعل: «لا شيء أكثر فائدة للإنسان من الإنسان. وكل البشر يجب أن يعملوا في لحظة واحدة لفائدة الجميع وألّا يفعلوا شيئاً للآخرين

لا يرغبون بأن يفعله الآخرون بهم». وهذا برأي سبينوزا، وهنا الأهم، ليس فرضاً أخلاقياً أنزله إلٰهٌ متسامٍ في السماء، بل هو حقيقة كامنة كحصيلة للطبيعة العقلانية لوجودنا في العالم.

نقطة محورية أخرى في فكر سبينوزا شكلّت الأساس لفهم مسألة المقاومة (للنظام الرأسمالي العالمي) في القرن الحادي والعشرين بصفتها أمراً أكثر من مجرد الاحتجاج على القدرات القمعية للرأسمالية وغيرها، وهي تمييزه القاطع في أشكال القوة بين القدرة الكامنة على الفعل، وبين السلطوية (Potestas) التي هي شكل من السيطرة والتغريب (Alienation) التي تستغل المجموع وتمنعهم من إنجاز ما يمكن أن يحققوه. وهذا يؤدي إلى وقوع الإنسان في لجج المعاناة الحادة، لأن ثمة أشياء من خارجه تقوده وتدفعه إلى القيام بأعمال قد لا يريدها، وليس بأعمال منبثقة من طبيعتها الخاصة ومتطابقة معها[٥].

ما يسهم في ترسُّخ السلطوية هو سيادة ما يسميها سبينوزا «الأفكار الناقصة أو غير الملائمة» التي ترتبط ببروز انفعالات تمنع الفرد والجماعة من فهم السبب الحقيقي للأحداث. يعطي جيل ديلوز مثلاً على مثل هذه الأفكار، الطفل الذي يعتقد أن موجة البحر التي ضربته تضمر نوايا سيئة له، فيغضب (الانفعالات) لأن الموجة تحد من قدراته. لكن، حين يفهم الطفل طبيعة الموجات بكونها لا «خيراً» ولا «شراً» في حد ذاتها وبالتالي يمكنه التفاعل والعمل معها، ينتقل من الفِكَر الناقصة إلى الفِكَر الناضجة، ويصوّب القدرة الكامنة نحو الاتجاه الصحيح، فيتأقلم بدون انفعال مع حركات الموجة. وهذا أيضاً ما يجب أن يفعله الجمهور في تعاطيه مع «القوى خارج ذاته وطبيعته».

أما نظرية سبينوزا حول الله والطبيعة ووحدة الأشياء وأصل الدين، فهي باتت الآن في أمر اليوم لدى الكثيرين بفعل عوامل عديدة منها: تكلّس الأديان الرسمية، وثورات الفيزياء الحديثة، والثورة أيضاً على فرضية الجينة الرأسمالية الأنانية. أي أن هذه النظرية لم تعد عملياً ميتافيزيقا، بل أصبحت حياة واقعية معاشة أو يجب أن تعاش، خاصة بعد أن تحوّلت الكنائس والمساجد والمعابد إلى ما يشبه مسارح السيرك، ولم تُبقِ من جوهر الأديان التوحيدي سوى المظهر الخارجي (راجع الفصل الثامن). وهذا، على أي حال، ما يدل عليه «التاريخ المقدس»، حيث انتهى الوحي الذي أراد إخراج اليهود من بوتقة طبيعتهم الحسية بعودة هذه الطبيعة إلى سابق عهدها الوثني. وتكرر الأمر نفسه في المسيحية التي تحوّلت خلالها رسالة المسيح في المحبة والسلام إلى تاريخ مرعب من الحروب والمذابح و«قتل العدو بمحبة»، كما كان يُفتي بعض البابوات. وقل الأمر نفسه الآن عن الإسلام الذي تطلّب أن تكون الأمة الإسلامية «خير أمة أُخرجت للناس»، فإذا بها الآن تسير على عكس ما طلبه الوحي، وعن البوذية والهندوكية التي حطمت فيها الشعائر الشكلية والشعبوية والتأليهية جوهر رسالاتها المستندة إلى صفاء الروح والوعي الصافي.

---

(٥) هنا نلحظ تمهيداً لنظرية ماركس حول التغريب والقيمة الفائضة.

فلسفة سبينوزا حاضرة أيضاً في الفيزياء الحديثة التي باتت تتقاطع على نحو مثير مع مكتشفات الروحانية الشرقية، كما ألمعنا، وحاضرة أيضاً في جانب منها في الدعوات الحديثة إلى نظام تعاوني وديمقراطي حقيقي في العالم، وإلى إعادة بناء النزعة الإنسانية لدفعها نحو توليد «الإنسان الإنسان Homo Homo» أو الإنسان المضاعف.

رابعاً: الثورة الكانطية

مع إيمانويل كانط، ستكون حركات «الأرض الجديدة» أو الوعي الجديد على موعد مع خطة عمل فلسفية ووجودية وسياسية عميقة لتحقيق السلام على كوكب الأرض، بعد عشرة آلاف سنة من التاريخ البشري الذي لم تُسجّل فيه سوى حقبة سلام ضئيلة للغاية لم تتجاوز عشر سنوات متصلة.

بالطبع، العديد من أفكار كانط تعرّضت للنقد أو الرفض في العصر الحديث. فمنذ القرن التاسع عشر، جرى إثبات خطل حديث كانط عن وجود أخلاق فطرية بديئية ومطلقة، وحلت مكانها فكرة «الضمير المتطور» والمُكتَسَب من حركة السلوك الاجتماعي، بهدف المحافظة على البقاء. باتت الأخلاق هنا نسبية مثلها مثل كل الأشياء في الكون والطبيعة[٦].

ثم إن الأبحاث الحديثة حول الحقيقة العلمية التي قامت بها جمهرة من العلماء، مثل الفرنسي بوانكريه والألماني ماخ وغيرهما وصولاً إلى أينشتاين، تتفق مع هيوم أكثر من اتفاقها مع كانط: فالعلوم وحتى الرياضيات «الأبدية والمقدسة» تبين أنها نسبية في حقيقتها. الاحتمال هنا حل مكان المطلق واليقين الكانطيين.

ومع ذلك، وكما مع فيلسوف القرن السابع عشر سبينوزا، برز كانط مؤخراً كمرجع فكري آخر من مراجع القرن الحادي والعشرين في مجال «السلام الأبدي» التي طرحه بشكل إبداعي قبل ثلاثة قرون كحل للمعضلة البشرية، وأيضاً حتى في مجال الأخلاق رغم تهاوي فكرته حول المطلق المستندة إليه. والحال أن كلاً من فكرتي السلام الدولي والأخلاق الوضعية تتغذيان بعضهما من بعض، لأن منطلقاتهما الوجودية واحدة.

هذا علاوة على أن الشرط الكبير الذي وضعه هذا الفيلسوف على الدين[٧]، مرة أخرى جنباً إلى جنب مع سبينوزا، وهو أن يستند أولاً وفقط على الأخلاق، شكّل في هذه الأيام منصة رائعة للمطالبة بإعادة النظر في مسيرة الأديان انطلاقاً من هذا الشرط. اختزل كانط الدين إلى إيمان أخلاقي وأمل، ومن دون ذلك ستتلاشى برأيه الأديان. هذه كنيسة المسيح التي أساء رجال الدين فهمها فأقاموا ملكوت الكاهن بدل ملكوت الله. لقد حل المذهب والطقس مكان الحياة الصالحة، وبدلاً من أن يكون الناس مرتبطين برباط الدين، نراهم منقسمين إلى ألف ملة ونحلة. الصلاة لا طائل تحتها إذا

---

(٦) وهذا أيضاً ما شدّد عليه سبينوزا حين دعا إلى إعادة النظر بمفاهيم الخير والشر.

(٧) ديورانت، قصة الفلسفة: من أفلاطون إلى جون ديوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، ص ٣٢٣ وما بعدها.

ما استهدفت تعليق قوانين الطبيعة، والدين يبلغ الانحراف حين يصبح في أيدي حكومة رجعية، وحين يبرز رجال دين يصبحون أداة للظلامية اللاهوتية والطغيان السياسي، بدل أن تكون مهمتهم إرشاد الإنسانية المتعبة وتعزيتها بالإيمان الديني والأمل والإحسان.

١ ـ وحوش وآلهة

هذه أفكار لم يفتّ الزمن من عضدها. وكذا الأمر بالنسبة إلى تركيز كانط على الحس والواجب الأخلاقيين. فأشد الحقائق واقعية وإذهالاً في كل خبرتنا لها هي بالضبط حسّنا الأخلاقي. إنه شعورنا بأن هذا الأمر أو ذاك خطأ. والذي يشعرنا بذلك هو المطلق في داخلنا (وهذا ما يتفق مع فكرة وحدة الوجود). إنه الأمر اللامشروط الذي يصدره ضميرنا إلينا لنفعل كما لو أن أفعالنا ستصبح بواسطة إرادتنا قانوناً شاملاً للطبيعة. القانون الأخلاقي في قلوبنا قانون غير مشروط ومطلق. وإنطلاقاً من ذلك، يدعونا كانط إلى عدم الاهتمام بسعادتنا، بل القيام بالواجب. فالسعادة ليست نظرية حول كيف نجعل أنفسنا سعداء بل كيف نجعل ذواتنا جديرين بالسعادة. فلننشد السعادة في الآخرين: «ولكي تبلغ الكمال في ذاتك والسعادة في الآخرين، عليك أن تعامل الإنسانية سواء في شخصك أو في أي شخص من الآخرين وفي كل حالة بوصفها غاية وليست أبداً وسيلة». وهذا جزء أيضاً من الشيء المطلق. فلنعش على مستوى كهذا وعندئذ سرعان ما سنخلق طائفة مثالية من كائنات عقلية. ولكي نخلقها علينا أن نسلك ونفعل وكأننا كنا ننتمي إليها قبل ذلك، وعلينا أن نطبّق الكمال الكامل في الدولة غير الكاملة. إنك تقول إن الأخلاق قاسية شاقة وصعب عليك وضع الواجب فوق الجمال والأخلاقية فوق السعادة، ولكن فقط تمشياً مع هذه الأخلاقية سيكون في مقدورنا «ألا نبقى وحوشاً وأن نبدأ بأن نكون آلهة».

الإحساس المطلق بالواجب يبرهن أخيراً على حرية إرادتنا، وذلك لأنه كيف بإمكاننا أبداً أن ندرك مفهوماً كهذا بوصفه واجباً لو لم نشعر بأننا أحرار؟ إننا نشعر بمثل هذه الحرية وكأنها جوهر ذواتنا الباطنية، جوهر الأنا المحضة. كل فرد منا هو قوة ابتكارية وقوة مبدعة وخلاقة. وكل واحد منا حر وهذا أمر نشعر به لكننا لا نستطيع أن نبرهن عليه.

وفي كلمات مجلجلة يعلن كانط: «نحن نعلم كل يوم أن حكمة الأفاعي تلاقي هنا في هذه الحياة من النجاح أكثر مما تلاقيه وداعة الحمامة، وأن بمقدور أي لص أن ينتصر إذا ما سرق بما فيه الكفاية. ومع ذلك، هذا الحس الأخلاقي بالصلاح يستمر لأننا نشعر داخل قلوبنا بأن هذه الحياة ليست سوى جزء من حياة، وأن هذا الحلم الدنيوي ليس سوى مقدمة جنينية لولادة جديدة وبعث جديد. واستناداً إلى هذا الشاهد، وليس العقل، يوجد إله».

مع فكرة السلام الكانطي، نطالع روحاً رائعة نجحت في تجاوز مركزية الذات الأوروبية وهي في ذروة غرورها وعربدتها في العالم، من خلال الاستعمار والغزوات، فيقف هذا الفيلسوف

ليندد بوحشية مدعي الحضارة الأوروبية، ليرسي السلام الدولي بعد ذلك على قواعد الديمقراطية والجمهورية، وكذلك على قواعد الأخلاق، ولكن هذه المرة على أسس واقعية.

ففي العام ١٧٨٤، نشر كانط شرحاً موجزاً بعنوان «المبدأ الطبيعي للنظام السياسي»، رأى فيه أن الصراع رفيق لا بد منه لكل تقدم. فلو أن البشر كانوا كلياً بشراً اجتماعيين لترهّل الإنسان وجمد. إذ من المستوجب أن يكون هناك مزيج من الفردية والمنافسة كي يتمكّن الجنس البشري من البقاء والنماء. من دونه ستبقى مواهبهم خبيئة إلى الأبد وكامنة في ذواتهم:

«إذن فلنشكر الطبيعة، وذلك لأن هذه الفظاظة وهذه الغيرة الحسود وهذا الغرور والزهو وهذه الرغبة في التملك والسلطان والتي لا تشبع أبداً، هي التي تجعل الإنسان يرغب في التوافق والوفاق. لكن الطبيعة تعرف أفضل من غيرها ما هو صالح بالنسبة إلى الأنواع، وهي تريد الصراع كي تستحث الإنسان وتدفعه إلى كد جديد لقواه وإلى المزيد من تطوير قدراته الطبيعية. لذلك الصراع من أجل الوجود ليس كله شراً، لكن على رغم ذلك، سرعان ما يدرك البشر أن هذا الصراع يجب أن يُحصر داخل حدود معينة، وأن تنظّمه القواعد والقوانين، وهنا يكمن أصل تطور المجتمع المدني. لكن هذه اللااجتماعية بالذات التي أرغمت البشر على الانتظام في مجتمع، تصبح بدروها السبب الذي يدفع كل شعب إلى ممارسة حرية طليقة من كل قيد في علاقاته الخارجية أي بوصفه دولة بالنسبة إلى دولة أخرى. وبحكم ذلك يتوجب على أي دولة أن تترقب من أي دولة أخرى النوع ذاته من الشرور التي نزلت فيما مضى بالأفراد وأرغمتهم على إقامة اتحاد مدني ينتظمه القانون»[٨].

لكن حان الوقت الذي يتوجّب فيه على الشعوب أن تتخلى كالأفراد من حال الطبيعة وارتباطها الهمجيين وأن تتعاقد للمحافظة على السلام. إن معنى التاريخ وحركته بأكملهما هما أبداً المزيد والمزيد من فرض القيود على المشاحنة والعنف والتوسيع المتزايد والمستمر لمنطقة السلام.

«ويجوز لنا أن نعتبر تاريخ الجنس البشري، من حيث هو كلٌ شامل، تنفيذاً لمخطط خفي وضعته الطبيعة لإيجاد دستور سياسي كامل داخلياً وخارجياً بوصفه الحال الوحيدة التي يمكن فيها تطوير جميع القدرات التي أوجدتها الطبيعة في الجنس البشري تطويراً كاملاً. وإذا لم يحدث هذا ستكرر مأساة سيزيف. وفي هذه الحالة لن يكون التاريخ سوى حماقة مستمرة لا نهاية لها. وعندئذ يجوز لنا أن نفترض كما افترض الهندوسي بأن الأرض ليست سوى مكان للتكفير عن خطايا قديمة ومنسية»[٩].

٢ ـ «السلام الأبدي»

مبحث كانط في **السلام الأبدي** الذي نشره عام ١٧٩٥ وهو في الحادية والسبعين، هو تطوير لهذا الموضوع، رغم علمه بالهزء منه. وفيه أعلن بكل جرأة أن «حكامنا لا يملكون المال لإنفاقه

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.
(٩) المصدر نفسه.

على التربية والتعليم العامين، لأنهم رصدوا جميع مواردهم للحرب المقبلة»، وأن الشعوب لن تبلغ السلام ما لم تسرِّح أولاً الجيوش القائمة وتلغيها:

«الجيوش الدائمة تستثير المنافسة بين الدول على زيادة عدد رجالها المسلحين، الأمر الذي لا يكون له حد أو نهاية، ويصبح السلام على المدى الطويل وبسبب نفقاته الباهظة أشد إرهاقاً من حرب قصيرة. وهكذا تكون الجيوش الدائمة علة الحروب العدوانية التي يشنونها للخلاص من ذلك العبء الثقيل، والحكومات تفضل تحميل العدو هذا العبء».

وحول وحشية مركزية الذات الأوروبية يقول: «إذا قارنّا ما ضربته عصور البربرية من أمثلة على قسوتها بالسلوك اللاإنساني في عصور المَدَنِية، وخاصة سلوك الدول التجارية من دول قارتنا، فعندئذ ستملأ المظالم التي اقترفتها تلك الدول قلوبنا بالهول والرعب».

المادة القطعية الأولى من مواد شروط السلام الأبدي بالنسبة إليه هي أنه ينبغي أن يكون النظام المدني لكل دولة نظاماً جمهورياً (أي لا أوليغارشياً)، كما لا يجوز إشهار الحرب إلا باستفتاء جميع المواطنين. فعندما يكون لأولئك الذين يتوجّب عليهم أن يخوضوا غمار الحرب ويكابدونها الحق في الاختيار بين الحرب والسلم، فحينها لن يكتب التاريخ بالدم، بل سيبرز نظام دولي يرتكز على الديمقراطية لا مكان فيه للعبودية والاستغلال ويكرِّس كل طاقته وجهوده للسلام.

في عصر العولمة النيوليبرالية، تبرز الحاجة الماسة إلى سرديات متسامية ومغايرة لسردية الأنا المغلقة، والفرد المستهلك، والبقاء للأقوى. وقد وفّر كانط جانباً من هذه السرديات حين كان بمثابة ثورة ضد الأنانية ومذهب اللذة الذي أطل برأسه الآن بقوة مجدداً منذ أواخر القرن العشرين، في حمأة مذهب حسي شهواني ولاأخلاقي، وبقيادة قلة شرهة لا يلطّف من غلوائها ضمير ديمقراطي أو حتى شرف ارستقراطي. وقد جاء اليوم على الأرجح الذي تضطر فيه مدنية منحلة للترحيب ثانية بدعوة الواجب الكنتية.

خامساً: الحداثة «الأصلية» الأولى

الذخيرة الفكرية ـ الفلسفية الثالثة في حوزة تيار «الأرض الجديدة» هو إرث الحداثة الأولى. ففي الحقبة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر، حدث ما يسميه نيغري وهارت[١٠] «شيء خارق للعادة في أوروبا: إذ أقدم البشر على إعلان أنفسهم أسياداً لحياتهم، منتجين للمدن، وصانعين للتاريخ، ومتطلعين إلى السماوات والفراديس. صحيح أنهم ورثوا وعياً ثنائياً ورؤية هرمية للمجتمع وفكرة ميتافيزيقية عن العلوم، إلا أنهم ما لبثوا أن أورثوا الأجيال التالية فكرة تجريبية عن العلم، وتصوراً تأسيسياً للتاريخ والمدنية، كما قدموا الوجود بوصفه حقلاً كامناً للمعرفة والفعل.

(١٠) أنطونيو نيغري ومايكل هارت، **الإمبراطورية**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٠)، ص ١٢١.

مع هذه الحداثة الأولى اكتشفت البشرية قدرتها الكامنة (الكمون) في العالم، وطوّرت وعياً جديداً للعقل وقدرة الجمهور والإنسان على الفعل والتغيير كي يصبح «إنساناً إنساناً» عبر جملة مفتاحية واحدة: «أجل، نستطيع بناء عالم جديد». تم في هذه الحقبة إنزال قدرات السماء إلى الأرض في العلم والفلسفة كما أيضاً في السياسة، وجرى تقويض كل بنيان القرون الوسطى بكل مؤسساتها الظلامية الكنسية، وإقطاعياتها التفتيتية والإقصائية، وفلسفاتها ذات البعد السلطوي الواحد.

بيد أن مثل هذه الثورة العميقة ما لبثت أن شهدت ثورة مضادة عنيفة هدفت في الدرجة الأولى إلى سحب المبادرة من يد الجمهور، وإعادتها إلى كنف «سيادة» النخب الحاكمة البرجوازية الجديدة التي ورثت النخب الإقطاعية. وهكذا غرقت أوروبا بأسرها في لجج بحر من الحروب الأهلية الدينية والاجتماعية التي قضت على نصف سكانها تقريباً.

كانت هذه الثورة المضادة هي ما أُطلق عليه لاحقاً اسم عصر التنوير. لكنه كان في الواقع تنويراً يبغي الهيمنة على صيغة الحداثة، من خلال إعادة فرض أيديولوجيات قائمة على التحكّم والتسلُّط، مستفيدة من رغبة الجمهور في الخلاص من حالة الحروب والفوضى وفي العثور على الأمن والاطمئنان. «كان لا بد من إيقاف الثورة التي تفتحت براعمها بكل بهائها على امتداد القرن السادس عشر، وتلطيخ المشهد بألوان الشفق الدامية. باتت المطالبة بالسلم طاغية للإفلات من براثن عزرائيل»[11]. وهكذا سقطت ثورة الحداثة الأولى وفازت الحداثة الثانية. ومنذ ذلك الحين، تحددت الحداثة بالأزمة، خاصة بعد أن حوّلت الثورة المضادة «سيادتها» إلى مركزية ذات أوروبية عنيفة، عبر نزعة قوميات شرهة أدت إلى إخضاع واستعباد كل الكرة الأرضية وتدمير حضارات بشرية بأكملها.

أبطال هذه الثورة المضادة الذين واصلوا تفجير الحروب الأهلية الوحشية في كل انحاء أوروبا، كانوا الكنيسة الكاثوليكية المعادية للإصلاح الديني، ثم انضمت إليها الكنائس البروتستانية. وما لبث أن عمل رينيه ديكارت في الواقع، على رغم تظاهره بدعم ثورة الحداثة الأولى، على ترسيخ سيادة النظام القمعي البرجوازي الجديد لنهضة الجمهور. وبعده تسلّم هيغل الراية ليحدد بوضوح ليس فقط ضرورة سيطرة الدولة المطلقة على الإنسان الأوروبي، بل أيضاً السيطرة الكولونيالية الأوروبية على بقية شعوب العالم.

أوضح تعبير عن هذا التوجّه كان دراما هيغل عن «الآخر»، والصراع بين السيد والعبد. فقد ترافق استرداد هيغل الفلسفي لـ «الآخر»، في إطار الروح المطلقة وتاريخه الشامل المتنقل من الشعوب الأقل شأناً إلى قمته في أوروبا، مع العنف القاسي الذي تمثّل في غزو أوروبا ونظامها الرأسمالي والاستعماري لمعظم أنحاء العالم. ففي خاتمة المطاف، يستحيل فصل الحداثة الأوروبية الثانية التي جسَّدتها فلسفة هيغل للتاريخ، عن الهجوم العنيف على تطلعات وآمال ورغبات الجمهور والإنسان الجديد الذي عبرّت عنه ثورة الحداثة الأولى.

---

(١١) وهذا ما حدث أيضاً بعد «الثورات المضادة» التي شُنَّت لإجهاض ثورات الربيع العربي بدءاً من العام ٢٠٠١، والتي دفعت «الجمهور» إلى تفضيل الأمن على الديمقراطية.

والآن، يتعيّن على قوى التغيير والحياة الجديدة تصفية الحساب مع إرث هذه الثورة المضادة، التي لا تزال مستمرة حتى الآن، ونفض الغبار عن تراث ثورة الحداثة الأولى التي عبّر عنها سبينوزا بقوة حين حدد آفاق النزعة الثورية الإنسانية، وأنزل السلطة من عليائها في السماء إلى عقول الناس وقلوبهم، وشدد على بناء الديمقراطية الحقيقية المستندة إلى فلسفة حرية الفرد في إطار وحدة الوجود.

سادساً: «أنبياء» آخرون

فكر سبينوزا الثوري وسلام كانط العالمي والإرث الرائع لثورة الحداثة الأوروبية الأولى، مضافاً إلى ذلك بالطبع الجهود الفكرية والروحانية المتواصلة منذ فجر التاريخ (وإن المبعثرة والمُجهضة في معظم الأحيان) لخلق وعي جديد متجاوز، تؤسس عليه «أرض جديدة» بدل جهنم الراهنة، هي الآن الأسلحة النظرية الرئيسة للمتفائلين بإمكان إنقاذ الجنس البشري والحياة نفسها من نهاية الانقراض الحزينة.

كان ثمة كوكبة أخرى من المفكرين الذين عزفوا على لحن الوعي الجديد والإنسان الجديد، بوصفهما جزءاً لا يتجزأ من رقصة التطور في الكون ووحدة الوجود.

١ ـ كامو، بيرغسون

لنسمع ما يقوله ألبير كامو «المُلحد»: في **أسطورة سيزيف**: «الحنين إلى الوحدة وتلك الشهوة إلى المطلق، يوضحان الحافز الأساسي في الدراما البشرية. فأنا أستطيع أن أنفي كل شيء ما عدا تلك الرغبة في الوحدة. الفاتحون يتحدثون أحياناً عن الدحر والغلبة، لكنهم يعنون دائماً التغلب على أنفسهم. كل إنسان يشعر أنه معادل لإله في لحظات معينة»[١٢].

أما هنري بيرغسون، فهو يرى في التاريخ مسيرة متصلة هدفها تحقيق قفزة تطورية جديدة للبشرية تنصهر خلالها في وحدة الوجود:

«الوجود بالنسبة إلي كائن شعوري ينحصر في التغيير، والتغيير ينحصر في النضج، والنضج ينحصر في أن يخلق المرء نفسه على نحو غير محدود. إننا في تغيّر مستمر، والوجود هو تيار سائل والحياة تخلق شيئاً جديداً في كل لحظة. والحقيقة أنه لا وجود للفردية في الطبيعة، فالحياة، التي هي ميل إلى التأثير في المادة الجامدة، تشكّل بالفعل كلاً واحداً وهي نتجت من تلك الكتلة الهلامية البروتوبلازمية الصغيرة».

«سر الحياة الأكبر هو الانفجار الأمومي لدى معظم الحيوانات وهو عناية النبات ببذره. وهذا الحب هو السر الأكبر الذي يكشف عن حقيقة الحياة ويوحي لنا أن الكائن الحي إنما هو معبر للحياة على وجه الخصوص. كل شيء يتم كما لو كانت سيطرة العقل على المادة تهدف إلى

(١٢) ألبير كامو، **أسطورة سيزيف**، ترجمة أنيس زكي حسن (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٢). ونشرت في الأصل باللغة الفرنسية بعنوان: Albert Camus, *Le Mythe de Sisyphe* (Paris: Gallimard, 1942).

إطلاق سراح شيء كانت المادة توقفه، وهو أن يسمو البشر فوق مستواهم الحالي. وبالتالي، الفلسفة لا يمكن إلا أن تكون مجهوداً كي ينصهر المرء من جديد في الوجود الكلي»[١٣].

ويرى بيرغسون أنه إذا ما رجع العقل إلى أصله فَسَيَحيا نشأته بطريقة معكوسة. لكن هذا غير ممكن إلا جماعياً، بحيث تسمو الإنسانية إلى فوق مستواها العادي الحالي. من لم ير أحداً يسبح، يعتقد أن السباحة أمر مستحيل. لكن يجب على المرء أن يثب ويخرج من بيئته ومن مجاله الخاص. نحن قادرون على أن نصل إلى لب الوجود عبر التقدم المشترك والمستمر للعلم والفلسفة، لكن يجب أن نسمو بالتفكير فوق مستوى العقل أي نحو الحدس. فلو تمكّن هذا الحدس من الامتداد أكثر من بضع لحظات، فلن يكفل اتفاق الفيلسوف مع تفكيره الخاص وحسب بل سيكفل أيضاً اتفاق جميع الفلاسفة فيما بينهم.

الكون، بالنسبة إلى فيلسوفنا، لم يتم تكوينه بعد فهو يتكوّن بلا انقطاع عبر إضافة عوالم جديدة إليه، وكل الأمور تجري كما لو كانت الحياة تبذل جهوداً للتحرر من قوانين المادة. صحيح أنها لا تستطيع أن تعكس اتجاهات التغيّرات الطبيعية، إلا أنها قادرة على تعطيلها. فالحياة هي مجرد مجهود لصعود المنحدر الذي نزلت إليه المادة. الله ليس كائناً نهائياً بل هو حياة دائبة وعمل وحرية. والخلق بالنسبة إلينا لن يعود لغزاً إذا ما مارسناه بحرية. الحياة هي الحركة، والمادة هي الحركة المضادة. والإنسانية الكاملة هي تلك التي يصل فيها العقل والحدس إلى أعلى مراحل النمو المشترك، فالحدس هو الروح نفسها والحياة نفسها بمعنى ما، فلا يمكن التعرُّف إلى الحياة إلا من خلال الحدس لكي ننتقل منه إلى العقل. إذ لا يمكن أبداً أن ننتقل من العقل إلى الحدس الذي هو القوة لمعرفة كيف يحدث شيء أو سيحدث من دون تعقُّل. هو الإدراك السريع للحقيقة.

٢ ـ نيتشه، باشلار

ـ مع فريدريك نيتشه، نحن أمام تحوّل فكرة التطور الواعي إلى دعوة إلى ثورة جامح لاستيلاد الوعي المتطور الجديد:

ـ «يمكننا أن نفحص الحياة التي نلقاها على سطح كوكبنا من زاوية جديدة، أي أنها تسير في الاتجاه نفسه الذي تسير فيه حياة الكون. وما فطرنا عليه هو أن نخلق كائناً يتفوق علينا. ما الإنسان إلا حبل منصوب بين الحيوان وبين الإنسان المتفوق. إنه الحبل المشدود فوق الهاوية: ففي العبور إلى الجهة المقابلة مخاطرة، وفي البقاء وسط الطريق خطراً، وفي الالتفات إلى الوراء وفي كل تردد وتوقف خطراً في خطر. فعظمة الإنسان هو أنه معبر وليس هدفاً».

ـ «أحب من تفيض نفسه حتى يسهو عن نفسه، إذ تحتله الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها. ذاتكم نفسها تريد أن تموت، وما أقصى رغباتها إلا ابتداع من يتفوق عليها. إنكم في عزلة أيها

---

(١٣) هنري برغسون، **التطور المبدع**، ترجمه من الفرنسية إلى العربية جميل صليبا (بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ١٩٨٢).

المنفردون، لكنكم ستصبحون شعباً في آتي الزمان ومنكم سيقوم الشعب المختار. ومن هذا الشعب سيولد الإنسان المتفوق»[١٤].

يقول غاستون باشلار: «لو طلب مني أعز شخص لدي أي اختبار يجب أن يقوم به وأي ملجأ يكون أكثر عمقاً وأكثر تحصيناً وأكثر راحة، لأجبته بأن يحمي مصيره في ملجأ الروح التي تسعى إلى الكمال».

«كياننا في القلب والعقل متصل بالعالم وينشد الخلود. هنا تكمن روحنا المنطلقة إلى فضاء لا حدّ له والمتعطشة إلى ديمومة لا نهاية لها والظمأى إلى المثل الأعلى يعذبها اللامتناهي. حياتها قلق من أجل آخر دائم، وطبيعتها ليست سوى عذاب طويل لتوسُّع يشمل العالم بأسره»[١٥].

٣ ـ غيتون وشوبنهور

يرى جان غيتون الحياة ناهضة من المادة ومن قلب الجماد بالذات. إنها ارتقاء ضروري للمادة، ويبدو أن الحياة مدعوة إلى ارتقاء سلّم صاعد. هناك في كل مكان ترفّع وارتقاء[١٦].

الوعي الجديد لدى شوبنهاور سيعني أمراً واحداً: «خروج العقل عن الإرادة الذي يقضي حتماً على الفردية وعلى كل ما يتصل بها من زمان ومكان وكثرة في الأشياء، وبالتالي على كل بؤس وألم وحزن. العقل أبدي حين ينظر إلى الأشياء من خارج الزمن، أي من وجهة نظر الأبدية. ومن هذه المعرفة تتولد راحة النفس وأعظم سرور ممكن في الحياة».

«العبقري هو من ينعكس الكون برمّته فيه، بينما لا يهتم الإنسان العادي إلا بالحواس. العبقري لا يتميّز عن باقي الناس سوى بالمعرفة الحدسية التي ينفذ بها إلى أعماق الأشياء بحيث يصبح وإياها شيئاً واحداً، وهو يتأمل عالماً غير عالم الناس فهو متحرر من الشر والأنانية. العبقري لا يقبل بالحاضر أو الواقع كما يظهر للناس كواقع سيّال، بل هو يحاول تمديد لحظة الحدس إلى الأبد. نحن نستطيع أن نقضي على الأنا الحزينة بتحويلها إلى ذاتٍ عارفة. فأمام المنظر الرهيب يتكشّف للإنسان وجوده المزدوج: فهو فرد أو ظاهرة عابرة قابلة للانسحاق، وهو ذات عارفة هي نفسها شرط للكون نفسه بصفتها عارفة».

«العبقري يعرف الإنسان أكثر مما يعرف الناس، وأسباب شقائه هي وحدانيته. فهو لا يستطيع التكيّف مع عصره بل هو في صراع دائم معه لأنه لا يعيش فيه».

---

(١٤) فريدريك نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، ترجمة وتقديم محمد الناجي (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦).

(١٥) غاستون باشلار، **حدس اللحظة**، تعريب رضا عزوز وعبد العزيز زمزم، مشروع النشر المشترك (القاهرة: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٠).

(١٦) جان غيتون، **الله والعلم**، ترجمة خليل أحمد خليل (بيروت؛ القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ١٩٩٨).

«أعظم الظواهر ليس الفاتح بل الزاهد، لأن هذا الأخير ينتصر على إرادة الحياة نفسها بما فيها من قوة وعنف. فكل السعادة التي يمكن أن تهبها الحياة عبر إشباع رغباتنا ليست أكثر من الصدقة الضئيلة التي نمنحها للمتسول ليسد رمقه اليوم ولنعرّضه إلى الجوع والحرمان غداً، إذا ما قورنت بالسعادة التي يحصل عليها الزاهد الذي ينظر إلى العالم بكل ما فيه على أنه فصل في ملهاة»[١٧].

٤ ـ غريفيث، شاردان

كل شيء في الكون في حالة سيولة وتغيُّر في كل لحظة، مع بيد غريفيث، وهناك قيد العمل الكائن الحي الذي ينحو إلى تجاوز ذاته، وفي الوقت نفسه يميل إلى تنظيم نفسه والتمركز حول ذاته.

«في مرحلة تطورنا الراهنة، العالم المادي يبزغ إلى وعينا. صحيح أن وعينا غير كامل تماماً، وأن سيطرتنا على المادة من خلال الوعي بدائية، إلا أننا بدأنا نكتشف أن الوعي البشري يستطيع أن يتطور إلى أبعد من مستواه الحالي، وأن الطرق التي يؤثِّر فيها هذا الوعي على المادة أعقد بكثير مما نتخيّل. وهنا نكتشف الرابط بين الفهم الغربي وبين الصوفية الشرقية».

«لقد أصبح في وسعنا الذهاب إلى أبعد من الوعي العقلي لنجرِّب الوعي التجاوزي العابر للفرد والعقل: العقل المتفوّق، والمادة التي تصبح واعية. هناك في الإنسان مستويات عدة من الوعي: الوعي الحيواني والوعي النباتي ووعي لحظة الانفجار العظيم. كل هذا موجود فينا. الكون كله موجود فينا، كما أن الإلكترون الواحد هو موجة وظيفية تمتد لتشمل الفضاء كله وتشمل مليارات ومليارات السنوات الضوئية، كما أثبت العلم».

«الهدف النهائي للحياة هو الوصول إلى الوحدة التامة، حيث يختبر كل الخلق وكل البشرية المندمجة في الوعي الأعلى أو الأعظم الوجود النقي، والمعرفة النقية، والحبور والسعادة النقيَّين، ومن ثم الخروج من الخطيئة الأولى الكبرى وهي فصل الإنسان عن الكون والطبيعة واعتباره فرداً منعزلاً».

«الفيزياء الحديثة اكتشفت أن كل الكون حقول طاقة في حالة تحوُّل مستمر: من المادة إلى الحياة ومن الحياة إلى الوعي. ونحن ننتظر الوقت الذي سيتطوَّر فيه نمط وعينا لنتجاوز حدود الزمان والمكان للدخول في خلق جديد. الإنسانية الجديدة تعني وعياً جديداً».

«الشخص البشري لا يتحلل حين نعبر إلى الوعي التوحيدي المتجاوز بل هو على العكس يصبح شخصياً أكثر. إذ إننا لا نشعر بالوحدة مع الآخرين إلا حين نتجاوز الزمان والمكان، وحينها لا نخسر أنفسنا بل نخسر الشعور بالانفصال القسمة. وهذا هو سر الحب»[١٨].

---

(١٧) فؤاد كامل، **الفرد في فلسفة شوبنهور** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١).

(١٨) Bede Griffiths, *A New Vision of Reality: Western Science, Eastern Mysticism and Christian Faith* (Springfield, IL: Templegate Publishers, 1989).

بالنسبة إلى **تيلار دي شاردان**: المادة تتطور إلى وعي، وكل شيء يتطور نحو النقطة أوميغا حيث المعنى والهدف والوحدة.

٥ ـ ابن عربي

ابن عربي، الشيخ الأكبر و«الكبريت الأحمر» سيكون أحد المرافئ الكبرى التي سترسو فيها سفن الساعين إلى بلورة الوعي البشري الجديد في القرن الحادي والعشرين، ليس فقط في ما يتعلق بنظرياته في وحدة الوجود بل أيضاً، وأولاً وأساساً، في نظرته حول «الإنسان الكامل»:

«الإنسان هو العالم الصغير، والعالم هو الإنسان الكبير، والاثنان يمثلان الحقيقة الإلهية في أكمل صورها». أما غاية الإنسان نفسه فهي الكمال حصراً، أي الانتقال من الإنسان/ الحيوان إلى الإنسان/ المثال، الإنسان الكامل الذي يسعى للوصول إلى أرقى المراتب وهي خلافة الله في خلقه. وبما أن الإنسان ما خُلق إلا من أجل الكمال، فإن «من سعى في هدمه فقد سعى في منع وصوله لما خُلِق له» (الفص الثامن عشر من فصوص الحكم).

الإنسان الكامل يجمع في نفسه الحق والخلق معاً. لكن ابن عربي يدعو الإنسان إلى التواضع الشديد: «إنما أنشأك على هذه الأرض فلا تعلُ عليها. إنها أمُّك». «ظاهر الإنسان خلق وباطنه حق. هذا هو الإنسان الكامل المطلوب، وما عدا ذلك فهو الإنسان الحيواني. كل ما سوى الإنسان خلق، إلا الإنسان فإنه خلق وحق».

«من عرف نفسه عرف ربه»، و«الله خلّاق على الدوام، وهو قادر على جمع الضدَّين ووجود الجسم في مكانين».

«العمى هو جوهر العالم كله، فالعالم ما ظهر إلا في خيال، فهو متخيّل نفسه. العالم بأسره إنسان كبير، وروحه الإنسان الكامل».

«ما ترى جسماً قط خلقه الله وبقي على حاله، فهو دائماً مائل إلى الاستدارة: لا جماد ولا نبات ولا حيوان ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا ورق ولا حجر إلا ويميل إلى أصله وهو النور».

«هذا التجلي الدائم هو الخلق الجديد»[١٩].

* * *

«المادة» الفكرية والنظرية للمرحلة الجديدة من التطور البشري (الثقافي) باتت، إذاً، موجودة ومتوافرة على الصعد كافة العلمية والفلسفية والثقافية والروحية. لكن، كيف السبيل إلى بلورة معطياتها لاستيلاد الوعي الصافي والمتطور الجديد؟

العقبات هنا تبدو كأداء حقاً.

---

(١٩) سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة** (بيروت: مؤسسة دندرة للطباعة والنشر، ١٩٨١).

الفصل الثامن

متى ولادة «الإنسان المُضاعف» و«الفرد الجماعي»؟

لا شيء عظيماً سيتحقّق من دون رجال عظماء. والرجال يكونون عظماء فقط إذا ما صمّموا على أن يكونوا كذلك.

شارل ديغول

لا يجادلنَّ أحد بأن العقبات أمام ولادة، أو استيلاد، الوعي الجديد، تبدو أسطورية إلى حدٍ قد يدفع إلى اليأس والقنوط. وهذا على كل الجبهات. فالأرض الجديدة تحتاج إلى بشرية جديدة. وهذه الأخيرة تحتاج إلى إنسان جديد وجماعات جديدة قادرة على منع كوابيس الماضي من التسلُّط على الحاضر والمستقبل. تحتاج إلى وعي ناضج يغادر مملكة الانقسامات الدينية والقومية والقَبَلية الدموية التي أسبغت على التاريخ البشري كل هذا اللون الأحمر القاني، ليُعانق الوجود والكون وكل المخلوقات بروح اندماجية منطلقة وفرح وجودي.

فالرأسمالية، في طبعتها المتعولمة الحديثة، تبدو قَدَراً لا فكاك من براثنه، حيث إن ذوبان المجتمع العالمي في بوتقة استهلاكية واحدة يجعل البشر مُطوّقين بشباك عالمية غاية في التعقيد، وخاضعين لقوى عاتية لا قِبَلَ لهم بمجابهتها، ومُعرَّضين للهزات الاقتصادية المفاجئة والتدهور البيئي والأوبئة الجائحة الخارجة كلها عن إرداتهم. ثم إن عالمنا وحياتنا باتا، في ظل النيوليبرالية، محشورَين بين ما وصفه وليام بتلر (William Butler) بأبديتي فكّي كماشة العِرْق والروح: أبدية العِرْق العاكسة للماضي القَبَلِي الذي تم اختزاله إلى عنوان للسخط، وأبدية الروح الحالمة بالمستقبل الأممي (الكوزموبوليتي) التي جرى تقزيمها بما يتناسب مع الجسد المُتطلِّب الذي باتت تقيس حاجاتها به. وهكذا، لم يعد العرق ولا الروح في ظل العولمة يبشراننا بأي مستقبل يخلو من الكآبة، أو يعداننا بأي كيان سياسي يتصف بشيء من الديمقراطية ولو القليل منها[1].

---

(١) مذكور في: Benjamin R. Barber, «The Ambiguous Effects of Digital Technology on Democracy in a Globalizing World,» Heinrich Böll Stiftung (2002), p. 4, <http://www.wissensgesellschaft.org/themen/demokratie/democratic.html>.

أولاً: عالما الجهاد وماكوورلد

عبّر بنجامين باربر عن تدهور أبديتَي العرق والروح بثنائية ما أسماه عالم الجهاد (الذي لم يقصد به الأصولية الإسلامية وحدها بل أيضاً كل أنواع الأصوليات في العالم) وعالم ماكوورلد، حيث تدفع العولمة النيوليبرالية المنفلتة من عقالها قطاعات واسعة من البشر إلى الحالة القَبَلِية الغارقة في بحار الحروب والدماء. وكذلك إلى بلقنة الدول القومية والوطنية، حيث تُمسك الثقافات والهويات المغلقة بخناق بعضها بعضاً، وينقض هذا القوم على ذاك، وتبادر قبيلة إلى نهش قبيلة أخرى.

يتم إطلاق «الجهاد» باسم المئات من العقائد الضيّقة والمشوّهة ضد سائر أشكال الاعتماد المتبادلة، وضد جميع ألوان التعاون الاجتماعي، وفي الوقت نفسه ضد ثقافة البوب والأسواق المدمجة والحداثة ذاتها. هذا في حين أن عالم ماكوورلد يسحر الناس في كل مكان بالموسيقى والوجبات السريعة، والعقول الإلكترونية الأسرع، والاستهلاك بلا حدود لسلع أغلبها لا ضرورة حياتية لها، والثقافة الهوليوودية التي تقدِّس العنف والجنس والنزعة الفردية القاتلة وأسباب اللهو والتسلية والتجارة، مُقحماً بذلك كل العالم والدول والشعوب في حلبة عالمية عامة متجانسة ومترابطة بحشد من شبكات الاتصالات والمعلومات(٢).

كل هذا يجعل كوكب الأرض في المرحلة الراهنة عالقاً بين رحى قطبي بابل وديزني لاند، فيتعرَّض لعملية تمزّق متسارعة بعنف، تتساوق في اللحظة ذاتها مع عملية توحُّد قسرية في إطار السوق العالمية، ولاختلالات كبيرة في ميادين عديدة: فكرياً ومالياً ومناخياً وجيوسياسياً وأخلاقياً.

بيد أن الأساس الأهم والأكبر الذي تستند إليه هيمنة العولمة هي العقيدة الإنسانوية التي نشأت في عصر الأنوار الأوروبي، والتي كانت مصدر تفاؤل كلا النظامين الاشتراكي البيروقراطي والرأسمالي على حد سواء. فهذه العقيدة آمنت بحلم التقدم البشري الدائم واللامحدود أو المقيّد في مجال التطور الاقتصادي، وفي عيش البشرية في بحبوحة مادية في ظل الأعاجيب التكنولوجية. في مثل هذه الرؤية الإنسانوية للجنّة على الأرض، تم إحلال القيم المادية والبراغماتية مكان العقائد الروحية والأخلاقية على أنواعها استناداً إلى الثنائية الديكارتية الشهيرة، والتي وضعت الإنسان في نهاية المطاف في حالة الحرب الشاملة الراهنة مع الطبيعة.

هذا المنطق الرئيس، أي الحرب على الطبيعة، هو الذي تحكّم بكل تاريخ الحضارة البشرية، ضمناً منذ اختراع الزراعة وبدء التطويرات التقنية، وعلناً وبشكل مجلجل مع عصر التصنيع الأوروبي. لكن أحداً من قباطنة الفرد الإنسانوي المتمحور حول الذات الأنانية البشرية كان في وسعه توقُّع (أو حتى مجرد تأمل وتمحُّص) المضاعفات الكارثية لمثل هذه الأنانية الذاتية الموصوفة على كل من مستقبل البشر والحياة نفسها على كوكب الأرض:

---

(٢) Benjamin R. Barber, *Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy* (New York: Ballantine Books, 1995), introduction.

«لقد باتت المضاعفات الآن جلية. فيوم الحساب أزف. وفي هذه المرحلة التفكيكية من الحضارة الصناعية، نرى أنفسنا الآن ليس كفخر الخلق وفخامته، بل كأكثر مخلوقات الأرض أذية وهدماً. إننا نهايات وليس إنجازات على كوكب الأرض. ولو أن هناك برلماناً للمخلوقات، فإن قراره الأول قد يكون التصويت إلى جانب قرار بطرد البشر من أسرة الكائنات الحية، لأن وجودهم بات مُهلكاً إلى درجة لم تعد تُحتمل. إننا بلاء العالم وكربه. إننا وجوده الشيطاني. إننا خرق وتجاوز لمعظم المجالات المقدسة للأرض»[٣].

١ ـ انبعاث الفاشيات

علاوة على مخاطر «ماكوورلد» هناك ردود الفعل المُحتملة للفاشية القومية والتطرف الديني الأصولي على التحلل الراهن في النظام العالمي الحالي، اللذين يسعيان إلى استئناف ما انقطع من تاريخهما الدموي المرعب. فالعالم في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين كان يشهد ظواهر عدة متفجرة دفعة واحدة، كلها تقود (بسبب استمرار سيادة مفاهيم الوعي القديم) إلى انفجارات تعيق تبلور الوعي الكوني الجديد.

الظاهرة **الأولى** هي مواصلة العولمة النيوليبرالية تسعير الحروب الأهلية المتصلة، الساخنة والباردة، ليس فقط في الشرق الأوسط الإسلامي (سورية، ليبيا، اليمن، العراق... إلخ) وأفريقيا، بل أيضاً حتى في أوروبا «ما بعد الحديثة» التي تتصاعد فيها دعوات الانفصال الإثني، من كاتالونيا في إسبانيا إلى اسكتلندا في المملكة المتحدة مروراً بأوروبا الشرقية ودول الاتحاد السوفياتي السابق. وبالطبع، حين تسود هذه الهويات الجياشة المترافقة مع ثورة المعلومات ونزعة الاستهلاك، ستنشأ سدود ترسانية جديدة في وجه الوعي الجديد.

ظاهرة **أخرى** تتمثّل هي بالانتقال المتسارع للسلطة العالمية من الغرب إلى الشرق، لكن مع تحوّل الشرق إلى غرب، بسبب تخليه التدريجي عن مشروع نهضة الوعي الصافي الذي تضمنته تعاليم الفلسفات التجاوزية الآسيوية، من البوذية والفيدية إلى الطاوية، وانغماسه في لجج حداثة مادية متطرفة على النمط الغربي، لا تضع أي اعتبار للبيئة والطبيعة، ولا لوحدة البشر، ولا للتوازن بين الروح والمادة.

بالإجمال، يتبيّن الآن أن «القرية العالمية» التي لطالما تم التغني بها بوصفها المستقبل الجديد والموحَّد والمسالم للبشرية، هي في الواقع شبكة من المصالح المتضاربة بفعل المنافسات الضارية بين مختلف القوى الرأسمالية (راجع الفصل الأول). كما يتبيّن أن التطرف القومي والديني المنغلق، هو في الواقع الوجه الآخر لعولمة تعمل على تأجيج الصراعات والتناقضات بدل الترويج للتعاون في إطار «القرية الواحدة»، وعلى ضرب القيم الاجتماعية الإيجابية وتصفية التنوع الثقافي (والبيئي)، الأمر الذي يفتح المجال واسعاً أمام بروز الظواهر الأصولية العنيفة على أنواعها.

---

(٣) Thomas Berry, *The Dream of the Earth* (New York: Sierra Club Books, 1988), p. 209.

تجسدات هذه الحقيقة تبرز في الوقائع التالية:

أ ـ الصعود الصاروخي الجديد لليمين المتطرف في أوروبا (كما أظهرت انتخابات البرلمان الأوروبي منتصف العام ٢٠١٤) وما سيفرزه ذلك من مضاعفات محتملة على مستقبل الاتحاد الأوروبي نفسه، لأن هذا النوع من اليمين يرفض العولمة الأوروبية ويريد العودة إلى كنف الدولة القومية (في صيغتها الفاشية أو المتطرفة).

ب ـ تفاقم الصراعات القومية في شرق آسيا وجنوبها. في الشرق في إطار المواجهات المتصاعدة بين الصين واليابان، حيث يسعى كل نظام فيهما إلى تعزيز وضعه الداخلي عبر استنفار المشاعر القومية المشبوبة والعنيفة ضد «الآخر» المجاور. وفي الجنوب، حيث يعني وصول التيار الهندوسي إلى السلطة حاملاً معه مشروع زواج الفلسفة الهندية مع الرأسمالية النيوليبرالية المنفلتة من عقالها، تسعيراً للصراعات الطائفية والإثنية. وهذا بالطبع ستكون له تأثيرات مدوّية في كلٍ من توازنات القوى الآسيوية وفي النظام العالمي.

ج ـ انفجار آخر للصراعات القومية في شرق آوروبا، بين قومية روسية منبعثة وبين قوميات أوكرانية وبلطيقية وشرق أوروبية ووسط آسيوية، كرد فعل من هؤلاء، بدعم واضح من الولايات المتحدة، على جهود موسكو لإحياء إمبراطوريتها السوفياتية.

د ـ وأخيراً، دخول الصراعات القومية والمذهبية بين الأمم الفارسية والتركية والعربية في العالم الإسلامي في مرحلة تاريخية جديدة ـ قديمة، هي في الواقع تكرار أو رجع صدى لتلك التي كانت متفاقمة إبان العهد العباسي في القرن العاشر الميلادي، والتي حسمها الأتراك لاحقاً لمصلحتهم طيلة نيف وأربعة قرون.

٢ ـ تعثُّر الكتلة التاريخية

إلى هذه العقبات الكأداء أمام ولادة الوعي الجديد، هناك تبعثر قوى الكتلة الشعبية التاريخية، التي يفترض أن تحمل مشروع هذا الوعي، والتي لم تستطع بعد بلورة خطة عمل مشتركة تتضمن الحد الأدنى من الاتفاق والوفاق، سواء فيما بينها أو في داخل كل منها.

أبرز هذه الحركات وأكثرها فعالية كانت حركة العولمة البديلة[٤]، التي نجحت للمرة الأولى في تحويل تيارات الاعتراض على السياسات النيوليبرالية إلى «شارع سياسي منتفض»، مُستخدمة ثورة المعلومات لإطلاق الجهود العالمية المشتركة.

---

(٤) العولمة البديلة، أو تيار العدالة العالمية، هو الاسم الذي أُطلق على الحركات الاجتماعية التي يدعم أنصارها التعاون والتفاعل الدوليين، لكنهم يعارضون التأثيرات السلبية للعولمة الاقتصادية النيوليبرالية، ويعتبرون أنها تلحق أفدح الأضرار بالبيئة والمناخ، والعدالة الاقتصادية والاجتماعية، وحماية العمال والعاملين والثقافات المحلية، والسلام، والحريات المدنية. كما يرفض هؤلاء أن يُطلق عليهم اسم «الحركة المناوئة للعولمة» لأنهم يؤيدون فكرة العولمة نفسها (غير النيوليبرالية). وهذا ما يميّزهم عن الحركات القومية واليمينية الأوروبية المتطرفة التي ترفض مسألة العولمة برمّتها انطلاقاً من اعتبارات «قَبَلِيَة».

البدايات كانت في العام ١٩٨٩ حين انطلقت تظاهرات في باريس ضد قمة مجموعة السبعة تحت شعار «كفى» (ca suffit comme ca)، لتطالب بشطب ديون دول الجنوب. وقد أيّدت الحكومة الفرنسية هذا المطلب. وفي العام ١٩٩٨ اقترحت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) تحرير الاستثمار والتجارة عبر الحدود، من خلال الاتفاقية التعددية حول الاستثمارات (Mai). بيد أن المنظمة اضطرت إلى التخلي عن هذا المشروع في تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٩٨ في إثر الاحتجاجات الصاخبة التي قام بها ممثلو المجتمع المدني العالمي.

وفي الذكرى الخمسين لتأسيس صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، عمد المحتجون في العديد من مدن العالم إلى ممارسة تكتيك الضجيج لإزعاج احتفالات أصحاب المصارف الكبرى بهذه الذكرى. وفي ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٩ نُظِّمت أولى الاحتجاجات العالمية في عشرات المدن حول العالم تحت شعار «كرنفال ضد رأس المال» أو (ج ـ ١٨). ثم اندلعت تظاهرات كبرى ثانية في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩ تم خلالها منع بعض وفود منظمة التجارة العالمية في سياتل من الدخول إلى مبنى المؤتمر.

الاحتجاجات ضد قمة الثماني في جنوى في ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠١ كانت الأكثر دموية في تاريخ أوروبا الغربية الحديث، حيث سقط مئات الجرحى خلال يومين من الصدامات العنيفة.

وفي العام ٢٠٠٢، كشفت هذه الحركة عن عضلاتها عشية الغزو الأمريكي للعراق العام ٢٠٠٣، حين نزل أكثر من ١١ مليون مواطن إلى الشوارع في ١٥ شباط/فبراير من العام نفسه، في إطار تظاهرات عالمية لم يسبق لها مثيل ضد الغزو الوشيك. وهذا ما دفع **نيويورك تايمز** إلى وصف هذه الحركة آنذاك بأنها «القوة العظمى الثانية في العالم»[٥].

بيد أن التفاؤل بإمكان تبلور حركات الاحتجاج هذه إلى مشروع حضاري عالمي يطرح نفسه بديلاً لنظام إمبراطورية العولمة، سرعان ما تراجع بفعل عاملين اثنين:

الأول، أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن التي بدا أنها كانت بمثابة هبة من السماء للنظام النيوليبرالي، خاصة في الدول الغربية، لأنها أسفرت عن وضع مسألة الأمن على رأس لائحة أولويات المواطنين. وهذا ما حوّل بين ليلة وضحاها جيوش الإمبراطورية وأجهزة استخباراتها وشرطتها من قوة مناوئة لأنصار العولمة البديلة إلى ضمانة رئيسة من ضمانات الوجود الفردي والجماعي للكثير من هؤلاء الأنصار. بكلمات أوضح: لعبت مسألة الإرهاب بالنسبة إلى «الإمبراطورية» الدور نفسه الذي لعبه التخويف من الشيوعية و«الخريف النووي» في تعبئة الرأي العام الغربي إلى جانبها.

---

(٥) Patrick E. Tyler, «Threats and Responses: News Analysis; A New Power in the Streets,» *The New York Times*, 16/2/2003, <http://www.nytimes.com/2003/02/17/world/threats-and-responses-news-analysis-a-new-power-in-the-streets.html>.

العامل **الثاني**، الأزمات الاقتصادية والمالية، المتلاحقة في الدول الغربية، التي جعلت المواطنين الغربيين أكثر انشغالاً واهتماماً بأمنهم الوظيفي من هدف إقامة نظام عالمي أكثر عدلاً ومساواة.

لكن هذا ليس كل شيء لتفسير تضعضع هذا البديل. كانت حركة العولمة البديلة من البداية تعاني جملة نقاط ضعف كان كل منها كفيلاً وحده بشلها أو على الأقل تشتيت جهودها. فقد انغمست في حمأة هذه الحركة مروحة واسعة من التيارات التي لا تتفق على شيء إلّا على قاسم مشترك هو رفض الواقع الراهن: من البيئيين والإيكولوجيين الذين يريدون وضع الأولوية القصوى لـ «نداء الأرض»، لكنهم هم أنفسهم ينقسمون إلى معسكرات متناقضة تتراوح بين الدعوات إلى إبادة كل الجنس البشري أو على الأقل ملياري نسمة منه إلى النزعات الإصلاحية المحبذة للتعاون مع الحكومات والشركات الكبرى لحماية البيئة.

وكما الأمر مع البيئيين، كذلك مع الحركات والمنظمات السياسية ـ الاقتصادية. فهذه أيضاً انشطرت إلى قوى يسارية تدعو إلى ثورة اشتراكية عالمية شاملة لتدمير النظام العالمي الراهن برمَّته، إلى تيارات معتدلة تحبِّذ الاصلاحات التدريجية في هذا النظام عبر الضغوط الشعبية والديمقراطية. وبين هذين المعسكرين برز معسكر ثالث يدعو إلى الانسحاب من النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي المتعلوم وبناء مجتمعات صغيرة مكتفية ذاتياً لها حتى عملتها الخاصة.

وقد انبثقت من هذه التباينات مواقف مختلفة ومتباينة إزاء مسألة العنف أو اللاعنف، حيث رأى المتشددون أن عنف سيوف الإمبراطورية لا يُجابه بأغصان الزيتون وأجنحة الحمام بل بعنف مماثل مضاد. هذا في حين رأى المعتدلون أن ممارسة العنف تقضي على جوهر فكرة «الأرض الجديدة» لأنها تعيد إنتاج كل التاريخ البشري الدموي وتكرِّس الولادات الجديدة المتكررة للوعي المكيافيلي.

علاوة على هذه التنويعة، برز شقاق خطير بين ممثلي العالَمين الأول والثالث حيال الموقف من العولمة نفسها. ففي حين أطل الطرف الأول على العولمة النيوليبرالية بصفتها «شر مطلق»، كان الطرف الثاني يضع الأولوية لتوفير الوظائف لعماله ومزارعيه كوسيلة للخروج من بؤرة الفقر رافعاً شعار: «ما هو أسوأ من استغلال شركات العولمة لعمال العالم الثالث هو ألا يكون هناك استغلال، لأن هذا يعني فقدان فرص العمل والغرق في الفقر المدقع».

وبالطبع، يجب ألاّ ننسى هنا القدرة الهائلة للرأسمالية النيوليبرالية، بما تملكه من هيمنة شبه مطلقة على أجهزة الإعلام ووسائل الاتصالات وأفلام الترفيه والتسلية والنخب السياسية عبر ميكانيزمات التمويل، على بذر الشقاق والخلافات في العالم كأساس للتقسيمات الاجتماعية ولتفجير كل أنسجة المجتمعات في العالم[٦].

---

(٦) تحدّث فرانسيس فوكوياما ملياً عن التأثيرات الانفجارية والتفكيكية للعولمة الراهنة، في: Francis Fukuyama, *The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order* (New York: Free Press, 2000).

وجنباً إلى جنب مع هذه المعضلات، كانت تبرز مشكلة كبرى تتعلق بكيفية تطبيق فكرة الديمقراطية الحقة أو الحقيقية على المستوى العالمي، رغم أن كل منظمات وتيارات الأرض الجديدة تُجمع على ضرورة وضعها على رأس أولويات العالم البديل، إذ من المعروف تاريخياً أن الديمقراطية الحديثة نشأت في أحضان الدولة ـ الأمة بكل قوانينها، وميكانيزماتها الانتخابية والتمثيلية، وحدودها الجغرافية الواضحة، وعقودها الاجتماعية الخاصة مع مواطنيها. وبالتالي، كيف بالإمكان تطبيق مبادئ الديمقراطية على حركة احتجاج عالمية واسعة النطاق ومتعددة المشارب ولا نطاق مكانياً أو قانونياً لها. مَنْ يُمثّل مَنْ هنا؟ وما الوسائل لتمديد مسألة المحاسبة الديمقراطية إلى النضال حول وجهة الحوكمة العالمية وما يترافق معها من ديناميات سياسية واجتماعية واقتصادية؟ هل يكون الحل بتشكيل حكومة ظل عالمية ديمقراطية، تقوم هي بإبداع وسائل جديدة غير مسبوقة لتطبيق المبادئ الديمقراطية بشكل متساوق مع المتغيرات الكاسحة التي أدخلتها العولمة في مجالات ثورة المعلومات والاتصالات، وإسقاط الحدود التقليدية، وحركة الرساميل والعمال والثقافات العابرة للدول القومية؟

ثانياً: نظريتان متناقضتان

كيف تعاطى أرباب الوعي الجديد مع هذه العقبات؟

توزعت اجتهادات هؤلاء عملياً على تيارين رئيسين يتزعم **أحدهما** نيغري وهارت ومعهما كوكبة متعددة ومتنافرة من المنظّرين والمحللين الغربيين، الذين يعتبرون أن التغيير سيأتي من «الجمهور» العالمي الذي يولد الآن من رحم إمبراطورية العولمة، والذي سيدفن الرأسمالية ويقيم المجتمع التعاوني العالمي. ويقود **الثانية** سمير أمين مدعوماً أساساً بحركات العالم الثالث والمثقفين اليساريين «الكلاسيكيين»، الذين ما زلوا يعتقدون أن قوى التغيير تكمن في كتل اجتماعية في كل الدول تتكوّن من الكادحين كما من الشعوب والأمم المضطهدة، بالتحالف مع الطبقات المتضررة من العولمة في العالم الأول. ويتفرع من كلا التيارين أجنحة عدة تتراقص بين فكرتي الإصلاح والثورة، وبين مفهومي النضالات الكونية الشاملة وبين النضالات المحلية المتصلة ببعضها، كما بين نزعتي الأمل والتشاؤم.

١ ـ مقاربة نيغري وهارت

المحاور الرئيسة للتيار **الأول** وردت في كتابَي نيغري وهارت **الجمهور** (*Multitude*) **ودولة أو جمهورية الشعب** (*Commonwealth*)[(٧)]، وهما الجزءان الأخيران من ثلاثية بدأت مع كتاب الإمبراطورية الذي أوردناه سابقاً.

---

(٧) Michael Hardt and Antonio Negri: *Multitude: War and Democracy in the Age of Empire* (New York: Penguin Press, 2004), and *Commonwealth* (Massachusetts: Harvard University Press, 2009).

الفكرة الرئيسة لدى هذا التيار هي أن مرحلة التحديث الصناعي انتهت ومرحلة ما بعد الحداثة عنت أن القطاع الرئيس القائد للعمليات الاقتصادية بات قطاع الخدمات المُنتج لسلع غير مادية، أي الاقتصاد المعلوماتي والشبكات الإنتاجية. وهذا ما أطلق دوراً كبيراً للمعرفة والمعلومات والمشاعر والاتصالات، وأدخل العالم في مرحلة ما بعد الفوردية. الآن تكنولوجيا المعلومات تُسيطر على الإنتاج، وسرعان ما ستصبح الآلات التفاعلية والسوبرمانية رقعاً جديدة مندمجة بأجسامنا وعقولنا بالذات: إنها حالة إنسانية جديدة.

ثمة في هذه النظرية ثلاثة أنواع من العمل اللامادي: **الأول** منخرط في الإنتاج الصناعي والدافع باتجاه عصر المعلومات؛ **والثاني** المهام التحليلية والترميزية للعقول الإلكترونية؛ **والثالث** إنتاج العواطف والمشاعر. كل أنماط العمل اللامادي هذه لا يسعها إلا أن تنطوي على التفاعل والتعاون الاجتماعيين، لكن هذا لا يُفرض من الخارج، كما إبان الحقبة الفوردية، بل عبر التعاون الذي يكمن في النشاط الجمعي العملي من خلال جملة من الشبكات اللغوية والتواصلية والعاطفية، وهو «قادر على توفير الإمكانية اللازمة لتحقيق نوع من الشيوعية العفوية والابتدائية». هذا النوع من «العمل السياسي ـ الحيوي» يخترق الجدران التي يقيمها رأس المال لاحتوائه، وهذا سيؤدي في النهاية إلى سقوط هذا الأخير لأنه ليس في أفضل وضع لتطوير قوى الإنتاج.

لقد فقد رأس المال القدرة على اختراع الجديد، وبات «الجمهور المُنتج والمُستقل» هو القادر على ذلك. أكثر من ذلك: المُلكية الخاصة باتت عقبة في وجه الابتداع والإنتاج، ليس لأنها لاأخلاقية بل لأنها باتت غير منتجة. وهذا ما يجعل الرأسمالية الآن تحفر قبرها بيدها حين تطلق الطاقة الإنتاجية المستقلة للجمهور.

من رحم إمبراطورية العولمة تولد الآن إمبراطورية جديدة بقيادة «الجمهور المُنتج والمُستقل» المستند إلى الإنتاج السياسي ـ الحيوي والمنتظم في شبكات. ومن ثَمَّ لا يبقى بعد ذلك سوى تطوير النظرية السياسية، ثم المؤسسات السياسية، التي ستمكّن الجمهور من التحوّل من كتلة موجودة بالإمكان أو بالقوة (وفق تعبير الفلاسفة) إلى كتلة بالفعل (وفق تعبيرهم أيضاً).

قبل الانتقال إلى وجهة نظر التيار الثاني، نشير إلى أن أفكار التيار الأول حول العمل اللامادي والجمهور المنتج المستقل ونهاية الإمبريالية والدولة ـ الأمة أو القوميات، وخاصة قدرة هذا الجمهور على تشكيل «جسد اجتماعي» جديد، تعرّضت إلى انتقادات حادة عدة يميناً ويساراً.

فالبعض انتقد فكرة الجمهور، التي استعارها نيغري وهارت من سبينوزا، إضافة إلى استعارتهما تعبير «الجذمور البدوي» من دولوز وغواتاري (Deleuse and Guattari)[٨] للإشارة إلى كون هذا الجمهور جسماً اجتماعياً متفرعاً أفقياً وغير تراتبي وغير مركزي، وبوصفه (الجمهور) وسيلة ثورية

---

(٨) في كتابهما **ألف هضبة** الصادر عام ١٩٨٠، طوّر ديلوز وغواتاري فكرة الجذمور البدوي، الذي يصف فكراً يسمح بتعدّد نقاط المداخل والمخارج غير التراتبية في جسم المعرفة. المثل الأبرز للجذمور اليوم هو شبكة الإنترنت التي لا بداية لها ولا نهاية، بل هي مجرّد «جمهور» من نقاط الدخول غير التراتبية، والجذمور يشبه أيضاً البدوي الذي يمنع ترحاله =

ضخمة لمقاومة كلٍ من إمبراطورية العولمة والدولة ـ الأمة وباقي تشكيلات السلطة في آن. وهذا ما يجعل السلطة موزعة وغير قابلة للتمركز. وبالمثل، جمهور نيغري وهارت جذموري بطبيعته، ولا يتكون فقط من البروليتاريا بل يتضمن أي مجموعة مستغَلة أو شعوب مضطهَدة يمكن أن تتحد معاً تحت مظلة «الديمقراطية المطلقة». وهذه الطبيعة تجعل الجمهور عالمياً وبدوياً آن، فيما هو يسعى إلى إضفاء الشرعية على التدفقات عبر الحدود القومية للناس والمعلومات، من خلال المطالبة بالمواطنة العالمية والامتلاك الجماعي للمعلومات.

المشكلة الأولى برأي هؤلاء النقاد[٩] في هذا المفهوم هي أن مثل هذا الجمهور المستند أساساً إلى العمل اللامادي، يفتقد أي مضمون سياسي. فإذا ما كان هذا العمل اللامادي ينتج مباشرة مجتمعاً جذمورياً ومتشابكاً ومفتوحاً للعموم، إلا أن فقدان البعد السياسي سيمنعه في الواقع من التجسُّد في جسم اجتماعي واحد. وهنا، توفّر تجربة الربيع العربي نموذجاً فاقعاً لهذه الحقيقة. ففي حين أن العاميات اللامادية (Immaterial Commons) مثل الفايس بوك وتويتر ويوتيوب شكّلت فضاء مشتركاً رمزياً سمح بإطلاق شرارة الثورة، إلا أن افتقاد الجمهور المصري مشروعاً سياسياً محدداً، دفع الثورة في نهاية المطاف إلى أحضان الدولة البيروقراطية القديمة والعميقة ومعها رأس المال الإمبراطوري. هنا الجذمور البدوي أثبت أنه قادر على التدمير لكنه لا يعرف كيفية البناء. ولذا، مراهنة نيغري وهارت على أن الجمهور سيتمكّن بنفسه من خلق نفسه ككيان موحد، تكرار لحتميات الماركسية التقليدية التي كانت تراهن على أن البروليتاريا ستُصبح واعية ذاتياً لدورها، وستشعل شرارة الثورة المقدسة على رأس المال في كل العالم. لكن، كيف سيمكن للشرائح الواسعة من الجمهور أن تقفز فوق تبايناتها الثقافية والدينية والإثنية؟ قد يكون عمال شركة «أبَل» في شنغهاي وكاليفورنيا وباكستان على اتصال ببعضهم بعضاً، لكنهم يتباينون بقوة في مشاربهم الدينية، وأنماط عيشهم، ومستوى وعيهم لمعنى الحياة ولفلسفة الوجود.

أي جمهور يمكن أن يولد من مثل هذه الفروقات الفاقعة؟ لقد طرح نيغري وهارت فكرة الحب بوصفها القوة السياسية الكامنة التي ستلحم الجمهور بعضه ببعض. لكن أشرس الحروب خيضت بين الأحبة والحلفاء وحتى بين أصحاب العقائد الواحدة.

في ما يتعلق باضمحلال الدولة القومية، وبالتالي الإمبريالية، برزت وجهة نظر تشدِّد على أنه بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر وإعلان الحرب على الإرهاب، ثَبُتَ أن الدولة التي تسعى إلى السيطرة على الجمهور الجذموري لا تزال حية بقوة وتركل بعنف. وهي تضرب الآن باسم الشعب الأمريكي أو القوميات الروسية والأوكرانية والصينية واليابانية... إلخ. لا بل ذهب الباحث أتيليو

= المستمر السلطة من الاستقرار. انظر: Gilles Deleuze, Felix Guattari and Brian Massumi, *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia* (New York: University of Minnesota Press, 1987).

(٩) «Critique of Multitude,» Blog is Dead (9 April 2012), <http://www.blogisdead.net/2012/04/critique-of-multitude.html>.

بورون (Atilio Boron) إلى القول إن العولمة أسفرت في الواقع عن تعزيز موقع الدول المُهيمنة[١٠]. وهكذا، ورغم أن العولمة ربما عدّلت من شكل الإمبريالية، إلا أنها لم تغيّر شيئاً لا من مضمونها ولا من تأثيراتها الهائلة.

وفي حين أن نيغري وهارت يعتقدان أن الفرصة الوحيدة المتاحة أمام العالم الثالث هي تشكيل شبكات تكون عالمية ودينامية كما الشبكات الرأسمالية العالمية، بحيث يتم تحويل العولمة إلى قوة خير، إلا أن العديدين في العالم الثالث يرون أن المخرَج هو أن يصبحوا أقل عالمية لا أكثر وأن يدعموا الدولة.

بيد أن النقد العملي الأوضح وُجِّه إلى مفهوم ديمقراطية الجمهور، وبخاصة أن نيغري وهارت رفضا فكرة الحكومة العالمية المنتخبة ديمقراطياً، وقالا إن الحوكمة الجديدة يجب أن تنبثق من الشبكة التعددية لمؤسسات وفاعلين متقاطعين يحافظون، على رغم اتصالهم، على درجة من الاستقلال الذاتي. بيد أن المشكلة برأي النقاد هي كيفية عمل هذه الشبكة أو الشبكات على أرض الواقع. ما المؤسسات التي يتطلبها ذلك؟ كيف سيكون للأفراد قول وكلمة حول القرارات التي تؤثر فيهم؟ كيف ستتم حماية حقوقهم؟ كيف ستوفّر السلع العامة؟ هنا، لا يقدّم الكاتبان إجابات وافية غير القول إن الجمهور سيطوِّر عبر الممارسة والعمل مؤسساته الذاتية المستقلة. والواقع أنهما ليسا استثناء في هذا الأمر. فطيلة السنوات الأخيرة الماضية، نُشرَ الكثير عن ضرورات الحوكمة العالمية، لكن أحداً لم يطرح تصوراً واضحاً، أو مقنعاً، عن شكل هذه الحوكمة.

صحيح أن فكرة «جمهور الديمقراطية المطلقة» استقطبت انتباه الكثير من الحركات الديمقراطية في أنحاء العالم، إلا أن الكثير من القلق برز أيضاً من أن تتقلص هذه الفكرة في نهاية المطاف إلى أن يصبح القرار في أحضان نخبة ثورية «مستنيرة» تكون متناقضة حرفاً بحرف مع فكرة الجمهور[١١].

٢ ـ مقاربة سمير أمين

نأتي الآن إلى سمير أمين والتيار الثاني. نقد هؤلاء يتضمن كل الاعتراضات المذكورة أعلاه، لكنه يضيف إليها ما يمكن أن يكون هوة قد تتسع بين الفكر الماركسي واليساري في العالم الثالث وبين اليسار والماركسية الغربية، في التحليل كما في الممارسة.

بداية، يرفض هذا التيار مفهوم إمبراطورية العولمة نفسه، ويرى أن نيغري وهارت قصداه بهدف التمييز بين خصائصه الجديدة المكوّنة وبين تلك التي تحدد مفهوم الإمبريالية. وفي هذا السياق،

---

(١٠) Atilio A. Boron, *«Empire» and Imperialism: A Critical Reading of Michael Hardt and Antonio Negri* (London and New York: Zed Books, 2005), and Carol A. L. Prager, «Book Reviews: Empire and Imperialism: A Critical Reading of Michael Hardt and Antonio Negri,» *Canadian Journal of Political Science*, vol. 40, no. 1 (March 2007), <http://journals.cambridge.org/action/displayAbstract?fromPage=online&aid=958164>.

(١١) Thomas N. Hale and Anne-Marie Slaughter, «Hardt and Negri's «Multitude»: The Worst of Both Worlds,» *Open Democracy* (26 May 2005), <https://www.opendemocracy.net/globalization-vision_reflections/marx_2549.jsp>.

يتقلص هذا الأخير إلى مجرد بعد سياسي: أي أن الإمبريالية هي امتداد سلطة الدولة إلى خارج حدودها، الأمر الذي يؤدي إلى الخلط بين فكرتي الإمبريالية والاستعمار. وبما أن الاستعمار زال، فإن الإمبريالية زالت أيضاً. يشير أمين إلى أن هذا المنطق يتطابق مع خطاب الأيديولوجيا الأمريكية الرسمية التي تقول هي الأخرى إن أمريكا، وعلى عكس الدول الأوروبية، لم تكن استعمارية ولا إمبريالية، وهو منطق مرفوض. تقترح المادية التاريخية، برأيه، تحليلاً مغايراً يتمحور حول متطلبات تراكم رأس المال، وبخاصة من جانب الدول والقوى المهيمنة. وحين ندفع هذا التحليل إلى بعده العالمي، نصل إلى الاستنتاج بأن العولمة ليست سوى شكل آخر من الإمبريالية(١٢).

لا يُنكر هذا التيار أن الرأسمالية ونظامها العالمي شهدا في غضون السنوات العشرين الماضية تحولات نوعية في شتى المجالات. لكن هذا لا يجب، برأيه، أن يقود إلى الاستنتاج بأن الثورة العلمية والتكنولوجية ستنتج بنفسها أشكالاً اقتصادية وسياسية في الكوكب «تتجاوز» تلك التي كانت مستندة حتى الآونة الأخيرة إلى «المصالح القومية»، وأن هذا التطور إيجابي بحد ذاته، فهذا تبسيط خطير لماجريات الأمور. صحيح أن الأطراف المُهيمنة في رأس المال تنشط بالفعل في فضاء عابر للقوميات في العالم الرأسمالي، إلا أن السيطرة في هذه الأطراف لا تزال في يد مجموعات مالية لا تزال «قومية» بحدة (أي متركزة في الولايات المتحدة وبريطانيا أو ألمانيا، ولكن ليس بعد في أوروبا ككل). فالاقتصاد الرأسمالي لا يوجد من دون الدولة، عدا في المفهوم الأيديولوجي والفارغ لليبرالية.

لم تبرز حتى الآن دولة «العالم» العابرة للقارات. وخطاب التنمية الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية حلّ مكانه الآن خطاب «التأقلم»، الأمر الذي عنى أن النظام العالمي لم يصبح أقل إمبريالية بل أكثر إمبريالية. وهذا واضح كل الوضوح في اتفاق الجمهوريين والديمقراطيين الأمريكيين على أن أهدافهم هي احتكار المداخل إلى الموارد الطبيعية للكوكب، بهدف مواصلة نمط الحياة الأمريكية المبذِّر على حساب الشعوب ومستقبل الأرض، وعلى ضرورة منع بروز قوة كبيرة أو متوسطة الحجم قادرة على مقاومة أوامر واشنطن، وأخيراً على تحقيق هذه الأهداف عبر السيطرة العسكرية على الكوكب(١٣)، كما هو واضح في التطور الذي طرأ على الإمبريالية. ففي الماضي، ظهرت هذه الأخيرة كنزاع دائم بين القوى الإمبريالية أو بين الإمبرياليات. لكن النمو المطَّرد لرأس المال الأوليغارشي أدى إلى بروز «إمبريالية جماعية» تتكوّن من الثلاثي الولايات المتحدة وأوروبا واليابان، تتقاسم في ما بينها مصالح مشتركة في إدارة أرباحها من هذا النظام الإمبريالي الجديد.

يقترح أمين بديلاً لمفهوم الجمهور، الذي يعتبره ساذجاً وسيكون برأيه «سحابة فكرية عابرة»، وللنظام العالمي الراهن، يستند إلى الاعتراف بالاختلافات الكبيرة بين حاجات وتطلعات الطبقات الشعبية في كل أنحاء العالم. وهو هنا يتهم هارت ونيغري بأنهما «يجدان صعوبة في تخيّل مجتمعات الأطراف» (أي ٨٥ بالمئة من البشرية)، ويدعو إلى تشكيل كتل شعبية وقومية متعاونة عبر

---

(١٢) Samir Amin, «Empire and Multitude,» *Monthly Review*, vol. 57, no. 6 (November 2005).

(١٣) المصدر نفسه.

العالم قادرة على التغلب على الكتل الإمبريالية المهيمنة ومعها الكتل الكومبرادورية. يتباين تشكيل مثل هذه الكتل بين بلد وآخر، وبالتالي لا يوجد هنا نموذج عام واحد لكل الدول (لا «الجمهور» ولاغيره). ومن شأن تقاطع الإنجازات الديمقراطية والتقدمية في دول العالم أن يكون جزءاً من مرحلة انتقال طويلة إلى الاشتراكية العالمية. هذا إضافة إلى أن تأكيد الاستقلال الذاتي للشعوب والأمم والدول، سيجعل من الممكن استبدال عولمة الهيمنة الرأسمالية بعولمة يتم التفاوض حولها[١٤].

ثالثاً: نقاشات صحّية، ولكن؟

كما يتبين مما تقدم، النقاشات محتدمة بالفعل ومتنوعة للغاية سواء حول تحليل وضع النظام العالمي الراهن أو الطريق الذي يجب انتهاجه للتصدي لهيمنة العولمة النيوليبرالية. لكن، هل هذه النقاشات صحية؟

كنا سنقول كذلك، وربما نضيف عليها تعبير ديمقراطية وضرورية أيضاً، لأن ما هو في الميزان لا يقتصر على الدعوة إلى نظام عالمي جديد بل أيضاً، كما ألمعنا أعلاه، إلى بشرية جديدة. بيد أن الأمور ليست على هذا النحو:

١ ـ فالخطر الإيكولوجي داهم جداً، وليس هناك وقت. فالنقاشات هنا تصبح ترفاً فكرياً فيما أمّنا الأرض تتلوّى على فراش المرض.

وهذا ما يغيب عن خطاب العديد من الأطراف، عدا الحركات البيئية، وتغيب معها المشاعر والعواطف المحرّكة للعمل والتي يجب أن تنطلق، ليس فقط من «الحب بين الجمهور» بل أولاً وأساساً، من حب كوكب الأرض نادر الوجود في الكون، وحب الحياة والوجود الواحد. من دون هذا الحب الأشمل والأعمق، المستند إلى خوف أشمل وأعمق من دمار الحياة برمّتها في هذا الكوكب الأزرق، سترتدي كل النقاشات حلة اقتصادية بحتة تحيل مجدداً إلى التجارب الفاشلة السابقة للاشتراكية في مسائل الديمقراطية وحقوق الفرد وإنقاذ البيئة، رغم تشبث كل قوى التغيير اللفظي الآن بهذه المسائل.

٢ ـ النقطة الثانية دور الفرد. صحيح أن نيغري وهارت يعطيانه دوراً ضخماً استثار عليهما حنق الماركسيين الكلاسيكيين، إلا أنهما أطلا على هذا الفرد في الغالب من زاوية اقتصادية (حق المواطنة العالمية، وحرية الهجرة، والدخل المضمون)، ولم يلتفتا إلى آلامه المبرحة ومعاناته الحياتية والوجودية. بكلمة: لم يتم الاهتمام بالوعي الجديد الذي يجب أن يواكب «الثورة من أجل البشرية الجديدة»: لا إنسانية جديدة من دون وعي جديد على مستوى الفرد كما الجماعة.

٣ ـ نيغري وهارت محقّان في القول إن تجمُّع الأفراد المُنتجين ـ المستقلين سيقود إلى خلق شعب جديد. لكن مرة أخرى، نحن لا نزال على المستوى الاقتصادي، قافزين فوق الاختلافات

(١٤) المصدر نفسه.

الثقافية والعاطفية الشاسعة التي يخلقها الانتماء إلى الأمة أو العرق أو الدين أو الطائفة، والتي ستمنع انتقال الفرد من المُعتقل المحلي إلى رحاب الجماعة العالمية.

ما نقترحه هنا أمران: **الأول**، توجُّه شامل يتضمن بناء الوعي الجديد لدى الفرد، كمدخل لعلاقته مع الجماعة، في إطار برنامج شامل مادي وروحاني، وجودي وواقعي، عقلاني وعاطفي؛ **والثاني**، برنامج عمل لقوى التغيير يفترض أن يدفعها الخوف المشترك على مصير الحياة، إلى بلورة برنامج حد أدنى لإطلاق حركة عالمية حقيقية تقيم، على الأقل في أذهان البشر، توازناً مع القوى العاتية للعولمة. وهذا مستحيل بدون أن يكون هناك محرِّك الخوف على الحياة وكوكب الأرض. وهو خوف له كلياً بالطبع ما يبرره.

نبدأ مع الأمر الأول.

١ ـ صعود هائل للفرد

شعار جميل طرحه أحد الشبان المتظاهرين ضد العولمة النيوليبرالية في براغ العام ٢٠١٠: «هدفنا تمكين الفرد من ممارسة السيادة على ميكانيزمات العولمة، بهدف خلق أرض جديدة». البداية يجب، إذاً، أن تبدأ من الفرد، لكن ليس بهدف الانتهاء عنده بل للانطلق منه نحو بناء «بشرية جديدة» من أفراد وجماعات نجحوا في مغادرة جهنم الفردية والجماعية والبيئية والسيكولوجية والاجتماعية الراهنة.

بكلمات أوضح: الشبكات العالمية التي سيشكِّلها أفراد (ثم جماعات) تحرروا من قيود «الأوهام البصرية» (وفق تعبير أينشتاين) لانفصال البشر عن بعضهم بعضاً وعن الطبيعة والوجود والكون، ومن فخاخ التنافسات المدمِّرة والاستهلاك المادي الشره الذي لا ينتهي، سيكونون هم النواة الجديدة القادرة على مواصلة مشروع البشرية الجديدة حتى الثمالة. فهم لن يتأثروا بالانتكاسات التي قد تحدث خلال المسيرة ولا بتقلبات الظروف، ولا (وهنا الأهم) بعشرات التكتيكات التي ستمارسها مراكز وجحافل العولمة النيوليبرالية لحرف الناس عن هدف بناء عالم جديد، من خلال مواصلة تدمير أنسجة كل المجتمعات والديمقراطية، ورفع فزاعة الإرهاب في وجه حركات الاحتجاج، مروراً باستخدام ترسانتها الهائلة لمواصلة هيمنتها الأيديولوجية على العقول والقلوب، بهدف تحويل مشروع المواطنين العالميين إلى رعايا استهلاكيين.

الفرد «الجديد» الذي يجب السعي إلى إطلاق قدراته وطاقاته، لن يكون بأي حال هو نفسه الفرد الذي تمحورت حوله فلسفة الليبرالية الرأسمالية التي أفاض كارل ماركس في توصيف مدى ضيقها وهشاشتها (في البيان الشيوعي ـ ١٨٤٨)، رغم بداياتها الثورية في القرن السابع عشر حين رفضت الحق الإلٰهي للملوك، والوراثات الاقطاعية السياسية، والهيمنة الدينية. وكذلك باقي الفلسفات الفردانية (Individualism) التي جعلت الفرد هو البداية كما النهاية على حساب كل البشر والأرض وحتى الكون.

نماذج مثل هذه الفلسفات الفردانية عديدة: من الوجودية التي أطلقها في القرن التاسع عشر سورين كيركغارد (Soren Kierkegaard) ولحقه جان بول سارتر وباقي فلاسفة القرن العشرين الوجوديين، والتي شدّدت على أن مسؤولية الفرد الوحيدة هي منح المعنى لحياته وعيش الحياة بشغف وإخلاص، على رغم العقبات الوجودية العديدة التي تشمل اليأس والغضب واللاجدوى والتغرّب والملل. وهناك الفوضوية الفردية، أو الأنانية الفوضوية التي أسسها الألماني ماكس ستيرنر الذي أعلن أن «الحد الوحيد على حقوق الفرد هو قدرته أو لاقدرته على الحصول على ما يرغب، من دون وضع الله أو الدولة أو الأخلاق بعين الاعتبار». بالنسبة إليه، «المجتمع لا وجود له. الأفراد فقط هم الحقيقة». وهذا ما ذهب إليه أيضاً «مذهب المتعة» (Hedonism)، والمذهب الإباحي (Libertinism) والمذهب الموضوعي (Objectivism) والاعتبارية الذاتية (Subjectivism)؛ هذا في حين نحا مذهب الأنانة (Solipism) منحى فلسفياً متطرفاً حين أعلن أن عقل الفرد هو الأمر الوحيد مؤكد الوجود، وأن العالم الخارجي (أي خارج عقل الفرد) قد لا يكون موجوداً.

تميّز الكاتب الفوضوي الإيرلندي أوسكار وايلد (Oscar Wilde) عن باقي الفلاسفة الفردانيين برفضه الملكية الخاصة ودفاعه عن الاشتراكية، على رغم أنه اعتبر أن «الفن هو الفردانية، وأن الفردانية هي قوة مفككة ومُخلّة بالأمر الواقع، لكن ما تسعى إليه هو الإخلال برتابة النماذج، وعبودية العادة، وطغيان التقاليد، وتقليص الإنسان إلى مستوى الآلة». كما أعرب عن الرأي بأنه مع إلغاء الملكية الخاصة، «سنحصل على فردانية حقيقية وجميلة وصحية». وبالمثل، شدّد التيار الاشتراكي التحرري، الذي يُدعى أحياناً الاشتراكية الفوضوية، على رفض الاشتراكية كملكية الدولة لوسائل الإنتاج، في إطار النقد العام للدولة ككل، ودعا بدلاً من ذلك إلى الإدارة الذاتية العمالية، والبنى اللامركزية للسلطة السياسية، والعمل على إقامة مجتمع يستند إلى الحرية والمساواة من خلال إلغاء المؤسسات السلطوية وإقامة علاقات اختيارية حرة بين البشر.

كما يتضح، العديد من المذاهب الفردانية تشكّل في الواقع رجع صدى لـ «الجينة الأنانية» الرأسمالية المدمّرة الكامنة في النظرية الليبرالية الاقتصادية، لكن العديد منها أيضاً منفتح على صيغ مبتكرة لعلاقة صحّية بين الفرد والمجتمع. بيد أن مثل هذا الانفتاح، خاصة لدى الحركات الاشتراكية، يميل في غالب الأحيان إلى تغليب المعاناة الاقتصادية ـ الاجتماعية للفرد على ما عداها، ويُسقط من الاعتبار الأزمات الوجودية والسيكولوجية الكبرى التي يعيشها كل فرد، والتي تخلق لدى كل منا جهنمَ كاملةً تترعرع فيها الأمراض النفسية والاجتماعية والحياتية.

بالطبع، لا تقدّم الفلسفات والتقاليد الشرقية، ولا القوميات والأديان والنظريات الشمولية التي تغلّب مفهوم الجماعة على الفرد، بدائل أفضل من الفردانيات الأنانية. فهي تميل إلى سحق الفرد باسم الجماعة، لكنها تسحق أيضاً في الواقع هذه الأخيرة حين تصادر حقها في المشاركة والمساءلة الديمقراطية إما باسم الله وإما باسم الأمة أو الطائفة والقبيلة. البوذية قد تكون من الفلسفات الشرقية القليلة (مع تيارات في الطاوية) التي جعلت من «خلاص الفرد» من المعاناة والشقاء محطة مركزية

ومحورية في تعاليمها، لكنها رغم تركيزها على وحدة الكون والوجود توقفت عند «الفرد الروحاني»، وبالتالي أسقطت ضرورات العمل الجماعي لتغيير البنى التحتية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحول دون اكتمال هذا التطور الروحي[١٥].

المطلوب في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة بالنسبة إلى مستقبل الحياة على الأرض جهود متصلة شبيهة بالمساعي التي تبذل في علم الفيزياء لتطوير «نظرية كل شيء» (A Theory of Everything) أو النظرية المطلقة التي تهدف إلى توحيد النظريتين الكبريين في العلم وهما النسبية العامة ونظرية الحقل الكمي أو فيزياء الكم. وكما هو معروف: تتعلق النسبية العامة بقوانين الجاذبية لفهم المجرّات والنجوم، بينما فيزياء الكم هي الإطار النظري الذي يركّز على الجزيئيات والجسيميات الدقيقة ومعها القوى الثلاث غير المتعلقة بالجاذبية: القوة النووية الضعيفة، والقوة النووية القوية والقوة الكهرومغنطيسية. التجارب العلمية أثبتت صحة افتراضات كلتا النظريتين، رغم أن كليهما غير متطابقة مع الأخرى، ولا يمكن أن يكون كلاهما صحيحاً في آن. ولذلك، الجهود تبذل الآن، للعثور على حقيقة كامنة وعميقة قادرة على توحيد الجاذبية مع القوى الثلاث الأخرى في نظرية واحدة، من خلال علم جاذبية الكم ونظرية الأوتار الفائقة.

وبالمثل، هذا ما نحتاجه الآن على المستوى البشري: «نظرية كل شيء» لا تُسقط الفرد لصالح الجماعة ولا الجماعة لصالح الفرد، بل توحّد بينهما بطريقة تؤدي إلى إثرائهما معاً، ما يُسفر عن ولادة بشرية جديدة، تستند إلى «فردانية جماعية» أو «جماعية فردانية»، وتعمل على إخراج الفرد من كوابيس جهنماته الداخلية ليس فقط عبر تقنيات التأمل الروحاني والتحليل السيكولوجي، بل أيضاً من خلال وضع هذه الطاقة الفردية المنطلقة والمتحررة في خدمة مشروع جماعي بيئي ـ اقتصادي ـ اجتماعي ـ ثقافي يشكّل البنية التحتية التي لا غنى عنها لبروز البشرية الجديدة.

كما في الفيزياء، قد يبدو هذا الهدف التوحيدي صعب المنال. لكن هذه الصعوبة تتبدد، أو على الأقل تتقلص، حين نضع في الاعتبار التطورات المتسارعة التي تجري في العالم، والتي تشجّع على القول إنه بات ممكناً بالفعل نهوض الفرد والجماعة والبيئة في آن على أرض الواقع كما على مستوى الوعي، وهذا على مستويين: مستوى الفرد ومستوى الجماعة.

٢ ـ «الأفراد» كملايين

على مستوى صعود الفرد، يبدو واضحاً الآن أن الجنس البشري دخل مع ثورة المعلومات والاتصالات مرحلة تاريخية كبرى جديدة، قد توازي مضاعفاتها المرتقبة، المحسوبة وغير المحسوبة، كل الثورات السابقة الفكرية ـ التكنولوجية معاً: من اكتشاف اللغة المكتوبة والأبجدية

---

(١٥) William Hart, *The Art of Living: Vipassana Meditation* (New York: HarperOne, 2009), p. 30.
«التغيير يجب أن يبدأ من كلّ فرد. إذا ما كانت الغابة تذوي وتريد إعادتها إلى الحياة، فعليك أن تروي كل شجرة على حِدة فيها. وبالمثل، إذا ما أردت السلام العالمي عليك أن تتعلم كيف تصبح أنت مسالماً مع نفسك والآخرين».

والزراعة قبل خمسة آلاف سنة إلى ثورتي البيوتكنولوجيا والمعلومات وهبوط الإنسان على القمر.

السمة الأبرز لهذه المرحلة ستكون عمليات التمكين الهائلة التي بات يحوزها الفرد بفعل الثورات العلمية والتكنولوجية الجديدة. في السابق، كانت النقاشات حول «دور الفرد في التاريخ» تتمحور حول مجموعة مدهشة في قلّتها وندرتها من الأفراد، على غرار الإسكندر الكبير ويوليوس قيصر وداريوس وخالد بن الوليد ومحمد الفاتح ونابليون وهتلر وأيزنهاور وغيرهم، على الصعيد العسكري والإمبراطوري، وسقراط وأرسطو وأفلاطون وسبينوزا وبقية المئة فيلسوف وعالم ومفكر في أوروبا على الصعيد الثقافي، الذين لو قتلوا خلال الحروب الدينية والقومية لمّا وُلِدت العصور الحديثة.

لكن الآن، ومع الانفجار المعرفي الكبير الراهن، بات ملايين الاشخاص الذين يحوز كل فرد منهم على الكومبيوتر والمداخل إلى الإنترنت، منتجين ومسوِّقين للمعرفة بشكل مباشر، ولم تعد سلطة المعرفة (التي أصبحت قوة اقتصادية بحد ذاتها) حكراً على الدولة أو الكنيسة أو المسجد أو المعبد أو حتى مؤسسات المعرفة التقليدية مثل الجامعات ومراكز الأبحاث والصحافة والإعلام، للمرة الأولى في التاريخ.

مضاعفات هذا التمكين الهائل للفرد، ومعها الثورة الثقافية الحتمية التي سترافقه، ليست واضحة المعالم بعد، ولا ينتظر أن تكون واضحة قريباً لأنها عملية ضخمة وسارية ولا تزال في بداياتها الأولى. لكننا نستطيع الآن تلمُّس بعض تجلياتها السريعة: من قدرة فرد واحد يحمل فكرة محددة على تشكيل شبكة أنصار على وسائل الاتصال الاجتماعي، سرعان ما تتحوّل إلى تيار يسير على قدمين في شكل تظاهرات احتجاج صاخبة في الشوارع، كما دلّت على ذلك انتفاضات الربيعين الأوروبي والعربي، وحركة «احتلوا» في أمريكا، وغيرها. فرد واحد أيضاً قادر، إذا ما امتلك القدرات التقنية اللازمة، على اقتحام الموقع الإلكتروني لوزارة الدفاع الأمريكية، التي تعتبر المعقل العسكري الأكثر مناعة في التاريخ، أو حتى على الوصول إلى شيفرات الأسلحة النووية، كما أثبتت ذلك تجربة فتى أمريكي، أو التلاعب بحسابات أكبر المصارف وشبكات الكهرباء والمواصلات والاتصالات. وعلى سبيل المثال، تمكّن «قرصان» من اختراق حساب تويتر التابع لوكالة أسوشيتد برس العالمية الأمريكية وبث فيه خبراً كاذباً يقول إن البيت الابيض تعرّض لهجوم، وأن الرئيس أوباما أصيب بجروح. صحيح أن الأسوشيتد برس أزالت الخبر بسرعة، لكن ليس قبل أن تهبط البورصة بمعدل ١٣٠ نقطة، ما أدى إلى مسح ١٣٠ مليار دولار من الوجود في غضون لحظات قليلة.

علاوة على ذلك، بروز مئات ملايين «المواطنين الصحافيين» غيّر من طبيعة عمل قطاع الإعلام والثقافة، الذي كان طيلة آلاف الأعوام حكراً على نخب صغيرة حاكمة أو غنية أو متسلطة، وجعل الفرد قادراً على «الإفلات» من سيطرة وتوجيهات الدول والمؤسسات وباقي أجهزة السلطة. وهذا خلق فضاء سياسياً وثقافياً رحباً وغير مسبوق لإطلاق حرية التعبير التي تعتبر العامل الرئيس والأهم في التأسيس لديمقراطية الجمهور.

كتب سام غوستين (Sam Gustin)[١٦]: «الثورة الراهنة هي أضخم تجربة تتضمن الفوضى في التاريخ البشري. فمئات ملايين الناس يخلقون ويستهلكون في كل لحظة كميات لا حدود لها من المضمون الرقمي على عالم الشبكة غير المقيّد بأي قوانين أرضية. وفي هذا المجال، تتشاطر الإنترنت سمة أساسية مع النظرية الكلاسيكية للعلاقات الدولية التي تصف عالماً فوضوياً لا قائد له. وعلى المسرح العالمي، سيكون من أهم مضاعفات بروز الإنترنت إعادة توزيع القوة: من الدول والمؤسسات إلى الأفراد».

رابعاً: ولادة جديدة

جنباً إلى جنب مع هذه التطورات الكاسحة، كان العالِم الفرد يجد للمرة الأولى فرصة للاستقلال في عمله العلمي عن المختبر أو الجامعة أو مركز الأبحاث أو الشركة التي يتقاضى فيها عملاً مأجوراً، من خلال العمل مجاناً مع بقية زملائه العلماء في شتى أنحاء العالم لتطوير نظرية معينة أو فكرة جديدة أو برنامج الكتروني جديد. نماذج هذا الجهد المشترك لأفراد «مستقلين» هي موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية وحركة «البرامج الإلكترونية المجانية» وغيرها، وكلاهما حصيلة جهد مشترك مجاني، ما يذكّر جزئياً بـ «جمهور نيغري وهارت» الذي يقوم بعمل لامادي مستقل عن الاقتصاد الرأسمالي.

باختصار، نحن أمام ثورة ثقافية تولد من رحم الثورة التكنولوجية، سيكون محورها الرئيس إعادة النظر بشكل جذري بدور الفرد في التاريخ، لكن ليس بالمضمون الذي طرحته الليبرالية الرأسمالية، بل في إطار تقاطع انطلاق إمكانات الفرد وتحقيق ذاته مع إمكانات أقرانه من الأفراد الآخرين، ليولد من هذا التقاطع «فردانية جماعية» جديدة منفتحة ومتعاونة مع «الآخر»، سواء أكان إنساناً أو نباتاً أو حيواناً أو حتى مادة غير حية. سيكون هذا الفرد هو «الإنسان المضاعف» الذي سيُغني البشرية الجديدة ويغتني بها.

بيد أن مثل هذه الولادة لـ «الإنسان الجديد» لن تكون حتمية أو كحصيلة موضوعية للتغيرات التي ستطرأ على طبيعة النظام الرأسمالي، كما يعتقد بعض المحللين اليساريين المُحدثين، بل هي ستكون أيضاً نتاجاً لجهد إرادي كبير موجّه نحو بلورة الهوية الجديدة والوعي الجديد اللذين ألمعنا إليهما في الصفحات السابقة. وعي يقطع مع فردانية الانفصال الغربية، ومع الجماعية الشرقية النابذة لحقوق الفرد وكينونته، وأيضاً مع الانفصال عن الأم «غايا» وكل تكوينات الوجود، ويصب بالتالي في خانة «نظرية كل شيء» الموعودة والضرورية. وهذا ما سنتطرق إليه بعد قليل.

---

(١٦) Sam Gustin, «The New Internet Doesn't Hurt People-People Do: «The New Digital Age»,» *Time* (26 April 2013), <http://business.time.com/2013/04/26/the-new-digital-age-promise-and-peril-ahead-for-the-global-internet/>.

خامساً: المجتمع المدني العالمي

الجانب الآخر المرافق (واللصيق في الواقع) لبروز دور الفرد، هو بروز دور الجماعة البشرية أو المجتمع المدني العالمي الذي قد يكون البيئة الكبرى الحاضنة للولادة الجديدة.

ففي الولايات المتحدة، المعقل الأول والأهم للنيوليبرالية، ثمة دلائل على أن قطاعات واسعة من الأمريكيين يتبنون الآن ثقافة جديدة تهجر الفردية التنافسية الرأسمالية وتحتفي بقيم التكاتف والتعاون الاجتماعيين. الباحث بول راي (Paul Ray) والمؤلفة شيري أندرسون (Sherry Anderson) يطلقان على الأفراد المنتمين إلى هذا التيار تسمية «الخلّاقين الثقافيين»، ويقدِّران أن عدد هولاء في الولايات المتحدة يناهز الخمسين مليوناً، أي ٢٦ بالمئة من إجمالي الشعب الأمريكي، فيما كان الرقم هو ٥ بالمئة في ستينيات القرن العشرين. هذا في حين أن عدد «الخلّاقين الثقافيين» في الاتحاد الأوروبي يبلغ ٨٠ إلى ٩٠ مليوناً، بينهم العديدون الذين وصلوا إلى الوعي الثقافي وحتى الوعي الروحاني[١٧]. وكل هؤلاء يأتون من مشارب دينية وعرقية وجندرية وحزبية مختلفة. ويقود هؤلاء «الخلاّقون» الحركات التي تعمل من أجل بناء أسرة الأرض المناوئة لإمبراطورية العولمة، مثل تيارات الديمقراطية العميقة وحركات البيئة، والسلام، والحقوق المتساوية، والعدالة، والطب الطبيعي، والزراعة العضوية، وتيارات «الحياة البسيطة الاختيارية».

بالطبع، هذه المعطيات يجب أن تقابل بتحفظ، ليس بسبب ضخامة الأرقام وحسب، بل أيضاً لأن مفهوم «الخلق الثقافي» ليس واضحاً من جهة إمكانية تحوّله إلى خطة عمل سياسية وفكرية وإيكولوجية. ومع ذلك، قد توفّر هذه المعطيات فرصاً أمام قوى التغيير الساعية إلى خلق وعي كوني وإنساني مغاير.

وعلى الصعيد البيئي، أشار استطلاع لـ «غالوب انترناشنال» في عام ١٩٩٣ وغطى ٢٤ دولة، إلى أن مئات الملايين في العالمين الصناعي والنامي يبدون قلقاً بالغاً من التدهور الإيكولوجي ويعتبرون أن حماية البيئة أهم من النمو الاقتصادي. ويبني العديد من هؤلاء الآن مجتمعاتهم المحلية الخاصة (بهدف بناء اقتصاد جديد مستقل عن الشركات متعددة الجنسيات)، وهم أبناء الملايين الأخرى من المواطنين الذي بنوا منذ منتصف القرن العشرين حركات الاستقلال عن الاستعمار والحريات والحقوق المدنية وحقوق المرأة والعدالة الاجتماعية وحماية البيئة.

يقول دايفيد كورتن[١٨]: «خلال خمسين سنة بدءاً من منتصف القرن العشرين، نجحت هذه الحركات في تفكيك النظام الاستعماري الإمبراطوري الأوروبي، وفرضت بنود حقوق الإنسان في القانون الدولي، وأعادت كتابة قواعد الشرعية لدى الأمم، كما أعادت تعريف المبادئ الثقافية

(١٧) Paul Ray and Sherry Ruth Anderson, *The Cultural Creatives: How 50 Million People Are Changing the World* (New York: Broadway Books, 2001), chap 2.

(١٨) David C. Korten, *The Great Turning: From Empire to Earth Community* (New York: Kumarian Press, 2007), p. 85.

الخاصة بالعلاقات بين الرجال والنساء، والأعراق، والأمم، والأجناس». ومن رحم هذه الحركات والتحالفات، ولدت عام ١٩٩٢ في ريو دي جينيرو قمة الأرض (وبعدها «إعلان الأرض»)، وما بات يعرف بالمجتمع المدني العالمي، ثم المنتدى الاجتماعي العالمي، والمنتدى الاجتماعي الأوروبي ومئات المنتديات والجمعيات العالمية الجديدة في شتى أنحاء العالم.

هذه التشكلات الاجتماعية العالمية الجديدة قد لا تكون بالحدث الجديد، إذا ما تذكّرنا الأمميات الشيوعية والاشتراكية في القرن العشرين، أو حتى الحركات العالمية السرّية التي انبثقت منذ فجر التاريخ والتي يقال إنها لا تزال فاعلة ومؤثرة في إدارة النظام العالمي[١٩]. لكن ما هو جديد بالفعل فيها هو شمولها قطاعات اجتماعية وثقافية وأيديولوجية واقتصادية وبالطبع بيئية غاية في التنوع والتعدد. وهذا ما يكسبها بالفعل سمة افتقدتها كل الحركات العالمية السابقة التي كانت تضم فئة واحد كالعمال، أو الرأسماليين، أو النخب الصغيرة والضيقة. وهذا ما يبشر (في حال انتشر الوعي الجديد بين عناصر هذه القطاعات) بمولد إنسانية جديدة حقاً، تقوم باستقبال واحتضان «الإنسان المضاعف» الجديد.

* * *

نأتي الآن إلى التساؤل الذي طرحناه في البداية عن سمات الإنسان الجديد ومتطلبات ولادته، والذي سيكون نواة البشرية الجديدة.

---

(١٩) صَدَرَت كتب ودراسات عديدة تتحدث عن «النخبة العالمية» التي «تحكم» سراً الكرة الأرضية في مقدمها «مونت بيريلين»، و«الجمجمة والعظمة» (التي ينتمي إليها الرئيس السابق بوش) و«مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية» و«منتدى دافوس الاقتصادي العالمي» و«الماسونية» و«فرسان مالطا» وغيرها..، التي تضع خططاً قد يصل مداها الزمني إلى ٥٠ و١٠٠ سنة والتي تستهدف أمرين اثنين: إحكام سيطرة حفنة من الرجال (النساء ممنوعات من الصرف في هذه الجمعيات) على العالم، والتمهيد لإقامة نظام عالمي جديد (وربما دين عالمي جديد) يداران من مراكز خفيّة إمّا في سويسرا أو الولايات المتحدة أو بريطانيا. تقبع هذه المنظمات، على ما يشاع، على قمة هرم العولمة الليبرالية.

الفصل التاسع

وعي جهنَّم، أوهام الانفصال، وانتفاضة في الأديان وعليها

أكثر الأماكن إظلاماً في الجحيم، محفوظة لأولئك الذين يحافظون على حيادهم خلال الأزمات الأخلاقية.

دانتي أليغيري

ثمة خطوات عدة يجب أن نخطوها للاندماج في مسيرة الوعي الجديد والبشرية الجديدة، بينها: الإدراك بأننا نعيش بالفعل، هنا والآن، في جهنمات عدة؛ والعمل على التحرُر من وهم انفصالنا عن باقي الكائنات والكون؛ والسعي إلى «انتفاضة» روحية ـ فكرية مشتركة في الأديان.

نبدأ مع الخطوة **الأولى**. هذه قد تكون المهمة الأهم، والأخطر، لأنها ستكشف لنا جوقة الجهنمات التي نعيش من دون أن ندري دفعة واحدة: الجهنمات الوجودية الذاتية؛ والحياتية المُعاشة يومياً؛ والسيكولوجية؛ والاجتماعية؛ والبيئية. ويمكن في الواقع العد إلى ما لانهاية، بما في ذلك الإشارة إلى الخوف والقلق والتوتر الذي يعترينا في غالب الأحيان يومياً ويحيل حيواتنا إلى مسلسل متواصل من الشقاء والآلام. هذا بالطبع من دون إغفال الأمراض النفسية الكاسحة (والمُسبِّبة بدورها للأمراض العضوية) التي تفرَّد بها الإنسان عن معظم الكائنات، على رغم أن سرباً من الحيوانات العليا يُعاين جانباً من هذه الأمراض[1].

---

(١) بات مؤكداً علمياً أن القلق والتوتر اللذين أصبحا من سِمات العصر الحديث، هما المصدر الأول للمشاكل الصحية العضوية. فحين يتوتّر المرء، ترتفع معدلات هورمون الكورتيزول، ما يشكّل خطراً بالغاً على الصحة على المدى الطويل. وتتضمّن المشاكل الصحية الأخرى المرتبطة بالتوتر: التعب الكُليوي، وضغط الدم المرتفع، والاختلال الهرموني، وارتفاع معدلات السكر والكوليستيرول والبدانة. وتشير الأبحاث التي أُجرِيَت على جماعة الأميش (Amish) في الولايات المتحدة، التي تعيش حياة بسيطة من دون تكنولوجيا، إلى أن أفرادها نادراً ما يمرضون، لأنهم لا يتنافسون مع بعضهم بعضاً بل يتعاونون ويتضامنون ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الطبيعة. انظر: Anya Vien, «Why the Amish Rarely Get Sick: Things You Can Learn From Them,» *Healthy Living* (15 December 2013).

اكتشف القرن التاسع عشر أن جهنم الآخروية التي تحدثت عنها كل الحضارات البشرية بلا استثناء منذ فجر التاريخ المُبكر، ليست موجودة في أعالي السماء أو تحت الأرض، بل هي مزدهرة هنا على سطح كوكبنا الأزرق، وهي لا تني تتضخم وتتفاقم بفعل الوعي المكيافيلي الذي يواصل تطوير فنون الجرائم، والإبدادات على أنواعها، والتدمير الذاتي.

يقول الفيلسوف والشاعر الإيطالي جياكومو ليوباردي (Giacomo Leopardy) (١٧٨٩ ـ ١٨٣٧): «طبيعة الإنسان هي تعاسة حتمية في تطور مستمر. والطبيعة آلة جهنمية معدة للتنكيل بنا جسدياً ومعنوياً بتسليطها علينا الأمراض والشيخوخة، وحتى الحب. فالطبيعة هي التي تدفع الإنسان إلى الحب كي تمزّقه فيما بعد بالفراق أو الموت». وهذا ما رآه أيضاً بلزاك وزولا وتولستوي وديستويفسكي الذين اكتشفوا الجهنمات في كل مكان: في البنى الاجتماعية كما في قلب الإنسان. بين الفقراء كما في الوعي الفردي المسجون بين الضيق الوجودي ووخز الضمير[٢].

وقد يُثبت القرن الحادي والعشرون هو الآخر أنه قرن جهنمات أيضاً، لكن هذه المرة على نحو أخطر حتى من سلفه القرن العشرين. فإلى جانب دور التمزيق الهائل الذي تمارسه العولمة النيوليبرالية، هناك تطوير أنظمة الدمار الشامل الفيروسي، وتقنيات التلاعب بالجينات البشرية للسيطرة على أدمغة البشر وميولهم ونوازعهم.

لكن الأفدح في هذه التطورات هو بدء «يوم الحساب» البيئي في شتى أنحاء العالم. فرغم أن العلماء يحذّرون من أن الحياة على الأرض ستكون على موعد مع الكوارث البيئية «النهائية» بفعل التغيّر السريع للمناخ في غضون ما بين ٥٠ إلى ١٠٠ سنة، إلا أن الواقع أن هذه الكوارث بدأت بالفعل الآن، وهي تتمثّل، كما ألمعنا، بالوتائر غير العادية لثورات الأعاصير، والفيضانات، والذوبان السريع لمجالد القطبين، وأنماط الطقس المتطرفة (إما حرارة أو برودة مرتفعان)، وزحف البحار على اليابسة والأراضي الزراعية، والاحتضار التدريجي، ولكن المتسارع، للمخلوقات الحيوانية والنباتية في المحيطات والغابات، والتلوث الجديد والهائل والمتصاعد في المدن الكبرى للعالم الثالث، خاصة في الصين والهند، والذي يتوقع أن يؤدي في القريب العاجل إلى مضاعفة وتائر التلوث في كل العالم، ومعها النزاعات والصراعات والحروب.

أولاً: الشقاء ليس قدراً

قلنا في البداية إن إدراك الفرد لهذا «الكوكتيل» من الجهنمات هو الخطوة الأولى الضرورية واللازبة لبدء مغادرتها، لكننا لم نقل لماذا؟ لسبب بسيط وحاسم: معظمنا اعتاد العيش في أتون هذا الشقاء والآلام الأرضية الأسطورية، على مستوى الفرد والجماعة، إلى درجة أننا بتنا نعتبره أمراً

(٢) جورج مينوا، **تاريخ جهنم**، ترجمة أنطوان إ. الهاشم، زدني علماً (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٦)، ص ١١٧.

بديهياً وعادياً، أو أنه من طبائع الأمور. الأمر شبيه بالإنسان الذي يُولد عبداً أو فقيراً أو فتاة فيظن (أو يجعلونه يظن) أن العبودية والفقر واضطهاد المرأة جزء طبيعي من قوانين الطبيعة.

لكن الحزن والشقاء والعذابات ليست بالضرورة قدراً لا مفرَّ منه. إنها في قسم كبير منها، إن لم يكن قسمها الأكبر، ذات صناعة أرضية محلية من إنتاج الوعي الإنساني الراهن. طوِّر هذا الوعي وانتقل إلى وعي أصفى، تجد أن الكثير من هذه المشاعر والانفعالات التدميرية والانتحارية (أو «الأفكار الناقصة» وفق تعبير سبينوزا) تتقلّص وتتراجع إلى حد كبير.

هذه المشاعر هي في الواقع مرض عقلي جماعي حقيقي، يستند إلى الخوف والشراهة والكراهية والعنف ونزعة التسلط والعيش في سجن الماضي، الأمر الذي وضع الذكاء البشري في خدمة الجنون. وبالطبع، حين يكون هذا الجنون الجماعي بالدفِّ ضارباً، فلن يكون في وسعنا نحن الأفراد الذين نعتبره طبيعياً أو بأنه الحالة الحتمية للبشر، إلا الرقص على إيقاعه.

لكن، حين نعي نحن هذه الجهنمات، والأهم حين ندرك أنها ليست قوانين إلٰهية ولا طبيعية ولا إنسانية بل إنها شذوذ وأمراض وشعوذة سوداء، سنشعر فوراً بالحاجة، ليس فقط إلى مغادرتها بل أيضاً إلى الانتفاض عليها وإلى إطلاق المرحلة الثانية من التطور البشري. وهذه في الواقع ستكون:

ـ انتفاضة عقلانية على جوقة الأوهام والخيالات المريضة التي تُطلقها الهويات القاتلة، والدافعة إلى مواصلة معزوفة الإجرام والدمار بين البشر؛ وعلى الأزمات النفسية الطاحنة التي يولِّدها الوعي المكيافيلي الراهن القائم على التنافس القاتل.

ـ وانتفاضة على الذات الأنانية (الإيغو) بكل عدّتها القائمة على الانغلاق والتعصب بين الأفراد والجماعات والشعوب؛ وعلى اضطهاد المرأة والطفل.

ـ وانتفاضة على الدمار البيئي وعلى العلاقات الدولية الوحشية الحالية، وعلى الفقر والجوع والفاقة والتسلح وجيوش المخابرات والفساد.

ـ وأخيراً انتفاضة لوضع العلم والتكنولوجيا في خدمة البيئة والحياة والتطور الروحي والسلام والعدالة، ولبلورة ثورة تعليمية تعيد كتابة تاريخ بشري جديد لا يكون، كما الأمر الآن، مجرد سجل للجرائم والفظائع.

كل هذه الانتفاضات تبدو صعبة أو حتى مستحيلة. لكن مجرد إدراك الحقيقة بأننا نعيش في عالم جهنمي[٣]، وأننا يجب أن نرفض هذا العالم في معظم تجلياته، والأهم أننا نستطيع خلق إنسان جديد وبشرية جديدة انطلاقاً ليس فقط من حملات تبشيرية كما بوذا والأنبياء والفلاسفة الأخلاقيون، بل أولاً وأساساً استناداً أيضاً إلى مقومات مادية وموضوعية (إضافة إلى إرادة التغيير

(٣) أجمل مقاربة لفكرة أننا نعيش من دون أن ندري في عالم جهنمي، هي فيلم الخيال العلمي الأمريكي ـ الأسترالي ماتريكس (Matrix) العام ١٩٩٩، الذي يصوّر مستقبلاً فاجعاً، حيث الحقيقة التي يراها معظم البشر هي في الواقع كاذبة ومصطنعة تدعى «ماتريكس» خلقتها آلات واعية بهدف إخضاع الجنس البشري لاستخدام طاقتهم وحرارتهم كمصدر طاقة. اكتشاف بعض البشر لهذه الحقيقة المزيفة يؤدي إلى ثورة شاملة عليها وإلى رؤية فلسفية ودينية جديدة للحقيقة.

ونزعة التطور اللصيقة بطبيعة الإنسان)، التي من شأنها وضع هذه الثورات في أمر اليوم وعلى طاولة التطبيق والتنفيذ.

ثانياً: تبديد وهم الانفصال

الخطوة التالية بعد اكتشاف جهنماتنا ورفضها، هي تبديد الأوهام والتهويمات التي خلقها الوعي المكيافيلي داخل هذا الجحيم، من خلال مقاربة الحقائق الجديدة التي كشفت عنها العلوم الحديثة، سواء حيال العلاقات البشرية أو الكون أو الوجود ككل، والتي تنسف بشطحة قلم كل أو معظم أنموذج (Paradigm) الحضارة البشرية الراهنة.

هذه الخطوة تتطلب خروجاً آخر بعد الخروج الذهني الأول من جهنم: إسقاط وهم انفصال الإنسان عن باقي البشر والطبيعة والكون، وعودته إلى كنف الوحدة الواقعي الذي عبّر عنه أينشتاين بتعابير علمية حين قال: «الإنسان جزء من كل يدعى الكون. جزء محدود في الزمان والمكان. إنه يختبر نفسه وأفكاره ومشاعره كشيء منفصل عن البقية، لكن هذا في الواقع بمثابة سجن لنا يقيّدنا إلى رغباتنا الشخصية وإلى حفنة أشخاص هم الأقرب إلينا. مهمتنا أن نحرِّر أنفسنا من هذا السجن، من خلال توسيع دائرة تعاطفنا كي تشمل كل المخلوقات الحية وكل الطبيعة بكل جمالاتها».

العلم يقول لنا الآن إن الوجود كله بمنزلة إلكترون واحد تغطي طبيعته الموجية الكون كله، وأن خلايانا مصنوعة من المادة الأولى التي شكّلت الكون قبل ١٥ مليار سنة. فالإلكترونات في ذرة الكربون في دماغنا ترتبط بالجسيمات تحت الذرية في كل سمكة سليمان تسبح، وكل وردة تتفتح، وكل قلب ينبض. كلنا شبكة واحدة متصلة وأصلها واحد. الكون، الذي تكوّن بدوره (عبر الانفجار العظيم) من ذرة أصغر مليارات المرات من نواة الذرة التي نعرف، موجود كله فينا ونحن موجودون فيه كوحدة لا تنفصم عُراها بصفتنا كوناً مجهرياً. ثم إن العلم أثبت المقولة بأن دفعة حياة واحدة تجمع كل المخلوقات التي تذوب كلها في الوَحدَة كما تذوب قطعة السكر في كوب ماء؛ وأن البشرية كلها كائن واحد يتكوّن من ستة مليارات خلية، تُشبه إلى حد كبير شبكة «أندرا» الهندية التي تتكوَّن من شبكة لآلئ تعكس كل لؤلؤة فيها لؤلؤة أخرى وكل اللآلئ.

هذا ما نحن عليه حقيقة، نحن وباقي الكائنات: كلٌ واحدٌ متسقٌ ولا يتجزأ. فكيف أمكن لنا طيلة حقبة «الحضارة» البشرية أن ننسى هذه الحقيقة؟ كيف أمكن لنا أن نتوهَّم بأن الفرد (على أهمية تحقيق ذاته السامية والخلاّقة وليس إطلاق العنان لـ «أناه» الأنانية المُدمِّرة) يمكن أن يكون كياناً منفصلاً وهو يعتمد على النبات والحيوانات وحتى على البكتيريا في حياته وطاقته، وعلى الهواء في بقائه، وعلى الماء والشمس وعلى بقية البشر في مشربه وملبسه وفكره وعاداته وشعوره بذاته؟ كيف بعد كل هذا يمكن الحديث (كما النظريات المكيافيلية ـ الهوبسية) عن فرد جوهري أناني مشتبك بالضرورة في حرب أزلية ضروس مع البشر والطبيعة؟ أليس هذا اشتباكاً وهمياً جنونياً ومدمِّراً مع الذات قبل أي شيء آخر؟

لقد أزاح العلم الحديث كل هذه الأوهام، حين دكت فيزياء الكم معاقل القسمة الديكارتية بين المادة والعقل، فبات العقل أشبه بالمادة والمادة أشبه بالعقل. وبانتهاء هذه القسمة المدمِّرة، بُثَّت الروح مجدداً في حقيقة وحدة الوجود، وتبيَّن أن جزءاً كاسحاً من مأساة الدراما البشرية الراهنة ناجم عن وهم الانفصال والفردانية الأنانية. فالانفصال الوهمي بين الشعوب والأمم والطوائف أسفر، ولا يزال، عن حروب دائمة، وعن سيادة مشاعر الكراهية والخوف، والأيديولوجيات القاتلة. وانفصال الإنسان الوهمي عن الطبيعة، ومن ثم نشوء النزعة الجنونية لخرق قواعد وقوانين وتوازنات البيئة، أسفر، وسيسفر أكثر، عن تقويض الأنظمة الإيكولوجية التي تعتمد عليها الحياة نفسها على الأرض. ثم إن انفصال الإنسان عن نزعة التعاون والتوازن التي تقوم عليها الطبيعة لصالح التنافس الأعمى والأناني المطلق، أطلق العنان لأسوأ أنواع الأمراض النفسية ـ العضوية في المجتمعات كافة، بسبب ما تولِّده من مشاعر الخوف والقلق وصولاً إلى دوافع القتل والإجرام. الانفصال أيضاً الذي يترجم نفسه الآن في الارتفاع الشاهق في حالات الطلاق في كل أنحاء العالم، بسبب سيطرة الأنا الأنانية على الزوجين، يكاد يدمّر الآن ما تبقى من صرح العائلة بما هي الملاذ الصحي والآمن لبناء جيل جديد متحرر من الاضطرابات النفسية والمشاكل الاجتماعية الطاحنة. كما أن انفصال الأديان عن جذورها التوحيدية بين كل البشر، على رغم دعواتها إلى عبادة إله واحد لجنس واحد، أفرز أضخم مذابح في كل التاريخ البشري، كما سنرى بعد قليل.

الانفصال، بشتى أشكاله غير المنطقية، شكّل اللبنة الأساسية والكبرى في ولادة الجهنمات البشرية. وفي حين أن الفرد المندمج في حقيقة وحدة الوجود يصبح في حجم الكون كله، إلا أنه يتقزّم إلى حجم دودة سهلة الانسحاق حين ينفصل عن هذه الوحدة ويدخل في أوهام السجن الذي أشار إليه أينشتاين. الفرد المنفصل يعيش في زنزانة اللاوعي التي تعج بكل صور جهنم الماضوية، فيما الفرد المندمج يعيش لحظة التوحُّد الرائعة، هنا والآن، وترتسم لوحة الكون كله في وعيه الصافي.

الأمراض النفسية الناجمة عن وهم الانفصال، التي تعني عملياً هيمنة الماضي المُتخيّل على الحاضر والمستقبل، تجتاح الفرد المُنفصل وتدفعه إلى حالة صراع مستحيلة مع الآخرين تتحقق فيها الهزيمة له وهو في ذروة انتصاره الفردي، لأنه يكتشف وهو في القمة أنه كان يسعى وراء سراب، فينهار نفسياً أو يوغل أكثر في الإجرام. وكذا الأمر بالنسبة إلى المتعصب دينياً أو قومياً الذي يوسّع أناه الأنانية لتصبح طائفة أو أمة عنصرية، فيحقق طمأنينة وهمية مؤقتة، لأنه يعتقد أنه جزء من وحدة أشمل، لكنها في الواقع وحدة مزيّفة تستند إلى الانفصال والحروب والدمار. مجرد اللقاء والحب بين شخصين أو جماعات لا يخلق الطمأنينة والسعادة، إلا جزئياً وبشكل مؤقت، إذا لم يسُدْ الوعي بوحدة الوجود والكون والكائنات، إذ حينها ستصطدم الأنوات الأنانية بعضها ببعض بشكل مروِّع حتى أكثر من اصطدامها بـ «الأعداء».

وبالمثل، العولمة الراهنة، وعلى رغم أنها وفرت عبر تكنولوجيا المعلومات فرصة استعادة التواصل بين البشر، إلا أنها نبض وحدوي مزيّف لأنها، من **ناحية**، ستسفر عن «انفصال» ٢٠ بالمئة من البشر عن ٨٠ بالمئة منهم؛ ولأنها، من **ناحية ثانية**، تعتمد أو تخدم نخبة ارستقراطية ضئيلة لا تتجاوز حفنة آلاف يُجمعون على رفض فكرة تصفية الحساب مع كارثة فكرة الانفصال في الحياة البشرية.

بقي أن نذكر هنا أن أوصاف الجنّة التي وردت في كل الأديان والأساطير والفولكلورات، لم تكن في الواقع سوى انعكاس لكلٍ من رمزية الوحدة الأصلية للوجود، وللرغبة الدفينة لدى الإنسان في إنهاء الانفصال والعودة إلى هذه الوحدة. الفارق أن الأساطير القديمة تخيّلت جنّة الوَحدة في السماء، فيما حركات البشرية الجديدة تسعى لإنزالها إلى الأرض.

ثالثاً: انتفاضة روحانية

العنصر **الثاني**، إذاً، في سمات الوعي الجديد، بعد وعي وإدراك حالة الجهنمات التي نعيش، هي إغلاق وهم الانفصال المدمّر. العنصر الآخر، الذي لا يقل أهمية، هو ما أشرنا إليه حول ضرورة إطلاق ثورة روحانية في الأديان، وعليها.

المعركة الثقافية التي يجب أن تُخاض هنا، تتمحور حول إماطة اللثام عن الفارق الهائل والشاسع الراهن بين الدين وبين الروحانية[٤]. **فالأول**، الدين ورغم بداياته التاريخية الأولى المتسامية فوق الانقسامات والصراعات، سرعان ما تحوّل (أو حُوِّل) إلى عامل قِسمة وفتن مُرعبة بين البشر، وإلى حصن من المعتقدات المغلقة التي توضع في نهاية المطاف إما في خدمة السلطات الحاكمة أو الأيديولوجيات أو الهويات القاتلة، بما تتضمنه هذه من جهنمات تعج بالأحقاد والكراهية والخوف والجرائم. هذا في حين أن **الثانية**، الروحانية، تُعيد اكتشاف الوَحدة في كل المخلوقات والموجودات، وتبني فوق هذا الاكتشاف «حياة بديلة» يغشاها الحب والتضامن وعشق الحياة والمعرفة.

الأول، الدين، يشخصن الله ويفصله عن الكائنات، تماماً كما يفصل الإنسان نفسه عن بقية البشر والكائنات، ثم لا يلبث أن يضع الله في خدمة شخصنة أخرى جماعية (قبيلة، طائفة، أمة) تحت شعار «إلهنا نحن»، أو شخصنة فردية (إلهي أنا)، باعتبار أنه وحده يملك ناصية الحقيقة النهائية. وهذا يؤدي إلى بروز طبعات عدة من الله يناقض، أو حتى يحارب، بعضها البعض، تبعاً

(٤) المقصود بالروحانية هنا هي اختبار/ وإعادة اكتشاف وحدة الكون والوجود، وإدراك انتمائنا الكوني وارتباطنا المكين بكل الكائنات. وبالتالي، التحرّر من أوهام الانفصال الفردي والجماعي. تعبير الروح موجود في كلّ الفلسفات والعقائد الدينية، في الغرب كما في الشرق. الكلمة في اللاتينية هي «Spiritus» وفي الإغريقية «Psyche» وفي السنسكريتية «Atman». كلّ هذه الكلمات لها معنى واحد هو النَفَسْ. أي أننا في اللحظات الروحانية «نتنفّس» كل الوجود، ونعيش الحياة حتى أرقّ وأعمق أعماقها.

للطريقة التي يرى فيها أصحاب كل دين كيفية تجلي الله في العالم. هذا في حين أن الروحانية تجد الله في كل كائن، كما تجد كل الكائنات في الله. وهذا ما يقود إلى وحدانية حقيقية رائعة كان بمقدورها لو تُرجمت على أرض الواقع في التاريخ أن تُخرجنا من الجهنمات الدموية التي نعيش.

يشير ماركوس بورغ (Marcus Borg)[٥] إلى أن العهد الجديد، كما القديم، يتضمنان معنيَين متناقضَين للألوهة: **الأول** يستخدم الاستعارات التشبيهية بالإنسان لوصف الله، مثل المَلِك، والسيّد، والأب، ما يثير في الأذهان ذاكرة الهيمنة البطريركية الذكورية القديمة التي تتجسّد في شكل ذَكَر فائق السلطة والقوة ومتعالٍ في السماء، تتوجب طاعته المطلقة بلا تساؤلات، تماماً مثلما يطيع الطفل والده، أو الرعية مليكها. يطلق بورغ على هذه الصورة للإله اسم «النموذج المَلَكي لله». (وهو إله انفصالي وتقسيمي وقاسٍ وقَبَلي، خاصة في العهد القديم). أما المعنى **الثاني** فيستخدم استعارات لغوية لاعلاقة لها بالإنسان مثل النَفَس والريح والنور والحكمة والحب والأمومة. وهذه الصور تحرك في الذهن معاني وجود الروح الموحِّدة المتطابقة مع فكرة المرتبة العليا المتسامية من الوعي البشري. ويطلق بورغ على هذا المعنى اسم «النموذج الروحاني لله».

السيد المسيح، الذي بشّر بالإله الروحاني واختار الفقر والزهد، وحثّ على المحبة والتعاطف والوَحدة بين الناس، وأطلَقَ بشارة السلام والعدالة، تحوّل مع الرومان إلى دين الإمبراطورية والأرستقراطية والقمع والاضطهاد، ومع الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى إلى أقسى أنواع الدكتاتوريات الفكرية والاجتماعية والحروب الصليبية وغير الصليبية المدمِّرة، ومع البروتستانتية والرأسمالية إلى هبة إلٰهية للأغنياء، وأخيراً إلى دين الإبادات الجماعية تحت شعار التبشير إبان الحقبة الاستعمارية البريطانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية[٦].

الصورة نفسها التي تدهورت فيها المسيحية واليهودية في التاريخ، تكررت نسبياً في معظم العهود الإسلامية، حيث تحوّل الإسلام من دين الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٧]، وحكمة النبي محمد: («وما أنا إلّا رحمة مهداة») إلى أداة في يد الطبقات الأرستقراطية والعسكرية الحاكمة والمذاهب المغلقة والمتعصبة. والأهم أن الانقلابات التي حدثت في التاريخ على الإسلام

---

(٥) ورد في: David C. Korten, *The Great Turning: From Empire to Earth Community* (New York: Kumarian Press, 2007), pp. 257-258.

(٦) لأن المستعمرات الجنوبية في الولايات المتحدة عبدت «الإله الإنغليكاني»، فيما عبدت المستعمرات الشمالية «الإله الكالفيني»، كان عدم ممارسة تعاليم دينية معينة في الجنوب عقوبتها الإعدام، فيما ممارسة هذه التعاليم نفسها في الشمال كانت تعتبر بحدّ ذاتها هرقطة عقوبتها الإعدام أيضاً. الكالفينيون حدّدوا الحرية الدينية بأنها الحرية من الهرطقة والزندقة الإنغليكانية والكاثوليكية وكلّ المعتقدات الدينية الأخرى. والحرية الوحيدة التي سمحوا بها في داخل الكالفينية هي الحرية للاختيار بين الصمت والمنفى الاختياري والنفي أو الإعدام إذا ما رُفِضت كل هذه الخيارات. انظر: المصدر نفسه، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

وهذا يذكّر بالطبع بالخيارات التي تطرحها الآن حركات إسلامية متطرفة مثل الدولة الإسلامية (داعش) والقاعدة والسلفيين المتطرفين على السكان الذين تسيطر على مناطقهم من كل المذاهب، بما في ذلك السنّة.

(٧) **القرآن الكريم،** «سورة الأنبياء،» الآية ١٠٧.

الروحاني لم تهز فقط منظوره التسامحي والطبقي والاجتماعي، بل طاولت في الدرجة الأولى (وهنا الأخطر) جوهره التوحيدي الشامل[8].

فالأدب القرآني شدّد عملياً على وحدة الكون، في إطار إعلائه المطلق لفكرة التوحيد الإلهي، أي أنه وضع بالفعل الوحدة الكونية في صلب الوعي البشري ومركزه. وهذا بالتحديد ما حوّله إلى قوة مغنطيسية هائلة جذبت إليه مختلف التيارات الصوفية والروحية.

كتب حسين مروة: «بمحاربة الوثنية، ارتقى الإسلام بالوعي البشري إلى مستوى يتجاوز محدودية الجزئيات المحسوسة إلى المفاهيم أي إلى مناخات الذهن التجريدي. وهو بذلك أعلن التوحيد شعاراً واعتقاداً وفكراً، فلم يكن بذلك ارتقاءً بالوعي الديني وحده بل بالوعي الاجتماعي أساساً... إن وصول فكرة الوحدة الكونية إلى وعي الإنسان عن طريق مبدأ التوحيد كما يسلكه الأدب القرآني، وإن كان ذلك لا يتجاوز الوعي الميتافيزيقي، هو قفزة نوعية في مسار تطور الفكر العربي في حدود زمنه التاريخي المحدد. في إطار الوحدة الكونية، نرى الإنسان يتمتع بمركز متميّز رفيع بين سائر الكائنات المشمولة بهذه الوحدة، بحيث استطاع البشر أن يروا إنسانيتهم أرفع شأناً من الملائكة على رغم أن للملائكة صورة قرآنية روحانية خالصة»[9].

ثم إن صورة البشرية في الأدب القرآني تقوم على الجماعة (الإنسانية) والتعاون والتضامن والمساواة بين البشر، من دون وصاية كهنوتية بين الله وبين الإنسان الفرد. فالمسلم أخو المسلم، وغير المسلم إنسان، وهذا ما جعل الإسلام ديناً عالمياً. كما أنه وضع أساساً للوحدة الإنسانية على رغم تعدد الديانات («كلكم لآدم وآدم من تراب»)، في إطار وحدة الكون والألوهة، حين قال تعالى: **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[10].

رابعاً: الإسلام الإمبراطوري

لماذا غابت هذه النفحة الروحانية الشاملة طيلة معظم التاريخ الإسلامي؟

ثمة من يقول إن اضطرار النبي محمد إلى وضع أسس الدولة ـ الأمة الإسلامية الجديدة في يثرب (المدينة)، أدى إلى تغليب التشريع الزمني المحدد في تلك الحقبة على التشريع الروحاني

---

(٨) يرى كاتب إسلامي بارز أن الفتوحات أنتجت إمبراطورية ضخمة وتقاليد وأعرافاً إمبراطورية أدّت إلى صراعات تاريخية طويلة ليس حول هوية المجتمع بل هوية النظام أو الاجتماع السياسي، وهذا أخذ شكل تقليدين سياسيين عريضين: التقليد الشوروي القائل إن الشورى «حق السواد الأعظم من الأمة» والتقليد الإمبراطوري الذي يعتبر التعاقد السياسي تعاقداً دينياً بين الله والحاكم الذي اتخذ لنفسه لقب خليفة الله. انظر أيضاً: رضوان السيد، **العرب والإيرانيون والعلاقات العربية - الإيرانية في الزمن الحاضر** (بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠١٤)، ص ٤٨.

(٩) حسين مروة [وآخرون]، **دراسات في الإسلام**، ط ٢ (بيروت: دار الفارابي، ١٩٨١)، ص ١٦ و٢٠.

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٦، وعبد الحسين شعبان، **فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي: الثقافة والدولة** (بيروت: دار النهار، ٢٠٠٥)، ص ١٠٨.

الذي كان كاسحاً في مكة قبل الهجرة واستغرق ثلثي الآيات القرآنية. أما الشيخ عبد الله العلايلي فيعتقد أن السبب الرئيس يعود إلى إطلاق الفتوحات العسكرية الإسلامية قبل أوانها، أي قبل أن تنضج وتختمر هذه المفاهيم الروحانية في المجتمع العربي. باحثون آخرون يرون أن مصالح الأرستقراطيات الإمبراطورية التي ورثت الخلافة الإسلامية، من الأمويين وصولاً إلى العثمانيين، اقتضت تقويض كل النبض الروحاني في الإسلام (وبالتالي تغييب معالم الإلٰه الروحاني) لصالح الإلٰه المَلَكي المنفصل والمتعالي في السماء، الذي يبرر وجود خليفة بشري مَلَكي كلي السلطة على الأرض.

لكن، مهما كانت الأسباب فالحصيلة كانت واحدة: انقسام المجتمع الإسلامي إلى عشرات الملل والنحل التي تكفّر بعضها البعض بفعل تفسيراتها الفكرية ـ المصلحية المختلفة للنص القرآني، والحروب الأهلية المتواصلة طيلة ١٤٠٠ سنة، والأهم: تحويل دعوة التوحيد الكونية للإسلام إلى قوقعة منغلقة على ذاتها ومنفصلة عن بقية البشرية والكائنات، كما هي منفصلة عن بعضها البعض. مصير المسيحية الحزين تكرر في الإسلام أيضاً، حين سيطرت على جل تاريخه آلهة غاضبة (لكل من مئات الجماعات الإسلامية صورتها الخاصة في الواقع عن الله) تحمل كل سمات النزعات السلبية الإنسانوية، وتتحوّل فيها الحقيقة العامة أو النهائية إلى حقيقة «خاصة» تتعلق بفئة أو مذهب معيّن، وتكون على تماس دموي مع «الحقائق الخاصة» الأخرى. وتكرر الأمر مع البوذية والأديان الشرقية الآسيوية الأخرى، على رغم نزعة وحدة الوجود القوية فيها، حين تم تشويه تعاليمها الأساسية، على رغم أنها كانت بسيطة وقوية، وحين جرى طيلة القرون الماضية إضافة تعاليم لا تمتّ بصلة إلى روحانيتها الأصلية العميقة، ما أسفر عن تحويل بوذا وباقي كبار المعلمين إلى آلهة يُعبدون.

لكل هذه العوامل، تحوّلت الأديان من قوة توحيدية إلى قوة تقسيمية. وبدلاً من وضع حد للعنف والكراهية بين البشر من خلال أبراز وحدانية الحياة والكون والكائنات، أطلقت الأديان المشوّهة مزيداً من العنف والانقسامات بين أتباع الديانات وفي داخل كل منها، وخلق كلٌّ منها الله على صورته. إنها أصبحت أيديولوجيات مغلقة وأنظمة معتقدات في خدمة كلٍ من السلطات الحاكمة والأنا الأنانية لدى كل فرد، وكرّست على نحو مخيف «الوهم البصري» الكبير حول انفصال الجزء عن الكل. كما بثّت الروح في نظام تعددية الآلهة الوثني من خلال وضع تصوُّر خاص بكل فرقة ونحلة وطائفة ودين لصورة الله، لكن مع فارق أن هذا الوثنيين كانوا «ديمقراطيين» يعترفون بآلهة بعضهم البعض، فيما تُشعل مؤسسات الديانات التوحيدية الحروب بين آلهتهم المَلَكيين.

١ ـ تمرُّد الصوفيين

وحدهم أرباب الصوفية البارزون، من كل الأديان، شذوا عن هذه الظاهرة التاريخية، وحافظوا على صورة الله الروحاني، التوحيدي، المتجسِّد في قوانين الطبيعة والكون

وتوازناتهما، وربطوا هذه الصورة ربطاً محكماً بوحدة كل البشر والكائنات، وبالمعرفة والمحبة ووحدة الله ومخلوقاته.

... ابن عربي مجدداً:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة، فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيتٌ لأوثان، وكعبة طائف، وألواحُ توراة، ومصحفُ قرآن
أدينُ بدين الحب أنّى توجّهتْ ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيماني

(ترجمان الأشواق)

لكن، كما مع الأديان الكلاسيكية التي خرج الصوفيون من رحمها منذ القرن الثاني عشر، شهدت هذه الحركة تدهوراً تدريجياً بعد أن دخلت مرحلة «الصوفية الشعبية» التي يتم فيها تناقل «المعرفة» بدل التجربة الروحانية الشخصية، تحت شعار «الأسرار العرفانية» (في حين ليس هناك في الواقع أي أسرار)، كما تم التركيز على الشعائر الشكلية (الذِكر، الرقص، تقديس المشايخ كأولياء، وتبني الخرافات والأساطير، وأحياناً تعاطي المخدرات والشعوذة)، فباتت النشوة هي الهدف بدل أن تكون وسيلة التواصل الروحي. وفي خاتمة المطاف، تعرضت الحركة الصوفية، رغم دورها الكبير في نشر الدين الإسلامي في العالم، إلى ما أصاب الأديان كافة: تفريخ الانقسامات والفوضى، وبدء مرحلة الدراويش، والتنافس على ممارسة السوقية والتزييف لضم الأتباع والمريدين وجني الثروات الطائلة[11].

٢ ـ «الجهل المقدس»

في القرن الحادي والعشرين، كانت ظاهرة الأديان التقسيمية على موعد مع تحولات جسيمة بفعل العولمة النيوليبرالية[12]، أدت في معظمها، حتى الآن، إلى تكريس اغترابها أكثر عن جذورها

(١١) L. P. Elwell-Sutton, «Sufism and Pseudo-Sufism,» in: Denis MacEoin and Ahmed Al-Shahi, eds., *Islam in the Modern World* (London: Croom Helm, 1983), p. 49.

(١٢) راجع تقييم زبغنيو بريجينسكي لدور الرأسمالية والعولمة في تغيير البعد الروحي في الثقافة والأيديولوجيا الصينية، في: Zbigniew Brezeninski, *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power* (New York: Basic Books, 2012), pp. 179-180.

راجع أيضاً الكتاب المثير للكاتبة الهندية ميرا ناندا بعنوان **إله السوق: كيف تجعل العولمة الهند أكثر هندوكية**: Meera Nanda, *The God Market: How Globalization is Making India More Hindu* (New York: Monthly Review Press, 2011).

في هذا الكتاب ترسم المؤلفة خطوط التشابه شبه الكامل حول الكيفية التي حوّلت في الرأسمالية الديانة المسيحية (البروتستانتية في البداية) من كونها دين الفقراء إلى دين الأغنياء الذين وحدهم سيدخلون الجنة في السماء كما على الأرض، وتحوّل الآن الهندوكية إلى دين «متعولِم مماثل»، خاصة مع صعود حزب بهاراتيا جاناتا (Bharatiya Janata) الهندوكي المتطرّف إلى السلطة العام ٢٠١٤، حاملاً معه برنامج دمج الفلسفة الروحية الهندوكية بالعولمة النيوليبرالية.

الروحانية التوحيدية. كتاب أوليفييه روا **الجهل المقدس**(١٣) كان الأول من نوعه الذي يطرح السؤال الكبير: ما تأثير العولمة (في طبعتها النيوليبرالية الراهنة) في الأديان الكبرى في العالم؟ وهو رأى أن العولمة أدت إلى انفصام بين جماعات الإيمان الديني وبين الهويات الاجتماعية ـ الثقافية، ما خلق بيئة خصبة لنشوء الأصوليات. وهكذا، فإن العولمة، وبدلاً من أن تقلّص نفوذ الدين في العالم، أسفرت عن إحيائه. لكن ذلك لم يتم دوماً بشكل إيجابي، إذ إن بروز التطرف الأصولي أدى إلى تفشي «الجهل المقدس»، وفق تعبيره. وهو منحى معادٍ للثقافة (De-culturalization) والتعددية والديمقراطية، ويضع نفسه في صدام مباشر مع كل من الثقافة الحديثة والحضارات والأديان الأخرى. وهذا ما يُفسّر برأيه أسباب صعوبة فهم وتحليل الظواهر الأصولية الجديدة.

ويجادل روا أننا، بدلاً من العبادة الدينية التقليدية أو السلفية، نشهد هذه الأيام تذرر (من ذرّة) وتفرّد (من فرد) الإيمان الديني، وأيضاً فك ارتباط جماعات الإيمان مع هوياتها القومية والوطنية والإثنية. وهذا ما جعل المؤسسات الدينية التقليدية الكبرى في التاريخ، كالكنيستين الكاثوليكية في الغرب (أوروبا الغربية) والأرثوذكسية في الشرق (روسيا وأوروبا الشرقية)، والأزهر وباقي المؤسسات الرسمية الإسلامية، واللاهوت اليهودي التقليدي، في مواقع الدفاع. والبديل؟ إنها التيارات الإنجيلية والخمسينية في المسيحية، والحركات الأصولية الإسلامية التي يقودها مثقفون من خارج سلك رجال الدين، والحركة الحريدية اليهودية الرافضة لكل أشكال الحداثة، والكونفوشيوسية الجديدة في شرق آسيا، والهندوكية في الهند.

كل هذه التيارات تحث الفرد على الانسحاب من الثقافة السائدة (ناهيك بإعلان الحرب عليها)، خاصة حين تكون هذه الثقافة علمانية، ومنطقية، ومادية. صحيح أن الأصوليين المسيحيين والإسلاميين واليهود والآسيويين يواصلون الانخراط في مجتمعاتهم، إلا أنهم لم يعودوا في الواقع جزءاً منها، بل هم يتحركون على مستويين يبدوان متناقضين: التركيز على الحقيقة المطلقة والشاملة التي تتفرد كل جماعة بادعاء احتكارها، والعمل في الوقت نفسه على التبشير بالخلاص الفردي، عبر الاتصال المباشر مع العناية الإلهية.

المسيحيون الخمسينيون، وهم الفرقة البروتستانتية الأكثر انتشاراً هذه الأيام في العالم (نصَّرت حتى الآن ربع كوريا الجنوبية وأجزاء واسعة من الصين والبرازيل) والتي تدعو إلى أن يختبر الأفراد ما حدث لرسل المسيح حين تعرضوا لـ «معمودية الروح القدس»، يصفون عمل الأديان الجديدة بأنها أشبه بـ «السوق». لكن ما يعرض في هذه السوق ليس سلعة ثقافية محددة، بل هو لا يقل عن كونه اتصالاً مباشراً بالله. هذه الدعوة، مثلها مثل كل حركات الأصولية الجديدة التي تدعو إلى «تحرير» الفرد (بما في ذلك دفعه إلى الانتحار لأهداف سياسية كما يحدث الآن في العالم الإسلامي)، شكّلت دعوة جذابة لأن العولمة أحدثت، كما أسلفنا، تمزقاً هائلاً في النسيج

---

(١٣) Olivier Roy, *Holy Ignorance: When Religion and Culture Part Ways*, Columbia/Hurst (Colombia: Colombia University Press, 2010).

المجتمعي والقومي والثقافي والاقتصادي في العالم، ما جعل الأفراد يبحثون بِنَهَم عن حلول خارج كلٍ من الجماعات القومية والمؤسسات الدينية التقليدية. ومع ذلك، ورغم هذه النزعة اللاثقافية واللاسياسية، إلا أن السياسة (والعولمة) لها بالمرصاد بهدف استثمارها. ويبدو أن ثمة ثلاثة عوامل تسهّل صعود الأديان في ظل العولمة:

الأول، هو العامل الديمغرافي الذي تؤدي فيه الأديان دوراً كبيراً. فعدد سكان الشمال الأوروبي الغني بلغ ٣٢ بالمئة من تعداد العالم عام ١٩٠٠ ثم ٢٥ بالمئة عام ١٩٧٠ و١٨ بالمئة عام ٢٠٠٠، ويتوقع أن يصبح ١٠ بالمئة عام ٢٠٥٠. هذا في حين أن الجنوب كان يشهد انفجاراً ديمغرافياً لأن الناس المتدينين فيه الذين يشكّلون الغالبية يميلون إلى إنجاب الأطفال أكثر من العلمانيين.

العامل **الثاني**، هو التمدين(من مدن) المتزايد لسكان العالم. وبما أن الأديان تاريخياً هي ظاهرة مدينية، يتوقع أن يؤدي بروز المدن العملاقة سكانياً في دول الجنوب إلى مزيد من الصعود الديني، خاصة في صفوف الطبقتين الفقيرة والمتوسطة.

العامل **الثالث** هو«فك الارتباط» بشكل متزايد بين الغرب وبين المسيحية. فهذه الأخيرة هي في الأصل دين شرقي اكتسح العالم القديم انطلاقاً من فلسطين، وهي لم تُعتبر ديانة غربية أو أوروبية إلا بعد ظهور الإسلام وانتشاره. بيد أنها الآن تعود إلى جذورها القديمة حيث باتت تسيطر عليها شعوب وثقافات الجنوب في أمريكا اللاتينية وبعض مناطق شرق آسيا.

ويعتقد سكوت توماس، المحاضر الأمريكي في جامعة لندن، أن كل هذه العوامل منغرسة في العولمة التي تعمل على بناء عالم أكثر توحدّاً وأكثر تفتيتاً في آن. ذلك أن الهويات الدينية العالمية والمحلية باتت تصبح أكثر ارتباطاً لأن العولمة بدأت تُغيّر طبيعة الأديان ودورها في الشؤون الدولية. كيف؟ عبر تسهيلها انفصال الدين عن الثقافات الوطنية والقوميات. فكما أن العولمة تقفز فوق الحدود القومية وتقلّص إلى حد كبير من صلاحيات ودور الدولة ـ الأمة، تقوم الظواهر الدينية الجديدة المتعولمة بالدور نفسه، فتتجاوز هي الأخرى حدود الدولة القومية وقيودها(١٤).

فضلاً عن ذلك، تنشط العولمة لجعل كل دين أكثر تعددية، وبالتالي تُصعّب على المؤسسات الدينية الكبرى التقليدية التي مارست في السابق الاحتكار اللاهوتي، كالكنيسة الكاثوليكية في الغرب والأورثوذكسية في الشرق الأوروبي والهندوكية في جنوب آسيا، مواصلة مثل هذا الاحتكار. وهنا يأتي دور ثورة الاتصالات والمعلومات التي باتت تجعل الأديان مسألة اختيار فردي سواء حيال الطقوس أو حتى المعتقدات. ثم إن العولمة أزالت الحدود الفاصلة بين المنظمات الدينية في البلدان الأم وبين الجاليات في المهجر. وهذا ما أعطى هذه الأخيرة دوراً كبيراً ومتزايداً في كلٍ من العلاقات الدولية والأمن العالمي.

---

(١٤) Scott M. Thomas, *The Global Resurgence of Religion and the Transformation of International Relations: The Struggle for the Soul of the Twenty-First Century*, Culture and Religion in International Relations (London: Palgrave Macmillan, 2005).

ويُلخّص سكوت توماس وجهة نظره حول تأثير العولمة في الأديان كالتالي: «إن نوعاً جديداً من العالم قيد الصنع الآن. والدول والشعوب والجماعات الدينية في الجنوب هي التي تصنعه. الأديان الكبرى في العالم تفيد كلها من هذه الفرص التي أتاحتها العولمة، وهي تنشط الآن لتغيير نمط رسالتها بهدف الوصول إلى جمهور عالمي جديد».

خلاصة صحيحة؟ الأدق أن يقال إنها نصف صحيحة. فكما أن الأديان الرئيسة في العالم تندفع للإفادة من العولمة، لن تقف هذه الأخيرة مكتوفة الأيدي، وستعمل أيضاً على محاولة تجيير الانقلابات الدينية والثقافية في العالم لمصلحتها. وهي قادرة على ذلك لأنها تُمسك بكل صنابير الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا والأموال العالمية.

النموذج **الأول** لهذه المحاولة كان توجّه الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان لاستيعاب ما بات يسمى «الثورة الأصولية المسيحية» الثالثة، ووضعها في خدمة العولمة النيوليبرالية. ولم يكن مصادفة بالطبع أن يكون ريغان «المؤمن الذي ولد من جديد على يد الروح القُدُس»، هو نفسه بطل الرأسمالية النيوليبرالية التي عملت على نسف دور الدولة في الاقتصاد والأمن الاجتماعي وتعميق الفوارق بين الأغنياء والفقراء، في الوقت نفسه الذي كان فيه على تواصل مع «الروح القدس».

وفي عهد باراك أوباما الديمقراطي تكررت في الولايات المتحدة الدعوات الجمهورية والمحافظة إلى توجهات دينية ريغانية مماثلة. على سبيل المثال، جادل العالم السياسي الأمريكي وولتر رسل ميد بأن «الصعود العالمي الجديد للمسيحية، يجب أن يكون أمراً طيباً للسياسة الخارجية الأمريكية»، لأن المسيحية «هي أكثر الأديان موالاة لأمريكا»، على حد قوله.

معركة العولمة لاستيعاب الأنماط الجديدة من الصعود الديني لا تزال في بداياتها الأولى. وهي تحقق نجاحات واضحة في بعض المناطق (الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية) والهند والصين وصعوبات وعراقيل في مناطق أخرى (الشرق الأوسط الإسلامي). لكن طموحها الأكبر لا يزال هو هو: وضع كل الأيديولوجيات الدينية وغير الدينية والثقافات في خدمة مشروعها العالمي القائم على إعادة انتاج البشر على أساس البعد الواحد، الاستهلاكي والمادي والمتذرر.

٣ ـ التعصّب بات ترفاً

ما الحل؟

ليس بالطبع بالدعوة إلى شن الحرب الشعواء على الأديان كافة، كما فعل العلمانيون الأوروبيون والماركسيون الكلاسيكيون في القرنين التاسع عشر والعشرين. فهذا الأسلوب لن يجدِي طالما أن الأزمات الوجودية الطاحنة التي يعيشها الإنسان، تدفعه إلى البحث عن ملجأ آمن يقيه الآلام والأوجاع التي تثيرها الأسئلة الكبرى حول معنى الوجود ولغزه ومصاعب العيش[١٥]. وعلى أي

(١٥) تمّ تلخيص مقاربة كارل ماركس للدين بثلاث كلمات: «الدين أفيون الشعوب»، واعتُبر ذلك بمثابة حرب شعواء منه على الدين. بيد أن هذه الكلمات الثلاث كانت مقتطعة بشكل اعتباطي (كما مثلاً مع اقتطاع الآية القرآنية ﴿لَا تَقْرَبُوا =

حال، لعبة التاريخ في هذا المجال كانت واضحة: ثورة علمية ـ تكنولوجية تليها «صحوة» دينية، ثم ثورة علمية أخرى تتبعها «صحوة» دينية. أخرى... إلخ. الدورة هنا دائرية بالكامل.

الإغريق القدماء عرفوا الأديان الوثنية قبل أن يُطلقوا ثورتهم الفلسفية الكبرى. ثم ما لبثوا أن عادوا بعد حين إلى الدين في حلّته التوحيدية هذه المرة. الرومان أيضاً كان لهم دينهم الوثني الذي سبق انطلاقتهم العلمية ـ الإدارية، قبل أن ينضووا تحت راية الدين المسيحي في القرن الثالث الميلادي. الحضارة الإسلامية عرفت أيضاً هذه الدورة مراراً: الاختمار الديني أيام حقبة النبوة، ثم التحديث العلمي ـ الفلسفي في المرحلة العباسية التي لحقت بها مباشرة فورة دينية دامت نيّفاً وخمسة قرون.

تفسير هذه الرحلة الدائرية للتاريخ واضح: الدين، كما ذكرنا، يوفّر للإنسان ملجأ آمناً يقيه الآلام التي تثيرها التمزقات الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تطلقها الانقلابات الاقتصادية التكنولوجية. وحينما ينتصر العلم، يُقدّم للإنسان مكاسب مادية كبرى، لكنه يعجز عن تقديم أي تفسير لألغاز الوجود، فيقذف بالإنسان إلى خارج الملجأ الآمن. حينها تبدأ «صحوة» دينية جديدة.

ويبدو الآن أن المجتمعات البشرية تمر بالفعل منذ ثلاثة عقود في حقبة «صحوة» دينية كبرى. في مرحلة رد فعل ديني كبير. العلمانيون الذين يرتجفون كورقة خريف خوفاً من مضاعفات هذا التطور، يتحدثون عن مرحلة قرون وسطى مظلمة جديدة. لكن هذا يتضمن خطأين: العجز عن رؤية التطرف المادي الحداثي الذي يولّد رد الفعل الديني الحالي؛ وسوء فهم للطبيعة الجدلية للتاريخ.

لكن التاريخ قد لا يكون دائرياً تماماً هذه المرة، خاصة في ما يتعلق بالأديان. صحيح، كما ذكرنا، أن حداثة العولمة الكاسحة أنعشت كل الأديان بأنواعها كافة، لكن الصحيح أيضاً أن إعادة إنتاج الفكر الديني التاريخي السابق، والمستند إلى التقسيمات والانفصالات المؤدية إلى الصراعات والتنافسات الدموية والحروب، بات ترفاً لم يعد في وسع البشر، ولا مستقبل الحياة على الأرض، ولا المعارف العلمية الجديدة، تحمّله أو حتى التعايش معه. فخطر التغيّر المناخي الداهم وتدهور بيئة الحياة على الأرض بشكل مخيف في مدى وتائر تسارعه، يفرض على الجميع الآن الخروج من أنوياتهم الأنانية الجماعية والعودة إلى الجوهر الروحاني الواحد الذي انطلقت منه أساساً كل الأديان والفلسفات والحركات الإصلاحية في التاريخ. بكلمات أوضح: مصادرة كل دين أو طائفة أو مذهب لله واحتكاره له ولعطاياه وقدراته، على حساب الله في الأديان الآخرى أصبح، بسبب الصراعات التي يُسفر عنها، يشكل خطراً على الجهد البشري لمواجهة الكوارث الإيكولوجية المدمّرة، ناهيك بأنه بات يتعارض مع كل ـ أو معظم ـ المفاهيم العلمية الحديثة حول بشرية واحدة وكائنات واحدة في ظل كينونة كونية مادية ـ روحية واحدة.

= الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٤٣]، فالنصّ الكامل لماركس اعتبر الأديان «تنهيدة المظلوم». جاء في النص: «الدين هو تنهيدة المُضطهد، هو قلب عالم لا قلب له؛ هو روح ظروف لا روح فيها. إنه أفيون الشعب»، «Religion is the sigh of the oppressed creature, the heart of a heartless world, and the soul of soulless conditions. It is the opium of the people».

انظر: Karl Marx, «Introduction to a Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right,» in Karl Marx and Frederick Engels, *Collecred Works* (New York: International Publishers, 1976), vol. 3.

هذا الواقع بدأت تعيه قطاعات واسعة من المستنيرين في العالم، الذين باتوا يوجهون نقدهم إلى مؤسسات الأديان من خلال طرح سؤال يتيم ولكن كبير: هل هذه التعاليم الدينية أو تلك تؤدي إلى الإيمان بوجود الله في كل شيء ووجود كل شيء في الله، وإلى السلام والتعاون والتوحُّد بين البشر (وباقي الكائنات)، أم هي على العكس تقود إلى كراهية «الآخر» وتكفيره، وقسمة البشر والكون، والصراعات الدموية والحروب؟ هل تنهي هذه التعاليم «خصخصة» الله والجنّة وتخصيص جهنم لكل ما عداها، أم تدفع إلى بروز وعي علمي ـ روحاني جديد يوحّد الجميع في الله كما في الطبيعة والكون؟

٤ ـ لاجدوى حوار الأديان؟

لا يعني هذا النقد محو الاختلافات بين الأديان والعقائد. لكنه حين يشدّد على انتزاع فكرة الله من المصادرة والخصخصة، يطالب جميع الأديان بالانطلاق من مبدأ الاتفاق على الوحدانية الشاملة التي تنضوي تحتها كل الكائنات بحيث يتم نسف مقولات «أنا والآخر»، أو «نحن وهُم»، وبعدها لا يعود ثمة مشكلة في أن يعبد المسيحي والمسلم واليهودي والبوذي كما يريد. حينها لا تعود الكنيسة أو الجامع أو الكنيس أو المعبد هدفاً بحد ذاته يقصي فوراً الآخرين عنه، بل مجرد وسيلة لاكتشاف الوحدة والتوحّد في كل شيء.

حوار الأديان مهم. الدعوة إلى التسامح والتعايش بينها مهم أيضاً. لكنه يقود في الواقع إلى تقويض أسس الحقيقة النهائية للوجود، إذا لم يتضمن أولاً نسف وهم القسمة والتجزؤ. قبل الحوار وقبل التسامح والتعايش، يجب أن يدرك الجميع (ويعترفوا) أنهم كلٌ واحد. إنهم خلايا واحدة في جسم واحد. إنهم كيان واحد في إله واحد. وهذا يتطلب في الدرجة الأولى مراجعة روحانية ـ علمية وحدانية كبرى تكشف الكوارث الهائلة التي تسببت بها الانقسامات الدينية على مدار التاريخ، وتعيد هذه الأديان إلى ينابيعها وأصولها وأهدافها الروحانية الأولى، كما عاينها ابن عربي وابن الفارض وجلال الدين الرومي وأبو اليزيد البسطامي وذو النون المصري والحلاج وأبو سعيد الخزار، والحكيم الترمذي، وأبو بكر الشبلي، إضافة إلى التعاليم النقية (قبل تعرضها للإضافات والتشويهات) للبوذية والصوفيتين المسيحية واليهودية والأدفايتا فيدانتا (Advaita Vedanta) في الهندوكية والزن (Zen) وغيرها، كما بالطبع النظريات العلمية الحديثة في الفيزياء. إدراك الوحدة في التباين، وإدراك العقل في المادة والمادة في العقل، ووحدة النقيضين، والارتفاع إلى أرقى مستويات المعرفة، ووعي الوحدة الكونية التي تعادل حب الله، هي من أسس هذه الانتفاضة الروحانية ـ العلمية التي تعيد تعريفات الله إلى أسسها الجوهرية.

أ ـ ... وسبينوزا معنا هنا مرة أخرى

«وجهة نظري عن الله والطبيعة تختلف اختلافاً بيناً عن رأي المسيحيين، وذلك لأنني أعتقد أن الله هو العلة المستدنية (تعيش داخل الدنيا) وليس بالعلة الأجنبية الغريبة لجميع الأشياء. فأنا أقول إن الجميع هم في الله وداخله، والكل يحيا ويتحرك في الله وداخله. من طبيعة الله المتناهية

تنبع كل الأشياء بالضرورة نفسها وبالأسلوب نفسه. الله هو الشرط الكامن وراء جميع الأشياء. الله وقوانين الطبيعة واحد وإن اختلفت التعابير. لذلك يتبع أن جميع الأحداث هي العملية الميكانيكية للقوانين الثابتة التي لا تتغير وليست نزوة من نزوات سيد أوتوقراطي غير مسؤول يتربع في النجوم».

من هذه الإطلالة الشاملة على فكرة الألوهة، يصبح الوجود حقاً متساوياً لكل الموجودات ولكل الكائنات. حين نتساءل: لماذا هذه الوردة أو القطة موجودتان وما الهدف من وجودهما، نكون في الواقع نتساءل عن نفعها لنا كبشر. وهذا بسبب الوهم أن الإنسان هو مركز كل الأشياء. لكن الوردة والقطة لهما وجودهما الخاص النابع عن قوانين محددة هي التي أوجدتهما. ومثل هذا الاكتشاف يحررنا من وهم «ملكيتنا» و«تسيّدنا» على العالم، ويجعلنا قاب قوسين أو أدنى من الإدراك بأننا والوردة والقطة مشاهد مختلفة لجوهر واحد هو الحياة، وأن حقهما في الوجود يتساوى مع حقي أنا في الوجود. ثم: هل أعرف أنا مبرر وجودي، قبل أن أتساءل عن مبرر وجود الوردة والقطة؟ أليس القلق الوجودي هو الذي يتحكّم بكل البشرية منذ بدء وعيها، وهو الذي أملى كل هذه النظريات الدينية حول الله والجنة والنار والحياة والموت؟ حين نتوقف عن إطلاق أسماء على الموجودات الأخرى، نحرر عقلنا كي ينطلق إلى كلٍ من وحدة الوجود واكتشاف قوانين النظام الكامن وراء المعطيات الحسية (القوانين أو المبادئ أو الروح وليس الغايات).

ب ـ ... والموت وهم أيضاً

الآن، إذا ما افترضنا أن إنساننا الجديد المؤسس للبشرية الجديدة نجح في تجاوز المعتقدات الدينية المغلقة، ثم عمد إلى إغلاق صفحة الوهم المتعلق بالانفصال والقسمة في المجتمعات والكون، وصولاً إلى القيام بانتفاضة روحانية ـ علمية في الأديان، وعليها، إلا أن إنساننا هذا، ورغم هذه المسافة الرائعة التي قطعها نحو الوعي الصافي الجديد، سيظل في مواجهة مسألة لطالما أرّقت جنسنا منذ أن التمعت في الذهن أولى إرهاصات الوعي قبل نحو ١٠٠ ألف عام، وهي مسألة الموت، أو بالأحرى الخوف من الموت.

الاعتقاد الشعبي الذي ساد في بعض المجتمعات منذ آلاف السنين، هو أن الخوف من الموت مسألة بديهية لصيقة بوجود الإنسان نفسه. فالموت هو النهاية والاندثار والمجهول، وهو في معظم الأحيان عقاب أو لعنة حلّت بالإنسان سواء على يد الآلهة، أو الله الواحد، أو الطبيعة الجائرة. لكن الواقع أن هذا الخوف مكتسب و«ثقافي» (إذا جاز التعبير) وهو يختلف جذرياً عن نزعة الحفاظ على الوجود التي يفترض أنها الدافع إليه. فباقي الكائنات، من حيوانات ونباتات، تناضل هي الأخرى بضراوة من أجل البقاء بكل الوسائل، لكنها لا تعيش الرعب من الموت كما الإنسان الذي يبدو أنه وحده الذي يعي موته. كما أن العديد من المجتمعات البشرية لا تعرف مثل هذا الخوف، أبرزها مجتمعات البلدان الإسكندينافية التي دلَّت الدراسات على أن معظم سكانها يقاربون مسألة الموت بصفتها أمراً طبيعياً وجزءاً من مفهوم الحياة. وهذا ليس من منطلق ديني (فكثير من الإسكندينافيين لا يؤمنون بالله) بل كجزء من تاريخهم الثقافي ومنظوماتهم الفكرية.

أما في باقي المجتمعات، فيبدو واضحاً أن رعب الموت يأتي من مصادر (ثقافية أيضاً) عدة أهمها:

١ ـ استخدامه من قبل الطبقات الحاكمة في التاريخ، كوسيلة لإخضاع الجمهور إلى سلطاتها. أو كما قال جان بول سارتر: ماذا يفعل الأقوياء على الأرض؟ إنهم أناس يعيشون بطبيعتهم في صداقة مع الموت، فيمسكون بذلك بمصير الآخرين[١٦].

٢ ـ توظيفه من قبل الأديان غير الروحانية للهدف نفسه. يقول برونسيلو مالينوفسكي (Bronislav Malinowski): «من بين كل مصادر الدين، يعتبر الموت هو الأزمة الأضخم والنهائية. فلأن البشر مضطرون للعيش في ظل الموت، فإنهم يتحوّلون إلى الدين لأنه يوفّر لهم الأمل بالخلود ويكبح جماح الخوف من اللاوجود الشخصي»[١٧]. أما سيغموند فرويد فرأى أن البشر «لا يستطيعون تجنُّب لغز الموت المؤلم. وبالتالي مسألة الزوال الزاحف من الوجود يسهم في بروز شعور باللاحول واللاقوة، ما يدفع الناس إلى الدين أو الله من أجل التعزي»[١٨]. وهذا أيضاً ما يعتقده بيتر بيرغر (Peter Berger): «سطوة الدين تعتمد، في الملاذ الأخير، على صدقية اللافتات التي يضعها أمام الناس الذين يقفون أم الموت أو بدقة أكثر يسيرون بشكل حتمي نحوه»[١٩].

٣ ـ وأخيراً، ربما العامل الأهم الذي رسَّخ الخوف العميق من الموت هو بروز، ليس الوعي الفردي الناضج والمنفتح بل، الوعي المكيافيلي الأناني الذي أدى (عبر فصله الإنسان عن الطبيعة والكون والله) إلى الأزمات النفسية ـ الاجتماعية الطاحنة التي يتمحور العديد منها حول فكرة الموت.

---

(١٦) النماذج عن استخدام النخب الحاكمة الخوف من الموت لتثبيت سطوتها على المحكومين، يكاد يكوّن الجوهر الرئيس لكل تاريخها في السلطة: الألعاب الإجرامية الرومانية التي كانت تذكّر الرعايا الرومان بالخوف من الموت خلال فترات السلام؛ الإحراق العلني للهراطقة في إنكلترا؛ الشعائر العنيفة الدموية لمحاكم التفتيش الإسبانية؛ الـ١٥ ألف شخص الذين أرسلوا إلى المقصلة بدعوى أنهم من أعداء الثورة الفرنسية إبّان حكم الرعب فيها؛ مراسم الشنق العلني في أوروبا للمتمرّدين وللسود في الولايات المتحدة الجنوبية. ميشال فوكو وصف هذه الممارسات بأنها «تعمُّد السلطات كلية القدرة التدمير الشعائري لما تعتبره أعمالاً شريرة».

نظرية كارل سميث (Carl Smith) حول الثقافات السياسية تنطلق من ضرورة تحديد أعداء للدولة القوية، لأنها حينذاك ستكون قادرة في آن على احتكار ممارسة العنف وعلى الحفاظ على نفسها من خلال الإدارة الحيوية ـ السياسية (Biopolitical Management) للحياة. وهذا يتمّ عبر استخدام سياسات الموت والحياة. انظر: Carl Schmitt, *The Concept of the Political*, translated by George Schwab (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007), p. 49.

(١٧) Bronislaw Malinowski, *The Role of Magic and Religion* (New York: Macmillan, 1958).

(١٨) بالنسبة إلى فرويد: «الدين وهم، ويشتق قوته من الحقيقة بأنه يقع داخل رغباتنا الغرائزية، وهو يشبه العصاب الطفولي». لكن فرويد أغرق في التحليل الشخصاني للعلاقة بين فكرة الموت وبين الدين، وأسقط بالتالي الدور الكبير الذي تلعبه الثقافة المُنتجة لوعي معين في تحديد الموقف من مسألة الموت. انظر: Sigmund Freud: *New Introductory Lectures on Psychoanalysis* (London: [n. pb.], 1933), and *The Future of an Illusion* (New York: Martino Fine Books, 1927).

(١٩) Peter Berger, *The Sacred Canopy: Elements of a Sociological Theory of Religion* (New York: Anchor Books, 1967), pp. 3-28.

خامساً: هل نحن خالدون؟

الآن، كما أن الإدراك بأننا نعيش من دون أن ندري في جهنم خلقناها بأنفسنا هو نصف المسافة نحو الخروج منها، كذلك إدراكنا بأن الموت بصفته خاتمة نهائية لكل شيء هو وهْم، سيحررنا من هذا الخوف. إذ الذي سيموت في الواقع هو الصرح الشامخ الذي بنته الأنا الأنانية حول نفسها، من خلال الربط المحكم للهوية الفردية بالجسد الفردي المتغيّر في كل لحظة وثانية بكل شكلياته (الجمال عند المرأة والفحولة والسيطرة عند الرجل) ورغباته الحسية وممتلكاته المادية ومخاوفه وأوهامه. لكن كل ذلك يتغيّر ويزول حتى خلال فترة الحياة. فنحن لا نوجد بل نُصبح باستمرار. وحين يشيخ الجسد، وهو محتم أن يشيخ، ينهار ويتبدد كل الصرح الذي أقامته الأنا، حتى من دون الموت.

الموت، إذا، هو موت الأنا الأنانية مع كل عدتها، وليس نهاية الإنسان بما هو جزء من الكل الوجودي والكوني الشامل. لقد لامس شوبنهاور مباشرة هذه الحقيقة حين قال:

«حين نخاف من العدم، يجب أن نتذكّر أن كل ما في العالم مجرد انعكاس للوحدة الهائلة الكامنة في ذواتنا. حين ننسى فرديتنا، تستقر عظمة العالم صافية فينا... وإذا ما اقتنع الإنسان بأنه سيكون موجوداً دائماً على رغم موته عبر الحياة، وبأن الطبيعة باقية ومتحققة في أفراد أو كائنات أخرى، وهي في الواقع ليست سوى نفسه، لكان في هذا عزاء عن موته وموت أحبائه. حين نرتفع فوق الفرد لنرى الأشياء بجملتها، لن يتطرّق الخوف من الموت إلى نفوسنا. الموت والحياة وهمان كبيران لا رهبة فيهما والحكيم هو الذي ينظر إليهما بغير ما اكتراث».

وهذا يعني أننا بصفتنا جزءاً من شيء أزلي وخالد، قابعون في قلب الخلود الذي يشارك به كل الكائنات. فليس هناك شيء يُخلق أو يدمر، طالما أن العدم نفسه قد يكون الحقيقة الكبرى التي ينبثق منها الوجود نفسه. لكن، ولأن الوجود فكرة واسعة لا آلة ميكانيكية، كما يتحدث العلم الآن، فهناك مراتب وعي متباينة في هذا الوجود المشترك: فالجاهل بوحدة الكون يشارك في الخلود لكن بلاوعي، كما كان يفعل أصلاً في حياته حيث كان يعيش كالميت ـ الحي (الزومبي)، أو كالحجر أو باقي الأشياء التي تمتلك لاوعياً، فيما الحكيم ينضم إلى الخلود بوعي بسبب إدراكه لأصل الوجود وديمومة الفكر.

النموذج الحي لذلك، أي لبقاء الفكر برغم تفكك الجسد، هو عالم الفيزياء البارز ستيفن هاوكينغ الذي تهاوى عملياً كل جسده لكنه لا يزال ليس فقط يبدع بل يحتفي ويفرح بالوجود أيضاً ويعي هذا الإبداع والفرح. والأرجح أن الأمر نفسه ينطبق على الحكماء الذين نجحوا في التواصل مع الحقيقة المطلقة لوحدة الوجود وأصل الفكر، فذهبت أجسادهم وبقيت عقولهم: لكن وعيهم موجود في كل مكان هذه المرة وليس فقط في جسد واحد. وهذه مسألة قد يكون من الصعب علينا استيعابها لأننا نربط بين الوعي والجسد ونعتبر هذا شرطاً لذاك، ولأن الأنا الجسدي قوي بشكل هائل. لكن هذا الوعي الصعب على التخيُّل موجود بالفعل: أليست فكرة الله نفسها عينة على مثل

هذا الوعي الكلي الوجود؟ أجساد النبي محمد ويسوع المسيح وموسى وبوذا زالت حقاً، لكن أليس محمد والمسيح وموسى وبوذا موجودين كوعي شامل لدى نحو ستة مليارات شخص؟ حين نتخلّص من أنماط الوعي المحدودة بالأبعاد الثلاثة ونفتح المجال أمام أنماط وعي لابشرية، قد نقترب من هذه الفكرة أكثر كثيراً، تماماً كما أن اليوغي أو الصوفي يقترب منها حين يخرج من فرديته الأنانية.

هناك، أو يجب أن يكون هناك، أنماط وعي غير تلك التي نعرفها نحن. ثم: هل نحن أصلاً نعرف شيئاً عن كيفية عمل اللاوعي فينا؟ أو حتى عن كيفية عمل الوعي وتطوره فينا؟ أو عن طبيعة الوعي اللاواعي في الطبيعة؟ نمط الوعي الشامل موجود، ويتم تلمسه حين نكتشف وحدة الوجود ونخرج من «ثوب» الإيغو. في تلك اللحظة يتحقق قول هذا الصوفي حين قال في لحظة الاندماج إنه «موجود في كل مكان»، تماماً مثل الإلكترون الذي تحيط تموجاته بكل الكون.

يتحقق «الخلود» حين نتوقف عن وهم الانفصال. وهذا الخلود موجود هنا والآن، على الأرض وفي كل مكان. وكما أن جهنم أرضية، كذلك الجنّة. وحتى الخلود الآخروي الذي وعدت به أديان الشرق الأوسط فهو لن يتحقق في السماء إلا إذا تحقق قبل ذلك على الأرض. والسبب بسيط: تشترط الأديان أن يكون الناس الذين سيدخلون الجنّة أن يكونوا، ليس مؤمنين بالله فقط بل كائنات صالحة وخيّرة أيضاً مطبقة لقيم الحياة الأخلاقية وقواعدها. المؤمن بالله والمُتعبِّد له لن يدخل الجنّة إذا كان مجرماً أو سارقاً أو كاذباً. ولذلك، الجنّة الأرضية شرط للجنّة السماوية. لكن ما فعله الناطقون الرسميون باسم هذه الأديان على مدار التاريخ من حروب ومذابح، لم يؤهِّل الناس العاديين للجنّة بل جعلهم وقوداً لجهنمهم السماوية.

إن وعي وهْم الفردية يقود مباشرة إلى وعي حقيقة الخلود. وهنا ستكمن الحرية الكبرى والانعتاق الأكبر من وهم الموت. حينها سيكون لكل شيء معنى، حتى للبكتيريا التي لولاها لما تجدد الكربون والأزوت على سطح الأرض، ولتوقفت الحياة وأصبح العالم مجرد متحف للأحفوريات. حينها سنتذكر أن هذه الوردة البسيطة التي نراها كل يوم هي تركيب مرعب في كثافته، وتتكوَّن من مليارات مليارات الذرات التي يتجاوز عددها كل الكائنات الممكنة التي يمكن عدّها فوق كوكبنا، وكل حبات الرمل فوق كل الشطآن في كل العالم. سيكون للانفجار الأمومي لدى معظم الحيوانات ولرعاية النبات لبذره، بُعدٌ أعمق يوضح لنا أن الفرد الحي ليس سوى معبر للحياة والوجود المشترك للجميع، وأننا والفراشة والحصاة شيء واحد نووياً نعيش داخل إطار لامادي تسميه الفيزياء الحقول. وليس لهذه الحقول في الواقع أي جوهر سوى الجوهر التموجي، ونحن والفراشة والحصاة مجرد تجليات مادية لها.

لا بل ثمة ما هو أكثر: العلماء يقولون لنا الآن إن الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل، «هو وهم (بشري) عنيد ومتواصل». وتجربة زوجي الجسيمين المتشابكين (Entangled Particles) التي أشرنا إليها أجريت مئات المرات وأكدت أن المكان الانفصالي، كما الزمن، هو الآخر وهْم بشري.

ولأن الأمر كذلك، يكون من المنطقي القول إن الموت كما نفهمه نحن ليس موجوداً، لأن مفهوماً كهذا لا يستطيع الوجود في عالم لا زمان ولا مكان فيه.

* * *

الآن، فلنفرض أن إنساننا الجديد المُكتسب لهذا الوعي الصافي، حقق هذه الخطوات الثلاث (إدراك حقيقة جهنمنا على الأرض، وإنهاء وهم الانفصال، وإعادة الأديان إلى جذورها الروحانية). فهل هذا سيكون كافياً لبناء صرح حضارة بشرية جديدة وأرض جديدة؟

لا شك في أن هذه الإنجازات ستكون ضخمة بالفعل، وثورية بالفعل، ورائعة بالفعل. لكنها مع ذلك، لن تكون كافية.

كيف؟ لماذا؟

خاتمة

انتفاضة «العنقاء البيضاء»:
الخروج من جهنم أو الانقراض

سنخسر أنواعاً من النباتات والحيوانات من الآن وحتى العام ٢٠٦٥ أكثر مما خسرنا طيلة الـ٦٥ مليون سنة الأخيرة. وإذا لم نعالج هذه المشكلة، سنكون نحن ضحايا هذا الانقراض.

بول واتسون

الرحلة التي أبحرنا فيها معاً في الصفحات السابقة في ممالك تاريخ جهنم والعلاقات الدولية وملكوت العلم والتكنولوجيا، وفي مهالك البيئة واختلال توازنات الطبيعة والوعي المكيافيلي والأيديولوجيات المغلقة، ناهيك بالعقبات الكأداء التي تعترض ولادة وعي جديد وبدائل للنظام العالمي الراهن، توصلنا إلى السؤال الكبير، والمخيف، الذي ألمعنا إليه في المقدمة: هل ثمة بعدُ مخرجٌ من هذا الجحيم الأرضي المُقيم، ومن كابوس الانقراض و«يوم الآخرة» الزاحف على البشر والحياة على كوكب الأرض، أم أن أوان الإنقاذ فات وانقضى الأمر؟

العلماء والخبراء المتشائمون كثر، وهم يعتقدون أن الجنس البشري دَمّر بالفعل، وإلى غير ما رجعة، فُرصَ بقائه نفسها، بسبب عجزه عن تجاوز الوعي المكيافلي الذي خدمه في السابق في حقبة صراع البقاء في الكهوف والعصور الجليدية والحجرية، لكنه يقوده مباشرة الآن إلى مقصلة المخلوقات العاجزة عن التأقلم والسائرة بدأب نحو الانقراض[1].

(١) يحتوي سجلّ الأحافير على ٢٥٠ ألف نوع من الكائنات التي انقرضت على مدار ملايين السنين لأسباب متنوعة من الكوارث الكونية والبركانية، كان آخرها العصر الطباشيري الثلثي قبل ٦٥ مليون سنة، الذي قضى على الديناصورات. والبشر هم الناجون الوحيدون من بين عائلة صغيرة نسبياً واستثنائية من الثدييات، لكن علماء الأحياء مثل ي. و. ويلسون يعتقدون بأننا بتخريبنا للبيئة الطبيعية، سنكون من بين المخلوقات الأولى في التاريخ التي تسهم بنفسها في عملية انقراضها. انظر: دونالد جوهانسون وبليك إدغار، **من مرحلة لوسي إلى مرحلة اللغة**، ترجمة إياد ملحم (بيروت: المجمع الثقافي، ٢٠٠٥)، ص ٢٠٠، و Donald C. Johanson and Blake Edgar, *From Lucy to Language* (London: Simon and Schuster, 1996).

الفيلسوف الفرنسي برتراند ميويست (Bertrand Meheust) أحد أبرز هؤلاء. قال في كتابه **سياسات المضادات الذاتية**[٢] إن استخدام التعابير المتناقضة ذاتياً من قِبَل حكام العالم، شهد في الآونة الأخيرة انفجاراً كبيراً في التوسُّع لم يسبق له مثيل في التاريخ، جنباً إلى جنب مع الأزمة الإيكولوجية العالمية، أو بالأحرى مع الانهيار الإيكولوجي العالمي. تعابير من نوع: «النمو السلبي»، و«حضارة السوق»... إلخ. وهذه برأيه كلها أكاذيب لا تفعل شيئاً سوى إثباط المعنويات وتفريخ الأمراض النفسية، وهي تصبح بمنزلة «سموم اجتماعية» تخفي الحقيقة بالكامل تماماً، كما كانت تفعل آلة الدعاية النازية والشيوعية.

التحوُّل الإنقاذي الكبير المطلوب، برأيه، جاء في وقت متأخر للغاية، ولم يعد بالإمكان وقف الكارثة الإيكولوجية ودمار المحيط الحيوي، «بسبب تليّف الكبد النيوليبرالي الذي لا شفاء منه». الأمر أشبه بحركات السلام التي «لا تمنع الحروب ولا تبرز وتنمو إلا بعد اندلاعها». لقد وصلنا، إذاً، إلى نقطة اللاعودة، وحتى لو لم نصل بعد، فالحلول (بما في ذلك حلول الديمقراطية للكارثة البيئية) لم تعد مُجدية. يستخدم ميويست هنا تعبير «التشبّع» (Saturation) الذي اقترحه جيلبرت سيموندون (Gilbert Simondon) والذي ينص على الفكرة القائلة إن «أي نظام حقيقي (مادي، بيولوجي، سيكولوجي، اجتماعي، تقني... إلخ) يمر بمراحل تغيّر فقط حين يصبح غير متسق مع نفسه، أي حين يصبح «كاملاً»، فيقفز حينها فوق ذاته وبشكل مفاجئ ويعيد هيكلتها في بُعد جديد». وإذا ما طبقنا هذا المفهوم على المجتمعات المتعولمة راهناً، فستكون النتيجة برأي ميويست كالتالي: لا شيء سيمنع العالم المعاصر من الوصول إلى التشبّع، وبالتالي لا شيء سيمنع الجنس البشري من مواصلة مسيرته الانحدارية إلى أن تقع الكارثة (الإيكولوجية) الكبرى. وحينها سيكون الأوان قد فات على احتمال أن يقفز الإنسان فوق ذاته».

وهذا ما يراه أيضاً الكاتبان الأمريكي وليم غريدر (William Greider) والفرنسي فرانسوا بارتان (Francios Partant) اللذان قالا إن النظام العالمي المتعولم ستلحق به كوارث بيئية واقتصادية واجتماعية ماحقة، من دون أن يكون ثمة فرص لنجاح الحلول الإنقاذية، بما في ذلك حتى مفهوم التنمية المستدامة والمتآلفة مع الطبيعة.

وبالطبع، يجب أن نذكّر بلوكريس الذي دعا إلى حل مشكلة الجنس البشري بالانتحار، كما فعل هو. كما يجب أن نتذكر نظرة نيكولو مكيافيلي السوداء إلى طبيعة الجنس البشري ومصيره. هذا ناهيك بأن كل الأديان، على أنواعها، اعتبرت أن الجنس البشري يعاني تشويهاً بنيوياً دفعه إلى خلق جهنمه الأرضية، ودعت إلى «عالم آخر» خارج الأرض للخروج من هذا المأزق.

---

(٢) Bertrand Meheust, *La Politique de l'oxymore: Comment ceux qui nous gouvernent nous masquent la réalité du monde* (Paris: La Découverte, 2009).

نقلاً عن: جورج قرم، **حكم العالم الجديد: الأيديولوجيات، البنى والسلطة المعاكسة** (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ٢٠١٣)، ص ٢٠٢.

فبعض مدارس الهندوكية، على سبيل المثال، تعتبر أن الخلل في الجنس البشري هو نوع من المرض العقلي الجماعي، وتطلق عليه تعبير «مايا» (MAYA). والبوذية تقول إن العقل البشري في «حالته الطبيعية» ينتج الشقاء والآلام (الدوكا ـ Dukkha). والمسيحية والإسلام واليهودية تسمي الحالة الجماعية الطبيعية للبشر بـ «الخطيئة الأصلية» التي استحق بسببها البشر العذابات على الأرض. بديهي في هذه الحالة ألّا يكون الله راضياً عن سلوكيات «خليفته» على الأرض، ما ينذر بدوره بكارثة نهائية وشيكة لطالما توقعتها مختلف الحضارات منذ آلاف السنين[٣].

يرى العالم الاسترالي البارز فرانك فينر (Frank Fenner) أن تغيّر المناخ في بداياته الأولى، لكنه سيكون سبب انقراض جنسنا: «إننا سنعاين المصير نفسه الذي حلّ بشعب جزيرة إيستر». هذه الجزيرة، كما هو معروف، شهيرة بتماثيلها الحجرية، وكانت بقعة استوائية نقية وموطناً للشعب البولينيزي قبل نحو ألف سنة. في البداية تزايد عدد السكان بشكل بطيء، ثم حدث انفجار ديمغرافي كانت حصيلته استئصال الغابات ومعها كل حيوانات الأشجار، مع ما رافق ذلك من مضاعفات كارثية. وبعد العام ١٦٠٠، بدأت هذه الحضارة بالانهيار واختفت عملياً من الوجود في منتصف القرن التاسع عشر. ويقول عالم التطور البيولوجي جيرد دايموند (Jared Diamond) إن التماثل بين ما حدث لجزيرة إيستر وبين ما يحدث الآن في كوكب الأرض ككل «واضح بشكل يثير القشعريرة»[٤].

أولاً: إبادة الجنس البشري

ذهب بعض العلماء والمهتمين أبعد كثيراً من مجرد التحذير من الواقع التراجيدي، وانتقلوا إلى طرح مشاريع تثير القشعريرة هي الأخرى. فإريك بيانكا (Eric Pianka)، الذي يُنعت بـ «عالم تكساس المميَّز للإيكولوجيا التطورية»، أعلن في المؤتمر الـ ١٠٩ لأكاديمية العلوم في تكساس الذي عُقِد في ٣ ـ ٥ آذار/مارس ٢٠٠٦ أن البشر «ليسوا أفضل من الحيوانات ولا حتى من البكتيريا». وأضاف أن كوكب الأرض لم يعد قادراً على احتضان الحياة إذا لم يشهد إجراءات في غاية الجذرية، على رأسها إزالة معظم الجنس البشري من الوجود، على أن يبقى فقط ١٠ بالمئة من الناس. كيف؟ ليس عبر الحروب والمجاعات، بل من خلال الأوبئة التي أثبتت خلال التاريخ أنها قادرة على إبادة مليارات البشر، مثل إنفلونزا الطيور، أو من خلال تعقيم معظم الجنس البشري.

---

(٣) في العام ٢٠١٤، انتجت هوليوود شريطاً سينمائياً أخرجه دارين أرونوفسكي (Darren Aronofsky) وكتب قصّته أري هاندل (Ari Handel) وأدى دور نوح فيه راسل كراو (Russell Crowe). وعلى رغم أن هذا الشريط السينمائي حول الطوفان والنبي نوح بُنِيَ على أساس رواية «سفر التكوين»، أول أسفار العهد القديم، إلا أنه كان في الواقع سردية إيكولوجية من الطراز الأول. إذ إنها تتمحور حول الفكرة الرئيسة بأن الله قرّر القضاء على كل الجنس البشري، بما في ذلك حتى نوح نفسه وعائلته، لأنهم (بصفتهم أحفاد قايين أوّل قاتل مُفترض في التاريخ) عاثوا في الأرض فساداً ودمَّروا بيئتها، وبالتالي لا يستأهلون البقاء.

(٤) *Daily Galaxy*, 5/4/2012.

من أيضاً؟

هناك السير دايفيد أتينبورو (David Attenborough)، الخبير البريطاني البارز في علم السكان، الذي قال: «نحن البشر وباء على هذه الأرض. الأمر لا يتعلق فقط بتغيّر المناخ، بل في توفير الطعام لهذه القطعان الهائلة. وإذا لم نحدّ نحن من تعداد السكان، فستقوم الطبيعة بذلك بالنيابة عنا، لا بل بدأت الطبيعة بالفعل القيام بذلك الآن»(٥). وفي ٢٦ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢، كانت جمهرة من العلماء من مختلف الاختصاصات الإيكولوجية والزراعية والبيولوجية والاقتصادية تعلن في مؤتمر صحافي أن الجنس البشري تجاوز الحدود العددية للاستدامة الطبيعية، وأنه يتعيّن إزالة ثلث السكان (أي ملياري نسمة) للحفاظ على الحياة على كوكب الأرض(٦).

وفي العام ١٩٨٨، نُسِب إلى الأمير البريطاني فيليب أنه يتمنى، إذا ما تقمَّص في حياة ثانية، أن يكون فيروساً قاتلاً ليقوم بتقليص عدد سكان الأرض. وهو بذلك ينضم إلى مجموعة واسعة من الحركات، على غرار كنيسة يوثاناسيا (Church of Euthanasia) وحركة الانقراض الاختياري للجنس البشري وجبهة تحرير غايا (الأم الأرض)، و«الأرض أولاً» وغيرها الكثير. كل هذه الحركات فقدت الأمل بإمكان «إصلاح» الجنس البشري، وبالتالي إنقاذ الحياة على الأرض، وتدعو إما إلى الحد من تعداد هذا الجنس أو حتى إبادته بالكامل(٧).

ثانياً: التيار المتفائل

في المقلب الآخر، تبرز جوقة أخرى تعزف لحناً تفاؤلياً بمصير العالم، وإن كان كل العازفين في هذه الجوقة يعترفون بالقوة الجامحة والمدمرة التي تمتلكها الرأسمالية النيوليبرالية في المجالات الأيديولوجية والثقافية والمالية الاقتصادية والتكنولوجية.

وجه التفاؤل الأبرز في وجهة النظر هذه يكمن، وهنا المفارقة، في التشاؤم حول مصير النظام العالمي، الاقتصادي والأخلاقي، الراهن. إذ يرى أنصارها أن النظام الاقتصادي النيوليبرالي فشل على كل الجبهات المالية والبيئية والاجتماعية والثقافية، وهو يُشعل الآن الإرهاب والإبادات الجماعية والنشاطات الإجرامية الأخرى في كل المجتمعات. فعلى المستوى الاقتصادي، حوّلت النيوليبرالية الاقتصاد إلى كازينو للثروات الوهمية، وأغرقت الشعوب والحكومات في لجج الديون،

(٥) *The Daily Telegraph*, 22/1/2013.

(٦) «Scientists: «Look, One-Third of the Human Race Has to Die for Civilization To Be Sustainable, So How Do We Want To Do This?»,» *The Onion*, vol. 48, no. 4 (26 January 2012), <http://www.theonion.com/articles/scientists-look-onethird-of-the-human-race-has-to,27166>.

(٧) حركة الانقراض البشري الاختياري (Voluntary Human Extinction Movement): هي تيار بيئي تأسس في الولايات المتحدة عام ١٩٩١، ويدعو إلى الامتناع الطوعي عن التناسل إلى حين انقراض الجنس البشري بالتدريج، وذلك لإنقاذ المحيط الحيوي في الأرض ووقف الانهيار الإيكولوجي والحفاظ على الأشكال الأخرى من الحياة. كما برزت حركات بيئية أكثر تطرفاً تدعو إلى الإزالة الفورية للجنس البشري برمّته، لأنه حتى لو أصبح البشر أصدقاء للبيئة، فإنهم سيعودون لاحقاً إلى تدميرها بسبب نمط وعيهم وطرائق عيشهم.

ووضعت الدول تحت رحمة رجال المال العالميين الذين لا يهتمون إلّا بمضاعفة أرباحهم. وعلى المستوى الاجتماعي، أسفر هذا النظام عن لامساواة متطرفة ومتنامية بين الطبقات الاجتماعية داخل الدول وبين الدول، ولم يخرج رابحاً من هذه المعمعة سوى حفنة ضئيلة للغاية من المديرين وأصحاب رؤوس الأموال. وهذا قوّض شرعية المؤسسات، وأدى إلى تدهور الصحة النفسية والعضوية للمواطنين، ومزّق النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمعات بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. أما على صعيد البيئة، فإن فوضى المناخ، وخسارة خصوبة التربة، وتضاؤل مياه الشرب النظيفة، واختفاء الغابات، وتلوّث الأنهار والمحيطات والجو، سيقود في خاتمة المطاف إلى انهيار النظام العالمي الراهن بكل مرتكزاته الاقتصادية والفكرية والثقافية.

هذا علاوة على الفساد المطلق الذي يتحكّم بالعولمة الرأسمالية في كل المجالات وعلى كل الصعد (فساد الفرد ونظام الإنتاج والأداء الأيديولوجي)، بما يجعل السعي إلى وضع قائمة به أشبه بمحاولة سكب بحيرة في كوب ماء. فبهذا الفساد، الذي يُعتبر مضمون إمبراطورية العولمة بكليتها، تتم ممارسة التحكّم بالجمهور وتدميره عن طريق التوحيد القصري أو التقطيع والتفتيت القائم على القهر والإكراه، في أجواء موبوءة يغيب عنها الضوء والحقيقة.

وهذا، برأي المتفائلين، قد يكون السبب الرئيس الكامن وراء الانهيار والانحطاط الحتميين لإمبراطورية العولمة في لحظة صعودها بالذات. وهو يتساوق مع بروز جمهور متمرد على سلطة العولمة، على رغم كل جهود هذه السلطة لبناء نظام حق متناسب مع الواقع الجديد لعولمة جملة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. كما يتساوق مع تصاعد المطالبة بالحقوق من خلال مبادرات المواطنين الميدانية في كل العالم، مثل حق المواطنة العالمية، والحق في أجر اجتماعي، والحق باستعادة ملكية وسائل الإنتاج والرقابة الذاتية، والإنتاج الذاتي المستقل، والتطلع إلى ثقافة أخلاقية ـ روحانية جديدة[٨].

يوافق زبغنيو بريجنسكي، بدوره، على فرضية بروز «جمهور عالمي جديد»؛ وهو أطلق عليه اسم «البروليتاريا الجديدة»، في إطار تسمية أوسع هي «اليقظة السياسية العالمية» للشعوب. وقد حددها وفق المحاور الآتية:

ـ البعثرة المتواصلة الراهنة للسلطة العالمية، تفاقمت مع ظهور ظاهرة اليقظة السياسية العالمية للشعوب التي كانت حتى الآن هامدة أو مقموعة، والتي تعتبر ظاهرة جديدة وفريدة في التاريخ.

---

(٨) نجد هذا التطلّع إلى ثقافة أخلاقية ـ روحانية جديدة حتى لدى أبرز المفكرين المؤيّدين للرأسمالية مثل فرنسيس فوكوياما وزبغنيو بريجينسكي. نقرأ مثلاً لبريجينسكي: «نجاح أمريكا على المدى الطويل يتطلب تغييراً في تركيز أولويات الثقافة الاجتماعية الأمريكية، وفي كيفية تحديد الأمريكيين لتطلعاتهم الشخصية وللمضمون الأخلاقي لحلمهم القومي. وهذا يتمّ عبر التساؤل: هل حيازة الممتلكات المادية بما يتجاوز بكثير المتطلبات الضرورية يحقق الراحة النفسية، والرضى عن الذات، والحياة الطيبة». وهو يحذّر بأنه ما لم تحقّق أمريكا هذا التغيير فقد تتّجه نحو «الإفلاس الدولي». انظر: Zbigniew Brezeninski, *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power* (New York: Basic Books, 2012), p. 65.

اليقظة هذه التي انطلقت من أوروبا الشرقية والوسطى ثم لاحقاً في الوطن العربي، هي تتويج لبروز عالم متفاعل ومعتمد بعضه على بعض، عبر الاتصالات المرئية الفورية والطفرة الديمغرافية الشبابية في المجتمعات الأقل تطوراً[٩].

ـ في عالم اليوم، ملايين الطلاب في الجامعات، يُشبهون الآن مفهوم ماركس حول «البروليتاريا»، أي العمال الصناعيين في القرن التاسع عشر الذين كانوا عُرضة للتحريض الأيديولوجي والتعبئة الثورية. وقد تحرّر هؤلاء الطلاب من الحقائق السياسية المحلية الضيقة بفعل الإنترنت والهواتف المحمولة وبقية عناصر الاتصال الاجتماعي.

ـ التأثير الأوسع لهذه الظاهرة هو بروز عالم يتشكّل إلى درجة غير مسبوقة من التفاعل بين العواطف الشعبية، والمدركات الجماعية، والسرديات المتناقضة لبشرية لم تعد خاضعة ذاتياً إلى قوة موضوعية موجودة في إقليم معيّن (أوروبا وأمريكا). هذا لا يعني نهاية الغرب، لكنه يعني في الحقيقة أن التفوق الكاسح للغرب انتهى[١٠].

نزعة تفاؤلية أخرى نجدها مع عالم الاجتماع الألماني أولريش بيك (Ulrich Beck)، الذي يرى أن الاستقطاب الجديد بين أعداء العولمة وأنصارها، شكّل حدثاً بارزاً في التاريخ البشري، وهو يحقق نبوءة ماركس بأن الرأسمالية ستشمل في شباكها العالم أجمع، فاتحة بذلك الطريق في نهاية المطاف أمام عالم أفضل: «أصبحنا أخيراً في صدد أن نحقق الكوسموبوليتية التي حلم بها كانط. ثمة أخلاقية دولية في طور الصياغة وستكون مقبولة من الجميع من خلال جدلية المواجهة بين أنصار العولمة والمناهضين لها»[١١].

بالإجمال، بلور أصحاب النظرة التفاؤلية سردية كاملة لما يعتبرونه مشروعاً انقاذياً معقولاً للورطة الوجودية البشرية الكبرى الراهنة. وهذا المشروع علمي كما هو اقتصادي واجتماعي وثقافي وأخلاقي.

نقطة الانطلاق هنا تبدأ من رفض «العلم الإمبريالي أو الإمبراطوري» المستند إلى نظريات الفيزياء التي تسبق مكتشفات فيزياء الكم، وإلى التفسيرات الأيديولوجية ـ الاجتماعية لنظريات تشارلز داروين (حول صراع البقاء والبقاء للأصلح)، إذ إن هذا العلم يتجاهل البحوث الأخيرة في علم الحياة التي دلّت على أن الحياة في جوهرها مؤسسة تعاونية، وبأن الأجناس الناجحة تحافظ على البقاء فقط من خلال العثور على مكانها في خدمة الجميع. ومثل هذا الرفض يغفل الحقيقة الأعمق بأن الكثير من العنف العشوائي والتعسفي الذي نمارسه نحن البشر في حياتنا اليومية، ليس نتاجاً لا لإله فاضل ولا لبعض قوانين الطبيعة، بل هو النبوءة التي تحقق ذاتها بذاتها في الثقافات

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(١١) Ulrich Beck, *Power in the Global Age: A New Global Political Economy* (New York: Polity Press, 2005).

المستندة إلى القصص الإمبريالية والإمبراطورية التي تضفي الشرعية على العنف والحروب وجرائم الإبادة الجماعية.

الكون وكل ما فيه، وفق هذا الرأي يتدفق من ذكاء روحي عام مُفترض (حقول طاقة غير مادية) هو أساس كل وجود. ونحن البشر نعرف هذا الذكاء بأسماء عديدة، لكن الله والخلق أمر واحد في الواقع، ما يعني أننا نعيش في علاقة حاضرة دائمة مع الله. والحقيقة أنه لا يوجد احتمال آخر، لأنه لا يوجد وجود من دون هذه الوحدة المطلقة. الحياة التي تضخ قدرة الاختيار في المادة، تأخذ رحلة الخلق الخاصة باكتشاف الذات إلى مستوى جديد من الاحتمالية. وهي بطبيعتها لا توجد إلا بالعلاقة مع حياة أخرى. كما أنها تكون في ذورة حيويتها القصوى في المجتمعات المتعاونة الغنية بالتعدد وبالتفاعل الديناميكي بين الأفراد والأجناس المنخرطين في تحقيق قدراتهم الفردية والجماعية.

١ ـ حياة جديدة

أما الحلول الاقتصادية ـ الاجتماعية والثقافية التي يقترحها التيار المتفائل، فهي تتضمن مروحة واسعة من البنود تشمل:

ـ خلق حياة اجتماعية جديدة وحيوية تقوم على الثقة المتبادلة، والقيم المشتركة، والإحساس بالترابط مع البيئة والكون والبشر وكل المخلوقات. في مثل هذا النمط من الحياة، تزول كل أو معظم ظواهر الجرائم التي يرتكبها البشر بعضهم ضد بعض عبر الحروب والإرهاب والإبادات الجماعية والتميز في الجندر، والإساءات الجنسية. الحريات المدنية تكون مكفولة للجميع، وفي مقدمهم المستضعفون.

ـ يمارس كل المواطنين مهنة يحبونها وتمحضهم حس الكرامة، ما يسهم في رفاهية كل المجتمع ويلبي الحاجات الرئيسة مثل المواد الغذائية الصحية، والمياه النظيفة، والمسكن، والنقل، والتعليم، والترفيه، والعناية الصحية. ساعات العمل المحدودة تمنح المواطن فرصة التواصل والتفاعل مع عائلته وأصدقائه، والمشاركة الفعالة في الحياتين الاجتماعية والسياسية، والنشاطات الرياضية، والتعلُّم والتطور الروحي.

ـ تكون الحياة الثقافية والعلمية نابضة ومفتوحة ومكرّسة لتنمية المعرفة وتشاطرها، ولتطوير تكنولوجيا تلبي كل حاجات المجتمع والبيئة وليس أطماع حفنة ضئيلة من أصحاب الأموال.

ـ العائلات تكون قوية ومستقرة، وتنخفض إلى حد كبير معدلات الانتحار والطلاق والإجهاض.

ـ تكون المشاركة السياسية والنشاطات المدنية مرتفعة الوتيرة، في إطار ديمقراطية حقيقية لاشكلية.

ـ البيئة، من غابات وممارّ مائية وأراضٍ وأجواء، نظيفة بالكامل وتعج بتنوع الحياة وتنقذ فيها المخلوقات المعرضة للانقراض، ويتم الاعتماد كلياً على حليب الأم لتغذية الأطفال.

ـ يختفي الفقر كلياً في العالم الثالث، بفضل التعاون الدولي بين الشعوب، ما يُنهي القسمة المدمّرة بين مركز وأطراف، ويقضي على الفساد والهدر وتبديد الطاقات.

ـ يفسح في المجال أمام إطلاق كامل الطاقات الإبداعية لدى البشر. وهكذا، بدلاً من بروز مئات من المُبدعين والعباقرة، كما الحال الآن، يُمهِّد الطريق أمام ولادة الملايين من هؤلاء (الإنسان المُضاعف)، بفضل برامج تعليمية متطورة وتوجيهات ثقافية ومهنية، تتساوق مع رعاية وإطلاق الإمكانات الكامنة في كل فرد.

لخّص نداء باماكو، الذي صدر عام ٢٠٠٦ كتطوير لبرامج المنتدى الاجتماعي العالمي في بورتو أليغري، هذه التطلعات بثلاثة بنود: (١) تطوير الوسائل الكفيلة بتغيير النظام العالمي الراهن، وبناء عالم جديد يقوم على التضامن بدل التنافس بين الأمم والأفراد ويساوي بين المرأة والرجل، ويؤسس لحضارة إنسانية جديدة تسمح بالتنوّع؛ (٢) العمل على توحيد شعوب الشمال الغني والجنوب الفقير في جبهة واحدة ضد الرأسمالية النيوليبرالية انطلاقاً في البداية من خلق جبهة موحَّدة في الجنوب، في إطار ما أطلق عليه باندونغ ـ ٢، ودعم الروابط الاجتماعية بين البشر من خلال الديمقراطية الشاملة؛ (٣) النضال لإبقاء الطبيعة وخيرات الكون والأراضي الزراعية خارج المنطق السلعي والاحتكاري، واعتبار الثقافة والمعارف العلمية والتعليم والصحية منتجات غير قابلة للتسليع والتسويق التجاري.

٢ ـ نهوض العنقاء

يعترف المتفائلون بأن هذه التوجهات تبدو للوهلة الأولى أقرب إلى أضغاث الأحلام. لكنهم يشيرون إلى أنها تبدو طوباوية، فقط لأنها تتناقض حرفاً بحرف مع ظروف الحياة الكارثية الراهنة في المجتمعات البشرية، والتي تُسيطر عليها ثقافة إمبراطورية العولمة. هذا في حين أنها في الحقيقة واقعية للغاية وتستند إلى ضرورات قصوى للبقاء، تتمثل ببروز اقتصادات محلية مكتفية ولكن مترابطة ومتعاونة مع بقية المجتمعات في العالم، وفي التوازن الإيكولوجي، وتوزيع الثروة على نحو عادل، والديمقراطية الحية[١٢].

بيد أن تحقيق هذه الآمال، يتطلب انتفاضات متناسقة ومتسقة في المجالات الرئيسة الثلاثة معاً وفي إطار برنامج يشكل رزمة واحدة: تطوير الوعي الفردي والجماعي؛ وتبنّي برامج إيكولوجية وبيئة شاملة، وبدائل اقتصادية واجتماعية وتعليمية وثقافية واضحة المعالم.

---

(١٢) لائحة المؤلفات التي تتطرق إلى الحلول الممكنة طويلة. انظر: أمين معلوف، **اختلال العالم** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٩)، وقرم، **حكم العالم الجديد: الأيديولوجيات، البنى والسلطة المعاكسة**. وانظر أيضاً كتابي دايفيد كورتن **التحول الكبير: من الإمبراطورية إلى عائلة الأرض وأجندة لاقتصاد جديد: من وهم الثروة إلى الثروة الحقيقية**، في: David C. Korten: *The Great Turning: From Empire to Earth Community* (New York: Kumarian Press, 2007), and *Agenda for a New Economy: From Phantom Wealth to Real Wealth*, 2nd ed. (New York: Berrett-Koehler Publishers, 2010).

قد يكون طائر الفينيق الأسطوري هنا الرمز الأكثر تجسيداً لمثل هذا البرنامج الموحّد، لما تتضمنه هذه الأسطورة من معانٍ وأبعاد تصب في صلب هذه التطلعات. فكما أشرنا، الوعي القديم المستند إلى الأنا المكيافيلي، والمآسي والحروب، والانفصال الكارثي عن الكلي والكون والطبيعة، يجبِ أن يحترق قبل أن يولد الوعي الجديد. الديالكتيك هنا واضح للغاية، لأن الوعي الجديد يشكِّل بالفعل نقيض أو نفي الوعي القديم. وهذا أيضاً ما يحدث في سيرة حياة العنقاء.

ففي كل ألف عام، كما ورد في الأساطير، تريد العنقاء أن تولد ثانية، فتترك موطنها في الشرق وتسعى صوب فينيقيا وتختار نخلة شاهقة العلو لها قمة تصل إلى السماء، وتبني فيها عشاً. بعد ذلك تموت في النار، ومن رمادها يخرج مخلوق جديد: دودة لها لون كاللبن تتحول إلى شرنقة، وتخرج من هذه الشرنقة عنقاء جديدة تطير عائدة إلى موطنها الأصلي، وتحمل كل بقايا جسدها القديم إلى مذبح الشمس في هليوبوليس بمصر. ويُحيّي شعب مصر هذا الطائر العجيب، قبل أن يعود إلى بلده في الشرق.

هذه هي أسطورة العنقاء، أو الفينيق أو الفينكس، كما ذكرها المؤرخ هيرودوت عن هذا الطائر طويل العنق ولذا سماه العرب «عنقاء». أما كلمة الفينيق (الفينكس) فهي يونانية الأصل وتعني نوعاً معيناً من النخيل. وبعض الروايات ترجع تسمية الطائر الأسطوري إلى مدينة فينيقية، حيث إن المصريين القدماء أخذوا الأسطورة عنها فسموا الطائر باسم المدينة.

نشيد الإله رع التالي (حسب معتقدات المصريين القدماء) يعزز هذه الفكرة. يقول: «المجد له في الهيكل عندما ينهض من بيت النار. الآلهة كلُّها تحبُّ أريجه عندما يقترب من بلاد العرب. هو ربُّ الندى عندما يأتي من ماتان. ها هو يدنو بجماله اللامعِ من فينيقية محفوفاً بالآلهة». والقدماء، مع محافظتهم على أسطورة الفينيق كطائر يحيا بمفرده ويجدِّد ذاته بذاته في «البلد السعيد»، ابتدعوا أساطير مختلفة لموته وللمدَّة التي يحياها بين التجديد والتجدُّد.

وقد أشار بعض الروايات إلى «البلد السعيد» في الشرق على أنه في الجزيرة العربية وبالتحديد اليمن، وأن عمر الطائر خمسمئة عام، حيث يعيش سعيداً إلى أن يحين وقت التغيير والتجديد. حينها ومن دون تردد يتجه الطائر مباشرة إلى معبد إله الشمس «رع» في مدينة هليوبوليس. وفي هيكل رَعْ، ينتصب الفينكس أو العنقاء رافعاً جناحيه إلى أعلى ثم يصفِّق بهما تصفيقاً حاداً. وما هي إلا لمحة حتى يلتهب الجناحان فيدوان وكأنهما مروحة من نار. ومن وسط الرماد الذي يتخلّف، يخرج طائر جديد فائق الشبه بالقديم ويعود من فوره إلى مكانه الأصلي في بلد الشرق البعيد.

لقد ضاعت أصول الأساطير الأصلية المتعددة، في زمن لم يعد يأبه سوى بالحقائق والثوابت، لكن الثابت في القصة هو الحديث عن هذا الطائر العجيب الذي يجدد نفسه ذاتياً.

عنقاء وعينا الجديد تحمل كل مواصفات الخلق الجديد. فهي بيضاء اللون لأنها تحمل إلى كوكب الأرض أخيراً معاني السلام الداخلي لكل إنسان والسلام الخارجي لكل البشر والكائنات.

وهي بتجددها تنشر حكمة الوعي الجديد، حتى قبل المعرفة، والذكاء الخلّاق قبل الذكاء النفعي، والحياة التي تتفتح فيهاَ كل أنواع الورود في مجرَّتنا ثم في كل الكون.

رأس العنقاء البيضاء هو الأنا الجديدة، المتحررة، الحاملة للوعي الصافي. أحد جناحَي العنقاء هو بُعد الانتفاضة البيئية التي ستوقف حرب البشر الانتحارية ضد الأم غايا، والجناح الآخر هو الانتفاضة الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية التي ستعمل على بناء مجتمع متحرر من الجنون الرأسمالي الجامح ومستند إلى التعاون الخلّاق. أما جسم العنقاء فهو جماعات الوعي الكوني الجديد التي بدأت تولد في كل أصقاع الأرض.

رأس العنقاء، أي وعي الأنا الصافية، سيعيد هرم الذكاء الإنساني المقلوب على رأسه إلى وضعه الطبيعي، بعد أن يحرره من هيمنة الوعي الأناني. حتى الآن هذا الذكاء، الذي ليس أكثر من كونه نقطة صغيرة في بحر الذكاء الكوني الكلي، كان عُرضة للتشويه على يد الأنا المكيافيلية. إيكهارت تول يدعو ذلك «الذكاء في خدمة الجنون»، ويعطي مثلاً على ذلك عملية فلق الذرّة. هذه العملية تتطلب ذكاء فائقاً، لكن استخدام هذا الذكاء لبناء وتخزين القنابل النووية هو عمل جنوني لا يمت إلى الذكاء بصلة. وهذا يدل على أن الذكاء يمكن أن يبني حضارات معقدة ومتطورة، لكنه غير قادر وحده على الحفاظ على هذه الحضارات من التدمير الذاتي والاندثار. الأمر في حاجة إلى حكمة ورحمة الوعي الصافي ورعايته. الذكاء يمكن أن تقوم به مخلوقات غير واعية أو شبه واعية، كما هو واضح في ذكاء الغرائز لدى الحيوانات والتفاعلات الكيميائية ـ المعلوماتية لدى النباتات وإنجازات الكومبيوتر. لكن الوعي الصافي وحده هو القادر على جعل الذكاء يعي ذاته، فيعطيه بالتالي معنى وهدفاً، ويجعله أكثر اهتماماً بما لا يقاس بمعرفة الحقيقة الكلية لا الحقائق الجزئية المُتبدلة أبداً.

٣ ـ جناحا العنقاء

هذا عن رأس العنقاء البيضاء. نأتي الآن إلى جناحيها: البيئة والنظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الجديد.

في الجناح الأيمن، أي البيئة، سيكون الوعي الجديد على موعد مع انتفاضة شاملة تعيد النظر في كل ما يحدث الآن في أربع زوايا الأرض من تدمير منهجي للبيئة. هي حرب على الحرب التي يشنُّها الإنسان على الطبيعة، ليس الآن بل حتى منذ بداية الحضارات البشرية المنظمة مع الثورة الزراعية قبل نحو عشرة آلاف سنة.

فكما هو معلوم، أدّت الثورة الزراعية إلى بدء اجتثات الغابات، وهي الرئة الرئيسة التي تتنفس منها الحياة على الأرض، وضرب نظم وتوازنات بيئية احتاجت الطبيعة إلى مئات ملايين السنين لإيجادها. ثم جاءت الثورة الصناعية لتدفع هذا اللامنطق البيئي إلى ذُراه الكارثية الحالية، حيث باتت الفلاحة غير العضوية من أكبر القطاعات التي تسهم في عملية الاحتباس الحراري. إذ تنبعث كمية غازات دفيئة أكثر من مجموع ما تطلقه السيارات والشاحنات والقطارات والطائرات مجتمعة

من غازات الميثان المنبعث من الماشية ومزارع الأرز، وأوكسيد النيتروس المنطلق من الحقول المسمّدة، وثاني أوكسيد الكربون الناتج من إزالة الغابات المطرية لتحويلها إلى أراض زارعية أو مزارع لتربية الماشية. ثم إن الفلاحة غير العضوية هي أكبر مستنزف للموارد المائية العذبة التي باتت شحيحة على كوكب الأرض. وهذا النمط من الفلاحة هو مصدر رئيس للتلوث، بسبب تصريف سوائل الأسمدة الطبيعية والسماد الطبيعي في البحيرات والوديان وسائر النظم البيئية الساحلية الهشة في العالم(١٣).

والآن، سيصل الضغط على البيئة إلى نقطة الانفجار بسبب الحاجة إلى مضاعفة الإنتاج الزراعي أضعاف أضعاف ما هو حالياً، لأن مليارَي إنسان سينضمون إلى ركب الأفواه المحتاجة إلى الطعام في أفق العام ٢٠٥٠، ومعهم مليارات المواشي والدواجن التي تحتاج هي الأخرى إلى الغذاء وكميات هائلة من الماء. وهذا سيعني اجتثاث ما تبقى من الغابات، بعد أن أباد الجنس البشري غطاءات نباتية تناهز مساحة أمريكا اللاتينية وقارة أفريقيا برمتهما ومعهما مروج أمريكا اللاتينية والغابة الأطلسية في البرازيل، فيما يستمر التعدي على الغابات الاستوائية بمعدلات تنذر بالخطر الشديد. ولو أن هذا الجنون الجماعي البيئي يؤدي إلى إطعام نحو مليار جائع في العالم يترنحون الآن على شفا الموت، لوُجد لهذا الجنون شيء من المبرر النسبي، لكن الحقيقة أن ٥٠ بالمئة فقط من السعرات الحرارية للمحاصيل توجَّه لإطعام الناس في الوقت الراهن، فيما يوجّه الباقي لإطعام الماشية (نحو ٣٦ بالمئة) أو يحوّل إلى وقود حيوي ومنتجات صناعية (نحو ٩ بالمئة). وفي الوقت نفسه، ٢٥ بالمئة من السعرات الحرارية الغذائية في العالم وما يصل إلى ٥٠ بالمئة من الوزن الإجمالي للأغذية تضيع أو تفسد أو تُهدر قبل أن تبلغ المستهلك في البلدان الغربية. يحدث جل هذا الهدر في البيوت والمطاعم والأسواق التجارية الكبرى. وفي البلدان الفقيرة يضيع الغذاء في الغالب في مرحلة ما بين المزارع والسوق بسبب سوء وسائل التخزين والنقل(١٤).

لهذه الحرب العمياء جذر واضح: الأنا المُغلقة التي تحوّلت عبر التاريخ من منظومة أنانية فكرية فردية إلى منظومات أنانية جماعية في شكل قبائل وطوائف وأمم، تتسابق على نهش جسد الطبيعة وتمزيقه. هذه الأنا هي التي فصلت الفرد الإنسان عن الكل الحياتي والكوني، واستندت إلى الثنائية القاتلة لوضع هذا الإنسان في حالة حرب دائمة مع أمه الطبيعة. وبالتالي، سيكون هناك من الآن فصاعداً سباق محموم بين بروز الوعي الصافي الجديد الذي سيعلن الصلح والسلام النهائيين مع البيئة، من خلال وضع العلم والتكنولوجيا والإنتاج الصناعي والزراعي في خدمة الأولوية القصوى لتوازنات البيئة، وبين الكوارث الطبيعية الزاحفة التي ستُنهي حتماً هذه الحرب لمصلحة الأم غايا. لماذا؟ لأن هذه الكوارث لن تُدمّر الأرض بما هي كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية، بل

---

(١٣) «مستقبل الغذاء،» **مجلة ناشيونال جوغرافيك العربية** (أيار/مايو ٢٠١٤)، <http://www.ngalarabiya.com/issues/may-2014/>.

(١٤) المصدر نفسه.

ستقضي فقط على قشرة الحياة الرقيقة التي تغطي هذا الكوكب فتجعله أرضاً قفراً مثله مثل الزهرة وعطارد والمريخ وباقي المجموعة الشمسية.

الانتفاضة على الحرب ضد الطبيعة، بهذا المعنى، هي انتفاضة على الذات الإنسانية الحالية أولاً وأخيراً. ذكرت **ناشنال جيوغرافيك**(١٥) أن الحلول (لأزمة البيئة والغذاء) «لن تكون سهلة لأنها تحتاج إلى ثورة في طريقة تفكيرنا. عبر تاريخنا البشري، كثيراً ما كانت أبصارنا وبصائرنا تعمى بسبب رغبتنا الجامحة في الاستزادة من المنتجات الفلاحية بتخصيص المزيد من الأراضي للزراعة وإنتاج المزيد من المحاصيل واستهلاك المزيد من الموارد، في حين أن ما نحتاجه هو إيجاد توازن بين إنتاج المزيد من الأغذية وبين استدامة الكوكب (أو بالأحرى الحياة على الكوكب) للأجيال المقبلة». وهذا لا يمكن أن يتم من دون انتفاضة أولاً ضد الأنا الأنانية الانفصالية، الفردية والجماعية. من دون نجاح انتفاضة كهذه على الوعي القديم التدميري، لن يكون بمقدور العنقاء البيضاء الإقلاع والولادة من جديد، وستكون اليد العليا حينذاك لكارثة الانقراض الزاحفة.

ماذا الآن عن الجناح الثاني للعنقاء البيضاء: النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي والثقافي الجديد المطلوب بإلحاح؟

٤ ـ مجتمع أفاتار(١٦)

يجب القول، أولاً، إن التجارب التاريخية مع الحلول الأنجع للمعضلات البشرية، الفردية منها والجماعية، والتي أنتجت كل هذه الجهنمات على الأرض، كانت تتعثر لأنها كانت في الدرجة الأولى نتاج فكر متعثر ومجزأ ومقسَّم. فالمثاليون حاولوا حصر الحلول على المستوى الفكري أو الروحي البحت منذ أفلاطون إلى هيغل (الفلسفات الشرقية والغربية والصوفية والأديان على أنواعها) أو السيكولوجية (علم النفس الغربي الحديث، ما عدا علم النفس النقدي). بينما حصر الماديون الحلول على المستوى السياسي (التيارات المكيافيلية) أو الاقتصادي (الرأسمالية والاشتراكية الستالينية)، فأسقطوا من الاعتبار المهمة الحاسمة المتعلقة بتطوير الوعي والروح الكُليين لدى الفرد والجماعات في كل المجالات الثقافية والتعليمية والفكرية والسيكولوجية.

---

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) أفاتار (Avatar)، شريط سينمائي علمي خيالي أمريكي من إخراج وإنتاج جيمس كاميرون (James Cameron)، عُرِض عام ٢٠٠٩، وهو ذو نزعة إيكولوجية من الطراز الأول. تدور أحداثه في القرن الـ٢٢ في كوكب باندورا، حين يحاول البَشر الذين دمروا بيئة كوكبهم الأرض استعمار هذا الكوكب للحصول على موارده الطبيعية. لكنهم لكي يفعلوا، تعيّن عليهم تدمير بيئة باندورا أيضاً والاصطدام بشعب «نافي» الذي يقطنه. الشريط يعرض بشكل رائع تفاصيل المجتمع النافاري التعاوني والمسالم والمندمج بالكامل مع كل كائنات الطبيعة. الله في هذا الفيلم (يُدعى «إيوا») ليس كائناً متعالياً ويقطن السماء، بل هو موجود في داخل كل شيء ويهتم فقط بحفظ توازنات الطبيعة وقوانينها. وهو بهذا شبيه إلى حدّ كبير بإله سبينوزا.

كما أن كلا الطرفين معاً (ما عدا التيارات الأدبية الرومانسية) أسقطت من هذه الحلول ضرورة إعادة النظر بعلاقة البشر مع أمِّنا الطبيعة، وبالتالي ساهمت تطبيقاتهما العملية في الدمار الراهن والشامل الذي لحق بالبيئة.

لكن يتبيّن الآن، في ضوء الأزمة الوجودية الكبرى التي تعيشها البشرية، أن الاعتماد على الحلول الفردية وحدها من دون تغيير البنى والهياكل الاقتصادية ـ الاجتماعية والتعليمية التي تستند إليها الأنا الأنانية وتترعرع في حضنها، هو حرث في البحر ويحتاج إلى آلاف السنين كي يؤتِي ثمره، هذا إذا ما آتى ثماره على الإطلاق. وبالمثل، فإن تغيير البنى والهياكل الاقتصادية والاجتماعية من دون تطوير الوعي وإطلاق القوى الروحية لدى الفرد والجماعات، سيؤدي إلى الاستبداد بنوعيه الستاليني والرأسمالي، وإلى مواصلة الحرب البشرية الانتحارية على البيئة.

وبالتالي، يجب أن تترافق انتفاضة العنقاء البيضاء على الأنا الأنانية ودمار البيئة، وتُستكمل مع انتفاضة على الهياكل الاقتصادية ـ الاجتماعية والثقافية الراهنة التي تتغذى منها الأنا الأنانية. لكن، ما هي الأنظمة الجديدة الملائمة لهذا الثالوث من الانتفاضات؟

التيارات التي تطرح نفسها كمفتاح لهذه الحلول لا تكاد تحصى: من الحركات الإصلاحية الرأسمالية التي ترفض الجنوح الهائل الراهن للعولمة وتدعو إلى «رأسمالية إنسانية»، إلى الحركات الاشتراكية على أنواعها العديدة: الماركسية، وما بعد الماركسية، والإصلاحية التدريجية، والسكندينافية، والأمريكية اللاتينية الجديدة... إلخ.

لن ننحاز هنا إلى أي من هذه الاتجاهات. لكن سيكون على أنصار تيار الأرض، وهم ينشطون الآن لوضع صيغة الكتلة التاريخية الجديدة التي ستناط بها مهمة تحقيق ونشر هذا الوعي، أن يضعوا المعايير التي يمكن من خلالها لأي خيار اقتصادي ـ اجتماعي أن يكون هو الضلع الثالث الملائم لانتفاضة الوعي الجديد، وللجناح الثاني للعنقاء البيضاء. وهذه المعايير يمكن أن تندرج كالتالي بالنسبة إلى أي حركة اقتصادية ـ اجتماعية تطرح البديل:

ـ الالتزام بأن يكون على رأس جدول أعمالها العمل على تدمير الأنا الأنانية لدى عناصرها كما في المجتمع، من خلال برامج وخطط ثقافية وفكرية وتعليمية وسلوكية محددة.

ـ الالتزام المطلق، ليس فقط بأولوية الحفاظ على البيئة وإنهاء الثنوية الديكارتية في التعاطي معها، بل أيضاً (وربما أولاً وأساساً) بعث العلاقة الروحية والعاطفية معها[١٧].

---

(١٧) يعتبر روبرت شيلدريك (Rupert Sheldrake) أن الفرح والسكينة اللتين يحصل عليهما المرء حين يكون في حضن الطبيعة، هما تجربة روحية بالكامل تؤكد أن الأرض كائن حي، و(ضمناً على الأقل) أنثوي. وبالتالي علاقاتنا العاطفية معها تشبه في الواقع علاقاتنا مع أمنّا، لكننا لا ننتبه إلى هذه الحقيقة بسبب إغراقنا في متطلبات الحياة المادية. انظر: Rupert Sheldrake, *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God* (London: Park Street Press, 1990), introduction.

ـ الالتزام الصارم بوضع العلم والتكنولوجيا في وضعية التلاؤم والتآخي والتناسق مع البيئة، كما مع الحاجات الحقيقية للإنسان الروحي الجديد، وإخراجهما من سيطرة الشركات والمؤسسات الكبرى الرأسمالية (ثورة العلم على الرأسمالية).

ـ الإدراك بأن التغيير عملية معقّدة وتتطلّب برامج مرحلية عديدة على كل الصعد، لأن البشر لم يعرفوا في تاريخهم المديد بديلاً من أنظمة الحروب والصراعات المدمّرة. وبالتالي تطوير التطبع والطبيعة البشرية يحتاج إلى عملية تدرجية، وصولاً إلى حلم المجتمع الأفاتاري المطلوب.

ثالثاً: إما الحلم وإما الانقراض

مرة أخرى، يبدو هدف الأرض الجديدة والحضارة البشرية الجديدة، مجرد تفكير رغائبي حالم في داخل كابوس واقعي داهم. وهذا صحيح. لكن الصحيح أيضاً أننا وصلنا إلى مرحلة لن يعني فيها الاستسلام إلى هذا الكابوس (أو حتى «تناسي» وجوده كما يفعل الآن قباطنة النيوليبرالية) سوى موافقتنا على انقراض جنسنا ومعه كل نبضات الحياة على هذا الكوكب الأزرق.

قد يعتقد البعض أن اندلاع كوارث بيئية ضخمة، قد يدفع الجميع أخيراً إلى الاستفاقة على ضرورات التغيير والتطور. ربما. لكن، ماذا لو كانت هذه الكارثة شاملة ولا تُبقي ولا تذر؟ هل يبقى أحد منا للشهادة على الوجود أو على الحياة؟ والحال أن مثل هذه الكوارث لم تعد تقاس بقرون بل بعقود وحتى بسنوات قليلة.

علاوة على ذلك، وحتى لو لم تكن المخاطر البيئية والإيكولوجية ضاغطة على هذا النحو، لكان من الضروري أصلاً العمل على بناء إنسان جديد ووعي جديد قمين باخراجنا من الجهنم الحقيقية التي نقطنها جميعاً الآن من دون أن نعي. لكن الآن، ومع الزحف السريع لهذه المخاطر، ستكون حتى هذه الجهنم مجرد ألعاب أطفال.

نحن ببساطة أصبحنا أمام خيار من أمرين لا ثالث لهما: إما نهوض عنقاء الوعي الجديد، والبيئة السليمة، والاقتصاد التعاوني، من رماد الدمار المتعولم الراهن، أو تحوّلنا جميعاً (ومعنا الحياة برمتها على الأرض) إلى رماد لا قيامة بعده.

ورغم التاريخ السياسي ـ الاقتصادي ـ الاجتماعي الدموي، والمُخجل، للجنس البشري، إلا أن المغامرة البشرية العلمية (التي نقلتنا من القفز فوق الأشجار والاختباء في الكهوف إلى التنقل بين النجوم وسبر أغوار وأسرار الذرة) والثقافية ـ الروحانية (عبر حفنة من الفلاسفة والمصلحين الذين حاولوا استيلاد الإنسان الأخلاقي ـ الروحاني المتفوّق والمتجاوز لقيود الأنا)، هذه المغامرة تستأهل النضال والقتال من أجل إنقاذها.

ربما لا ننجح. لكننا على الأقل، وفي خضم نضالنا هذا، سنكون على الأقل قد أدّينا بعض صلوات طلب السماح والغفران من أُمّنا الأرض، بسبب الجرائم والموبقات التي ارتكبناها، نحن أبناءها العاقين، بحقها وبحق معجزة الحياة.

المراجع

١ ـ العربية

كتب

أتالي، جاك. **آفاق المستقبل**. ترجمة محمد زكريا إسماعيل. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩١.

أوليدوف، أ. ك. **الوعي الاجتماعي**. ترجمة ميشيل كيلو. دمشق: دار ابن خلدون، ١٩٧٨.

باشلار، غاستون. **حدس اللحظة**. تعريب رضا عزوز وعبد العزيز زمزم. القاهرة: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٠. (مشروع النشر المشترك)

برغسون، هنري. **التطور المبدع**. ترجمه من الفرنسية إلى العربية جميل صليبا. بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ١٩٨١.

جوهانسون، دونالد وبليك إدغار. **من مرحلة لوسي إلى مرحلة اللغة**. ترجمة إياد ملحم. بيروت: المجمع الثقافي، ٢٠٠٥.

الحكيم، سعاد. **المعجم الصوفي: الحكمة في حدود الكلمة**. بيروت: مؤسسة دندرة للطباعة والنشر، ١٩٨١.

ديورانت، ول. **قصة الفلسفة: من أفلاطون إلى جون ديوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم**. ترجمة أحمد الشيباني. ط ٢. القاهرة: دار القارئ العربي، ١٩٩٤.

راسل، برتراند. **النظرة العلمية**. ترجمة عثمان نويه وإبراهيم حلمي عبد الرحمن. أربيل: دار المدى، ٢٠٠٨. (مكتبة نوبل؛ ١٩٥٠)

زكريا، فؤاد. **اسبينوزا**. بيروت: دار التنوير، ١٩٨١. (سلسلة الفكر المعاصر)

سبينوزا. **رسالة في اللاهوت والسياسة**. ترجمة وتقديم حسن حنفي؛ مراجعة فؤاد زكريا. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.

السيد، رضوان. **العرب والإيرانيون والعلاقات العربية ـ الإيرانية في الزمن الحاضر**. بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠١٤.

شعبان، عبد الحسين. **فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي: الثقافة والدولة**. بيروت: دار النهار، ٢٠٠٥.
غيتون، جان. **الله والعلم**. ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت؛ القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ١٩٩٨.
قرم، جورج. **حكم العالم الجديد: الأيديولوجيات، البنى والسلطة المعاكسة**. بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ٢٠١٣.
كامل، فؤاد. **الفرد في فلسفة شوبنهور**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.
كامو، ألبير. **أسطورة سيزيف**. ترجمة أنيس زكي حسن. بيروت: مكتبة دار الحياة، ١٩٨٢.
محيو، سعد. **مأزق الحداثة العربية: من احتلال مصر إلى احتلال العراق**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠.
مروة، حسين [وآخرون]. **دراسات في الإسلام**. ط ٢. بيروت: دار الفارابي، ١٩٨١.
معلوف، أمين. **اختلال العالم**. بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٩.
مولر، جان وماري. **معنى اللاعنف**. ترجمة أنطوان الخوري طوق. بيروت: حركة حقوق الناس، ١٩٩٥.
مكيافيلي، نيكولو. **الأمير**. ترجمة أكرم مؤمن. القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠٠٤.
مينوا، جورج. **تاريخ جهنم**. ترجمة أنطوان إ. الهاشم. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٩٦. (زدني علماً)
نيتشه، فريدريك. **هكذا تكلم زرادشت**. ترجمة وتقديم محمد الناجي. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦.
نيغري، أنطونيو ومايكل هارت. **الإمبراطورية**. ترجمة حيدر حاج إسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٠.

دوريات

بدائل: العدد ٤، خريف ٢٠٠٥.
حداد، راغدة وعماد فرحات. «المناخ حتماً يتغير.» **البيئة والتنمية**: العدد ٧١، شباط/فبراير ٢٠٠٤.
«مستقبل الغذاء.» **مجلة ناشيونال جوغرافيك العربية**: أيار/مايو ٢٠١٤.

٢ ـ الأجنبية

Books

Armstrong, Karen. *Holy War: The Crusades and their Impact on Today's World*. 2nd ed. New York: Anchor Books, 2001.
Attali, Jacques. *Lignes d'horizon*. Paris: Fayard, 1990.
Barber, Benjamin R. *Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy*. New York: Ballantine Books, 1995.

Bardi, Ugo. *The Limits to Growth Revisited.* New York: Springer, 2011. (Springer Briefs in Energy)

Barnett, Thomas. *The Pentagon's New Map: War and Peace in the Twenty-First Century.* New York: G. P. Putnam's Sons, 2004.

Beck, Ulrich. *Power in the Global Age: A New Global Political Economy.* New York: Polity Press, 2005.

Berger, Peter. *The Sacred Canopy: Elements of a Sociological Theory of Religion.* New York: Anchor Books, 1967.

Berry, Thomas. *The Dream of the Earth.* New York: Sierra Club Books, 1988.

Bohm, David. *Wholeness and the Implicate Order.* London: Routledge, 1980.

Brezeninski, Zbigniew. *Strategic Vision: America and the Crisis of Global Power.* New York: Basic Books, 2012.

Camus, Albert. *Le Mythe de Sisyphe.* Paris: Gallimard, 1942.

Capra, Fritjof. *The Tao of Physics: An Exploration of the Parallels between Modern Physics and Eastern Mysticism.* New York: Shambhala Books, 2010.

________. *The Turning Point: Science, Society, and the Rising Culture.* New York: Bantam Books, 1982.

Damasio, Antonio. *Looking for Spinoza: Joy, Sorrow, and the Feeling Brain.* New York: Harvest, 2003.

Deleuze, Gilles. *Spinoza: Practical Philosophy.* Translated by Robert Hurley. London: City Lights Books, 1988.

________. Felix Guattari and Brian Massumi. *A Thousand Plateaus: Capitalism and Schizophrenia.* New York: University of Minnesota Press, 1987.

Dyson, Freeman. *Imagined Worlds.* New York: Harvard University Press, 1946.

Emanuel, Kerry. *Divine Wind: The History and Science of Hurricanes.* New York: Oxford University Press, 2005.

________. *What We Know about Climate Change.* London: The MIT Press, 2007. (Boston Review Books)

Frackowiak, Richard S. J. [et al.]. *Human Brain Function.* New York: Academic Press, 1997.

Freud, Sigmund. *The Future of an Illusion.* New York: Martino Fine Books, 1927.

________. *New Introductory Lectures on Psychoanalysis.* London: [n. pb.], 1933.

Fukuyama, Francis. *The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order.* New York: Free Press, 2000.

________. *Trust: The Social Virtues and Creation of Prosperity.* New York: Free Press, 1995.

Global Trends 2030: Alternative Worlds: A Publication of the National Intelligence Council. New York: Office of the Director of National Intelligence, 2012.

Goodstein, David. *Out of Gas: The End of the Age of Oil.* New York: W.W. Norton and Company, 2004. (Norton Paperback)

Griffiths, Bede. *A New Vision of Reality: Western Science, Eastern Mysticism and Christian Faith.* Springfield, IL: Templegate Publishers, 1989.

Hardt, Michael and Antonio Negri. *Commonwealth.* Massachusetts: Harvard University Press, 2009.

________. *Multitude: War and Democracy in the Age of Empire.* New York: Penguin Press, 2004.

Hart, William. *The Art of Living: Vipassana Meditation.* New York: HarperOne, 2009.

Heinberg, Richard. *The Party's Over: Oil, War and the Fate of Industrial Societies.* London: New Society Publishers, 2003.

Hefner III, Robert A. *The Grand Energy Transition: The Rise of Energy Gases, Sustainable Life and Growth, and the Next Great Economic Expansion.* New York: John Wiley and Sons inc., 2009.

Jaynes, Julian. *The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind.* New York: Mariner Books, 2000.

Johanson, Donald C. and Blake Edgar. *From Lucy to Language.* London: Simon and Schuster, 1996.

Kennedy, Paul. *Preparing for the Twenty-First Century.* New York: Vintage Books, 1993.

Korten, David C. *Agenda for a New Economy: From Phantom Wealth to Real Wealth.* 2nd ed. New York: Berrett-Koehler Publishers, 2010.

________. *The Great Turning: From Empire to Earth Community.* New York: Kumarian Press, 2007.

Kovel, Joel. *The Enemy of Nature: The End of Capitalism or the End of the World?.* 2nd ed. London: Zed Books, 2007.

Lovelock, James. *The Revenge of Gaia: Earth's Climate Crisis and the Fate of Humanity.* New York: Basic Books, 2007.

MacEoin, Denis and Ahmed Al-Shahi (eds.). *Islam in the Modern World.* London: Croom Helm, 1983.

Malinowski, Bronislaw. *The Role of Magic and Religion.* New York: Macmillan, 1958.

Martin, Hans-Peter and Harald Schumann. *The Global Trap: Globalization and the Assault on Prosperity and Democracy.* London: Zed Books, 1997.

Marx, Karl and Frederick Engels. *Collected Works.* New York: International Publishers, 1976.

McChesney, Robert W. *Digital Disconnect: How Capitalism is Turning the Internet against Democracy.* New York: The New Press, 2013.

Meheust, Bertrand. *La Politique de l'oxymore: Comment ceux qui nous gouvernent nous masquent la réalité du monde*. Paris: La Découverte, 2009.

Mies, Maria and Vandana Shiva. *Ecofeminism*. 2nd ed. London: Zed Books, 2014. (Critique. Influence. Change.)

Morre, Michael. *Stupid White Men:...and Other Sorry Excuses for the State of the Nation!*. New York: Harper Collin, 2001.

Nanda, Meera. *The God Market: How Globalization is Making India More Hindu*. New York: Monthly Review Press, 2011.

Porritt, Jonathon. *Capitalism as if the World Matters*. New York: Earthscan Publications, 2007.

Ray, Paul and Sherry Ruth Anderson. *The Cultural Creatives: How 50 Million People Are Changing the World*. New York: Broadway Books, 2001.

Roberts, Paul. *The End of Oil: On the Edge of a Perilous New World*. Boston, MA: Mariner Books, 2005.

Roy, Olivier. *Holy Ignorance: When Religion and Culture Part Ways*. Colombia: Colombia University Press, 2010. (Columbia/Hurst)

Schmitt, Carl. *The Concept of the Political*. Translated by George Schwab. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2007.

Sheldrake, Rupert. *The Rebirth of Nature: The Greening of Science and God*. London: Park Street Press, 1990.

Thomas, Scott M. *The Global Resurgence of Religion and the Transformation of International Relations: The Struggle for the Soul of the Twenty-First Century*. London: Palgrave Macmillan, 2005. (Culture and Religion in International Relations)

Tolle, Eckhart. *A New Earth: Awakening to Your Life's Purpose*. New York: Penguin Books, 2005. (Oprah's Book Club; Selection 61)

Turner, Alice K. and Donadio and Olson. *The History of Hell*. New York: Mariners Books, 1995.

Wall, Derek. *The Rise of the Green Left: Inside the Worldwide Ecosocialist Movement*. New York: Pluto Press, 2010.

Ward, Peter D. and Donald Brownlee. *Rare Earth: Why Complex Life is Uncommon in the Universe*. New York: Copernecus Press, 2000.

Zinsser, Hans. *Rats-Lice and History*. Boston, MA: Brown and Co., 1935.

Periodicals

Adam, David. «Oil Chief: My Fears for Palent.» *The Guardian*: 17/6/2004.

Amin, Samir. «Empire and Multitude.» *Monthly Review*: vol. 57, no. 6, November 2005.

Bergsten, Fred. «A Partnership of Equals: How Washington Should Respond to China's Economic Challenge.» *Foreign Affairs*: July-August 2008.

«Big Fracking Deal: Shale and the Future of Energy.» *Foreign Affairs*: vol. 93, no. 3, May-June 2014.

Brooks, Stephen G., G. John Ikenberry and William C. Wohlforth. «Lean Forward in Defense of American Engagement.» *Foreign Affairs*: January-February 2013.

Chapman, John. «The Real Reasons Bush Went to War.» *The Guardian*: 28/7/2004.

Daily Galaxy: 5/4/2012.

The Daily Telegraph: 22/1/2013.

Diener, Ed [et al.]. «Positivity and the Construction of Life Satisfaction Judgments: Global Happiness is not the Sum of Its Parts.» *Journal of Happiness Studies*: vol. 1, no. 2, 2000.

«Dr. Colin Campbell on Global Oil Production: «Playing With Fire».» *Financial Sense*: 29 February 2012.

The Economist: 9 May 2015.

Ehrhardt, J. J., W. E. Saris and Ruut Veenhoven. «Stability of Life – Statisfaction Over Time: Analysis of Change in Ranks in a National Population.» *Journal of Happiness Studies*: vol. 1, no. 2, 2000.

Fernandez, Anne Lutz and Catherine Lutz. «Why Do We Worship at the Altar of Technology?.» *The Guardian*: 3/8/2010.

Fish Outo Water. «The Oceans are Dying: Oxygen is Depleting, Acidity Rising at Fastest Rate in 300,000,000 Years.» *Daily Kos*: 4/10/2013.

Forbes: 17 July 2012.

Foster, John Bellamy. «Capitalism and Environment Catastrophes.» *Monthly Review*: 20 October 2011.

________. «Ecology againd Capitalism.» *Monthly Review*: vol. 53, no. 5, October 2002.

Francis, David. «Is This the End of Globalization?.» *The Fiscal Times*: 28 February 2013.

Fukuyama, Francis. «Transhumanism.» *Foreign Policy*: 23 October 2009.

Furness, Hannah. «Sir David Attenborough: If We Do Not Control Population, the Natural World Will.» *The Telegraph*: 18/9/2013.

Gelbspan, Ross. «Hurricane Katrina's Real Name.» *New York Times*: 31/8/2005.

Gore, Al and David Blood. «Time is Up for Short-Term Thinking in Capitalism.» *Financial Times*: 26/11/2009.

Gustin, Sam. «The New Internet Doesn't Hurt People-People Do: «The New Digital Age».» *Time*: 26 April 2013.

Hale, Thomas N. and Anne-Marie Slaughter. «Hardt and Negri's «Multitude»: The Worst of Both Worlds.» *Open Democracy*: 26 May 2005.

Hall, Charles A. S. and John W. Day (Jr.). «Revisiting the Limits to Growth after Peak Oil.» *American Scientist*: vol. 9, May-June 2009.

Haass, Richard N. «The Age of Nonpolarity: What Will Follow U.S. Dominance.» *Foreign Affairs*: May-June 2008.

«Japan Moves to Scale Back Postwar Restrictions on the Use of Military Power.» *The New York Times*: 15/5/2014.

Jenkins, Simon. «How the Freedom Show is Losing the Plot.» *The Guardian*: 20/9/2007.

Jisi, Wang. «China's Search for a Grand Strategy: A Rising Great Power Finds its Way.» *Foreign Affairs*: March-April 2011.

Al-Kalili, Jim. «In a Parallel Universe, This Theory Would Make Sense.» *The Guardian*: 1/12/2007.

«Key Findings of the Pentagon.» *The Guardian*: 22/2/2004.

Lakshmanan, Indira A. R. «U.S. Needs to Play Cards Right in India.» *The New York Times*: 14/7/2009.

Lane, Robert E. «Diminishing Returns to Income Companionship – and Happiness.» *Journal of Happiness Studies*: vol. 1, no. 2, 2000.

Lean, Geoffrey. «The Truth behind Typhoon Haiyan.» *The Telegraph*: 15/11/2003.

Leonards, Mark. «Why Convergence Breeds Conflict: Growing More Similar Will Push China and the United States Apart.» *Foreign Affairs*: September – October 2013.

Mead, Walter Russell. «Grand Strategy: The End of History Ends.» *The American Interest*: 2 December 2013.

Miks, Jason. «Have We Reached the End of Globalization.» *Global Public Square*: 4 January 2014.

Mishra, Pankaj. «The Dead End of Globalisation Looms before Our Youth.» *The Guardian*: 25/8/2011.

Nagel, Thomas. «The Core of «Mind and Cosmos».» *The New York Times*: 18/8/2013.

Pando Daily: 10/6/2004.

Posen, Barry R. «Pull Back: The Case for a Less Activist Foreign Policy.» *Foreign Affairs*: January-February 2013.

Prager, Carol A. L. «Book Reviews: Empire and Imperialism: A Critical Reading of Michael Hardt and Antonio Negri.» *Canadian Journal of Political Science*: vol. 40, no. 1, March 2007.

Ramo, Joshua Cooper. «Globalism Goes Backward.» *Fortune*: 20 November 2012.

Rachman, Gideon. «Reading the Far-Right Showing in Ukraine and France.» *Financial Times*: 25 May 2014.

«Scientists: «Look, One-Third of the Human Race Has to Die for Civilization To Be Sustainable, So How Do We Want To Do This?».» *The Onion*: vol. 48, no. 4, 26 January 2012.

Stewart, Heather. «Is This the End of Globalization?.» *The Observer*: 5 March 2006.

Tyler, Patrick E. «Threats and Responses: News Analysis; A New Power in the Streets.» *The New York Times*: 16/2/2003.

Vien, Anya. «Why the Amish Rarely Get Sick: Things You Can Learn From Them.» *Healthy Living*: 15 December 2013.

Vujica, Micaela Strömbäck. «Myth Busters: Will Bees Become Extinct?, How Will Food be Affected?.» *Epoch Times*: 5 November 2013.

Wolf, Marti. «Why Copenhagen Must Be the End of the Beginning.» *Financial Times*: 1 December 2009.

Yogi, Maharishi Mahesh. *Science of Being and Art of Living: Transcendental Meditation*. New York: Meridian Book, 1995.

Reports and Websites

«3D Printing.» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/3D_printing>.

«A Brief History of Ice Ages and Warming.» Global Warming, <http://www.geocraft.com/wvfossils/ice_ages.html>.

Afrika Global Network, <http://www.afrikaglobalnetwork.com>.

Barber, Benjamin R. «The Ambiguous Effects of Digital Technology on Democracy in a Globalizing World.» Heinrich Böll Stiftung: 2002, <http://www.wissens-gesellschaft.org/themen/demokratie/democratic.html>.

Capitalism Nature Socialism Website, <http://www.cnsjournal.org>.

Casey, Michael. «World's Oceans «Plagued» by 269,000 Tons of Plastic Pollution.» CBS News: 11 December 2014, <http://www.cbsnews.com/news/worlds-oceans-plagued-by-269000-tons-of-plastic-pollution/>.

Climate and Capitalism Website, <http://climateandcapitalism.com>.

«Conscious Evolution.» Conscious Life News, <http://consciouslifenews.com/category/conscious-living/conscious-evolution/>.

«Consciousness.» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/Consciousness>.

«Consciousness and Intelligence.» On Philosophy: 5 June 2006, <http://onphilosophy.wordpress.com/2006/06/05/consciousness-and-intelligence/>.

«Critique of Multitude.» Blog is Dead: 9 April 2012, <http://www.blogisdead.net/2012/04/critique-of-multitude.html>.

Duerr, Hans-Peter. «The Crisis and Challenge of Globalization.» Living Economies Forum: 15 August 2001, <http://livingeconomiesforum.org/Duerr-Physics>.

Ecosocialists Unite Website, <http://www.ecosocialistsunite.com>.

Ecosocialist International Network, <http://ecosocialistnetwork.org>.

«Financial Cost of the Iraq War.» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/financial_cost_of_the_iraq_war>.

Hughs, J. David. «The «Shale Revolution»: Myths and Realities.» Trans-Atlantic Energy Dialogue (Washington, DC): 10 December 2013, <http://www.jeremyleggett.net/wp-content/uploads/2014/01/131210-tesd-hughes.pptx>.

Indigenous Environmental Network, <http://www.ienearth.org>.

«Iraq Farmers, U.S Government, Gm Crops, Monsanto f–Up–Again.» Food Democracy: 20 September 2007, <http://fooddemocracy.wordpress.com/2007/09/20/iraq-farmers-us-govt-gm-crops-monsanto-f-up-again/>.

«Joel Kovel and Michael Lowy: An Ecosocialist Manifesto (from our archives).» History Philosophy and Didactics of Science and Technology: no. 6, 2007.

«Langdon Winner, «Do Artifacts Have Politics?».» Innovation Group: Center for Nanotechnology in Society, <http://innovate.ucsb.edu/463-langdon-winner-do-artifacts-have-politics>.

Lavelle, Marianne and Jeff Smith. «Why are China and Japan Sparring Over Eight Tiny, Uninhabited Islands?.» National Geographic: 26 October 2012, <http://news.nationalgeographic.com/news/energy/2012/10/121026-east-china-sea-dispute/>.

«The Limits to Growth.» Wikipedia: The Free Encyclopedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/the_limits_to_growth>.

Lucha Indigena Website, <http://www.luchaindigena.com>.

Moreira, Virginia. «Critical Psychopathology.» Radical Psychology: Spring 2005, <http://www.radicalpsychology.org/vol4-1/moreira.html>.

«NASA-Funded Scientists Detect Water on Moon's Surface that Hints at Water Below.» Jet Propulsion Laboratory: 28 August 2013, <http://www.jpl.nasa.gov/news/news.php?release=2013-262>.

«NRDC: Risky Gas Drilling Threatens Health, Water Supplies.» Natural Resources Defence Council (NRDC): [n. d.].

«The Peak Oil Debate and Oil Companies.» Resilience: 8 January 2008, <http://www.resilience.org/stories/2008-01-08/peak-oil-debate-and-oil-companies>.

Peter Russell: Spirit of Now Website, <http://www.peterrussell.com/index2.php>.

Petro, Necolai. «Global Acupuncture vs. Global Surgery: How Russia and China Differ from the U.S.» Oped News: 17 January 2014, <http://www.opednews.com/articles/Global-Acupuncture-vs-Glo-by-Nicolai-Petro-American-Foreign-Policy_China_China-Russia-Alliance_Russia-140116-537.html>.

«Posthumanism, Transhumanism, and Superhumanism in the 21st Century.» University of Philosophical Research, <http://www.uprs.edu/upr-blog/transhumanism-posthumanism-superhumanism/#sthash.pe1Au6wK.dpuf>.

Red de Guardianes de Semillas, <http://www.redsemillas.org>.

Ryle, Gilbert. «Stanford Encyclopedia of Philosophy.» plato.stanford.edu: 18 December 2007.

Romm, Joe. «New York Times: Those Who Deny Climate Science are not «Skeptics».» Climate Progress: 13 February 2015, <http://thinkprogress.org/climate/2015/02/13/3622819/new-york-times-skeptics-deniers/>.

Russel, Peter. «The Primacy of Consciousness.» Youtube, <http://www.youtube.com/watch?v=-d4ugppcrue>.

«Russia's National Security Strategy to 2020.» Rustrans: no. 537, 12 May 2009, <http://rustrans.wikidot.com/russia-s-national-security-strategy-to-2020>.

Sandberg, Anders. «Humanism as Core Value of Transhumanism.» Tecnoumanisti, <http://www.tecnoumanisti.org/sandberg.htm>.

Sarkozy, Nicolas. «Opening Speech by Nicolas Sarkozy at 40th World Economic Forum.» Voltaire Network: 27 January 2010, <http://www.voltairenet.org/article163780.html>.

«Special Report: The Coming Bust of the U.S. Shale Oil & Gas Ponzi.» Outsider Club, <http://www.outsiderclub.com/report/the-coming-bust-of-the-us-shale-oil-gas-ponzi/1041>.

Stafford, James. «Shale, the Last Oil and Gas Train: Interview with Arthur Berman.» Oil Price: 5 March 2014, <http://oilprice.com/Interviews/Shale-the-Last-Oil-and-Gas-Train-Interview-with-Arthur-Berman.html>.

«State's Dobriansky Says U.S. Committed on Climate Change: Vienna Statement by under Secretary for Global Affairs.» IIP Digital: 5 March 2004, <http://iipdigital.usembassy.gov/st/english/texttrans/2004/03/20040305152938lc-jsamoht0.5399439.html#axzz3vwg32cxd>.

«The State of the Ocean 2013: Perils, Prognoses and Proposals.» State of the Ocean: 3 October 2013, <http://www.stateoftheocean.org/pdfs/ipso-summary-oct13-final.pdf>.

«Statement: Intergovernmental Panel on Climate Change Approves Physical Science Report.» White House: 27 September 2013, <https://www.whitehouse.gov/blog/2013/09/27/statement-intergovernmental-panel-climate-change-approves-physical-science-report>.

«Tony Blair: Speech on Climate Change.» Climate-Debate.com: 16 July 2012, <http://www.climate-debate.com/tony-blair-climate-change-speech-r16.php>.

«U.S.-India Strategic Dialogue.» New Delhi.India: July 2014, <http://newdelhi.usembassy.gov/strategic_dialogue.html>.

«What Causes the Earth's Climate to Change.» British Geological Survey, <http://www.bgs.ac.uk/discoveringgeology/climatechange/general/causes.html?src=topnav>.

«What Goes in and Out of Hydraulic Fracturing.» <http://www.dangersoffracking.com/>.

«What Would Happen If Bees Went Exticnct.» BBC: 4 May 2014, <http://www.bbc.com/future/story/20140502-what-if-bees-went-extinct>.

Xenakis, John J. «World-View: China, Japan Really Do Hate Each Other.» Breitbart: 30 August 2013, <http://www.breitbart.com/national-security/2013/08/30/30-aug-13-world-view-china-and-japan-really-do-hate-each-other/>.

«Zoltan Istvan.» Good Reads, <http://www.goodreads.com/search?q=zoltan+istvan&search%5bsource%5d=goodreads&search_type=books&tab=books>.

فهرس

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -


مكتبة
t.me/soramnqraa